فيرجينيا بايلي

THE FOURTH SHORE

الشاطئ الرابع

رواية

ترجمة | فرج الترهوني

فيرجينيا بايلي

THE FOURTH SHORE

الشاطئ الرابع

رواية

ترجمة | فرج الترهوني

دار الفرجاني

الشاطئ الرابع

فرجينيا بايلي

كاتبة بريطانية حائزة على عدة جوائز أدبية. حصلت على درجة البكالوريوس في اللغة الفرنسية والإيطالية ثم الماجستير والدكتوراه في اللغة الإنجليزية من جامعة إكستر. نشرت روايتها الأولى (مفترق أفريقيا) Africa Junction العام 2012 وفازت بجائزة ماكيريك لجمعية المؤلفين. نُشرت روايتها الثانية (مبكراً صباح أحد الأيام) Early One Morning العام 2015 ولاقت رواجاً واسعاً وترجمت لعدة لغات من بينها الألمانية والإيطالية والفرنسية. صدرت روايتها الثالثة (الشاطئ الرابع) The Fourth Shore العام 2019. شاركت في تأسيس مجلة القصة القصيرة Riptide وعملت كمعلمة لغة ومترجمة ومحررة.

فرج الترهوني

ولد فى مدينة المرج فى ليبيا عام 1948. تخرج من الأكاديمية البحرية الملكية البريطانية العام 1971، شغل مناصب عديدة في القوات البحرية حتى العام 1999. نُشرت له 9 ترجمات من الآداب العالمية و3 كتب في التاريخ السياسي والعام. يكتب المقالات بصورة دورية فى صحف عدة. من ترجماته رواية (كثبان النمل فى السافانا) لتشنوا أتشيبي و(الحرب فى زمن السلم) لديفيد هالبرستام.

فرجينيا بايلي

الشاطئ الرابع

رواية

ترجمة

فرج الترهوني

دار الفرجاني

دار الفرجاني
الطبعة العربية الأولى 2021
جميع الحقوق محفوظة للكاتبة فرجينيا بايلي Virginia Baily©
حقوق الترجمة محفوظة للمترجم فرج الترهوني©
الطبعة الانكليزية 2019
The Fourth Shore - Fleet - Little, Brown Book Group 2019
ردمك ISBN 9789775496782
رقم الإيداع: 19278 / 2020

9 ميدان الذهبي
منشيه البكري
القاهرة
جمهورية مصر العربية
Tel: +201001619295

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

مكرونة بدون ملح

مادة: عدة صفحات من مفكّرة، دُسّت وضُغطت بينها ثلاثة أنواع من الزهور: السلفيا أو المريمية بلونها الأزرق البنفسجي، ومجموعة من براعم لزهرات لوسونيا انرميس بلون أصفر زبديّ تُعرف عادة بالحنّاء، ثم الرأس الأحمر المدبّب لنبتة ريسنيوس كومينوس، يُستخرج عادةً من بذورها زيت الخروع. اسمُ كل زهرة مُدوّن بخط اليد باللون الأسود، مع ملاحظات بقلم رصاص في الأسفل. تاريخ الصفحة مايو 1929 ، واحة طرابلس.

ها هي ليليانا كاتانيو، في سنّ الثامنة عشرة تقريبا، خلال يومها الأوّل في ليبيا. تبدو محفوفة بالتوقعات، ومترعة بفيضٍ من شمس أفريقيا اللاهبة.

لم تنقض حتى ساعة منذ وصولها إلى ميناء طرابلس، عاصمة المستعمرة الإيطالية ليبيا، بعد رحلة استغرقت أسبوعا من ميناء نابولي عبر المتوسط. وهي الآن موجودةٌ في الواحة، على الحافة الشمالية الشرقية للمدينة، حيثُ نُقلت هناك على عجلٍ بواسطة أخيها الأكبر ستيفانو، الذي بينما ظلّ يحاولُ مراقبة السيارة المستعارة المركونة على جانب الطريق، كان يلفُّ ويدورُ أثناء سيره بجوارها. يدورُ لينظر خلفا إلى الجهة التي جاءا منها، وليتراجع للوراء بضع خطوات، ثم يواجُهها من جديد. وكل مرة يدورُ فيها، كان يفتكُّ نفسه من ذراع أخته، ليعود ويشبكها من جديد، ويضحك، لأنهما لم يريا بعضهما منذ عام 1925، أي منذ أربع سنين، وهما الآن معا من جديد، في قارّة مختلفة، ينتابهما إحساسٌ بأنهما تخلّصا من الأشياء التي أثقلت كاهليهما. أو هذا ما تحسُّ به هي، حيث لا يمكنها الجزمُ بأحاسيسِه. لكن كلّ من يراه الآن سيعرفُ أنه سعيدٌ برؤيتها.

سيعرفون ذلك من الطريقة التي ضمّها بها بين ذراعيه، رفعها، ودار بها في الميناء، ما جعل قبّعتها تطير. وكيف استعار تلك السيارة الفخمة لتوصيلها بها في رحلة العودة المسلّية، وما اتسمت به هذه الرحلة من إحساسٍ بالحرّية، التي هي مؤشر على ما تَعدُ به الأيامُ القادمة. وكيف أخذ إجازة من العمل ذلك الصباح ليمضي الوقت معها. سيرون ذلك في الابتسامة المشدوهة فوق محيّاه، وفي الطريقة التي يريدُ بها مواصلة إخبارها عن كل ما حولهما، كأنها تحتاج إلى معرفة كل ذلك الآن، وفورا. بالفعل، وفي تلك المسافة من الميناء على امتداد الواجهة البحرية، وبطرف عينها، عندما مرّا بسرعة من هناك، شاهدت القلعة، والمسرح، والأقواس، والأبراج، والمآذن، وأضرحة الأولياء البارزة. سمعت صوت المؤذن ينادي للصلاة، ورأت رجالا في ثيابٍ بيض فوق دراجاتهم الهوائية، وآخرين يقْعون أرضا وهم يعدّون الشاي بجانب الطريق.

سائرةٌ على طول الكورنيش بصحبة أخيها، في آلة السباق الفخمة هذه، شعرت كأنها تندفعُ على حافة العالم، تمسكُ بقبّعتها فوق رأسها كي لا تطير منها، تشمُّ البحر، وتشعُر بالهواء الملحيّ الجاف يدغدغ أنفها من الداخل، ويطيّرُ شعرها بعيدا عن وجهها.

إنها هنا. لقد وصلت أخيرا.

يمشيان بجوار صف من أشجار الكينا، نحو ممرٍّ رمليّ بين الحدائق المغروسة بأشجار الخوخ واللوز. تمتدُّ حقولٌ على الجانبين مزروعةٌ بالمحاصيل والخضار، والكاكاوية والفاصوليا. أنه منظرٌ بديع وخصبٌ بكل تدرّجات اللون الأخضر، من الأخضر الفضي الباهت لأشجار الليمون، إلى الأخضر الداكن اللمّاع لأشجار الزيتون. «في وطننا إيطاليا، هناك من يُسمّون هذه البلاد صندوق الرمال الكبير!» فيعترفُ لها: «حسنا، هم على حقّ، لكن هذه المنطقة استثناء. إنها واحة مزروعة، ومعظمُ البلاد صندوق رمال.»

يتابعان التجوّل. ومن أغصانٍ فوقهما تسقطُ بعض الثمار الباهتة. إنه التّوت، يُخبرها.

«هل يمكن أكلها؟»

«طبعا، إنها حلوةٌ ولذيذة. لكنّ هذه لم تنضج بعد. سيكونُ لونها أحمر برّاقا عندما تنضج.»

«هل لدينا توت؟»

«هل لدينا توت؟!» يردّد سؤالها، وهو يتراقص إلى الخلف من جديد، ويرفع يديه ليشير إلى وفرةِ التّوت من حوله، «انظري كم لدينا منه!»

«أقصد في الوطن؛ إيطاليا.»

يهز كتفيه، فهو لا يعرفُ ولا يهتمّ كذلك. «هذا هو الوطن الآن يا لِلي.» وللحظةٍ ترى ظلاّ خاطفا يعبرُ ملامحه، لكنه يستمرُّ بنبرةٍ مرحة، فتعتقدُ أنها ربما كانت مخطئة. «أشجار التوت تزرعُ لغرض إنتاج الحرير.»

«أهَها...»

«هي ديدانٌ صغيرة تنهش طريقها عبر هذه الأوراق،» ويحرّك أصابعه لتقليد حركة الديدان، «وهكذا يأملون في إنتاج الحرير الذي سيكون إحدى صادرات المستعمرة في المستقبل.»

تنحني ليليانا وتقطف زهرةً من إحدى شجيرات المريمية المنتشرة على طول الممر. الشمسُ فوق ظهرها، وقبعتها تنزلق أماما فوق رأسها. لا تزال عالقة في ذراع أخيها، كأنما تتدلّى منها، مع كل هذا الحفيف الناعم للأوراق، وعبير الأزهار، وطنين الحشرات، والتربة الرملية الساخنة.

تشعر بأنها مشبّعةٌ بطبقاتٍ غنية من الفواكه مثل قالب حلوى «ميل فوغلاي». فهي إذنْ تشبه توتُ علّيق مع الكريمة، وهي مثل سكّرٍ مخفوق ومنفوش. لكن تتداخل مع كل ذلك طبقةُ داكنة، ومادة أساس محاطةٌ بالغموض، فلا أحد يعرفُ أنّ لديها ارتباطا وموعداً بعد يومين، مع الرجل الذي التقته خلال الرحلة. أوغو مونتيللو. رجلٌ جسورٌ ذو جاذبية، ورتبته ليست أقلّ من كولونيل في القوات الجوية.

«لا أصدّق أنني هنا.» تقول ضاغطة على ذراع أخيها مرة أخرى. كم تحبّ أن تكون مع ستيفانو، الذي يعرفها كما لا يعرفها أحد غيره، لكنه في الوقت نفسه، لا يعرفُ بأمر أوغو مونتيللو.

يمرّان بحقلٍ مملوء بشجيرات الحنّاء، التي تُستخدم أوراقها لصباغة الشعر والثياب. فالنساءُ هنا يرسمن بها أشكالا على أيديهن وأقدامهن للمناسبات الاحتفالية. تقطفُ بعض زهورها وتمسك بها برفقٍ في يدها، مع المريمية. «كيف لك أن تعرفَ الكثير؟»

يخبرها أنه ذهبَ في جولة على الأقدام مع صديقه ألفونسو، وهو خبير زراعيّ يعرف كل شيء.

«أوه، ألفونسو الشهير.» تقولُ بخبث. فغالبا ما كان ستيفانو يذكرُ ألفونسو في رسائله إليهم.

«سنعبرُ بستان النخيل عائدين، ثم نهبط نحو الممرّ الثاني.»

«إذن، ماذا يمكن أن تخبرني عن أشجار النخيل؟»

«أوه؛ ستندمين على طرحِ السؤال، فأنا خبيرٌ بالنخيل.» وتضحكُ لقوله.

«في الخريف تكون الأشجار محمّلة بعراجين بلحٍ ذهبيّة. وهي الطعامُ الأساس للناس هنا، حيثُ يُنزع النّوى، ثمّ يُكبسُ التمر ويُخزّن في أكياس من سعف النخيل يمكن للعائلة أن تقتات عليها طوال العام، لتُجهز على آخرها قبل موسم التمور القادم.» لقد سمع أنّ الناس في بعض أنحاء البلاد، لا يأكلون شيئا غيرها.

«أهذا ممكن؟ ألن يجوعوا في النهاية؟ لا بد أنها مغذّيةٌ بشكل استثنائي.»

«نعم، يبدو هذا غريبا بعض الشيء، لكنني أعتقد أنها ربما تكون حقيقة. فهناك فقرٌ مدقعٌ هنا. والتمور قد تكون، بنّية، أو خضراء، أو سوداء، أو حمراء. الحمراء منها تُسمّى أحيانا (تمر الخيل)، وتُقدّم طعاما للخيل، بينما يُعطى النوى للإبل، أما القشرة النامية حول جذع النخلة فتُصنع منها الحبالُ والفُرُش. سعفُ النخيل يُستخدم لأسقف الأكواخ، أو يمكن تضفيره لصناعة السلال. وعندما تموت الشجرة، يُستخدم خشبها كعوارض لدعم البيوت.»

«هي إذن شجرةٌ مفيدة للغاية!»

«انظري فوق هناك؛» ويشيرُ إلى شقّ عميق في قمة الجذع. «يقومون بهذا ليستخرجوا السائل منه. لكنهم يختارون النخلة التي لن تطرح ثمارا لثلاث سنين. ويمكنُ لنخلة واحدةٌ إنتاج غالونين في اليوم، كما يمكنُ استخدام بعض الأشجار لهذا الإنتاج خمس أو ستّ مرّات. السائل المستخرجُ منها يميلُ إلى البياض، ثقيلٌ، حلو المذاق، ويُسمّونه اللاقبي. وهو يروي الظمأ في الصيف، وإن تُرك يتخمّر فإنه يتحوّل إلى نوع قوي من النبيذ المزبِد. لكنه لذيذٌ بحق، ويؤدي إلى السّكر الشديد.»

«أريد كأسا من اللاقبي الآن، للاحتفال.»

«أخمّنُ أنك كبرتِ بما يكفي لتناول الخمر،» يجيبها مداعبا.

«بالتأكيد كبرتُ.» وتذكّرت كؤوس الشمبانيا التي ألقمتها جوفها في روما، في الليلة التي سبقت رحلتها البحرية، الليلة التي قابلت فيها أوغو مونتيللو، ووجدت نفسها فيها محاطةً بالألغاز.

في طريق عودتهما إلى السيارة مرّا بحقل زهورٍ حمراء. الأشجار لها أوراق كبيرة لماعة على شكل نجمة، بعروق حمرٍ وسويقات حمرٍ كذلك.

«ما هذه؟» تسأله، وتمدّ يدها لقطف زهرة منها لإضافتها إلى مجموعتها الصغيرة. لا يجيبها على الفور، لكن في النهاية يقول، «هذا خروع؛ ويسمّونه الرحيق الذهبي.» وتلحظ تغيّر شيءٍ ما في نبرته.

«ولماذا يُسمى بالذهبي؛ في حين أنّ زهوره حمراء؟»

«لأن الزيت الذي تُنتجهُ ذهبيّ اللون.»

«وفيم يُستخدم؟»

«تعنين، خلاف استخدامه في التعذيب؟»

«عفوا؟!»

يهزّ رأسه قليلا، كأنما يريد التخلص من قطرة ماءٍ سقطت فوق أنفه بينما يداه مغلولتان. يرمشُ عينيه ببطء. «كافةُ طرق الاستخدام، في صناعة الصابون، والمزُيّتات، وسائل الفرامل والهيدروليك، والطلاء، والأصباغ، والأدوية والعطور.» يلتفت لينظر إليها، كأنه يقول، هل أنتِ راضيةٌ الآن؟ أهذا ما أردتِه، أن أسردَ كل القائمة؟ ثم يضيف، «الفكرة هي أن تُصبح المستعمرة مُصدّرةً لهذه المادة.»

لا تريد أن تسأل. ويُفضّل ألاّ تفعل. لكنها تسأل في النهاية، «ماذا تقصد بالتعذيب؟»

«لا بدّ أنك سمعتِ بالرحيق الذهبيّ. وما يفعله ذوو القمصان السود؛ أي إجبار الناس على تجرّعِ زيت الخروع.»

«هذه قصةٌ ملفّقة.»

«ولماذا تعتقدين أنّني مرضت، قبل مغادرتي إيطاليا؟» ثم يعاودُ الضحك.

«لا يجبُ التندّر على مثل هذه الأمور.»

«أنتِ محقّة يا لِلي، يجب ألاّ أفعل.»

لاحقا، وهي وحيدةٌ في غرفتها ببيته، وبعد أن أفرغت حوائجها، ضغطت الزهور بين صفحات مفكرتها، صنّفتها بقلم حبر ودوّنت التاريخ. تأخذُ قلم رصاصٍ، وتكتب تحت زهرة الخروع «سامّ» ثم تجلس على السرير، وتتذكر تلك الليلة الشتوية في إيطاليا منذ أربع سنين، في 1925، عندما جاءت أمها إلى غرفتها، وهزتها لتوقظها.

* * *

«انهضي!» قالت أمّها، «أريدكِ أن تنتقلي من هنا،» ثم سحبت عنها اللحاف، وظلّت ليليانا بدون غطاء في برودة الليل. انزلقت منامتها حتى ردفيها، قبل أن تعيدها إلى مكانها، وتنسحبُ من الفراش. في الضوء الأصفر لمصباح الزيت الذي تحمله أمها، بدا وجهها متجهّما، وشفتاها رفيعتين.

«اذهبي، واستخدمي سرير النهار.» أمرتها.

«أهوَ بابا؟» سألت ليليانا بينما ساقاها الباردتان ترتجفان. كان أبوها قد تعرّض لحادث في ورشة العمل، ومذّاك الوقت تسوء حالته في بعض الليالي.

«كلاّ، ليس بابا. وإنما أخوكِ. لقد مرِض، وأريدُ أن أضعه هنا، هيّا الآن.»

«ما سببُ مرضه؟»

«معدته، ألم تسمعيه يتخبّط في أنحاء البيت بعد عودته؟» قادتها أمها إلى خارج الغرفة، وأرشدتها على ضوء المصباح نحو الصالة. «كلاّ لم أسمع شيئا.»

«أنتِ، وأبيك ستنامان حتى لو هبّت عاصفةٌ استوائية،» قالت الأم؛ مطلقة إحدى أنّاتها المعبّرة عن عذاباتها الطويلة. فلم يعرف أحدٌ المشاكل التي تعيّنَ عليها تحمّلها. ثم نقلت المصباح إلى يدها اليسرى، ورسمت شارة الصليب فوق صدرها.

«لكن هل حالته سيّئة؟ وأين هو الآن؟» ثم فتحت ليليانا باب غرفة المعيشة، «يعع... الرائحة لا تطاق هنا يا أمي.»

«لا تحدثي ضجيجا. فلا يمكنني فعل شيءٍ مع ضجيجكِ هذا. لقد نظّفتُها، وفتحتُ النافذة لتهويتها.»

ثم دفعت ليليانا نحو الغرفة المظلمة النتنة، وأغلقت الباب.

تحسّست طريقها نحو السرير النهاري، ودخلت تحت البطانية التي تفوح برائحة خفيفة لزيت المحرك. إنها رائحة ستيفانو الذي لم يعتدْ النوم هنا بغرفة المعيشة في هذا الفراش الذي كانت أمّها تسميته بالسرير النهاري، وكأنه إضافةٌ أنيقة للأثاث حيث يمكن للسيدات الاتكاء فوقه. قبل ذهابه إلى ميلانو للعمل في شركة فيات موتورز، كانت تتقاسم مع أخيها غرفة نومٍ واحدة، ثم عندما يزورهم خلال إجازته، يمضي الليل معهم، لكنه لم يفعل ذلك دائما، لأنّ رحلة العودة بالقطار لا تستغرق طويلا إلى ميلانو، حيث يسكنُ غرفة في مهجعٍ عام، وبالتالي اعتاد أن ينقل فراشه هنا حتى لا يزعج ليليانا إذا جاء متأخرا، وكذلك احتراما لخصوصيتها باعتبارها صارت سيّدة صغيرة الآن. لقد تعلّم أخوها هذه التصرفات الجديدة في ميلانو. وعندما عاد مجددا في 1923 لحصوله على عملٍ بدوام كامل في حلبة السباق الجديدة، كان عُمرُ ليليانا اثنا عشر عاما تقريبا، فنقل سريره بالكامل إلى هذا المكان، بجوار الجدار الجانبي. صنعت أمّهما أغطية وسائد من قماش مزركش بالورود تبقّى من تنجيد الصالون، وصدرت تعليمات لهم جميعا بالإشارة إليه كسرير نهاري عندما يزورهم أحدٌ ما.

قال أخوها إنه لم يعترض على العمل في ميلانو، لكنه يفضل أن يكون في مدينته. أرادته شركة ألفا روميو، أن يعمل معها ضمن فريق المصممين، ونصحه أبوه بمغادرة فيات وقال له، «اتّبع طريق المال، يا بني.» لكن ستيفانو طوّر شعاره الخاص، وأسرّ به إلى أخته وهو، «بل اتّبع بريقكَ الخاص.» وأردف قائلا لأخته إن فيات مناسبةٌ تماما له، وهو سعيدٌ بالعودة إلى مونزا. «لا تتبعي طريق المال أبدا، بل اتّبعي شغفكِ الخاص.» كان في هذه الفترة يصاحبُ تيريزا بوريسيللي، التي تسرّحُ شعرها البنّي اللامع في تموّجات قصيرة، وأبوها يعمل مهندسا، ويقطنون شقة كبيرة قريبا من الحديقة. كانت عائلة تيريزا تذهب إلى منطقة فوبوللو، في الجبل كل نهاية أسبوع خلال فصل الشتاء، وعادة يرافقهم ستيفانو. حيث قال إنهم يسمحون لها بالتزلّج الذي تتقنه، فهي مثله مغرمةٌ بالسرعة.

سحبت بطانية أخيها حتى ذقنها، وبرعشةٍ في جسمها، ضغطت إحدى الوسادات المشجّرة على بطنها. وعندما اختفت الرائحة العفنة من الغرفة، نهضت لتغلق النافذة. طوال هذا الوقت كانت تستمع إلى الأصوات من خلف غرفة المعيشة: جريانُ الماء، الباب الأمامي يُفتح ويُغلق، لا بد أن هذا صوتُ أخيها يذهب إلى الحمّام ويعود منه، وكذلك تسمع تمتمات أمها. ربما كانت تشرحُ ترتيبات النوم الأخيرة، ثم سمعت وقع خطىً ثقيلة لم تكن مثل خطى أمها القصيرة السريعة، ولا خطى أخيها القافزة.

هذه الخطواتُ جعلت ليليانا تفكّر في أنّها لشخص آخر في بيتهم، أقرب إلى الأخرق. وقد ذكّرتها بالرجال الذين عادوا بعد الحرب، رجالٌ مصابون في شوارع مونزا، يلفون شاشا طبيّا حول جروحهم النازفة، أطرافُهم مفقودة ويتكئون على عكازات. عندما تَحدثَ أبوها وبقية الرجال عن النصر المبتور، ظنت أنهم يعنُون بالمبتورين الجنودَ الذين عادوا من الحرب بأطراف مقطوعة. لكنها تعرفُ أكثر الآن، وتعلّمت ذلك من المدرسة. في الحقيقة كانوا يتحدثون عن معاهدة لندن، التي وقّعتها إيطاليا قبل الحرب مع القوى الحليفة؛ أميركا وفرنسا وبريطانيا. فمقابل تحالفها العسكري، وُعِدت إيطاليا بأنها في

حال تحقيق النصر، ستُمكّنُ من السيطرة على أراضٍ معينة، لكن هذا لم يتمّ لاحقا. كان الشاعر غابرييل دا أنونزيو، هو من أطلق تعبير «النصر المبتور». لقد حاربت إيطاليا مع الطرف المنتصر، فخسرت مئات الألوف من الرجال، وأنفقت كل أموالها وأكثر، لكنها لم تنلْ ما كانت تعتبره حقّا لها. تحدّث أبوها بمرارة عن «الأراضي المفقودة»، وبالذات سلّط غضبه على فرنسا، البلاد التي أحبَّها في السابق. كان يحب أن يستشهد برسالة أنونزيو إلى قومِه الدالميشيين: «قمنا بتسليح أنفسنا لإنقاذ فرنسا والعالم، لكن بدلا من مكافأتنا، انتهينا بإيطاليا دولةً ضعيفة».

منذ الحادث الذي تعرّض له أبوها، أصبح من السهل إشعال غضبه ضدّ ما حدث من ظلم. وكأنّ فرنسا هي الملومة في حادثة الرافعة التي أفقدته البصر في عينه اليمنى، وكأنّ إصابته بسبب الحرب.

سمعت صوت أمها من جديد وخمنّت من حديثها الموزون أنها تردّدُ صلاة ما، ثم وصلها صوت طقّة القفل في الغرفة الأخرى، وبعد ذلك ران الصمْت. رأت كذلك أن الجميع يتعرّضون للغثيان أحيانا، لكنهم عادة ما يتمكنون من الوصول إلى الحمّام، قبل أن يطلقوا العنان لما في جوفهم؛ يا لستيفانو المقرف!

بينما كان الوسنُ يغالبها، سمعت ذلك الأنين الفظيع. فنهضت، وتوجهت مسرعة لتفتح الباب، كان الظلام مخيّما، لكنها تمكّنت من التعرّف على هيئة أخيها يكاد يسقط في مدخل باب الغرفة المقابلة. كان مرتديا معطفه الواسع، ويُطلق تأوهات من أعماق صدره. قبل أن تخطو إلى الأمام، أو حتى تفكّر فيما يجب عليها فعله، ظهرت أمّها حاملةً فانوساً وأمرتها؛ «عودي إلى الفراش، ليليانا.» ثم وضعت كتفها تحت إبط ستيفانو، وتوجها إلى الباب وهو يستند إليها بكل ثقله. رأت ليليانا أن هذه التوليفة المكوّنة من أخيها الضخم غير المتّزن، وأمّها القصيرة القوية، يسيران معا، هي ما أنتجت تلك الحركة الثقيلة، والخطوات غير المتناسقة التي سمعتها. سارت وراءهما حافية تتعقّبُ تقدّمهما المتمايل حتى السقيفة في الخارج، نحو دورة المياه التي تتشاركها الشقق الثلاث في هذا الطابق. أبدا، لم تشاهد أخيها من قبل بحاجةٍ للمساعدة على المشي مثل الآن. دفعت أمهما باب الحمّام بمرفقها، وفي ضوء الفانوس المتأرجح رأت ليليانا ستيفانو يترنّح إلى داخل الحمام الصغير الكريه الرائحة، مثل سكرانٍ خسر في شجار، ويعرفُ أن أمره قد انتهى.

الأصوات التي تلت: الضراط، والصياح، والتهوّع، والنخير، والخوار، والسقوط على الأرضية، وصوت ترشيش القيء. كل هذا كان فظيعا، بدائيّا، وصادما بالنسبة لها؛ ما جعلها تسارع بالعودة إلى الشقة.

كان أبوها قد تعافى لتوّه بما يكفي للنهوض من فراش المرض، والمشي في أنحاء المكان. والآن جاء دور ستيفانو. استلقت ليليانا في فراشها، صاحية، لكن عينيها مغلقتان بشدة، فهذه هي الطريقة الوحيدة للمحافظة عليهما مغلقتين، ومن جديد بدأت تفكّر في مبتوري الأطراف. كان ذلك خارج إدارتها، حيث شقّوا طريقهم إلى داخل ذهنها، واستعرضوا هناك أطرافهم المبتورة. هناك الكثيرُ منهم بعد انتهاء الحرب، فقد اعتادوا التجمع خارج كنيسة سانتا ماريا أيام الآحاد طلبا للإحسان. كان عليها السير بجوارهم أثناء دخولها وخروجها، بينما أمّها تمسك يدها بقوّة. أحدهم كان أوّل من يحضر هناك، قبل البقية، ودائما تجده في محيط الكنيسة، حتى عندما تذهب لحضور صلوات المساء خلال أيام الأسبوع، أو عند

العودة لتلقّي البرَكة في عشيّة الأحد. في نفسها تساءلت ماذا حلّ به، هذا الذي لا يملك ساقين، ويتحرّك فوق عربة خشبية صغيرة بعجلات، وله لحية غريبة تنمو فقط على جانب واحد من ذقنه. أحيانا كان من الصعب اكتشاف وجودِه بين جمهرة الشحاذين، الذين بإمكانهم الوقوف والحركة. كانت تقلق بشأنه، ومع كل هؤلاء الوافدين الجدد المتنافسين على التبرعات، كانت عُلبته دائما فارغة.

لم تملك ليليانا شيئا أبدا تضعه في أيديهم الممدودة، أو في قبعاتهم. والمناسبة النادرة التي أعطتها فيها أمها قطعة نقود قبل القدّاس، كانت لوضعها في طبق تبرعات الكنيسة.

ذات مرة تظاهرت بوضع قطعة النقود في الطبق، لكنها احتفظت بها في يدها. بعد القداس، وبينما هم يسيرون مرورا بالمتسوّلين، بحثت عن رَجلِ العربة، معتقدة أنها ستضعُ قطعة النقود في علبته. لكنه كان بعيدا عنها في الخلف، ولم تتمكن من ذلك لأن أمها ممسكةٌ بيدها.

أخفت القطعة في درجها بقصد إعطائها للرجل في الأسبوع المقبل. أخرجتها مراتٍ عدة، وفكرت في عددِ قِطعِ حلوى الكراميل المحلاّة التي يمكن أن تشتريها بها، لكن في كل مرة كانت تعيدها إلى مخبئها، وتحتفظ بها للرجل الذي شعرت حياله بالمودّة والعطف. لكن قبل حلول موعد القدّاس، وجدت أمها قطعة النقود، فضربت عقبي ساقي ليليانا واتهمتها بالسارقة. لم تهتم الأم بأنها كانت ستهبُ النقود للمتسول، وأجبرتها على الاعتراف بفعلتها أمام الكاهن، ولقنتها الكلمات التي ستقولها له. لقد سرقت من الكنيسة، وهذا مثل سرقةٍ من الكاهن نفسه، بل يعادل السرقة من الربّ نفسه. قيل لها أنه حتى لو لم تعثر أمها على قطعة النقود، كان الربّ سيعلمُ أنها موجودة هناك، مخفيّة بواسطة فتاة شريرةٍ خاطئة اعتقدت أنها تعرف أكثر من أمّها، ومن الكنيسة المقدسة. من بركات الله أنّ أمها وجدتها، والآن هذه الضربات التي تلقتها، واعترافها، وعقابُ الكاهن، كل ذلك سيغفر لها خطيئتها، وإلا كانت ستحملها معها كوصمة عار طوال حياتها الفانية.

جلست في السرير النهاري، هناك حزمةُ ضوء تدخل من تحت مصراع النافذة، فالصبح سيحلّ قريبا. عندما أخذت قطعة النقود منذ سبع أو ثماني سنين، لم تكن سوى فتاة صغيرة. لكنها في الثالثة عشرة الآن. تخيّلت منظر المتسولين الآن، وأبوها في وسطهم يضع ضمادة فوق عينه، والبؤس بادٍ عليه. والآن ينضمُّ أخوها أيضا إلى الحشد، جميعهم مقرفصون ومعاقون، يصدرون أصواتا فظيعة وغير بشرية.

لم يمارس أبوها عملا منذ الحادث الذي تعرض له، وأصبح البيت يعتمد الآن على راتب أخيها. فبدونه ما تمكنت ليليانا من البقاء في مقاعد الدراسة، وكما قالت أمها، لولاه لكانوا الآن في الشارع.

انزلقت من فراشها، وركعت على الأرض. ردّدت صلواتها، حيث صلّت من أجل أن تكون فتاة متواضعة، وطلبت من الربّ أن يُسبغ عنايته على أخيها، وأن يعيد له عافيته من جديد.

عند حلول الصباح، فتحت عينيها على وجه أمها المتجهم المنهَك. «كيف حاله؟» سألتها.

«سيعيش.» أجابتها، وهي تزمّ شفتيها. «كوني فتاة صالحة، وتحركي بسرعة لتكتبي رسالة لرئيسه في العمل، في أوتدروم، وأوصليها قبل الذهاب إلى المدرسة.» عادة ما كان ستيفانو يوصلها على دراجته قبل ذهابه إلى حلبة السباق. «هل نحتاج لاستدعاء الطبيب؟» سألت ليليانا. لكن الطبيب يكلّف مالا. هزّت أمها رأسها نفيا. «لا يحتاج إلاّ لإخراج تلك المادة من جوفه». ثم أضافت، «صلّ معي.» طوت حاشية السجادة، وجثتا فوق الطبقة المزدوجة لأنّ ركبتيْ أمها متورمتان، ولا يمكنها الركوع فوق الأرضية العارية. «يا إلهي اغفر لابني ستيفانو خطاياه، وساعده ليعرف طريقك ويحافظ عليه من الآن فصاعدا. اغفر له إن زلّ، واشفه من جديد. إنه ولدٌ صالح، وقد تعلّم الدرس. آمين»

«آمين.» ردّدت ليليانا. «أيّ درسٍ يا أمّي؟ ماذا فعل؟ هل يمكنني رؤيته؟» أمسكت الأم بحاشية الطاولة لترفع نفسها على قدميها.

«كلاّ. بإمكانك ارتداء ثيابك بسرعة. اكتبي تلك الورقة وأوصليها بسرعة إلى حلبة السباق.» ثم توجّهتْ إلى المطبخ لصنع القهوة.

عبرت ليليانا الصالة وفتحت باب غرفتها قليلا. المصاريعُ لا تزال مغلقة، والظلام يعمّ الغرفة التي تفوح منها رائحة عفنة. بإمكانها سماع أخيها يتنفس بقوة، لكن بالكاد يمكنها تبيّنُ هيئته. لفتت وجهها إلى الوراء، سحبت نفسا عميقا لتملأ رئتيها، ثم دخلت الغرفة على أطراف أصابع قدميها، باحثة عن ثيابها وحذائها في القليل من عتمة الضوء، وحابسة أنفاسها. ثم خرجت تجاهدُ للحصول على هواء نقي، وبسرعة ارتدت ثيابها في صالة المعيشة. جاءت أمها تحمل القهوة والخبز، فأزاحت كُتب أبيها جانبا لتُخلي مكانا على الطاولة. كان أبوها دائم القراءة، للشعر في الغالب. وشاعراه المفضلان حاليا هما «دانونزيو» و«أونغاريتي» منذ أن تخلّى عن قراءة «بودلير»؛ لأنه فرنسيّ، كانت الأمّ تتحرك بجوار ليليانا، فهي لا تجلس إلى الطاولة أبدا أثناء الوجبات، بل تداوم على دخول المطبخ والخروج منه، وفيما بعد تأكل واقفةً في المطبخ. «ماذا أقول عن سبب مرضه؟» قالت ليليانا، ممسكة بقلمها.

«اكتبي أنّ لديه عدوى في معدته.»

«سيتماثل للشفاء، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد، وإلا سيلقى حسابه معي.» قالت أمها، وصمتت لحظةً لشدّ مئزرها، ثم وقفت وقد ضمّت إليها ذراعيها، جاهزة لخوض المعركة.

«من يكون هذا؟» قال الأب وهو يدخل إلى الغرفة. «من الذي استحق غضبك؟» تنهدت أمها وذهبت إلى المطبخ لإحضار قهوته. هي في الغالب غاضبة منه لأنه كان يغط في النوم طيلة كل ما حدث أثناء الليل.

التفت أبوها ليراقب خروج الأم وابتسم بوهنٍ. كان يبدو أطول مما عليه في الواقع بسبب جسمه الرفيع، وساقيه الطويلتين. كما كانت كتفاه محدودبتين كأنه يحتاج لخفض رأسه للاستماع إليك، أو كأنه بحاجة إلى حنْي ظهره للمرور عبر الأبواب. بدأ شَعرُ رأسه يقلّ، لكنه لا يزال على سواده، يسرّحه للوراء، ويدسّه خلف أذنيه. لطالما كان شعره أسود، وعيناه برّاقتين بلون أزرقٍ بهيّ. تقول عنهما أمها، إنهما مثل عيني قاطع طريق، على الرغم من إدراكها أنّ أمها لم تعرف من قبل أيّ قاطع طريق، كما أن أبيها لم يبدُ مثلهم في الحقيقة. بدأ الأزرق يبهت في عينه السليمة. وسواء كان ذلك صحيحا أم خطأ، فقد قرنت ليليانا ذلك بالحادث الذي تعرّض له، لكنّ العينَ المصابة الأخرى، التي توجد في وسطها الآن دائرة بيضاء، حيث يجب أن تكون سوداء، لا تزال تحتفظ بزرقتها. هذا التباينُ بين العينين أقلقها في السابق، لكن ما إن اعتادته، حتى صار في نظرها جميلا بشكل مخيف. ومع ذلك لا هي، ولا ستيفانو، ورثا عنه زرقة العينين.

اعتاد أبوها الآن أن يعيش حياته برأسِهِ مائلا قليلا إلى اليمين، لتكون عينُه السليمة أكثر مركزيةً في وجهه، وفي موضعٍ أفضل لتؤدّي عمل العينين معا. «من جلبَ على نفسه غضب أمك؟» قال ناظرا تحت إلى ليليانا حيث تجلس إلى الطاولة، رأسهُ مائلٌ مثل طائرٍ فضولي، كأنّ سَمْعَه أفضل أيضا بأذنه اليمنى، وكأنّ جنبه الأيمن كله قد صار غير نافع له. دائما ما عبّر عن نفسه باقتباسات أدبية، لكن هذه العادة صارت أكثر حضورا بعد الحادث الذي تعرّض له. كما لو أنه وجد ملاذا في هذه الجُمل الشعرية. لكنه بدأ يبتعد أكثر عن ليليانا عندما يتحدث بهذه الطريقة، ولم تُجدِ أي وسيلةٍ لوقف هذا الابتعاد، لكن غريزتها كانت تدفعها دائما إلى لمسه.

رفعتْ نفسها نحوه لاحتضانه، وعندما استسلم لحضنها، قبّلته على خده. «ستيفانو مريض، وكان شديد المرض طوال الليل.»

«هذا الفتى المسكين!» قال وهو يفردُ طوله. «هل شرب من ذلك النبيذ القوي مرّة أخرى؟» مطلقا ضحكة قصيرة، وأردف، «على الشخص أن يثمل على الدوام. هذا كل ما يهمّ... بالنبيذ، بالشعر، بأي شيء آخر. دام دام دام.» كان يقتبس من أحد شعرائه.

«نَاندو. نادت أمها من المطبخ. . هل يمكن أن تأتي هنا؟»

* * *

ناندو الآن في المطبخ منتظرا أن تتوقف زوجته عن الأنين وتتحدث معه. يراقبها وهي ترفع يديها إلى شعرها الرمادي وتثبّتُ خصلة هاربة في لفّة الشعر الخلفية. يأخذ خطوة إلى الوراء ويجلس على الكرسي في الزاوية. تضمُّ آغاتا راحتيها معا، فيحدّث نفسه، زوجته امرأة ورعةٌ، ولا بد أن شيئا ما يزعجها، يغلقُ عينَه السليمة حتى لا يشاهد ما يعتريها من كدرٍ وقلق، لكنه يُبقي عينه العمياء مفتوحة. ومع ذلك يحسّ بأن خلف عينه هذه شتى الألوان والأشياء التي تتحرك بغرابة. أيْ ليست كلها مظللة بالسواد. أحيانا يشعر بدوّامات أرجوانية، وموجات من إشعاع قرمزي.

تخبره أنها تعرفُ أنّ الفتية المنضوين في جماعات الشباب الفاشستي «السكوادريسي» قد يلجؤون إلى العنف أحيانا، وأن هناك حاجةً أحيانا لاتخاذ إجراء حاسم وقوي للتخلص من الخلل، فالأمرُ يشبه وخز الدّمل لإخراج القيح. أليس هذا ما أخبرها به ناندو ذات مرة؟

«نعم.» يجيبُها بحذر، «أي أنّ.....» لا يريدُ أن يوافق على كلامها بالمطلق، حتى يَفهمَ الموضوع الذي تتحدث فيه. أحيانا كان يرفع لواء قضيةٍ ما، لديه في الواقع شكوكٌ حيالها، وكل ذلك من أجل تهدئة عقل آغاتا الجامح. نعم لديه شكوكٌ حيال هذه العصابات من الشباب المسلحين، عندما ظهروا أول مرة بأعلامِهم التي رُسمت عليها الجماجم والعظام المتصالبة، يجوبون الشوارع في سيارات عسكرية، ويطبّقون القانون على هواهم، يضربون خصومهم ويسحقونهم. لقد كان منزعجا من تصرفاتهم الإجرامية. لكن في العشرينيات، عندما كان الاشتراكيون والشيوعيون يقبضون على البلاد أسيرة بين أيديهم، وفي أوج انتشار حُمّى البلشفية، كانت البلاد في حاجة إلى إجراءات صارمة ووحشية. لا شكّ في ذلك. وهكذا تدخلوا لوقف إضرابات العمّال ضد أصحاب المصانع في المدن، وضد مُلاّك الأراضي في الريف. نعم. كانت هناك حاجةٌ للقيام بإجراءٍ قاسٍ، والسكوادريسي كانوا في الموعد للقيام بذلك، حيث فشلت الحكومة الليبرالية الضعيفة تماما. عليه؛ حتى في ذلك الوقت كان هناك شيءٌ من العظمة يحيط بهم. لكن الآن الأمرُ مختلفٌ، لأنهم يعملون في ظل الحكومة، «الآن لديهم دعمٌ من الدولة» يقول محذّرا، ومدركاً أن آغاثا تطلق تمتمات مبهمة، عادة ما تسبق صراخا عاليا. يتصرفون بتشجيع من الدولة، يفكّر لنفسه، لكن لا يصرّح لها بشيء. الدولة التي لم تتقاعس عن استعادة النظام بالقوة في هذه الأوقات الصعبة، ولا عن القيام بما يلزم لإعادة إيطاليا إلى مجدها السابق. لقد أيقن حينها أنّ السكوادريسي شرٌّ لا بدّ منه، ولا مجال للمشاعر المختلطة حول هذه النقطة. تقريبا هم امتدادٌ للجيش والشرطة. هذا هو الواقع. قد يكونوا مبالغين في حماستهم، لكن لا يوجد شك أنهم وطنيون، يكافحون ضد التأثير البلشفي، ويحرسون إيطاليا من الانجراف في الطريق الذي ذهب فيه الاتحاد السوفييتي. إنهم واقفون ضد تيار الإرهاب الأحمر. نعم، بالفعل، هم يحملون الروح الشجاعة التي يحتاج الإيطاليون إلى استعادتها. إحدى مقولاتهم هي: «واجِه المخاطر، فأن تعيش يوما واحدا كأسدٍ، خيرا من العيش مائة عام كنعجة.» الأمر الثاني؛ هو أنه يحسدهم، ولو أنّ بإمكانه استعادة شبابه من جديد، أو أن تكون له قدرته البدنيّة كما في السابق. نعم، يقول بقناعة أكثر، «السكوادريسي أداةٌ من أدوات الدولة، ولو أنها كليلةٌ إلى حدّ ما. هم قوة تنظيفٍ في هذا المجتمع الفاسد».

لا يمكنه رؤية آغاتا الآن لأنه يديرُ لها عينه العمياء، لكن لا يزال بإمكانه سماع أنينها الخافت. لا يعرفُ لما استدعته إلى المطبخ لتتبادل معه حديثا في السياسة، ولا يعرف كذلك لماذا تأخذُ الأمر بشكل شخصيّ. وتساءل إن سمعت بعض الأخبار التي لا يزال يجهلها. كانت قد غضبت كثيرا عندما ضرب السكوادريسي قسّيسا حتى الموت في بلدة فيرّارا، لكن هذا لم يعد يحدث الآن بعد تقارب مؤسسة الكنيسة مع الحزب الفاشيستي. لا يزال غير ممكن لجم السكوادريسي، وهذه حقيقة. ليس لديهم آليّة واضحة في الخيارات. فأحيانا يتأذى الأبرياءُ من أفعالهم، لكن هذا هو الثمن الذي يجب أن يُدفع.

آغاتا صامتة الآن. يديرُ رأسه ليتمكن من رؤيتها بعينه السليمة. ولا تزال راحتاها ملتصقتان كأنها تصلّي، وتنظر نحوه بكربٍ واضح.

«ما الأمر؟» يسألها.

تخبره أن هذه القوة التي تنظفُ البلاد قد تصيّدت ابنهم هذه المرة. لقد اختاروه لإهانته وإلحاق الأذى به.

توقّف قلبُ ناندو للحظة، ثم أخذ يدقّ بعنف، «من الذي تصيّده؟ ماذا حدث؟» تخبره أنّ ستيفانو يعرف الأشخاص الذين فعلوها. إنهم الشباب من أصحاب القمصان السود الذين ربطوه إلى كرسيّ، أمالوه إلى الخلف، ثم أجبروه على تجرّع زيت الخروع. وتركوه بعد ذلك يزحف عائدا إلى البيت، يتقيّأ ويلوث نفسه على طول طريق العودة في الشارع.

ابنه...؟!

«لو لم تدفن نفسَك في الكتب طوال الوقت، لعرفتَ أنه في محنة. ابنُنا، ليس بقيح فاسدٍ ليجري التخلص منه، بل هو رجلٌ صالح. وكلّ أفعاله خيّرة.»

«بالتحديد، ما الذي فعله؟» لكن يمكنه تخيّل ما فعل. لقد اعتقدَ أنه وضع حدّا لكل الهراء حول الاشتراكية الذي ينادي بها ستيفانو، وأنّ كل ذلك تُركَ خلفه في ميلانو.

«ليس الذي فعله، ولكن الذي لم يفعله. أي لم ينظمّ إلى السكوادريسي. لقد رفض ذلك.»

«هل هذا كل ما في الأمر؟ إن كان هذا فقط، فيمكنُ إصلاحه.» لكنها لا تعرفُ إن كان ذلك فقط هو السبب. ستيفانو يعرف الرجال، لكنهم على الأقل، ليسوا معه في العمل، كما قال، وإدارة المصنع في «أوتودروم» لا يعرفون شيئا عن الأمر. ومع ذلك يعتقد ناندو أنهم سيعرفون عن الواقعة.

في العادة لا تبكي آغاتا أبدا. لكن عندما تغضب أحيانا، قد تطلق تلك الصرخات الحادة، كأنها تعرضت للطعن. لكنها الآن تبكي.

يدير ناندو رأسه بعيدا عنها من جديد، ويحاول لملمة أفكاره؛ «يجب على ستيفانو أن يعلن ولاءَه، ولا شيء غير ذلك. ينبغي عليه الانضمام إليهم. ليس إلى السكوادريسي، فلا يجب أن يصل إلى هذا الحدّ، وإنما ينضمّ إلى الحزب الفاشستي. ويجب أن يتعلم كيف يُبقي فمه مغلقا. هو بحاجة للقيام بفعلٍ علني. يمكنه التسجيل في الحزب بعد تماثله إلى الشفاء. ومع الوقت ستهدأ الأمور، ويتمّ تناسي ما حدث.»

نحيبُها يعلو أكثر فأكثر. تحاولُ قول شيء، لكن البكاء يمنعها، تمسح دموعها براحتيها، فتبدو كأنها تصفع خديها.

«ماذا هناك؟ تحدّثي يا امرأة.» خرج صوتُه أكثر خشونة ممّا قصد.

تنزل كفيها عن وجهها وتخبره أنه يفضّل الموت، ستيفانو يقول إنه يفضّل الموت على الانضمام إليهم.

«هناك خطأ ما.» يقول لها، لا بد أنهم قصدوا الرجل الخطأ. هؤلاء السكوادريسي خرجوا عن السيطرة. سيذهب بنفسه إلى مكتب الحزب ويقدّم شكوى، «نعم شكوى رسمية» يقول هازّاً رأسه.

لكن الطريقة التي تنظر بها إليه، أكثر مما يحتمل.

يدير رأسه إلى جانبٍ من جديد، كي لا يضطر لرؤية عينيها اللتين لا تصدقانه، ويحتفظ بهذه الوضعية حتى يسمعها تهرع خارج المطبخ.

يجلس في الزاوية نصف أعمى، لا حول له، وعاطلا عن العمل، لا يستطيع حتى التفكير في ما يجب القيام به. لا يمكنه السيطرة على ابنه. ولا يستطيع توفير الحماية له. لا يمكنه معاقبة من آذوه، ولا يستطيع تأمين مستقبل لطفليه. كانت له قيمةٌ في الماضي، كان له مكتبه الخاص، ويحظى باحترامٍ في العمل وخارجه.

هناك في باحة محطة القطارات توجد مساحةٌ غير مستخدمة عند نهاية الخط، حيث كانت تقف قطارات البضائع، لكن منذ زمن صارت تستخدم مرمىً لقطع الآلات المعطلة. هناك حيث ينتمي بالفعل. وجالت بذهنه أبيات قصيرة للشاعر «أونغاريتي»: «لأكنْ/ مثل شيء ما/ مُهملٌ في زاوية ما/ يكتنفه النسيان.»

عادت آغاتا، وأخذت تهزه، «انهضْ، لا فائدة أبداً أن ترتمي هنا في الزاوية مثل كيس من فاصوليا بورلوتي.» كانت قبضتها على كتفه قوية كأنها كلاّب. فوضع يده فوق يدها.

«قلبي ينفطر،» تقول، «قلبي ينفطر، لكن لا بدّ من القيام بذلك.»

يلتفت لينظر إليها، هي الآن امرأةٌ غاضبة، ضئيلة الحجم، لكنها لا تُقهر. كانت تضع يداً فوق ردفها، والأخرى على كتفه، مثل إبريقٍ بمَسكٍ وفوّهة للصبّ وهي تنحني عليه، كأنها على وشك صبّ شرابٍ منعشٍ من إبريقها في جوفه، هذا القدح المتداعي، فيعدّل ناندو من وضع ظهره استعدادا لهذه المهمة. «يجب على ستيفانو أن يتأقلم معهم.» تقول، «يتعيّنُ أن يمارس اللعبة مثل أيّ شخص آخر. هل يعتقد أنّ كل من يؤدّون التحية الفاشيستية يؤمنون حقّا بما يفعلون؟ سيضطر إلى التغاضي قليلا، والتأقلم معهم.»

لم يرغب ناندو في تذكيرها بأن ستيفانو قال إنه يفضل الموت. «الأمر لا يتعلق به فقط، فهو يضعنا جميعا في موقف صعب. يجعلنا هدفاً لهم. وماذا عن أخته الصغيرة؟ هل كان يفكر فيها عندما ركب حصانه العالي؟»

«حصانه العالي؟»

«بقوله إنه يفضل الموت!» ترفع يدها عن كتفه، لتطوّحها في الهواء مع يدها الأخرى. وتعلن بوضوح، «لا مجال للشهداء هنا»

«وإن رفض؟»

«سيتعيّن عليه الذهاب بعيدا. يجب أن يغادر المكان.»

«يذهب إلى أين؟» يقول ناندو. فتسحبُ مجلة مطوية من جيب مئزرها، وتخبطها على ساقه. هذه هي مجلة السيارات التي يشترك فيها ستيفانو. وبها العديد من الوظائف الشاغرة.

يحدّق في إعلان في الصفحة المفتوحة، رُسِمت عليه دائرة.

يقول الإعلان، «اعبرْ إلى آفاق القيادة الجديدة».

«لكن لا نريده أن يذهب إلى أفريقيا.» يخبرها.

«ولا نريده أن يموت كذلك.»

«سأتحدث معه، وأحاول إرشاده.» يقول لها.

* * *

بعد مرض ستيفانو بأسابيع، تجلس ليليانا على السرير تمدّ ساقيها، وتقوم بواجبها المدرسي. هذا فصل الربيع، في وقت مبكر من المساء، وما زال بالإمكان رؤية شيء من ضوء النهار في الخارج.

سمعت مجيء ستيفانو وذهابه مباشرة إلى الغرفة الأخرى، ثم سمعت أصواتا ما. بعد قليل جاء إليها وجلس على نهاية السرير. وضع يده على قدمها المغطاة بجوربها الأبيض، وابتسم لها، ثم نكّس نظره.

لقد تحسّن حاله الآن، وعاد إلى العمل. بعد بقائه طريح الفراش ثمانية أيام قبل أن يتعافى. لكن عندما حدث ذلك؛ بدا كما لو أنه سافر عبر نفقٍ مظلم، وحدث له تغيّرٌ بعد خروجه منه. كان دائم الجدلِ مع أبيهما، رغم عدم معرفتها للسبب، لأنهما يتوقفان عن الحديث بمجرد دخولها الغرفة. والآن يقول لها: لا يمكنني البقاء أكثر من ذلك يا للي؛ فلا مكان لي هنا.

ترددت للحظةٍ فقط. ستفعل أي شيء لإرضائه، أي شيء لاستعادة ستيفانو السابق. قالت، «يمكنك استعمال غرفة النوم،» فقد اعتقدت أن هذا ما قصَده، وأنه سئم النوم في صالة المعيشة، على الدوام كان آخر من ينام وأوّل من يستيقظ، وليس له مكان مناسبٌ يضع فيه أغراضه، فيضطر إلى استخدام الرف لتخزين ثيابه الداخلية، ولأن يعلّق قمصانه خلف الباب.

حرّك يده في دوائر، ومسّد خلف رقبته بيده، كأنها متيبسة. أراد أن يقول شيئا ما، لكنه لم يعرف كيف يقوله. خطر لها أنه قبل ولادتها بعشر سنين، كانت هذه غرفته، ثم اضطُر إلى قبول مشاركتها له وإقحام سريرٍ إضافي فيها، وأن يتعامل

في البداية مع رضيعة، ثم مع فتاة صغيرة تزعجه أثناء نومه. لكن وفقا للأحقيّة فالغرفةُ له. فهو الراشد، وهو من ينفق على العائلة.

«يمكننا تبديل الأماكن، ولا أمانع، لا أمانع النوم في السرير النهاري.»

«ليس هذا هو الأمر.»

«ماذا إذن؟»

«تحصلتُ على عمل جديد، وسوف أرحل.»

«هل ستعود إلى ميلانو؟ لا تذهب هناك، ابق معنا.»

«لستُ ذاهبا إلى ميلانو.»

«هل ستتزوج؟ هل ستتزوج من تلك التيريزا؟» لمْ تحبّ تيريزا كثيرا، لكن على الأقل سيعني ذلك أنه سيكون في مكان قريبٍ ما.

«لم تعد تيريزا صديقة لي.»

«إنها خبيثة، ولم أحبها مطلقا.»

أطلق ستيفانو تنهيدة عميقة، «اصمتي قليلا، واستمعي إليّ.»

ظلّت صامتة، لكن لبعض الوقت لم يقل شيئا، فعرفت أنه يجد صعوبة في التعبير عمّا يريد قوله. ثم سحب نفسا وأخبرها أنه حصل على عملٍ في طرابلس، فهُم على وشك تجهيز حلبة سباق سياراتٍ هناك، وسيكون مشاركا معهم من البداية، مثلما كان هنا في مونزا. «هل طرابلس قريبة من روما؟»

خرجت منه ضحكة أقرب للصيحة، «إذنْ، لا يعلّمونكم الجغرافيا في مدرستكم هذه. كلاّ إنها في شمال أفريقيا.»

«كنتُ أفكر في تيفولي، وهي قريبة من روما،» ثم استوعبت ما قال، «أفريقيا! لا. لا يمكنك الذهاب إلى أفريقيا.»

تعرفُ ليليانا أنّ الناس عندما يهاجرون، لا يعودون لأوطانهم... في 1921 عندما كان عمرها عشر سنين، وستيفانو في العشرين، يعمل في ميلانو؛ وخلال شهرٍ غادرت ثلاث فتيات مع عائلاتهن، بمن فيهنّ صديقتها المفضلة بينيديتا. كان ذلك الوقت عندما غادر الكثيرون. فالرجال سُرّحوا من وظائفهم، ولم يجدوا أيّ عمل. بعضهم كان يعمل، لكنهم لم يجنوا مالا بما يكفي لإطعام عائلاتهم، والناس جائعون. حزموا أفضل ما يملكون، وباعوا ما لا يمكنهم حمله معهم، وركبوا في سفن كبيرة من جنوا. ذهبت عائلة بينيديتا إلى الأرجنتين. عند مغادرتها دفنت ليليانا دميتها في الحديقة، وارتدت قفازات الصلاة البيض لتقول لها وداعا. تعاهدتا على الكتابة لبعضهما، لكن لم تسمع عنها شيئا مذاك الوقت.

«لا تذهب أرجوك.»

«أنا مضطرٌ يا للي، ولا مكان لي هنا.»

«ماذا تعني؟» ترك قدمها، وانزلق فوق الفراش ليقترب منها. «في الواقع لا يمكنني أن أشرح الأمر، لكنك ستفهمين عندما تكبرين.»

تكره ذلك؛ حينما يذكّرها الناس بصغرِ سنّها.

«لكن اسمعيني،» قال قبل أن تعترض. «هذا لا يشبه الذهاب إلى أميركا أو الأرجنتين، بل إلى الجانب المقابل من ماري نوستروم

«لا أعرف ما تتحدث عنه.»

«أقصد (بحرنا) باللاتينية؛ فذلك ما سمّى الرومان به البحر المتوسط في الأزمنة القديمة.»

«أعرف معنى ماري نوستروم،» وقد أحسّت بالإهانة.

«كل ما أقوله إنها ليست بذلك البعد، وما إن أجني مالا كافيا، حتى آتيكم للزيارة. لستُ مغادرا إلى الأبد.»

«لكن لديك عملٌ جيّد هنا.»

«العمل هناك أفضل، أفضل مما أحصُل عليه هنا.»

«هل أنت الآن تتبعُ بريقك الخاص؟»

ابتسم قائلا، «أعتقدُ ذلك، فهو لم يعد يُشعّ بقوّة هنا.»

شعرتْ بما يشبه خبطة مكتومة في جوفها عند سماعها هذه الكلمات، وشعرت بألمٍ خلف قفصها الصدري، كأنها تلقّت ضربة من داخلها.

«خذني معك.»

«لا يمكنني يا للي. لا أعرفُ بالتحديد ما سأقوم به. في الوقت الراهن، يجب أن تبقيْ هنا. عليك الذهاب إلى المدرسة والتعلّم قدر استطاعتك، لتكوني معلّمة أو سكرتيرة أو أيّ شيء ترغبينه عندما تكبرين. عليك أن ترعيْ ماما وبابا في غيابي.»

«لا أريد هذا.»

«نضطرُّ جميعا إلى فعلِ أشياء لا نريدها.»

«ليس أنت.»

أدار رأسه على جنبٍ، وحكّ عنقه. نقر أصابعه فوق ركبته، فاعتقدت أنه سيخبرها بالمزيد. لكنه قال، «هذا كل شيء يا للي.»

«هلاّ تركتني الآن في سلام، لديّ مدرسةٌ غدا؟»

«لا تكوني هكذا.»

رفعت كتابها لتغطي به وجهها، فنهض متوجها إلى الباب، «إن جئتِ إلى المضمار بعد المدرسة يوم الجمعة، سأصطحبكِ معي في جولة حول الحلبة في سيارة هارلي. ديفدسون،» ثم غادر.

في وقت لاحق، طلب والدها من العائلة الحضور إلى صالة المعيشة ليعلن أخبار عمل ستيفانو الجديد، وسمّاهُ إنجازا عظيما، وفرصةً لا يمكن تفويتها.

«شيء رائع!» قالت الأم بصوت مرتجف؛ وهي تجلس إلى جوار ليليانا على الأريكة ذات المساند الخشبية الملتوية.

«هل فقَدَ عمله في المضمار لتغيّبه بسبب المرض؟» سألت ليليانا. من السهل عليها قول ذلك بوجودهم جميعا في الصالة، والدها يقف أمام البوفيه الجانبي، هي وأمها في مواجهته على الأريكة، وستيفانو جالسٌ على السرير النهاري، يستند بظهره إلى الحائط.

للحظةٍ لم يتكلم أحد، فحدّقت في ستيفانو، الذي كان ينظر إلى أبيهما وقد رفع حاجبيه كأنه لا يستطيع الانتظار أكثر لسماع ما سيقول.

«كلاّ، لا شيء من هذا،» أجاب الأب في النهاية بصوت مرتجف. أدار رأسه لينظر مباشرة إلى أخيها، ثم أردف، «أنا فخورٌ بك يا بني!»

نظرت في المسافة بينهما، لكنها لم تستوعب ما يحدث، ما هذا الذي يحدث؟! لا أحد يريد الإفصاح عنه بوضوح.

عاد والدها إلى أرضية حديثٍ مشتركة. قائلا إن أفريقيا هي أرض الفُرص، ومكانٌ مثير يستطيع فيه الشاب أن يضع بصمته، ولو أنه في عمرٍ أصغر لذهب هو نفسه. تحدث عن المساحة الصغيرة التي تحتلها إيطاليا في شمال أفريقيا، وكيف أنها مفتوحة على اتساعها لنشر الحضارة الإيطالية فيها، ولحلّ مشاكل العمالة في إيطاليا، كما يعتقد أيضا، فلم يعد الناس بحاجة إلى عبور الأطلنطي لإيجاد عمل ما، أو قطعة أرضٍ لحرثها. عوضا عن ذلك سيبحرون إلى أرضٍ بكر، أرضٍ مليئة بالفرص، ستصبح في نهاية المطاف قطعة صغيرة من إيطاليا، على شاطئ آخر من «ماري نوستروم». أثناء حديثه؛ ازدادت وتيرة صوته حدّة، وأخذت شكل رنين جرسٍ أكثر فأكثر. شرح لهم نظرية «سباتزيو فيتالي»*، وكيف أن إيطاليا تتمددُ

بحيويّة فتحتلُّ الفضاء الحيوي المطلوب منها لملء رئتيها الجغرافيتين الواسعتين. لتتنفس برحابةٍ دون قيود، ولتكون أمّةً عظيمة من جديد.

استمرت ليليانا تنظر إلى ستيفانو، الذي كان وجهه شاحبا ومتجهما.

تلا أبيهم قصيدة أونغاريتي بعنوان «جيروفاجيو» أي «أنا الجوّال.. أبحثُ عن أرضٍ بكر». وشرح لهم كيف أن منطقة شمال أفريقيا، حيث سيذهب ستيفانو، تقع تحت سيطرة إيطاليا، وهي ليست سوى مكان بدائيّ، خالٍ، وغير مطوّر. تساءلت ليليانا في نفسها لماذا لم يبدُ ستيفانو أكثر فخرا وإثارة حول مغامرته النبيلة هذه.

قال الأب إن احتلال هذا الجزء من شمال أفريقيا الذي بدأ في 1911، والذي تعطّل بسبب الحرب، قد استؤنف من جديد، وإنّ المهانة التي ألحِقت بإيطاليا في فترة ما بعد الحرب في طريقها إلى الانتهاء.

نهض ستيفانو واقفا يهزّ رأسه أمام السرير النهاري.

بان الذهول على وجه أبيهم، واستمر يقول: لكن هذه المرة موسيليني هو من يقود السفينة، وينشر القيم الفاشية الحديثة. سيكون التقدّمُ سريعا. لن تكون إيطاليا متفرّجة بعد الآن على رسم تاريخ العالم، بل ستكون مشارِكةً.

بدأ ستيفانو يصفق ببطء، «برافو، لنذهب ونُوسعُ مجموعة من البدائيين ضربا، ومن ثم نتستعيدُ العظمة. شيءٌ رائع، إعادة بعثِ الإمبراطورية الرومانية!» نبرتُه شابها الاحتقار، وأردف قائلا، «يتعيّنُ على الدوتشي أن يكافئك يا بابا.»

«ستيفانو!» صاحت أمه محذّرة.

شرع ستيفانو في الغناء بصوت أجشّ. «العلم الأحمر سيكللُ بالنصر» كرّر الجملة ثلاث مرات، وهو يضرب الهواء بقبضته.

عندما سكت، لم يتحدث أحد. التقط سترته ورماها فوق كتفه. «آسف ماما.» ثم غادر الصالة، وبعد قليل سُمع صوت إغلاق الباب الأمامي.

ظلت ليليانا وأمها جالستين على الأريكة المزركشة، ثم نهضت وتوجهت إلى النافذة، فتحتها، وأخرجت رأسها. راقبت أخاها وهو يغادر من طابقين تحتهم، عبر الطريق، حيث ذهب مسرعا إلى وسط البلدة، ثم ظهر أبوها ذاهبا في الاتجاه المعاكس نحو محطة القطارات. أغلقت النافذة وقالت وهي تستدير نحو صالة المعيشة، «ما الذي يجري؟» لكنّ أمها لم تعد هناك.

لم تتحدث ليليانا إلى ستيفانو طوال أربعة أيام، وفي كل مرة تضعفُ فيها فتتذكر أنه سيتركها، وأن «بريقُه» يشعّ في مكان مختلف، مكانٌ لا توجد هي فيه. تعرفُ إلى حدّ ما أنه لم يتعمّد أن يقولها بهذا المعنى، لكنها أقنعت نفسها أنّ هذا ما صدر عنه. كان من السهل عليها أن تغضب منه، أكثر من التفكير في الذي يحدثُ بالفعل. العائلة منقسمةٌ، وأبوها

معاقٌ منكفئ على نفسه. ستيفانو دائمُ الغضب والصمت، وسيغادرهم إلى بلاد غريبة لأسباب لا تزال غامضة لها. أمها على ركبتيها تصلي أغلب الوقت، أو تمسك بيدها سيرا نحو الكنيسة لحضور صلاة العشية.

«هل تصلين لأجل ألاّ يغادر؟» سألتها ذات مرة حين كانتا تركعان بجانب المحراب في كنيسة سانتا ماريا، في سترادا. هزّت أمها رأسها بَرِمةً، وقالت: «بل كي لا تلتهمه الأسود.»

كانت ليليانا ستسأل إن كانت هناك أسودٌ في طرابلس، لكنها تخلت عن ذلك، وهمست، «هل ستيفانو واحدٌ من أولئك البلاشفة؟»

«طبعا لا.»

«لماذا إذن غنّى النشيد؟»

«لإغاظة أبيك.»

«ولماذا يريد إغاضة بابا؟»

«هسسسسس.»

«لا أفهمُ لماذا عليه أن يذهب؟»

«ليس علينا أن نفهم، وإنما أن نحافظ على إيماننا.»

كم كبيرةٌ الفجوة التي تركها أخوها. فحياةُ ليليانا تغيّرت، وفقدت معناها، مثل الخبز بدون زيت، ومثل المكرونة بدون ملح.

---

* Spazio vitale الفضاء الحيوي: نظرية التوسّع المناطقي للفاشية الإيطالية، حيث تخضع الأمم في هذا الفضاء إلى الحكم والحماية الإيطالية. المترجم.

كلاب ضالّة

مادة: قصاصة من صحيفة لاريبوبلكا بتاريخ مايو 1980 ، لخبر بعنوان «محاولة اغتيال ناشطين ليبيين في روما» ..

السماء رماديةٌ، لكن الجوّ دافئ، وأفادت النشرة الجوية بعدم سقوط أمطار، وأنّ الشمس ستظهرُ في وقت لاحق فتطردُ كلّ الغيوم. إنها بواكير شهر مايو، وللمرة الأولى هذا العام يظهر في لندن جوّ دافئ منعش. سحبت ليليانا الحقيبة الجلدية من تحت السرير حيث خزّنت أحذيتها الصيفية، ووجدت أحد جوارب آلان الرمادية مرتميا فوقها.

جلست إلى الخلف مستندة على عقبيها، وتفحّصت الجورب.

كان آلان قد تُوفي قبل عيد الميلاد، وتخلّصت من كل ثيابه في فبراير. حيث أخبرتها صديقتها «جوان» أنّ هذا العمل سيساعدها على الشفاء، وأتت للمساعدة. جوان صديقةٌ تعرفت عليها في الكنيسة، لكنهما تريان بعضهما كثيرا الآن بعد ترمّل ليليانا أيضا. قمصانُ آلان، وبدلاته، وأربطة عنقه، أحزمته، أحذيته، معطفه الكبير، وأفضل بدلاته، وُضعت جميعها في صناديق ستُقدم إلى مركز الأعمال الخيرية في «مسويل هِل»، حيث تتطوع جوان للعمل. أمّا مناماته، وملابسه الداخلية، وجواربه فتذهب إلى القمامة، لأنّ لا أحد يرغب في ارتداء جوارب قديمة لشخص آخر، كما أخبرتها جوان. هناك زوجٌ من جوارب رياضة المشي، لم يرتدهما سوى مرّة واحدة. كان آلان مثابرا على رياضة المشي، وأحيانا ترافقه إلى أعلى جبل «يوركشاير دالس»، حيث يتسلقانه في أحذيتهما الثقيلة، وثيابٍ مطريّةٍ إلى قمة الجبل تحت الرذاذ الخفيف، ثم ينظران من خلال الضباب. لم تستوعب ليليانا قط الفكرة من ذلك، لكنها لم تتخلّ عن ذلك الطقس. ورأت أن هذا يندرج ضمن التصرفات والعادات الإنكليزية الغريبة، مثل تناول عجينة يوركشاير مع الحساء، وعادة شرب الشاي، وإضافة الخلّ إلى البطاطا المقلية، والخروج إلى شاطئ البحر حتى مع برودة الجوّ. لقد تقبّلت كل هذه العادات، لأنها اختارت إنكلترا وطنا لها، وبالأخص بعد اختفاء أخيها وعائلته. ومذّاك لم تعد لها عائلةٌ سوى زوجها آلان.

التقطت فردة الجورب التي غفلتْ عنها جوان، ولاحظت شيئا محشوّا بداخلها. أدخلت يدها لتجد رزمة أوراق مالية مربوطة بخيط مطاطي، في وسطها ورقة مكتوبة بخط يد آلان تقول «متّعي بها نفسكِ، يا حبّي.» عدّت النقود لتجدها خمسمائة جنيه.

يا للعجب، قالت لنفسها، هديةٌ من وراء القبر. آآه، يا آلان العزيز. دسّت قدميها في خفّها، وضعت النقود مع الملاحظة داخل جيب حقيبتها اليدوية، ثم أغلقت عليها السّحّاب، وانطلقت لمتابعة مجريات يومها.

أشجارُ الكستناء على طول طريق برايوري كانت محمّلة ببراعم الثمار، ثقلها يتدلّى بين الأوراق الخضراء السميكة. أشجارٌ رائعة ومعطاءةٌ، قالت ليليانا لنفسها وهي تمرّ تحتها أثناء تفكيرها في المكسب المفاجئ الذي حصلت عليه. متّعي نفسكِ. ما الذي قصده؟ وقفت تحت مظلة محطة الحافلة، وفجأة بدت لها توصيةُ آلان عظيمة وقوية، ومثّلت لها تحدّيا خفيّا. فهي ليست على يقين كيف ستمتّعُ نفسها، وما سيشمل ذلك. فجأة باتت منتبهة إلى القوى غير المنظورة التي سيّرت حياتها وتحكمت فيها، والتي بشكل عشوائيّ ما، قادتها إلى هنا، إلى هذه الطريق في شمال لندن، وإلى الزمن الراهن، مايو 1980. لطالما تصرّفت وتفاعلت مع الظروف كما قابلتها، بدل أن تختار هي أفعالها، أو أن تسعى إلى العطايا. ثم وصلت الحافلة رقم 7 وصعدت إليها.

إنها على موعد مع جوان، لتناول شطيرةٍ بعد أن تنهي صديقتها نوبتها في مركز العمل الخيري، لكنها ستذهب إلى المكتبة العامة أولا لقراءة الصحف الإيطالية. فمتابعةُ آخر الأخبار أمرٌ جديد عليها، وهي عادةٌ اكتسبتها خلال الشهور الأخيرة. كل ثلاثاء وخميس، وهي الأيام التي تتطوع فيها جوان في المركز، تستقلّ الحافلة إلى موسويل رود، وتجلس نحو ساعةٍ لقراءة إصدار اليوم السابق من صحيفة لا ريبوبليكا.

الأمر كما لو أنّ موطنها الأصلي يناديها بعد عقودٍ من كونها إنكليزية أكثر من الإنكليز. لم يتّسم هذا النداءُ بطابع العجلة، ولا تضمّن صراخا، أو إلحاحا. لكنه هادئٌ، ومخالفٌ للطبيعة الإيطالية، وبدا لها تلميحه إلى أنه مهما كان ذلك الشيءُ الذي أدارت له ظهرها عندما انتقلت إلى لندن منذ عقود، فقد حدث منذ زمن طويل. إنه شيءٌ حدث في الماضي ولم يعد مهمّا، تمتمت لنفسها. أو ربما بكلمات أخرى؛ لم يعد بإمكان الماء تدوير طاحونة الهواء كما يقول المثل الإيطالي. لا. هذا غير مناسب. «أكوا باساتا نون ماكينا بيو».

اكتشفت أن لغتها الإيطالية صدأت كثيرا. يمكنُها القراءةُ بها، لكن إن حاولت الحديث بها، فلا تعرفُ ما سيخرج من فمها. فهي لم تتحدث بلغتها الأمّ لسنين طويلة، ولا حتى لنفسها. لم تتحدث بها حتى عندما تغضب وتشتم. كانت تقول «اللعنة»، أو تردّد التعبير الإنكليزي «نورا الغاضبة» وهو أحد التعبيرات التي يستخدمها آلان. كانت أحيانا تراودها أحلامٌ بالإيطالية. لكنّ اللغة تختفي بالمطلق أثناء صحوها. لقد حاولت أن تصبح إنكليزية، وأن تتخلى عن إيطاليتها. هذا هو الأمر، حيث بدا لها ذلك مُهمّا، بل ضروريا.

الماءُ الذي يذهب لا يعود. ربما الترجمةُ غير دقيقة، لكن بشكل أو بآخر هذا ما يعنيه المثل. تخيّلت نفسها مثل حصاةٍ، منعّمة ومدوّرة بفعل جريان التيارات حولها.

عند وصولها إلى المكتبة، أخذت نسخة صحيفة «لا ريبوبليكا» من الرفّ في منطقة المطالعة، وجلست إلى طاولة قريبا من النافذة. آخر مرة جاءت فيها هنا، قرأت عن قتل المافيا لضابط شرطةٍ كان يساعدُ في الكشف عن الفساد. لم يبلغ ذلك الضابط حتى الأربعين من عمره. «كلا فهو محض فتىً» كان آلان، سيقول معلقا على ذلك الحدث.

بطريقة غير متحيّزةٍ أو حتى متورطةٍ بشكل ما، كانت تحاول رسم صورة لإيطاليا اليوم، في العام 1980، ورأت أنها بشكل أو بآخر، مكانٌ أقلُّ عنفا من إيطاليا التي غادرتها نهائيا في 1938 فليس هناك الآن جماعات «السكوادريسي» التي تحطّمُ الأشياء، وتمرجح هراواتها «المقدسة» في وجوه الناس. لكن يبدو أن المافيا تمثّل مشكلة كبيرة الآن، ثم هناك إرهابيو الألوية الحمراء. الصفحة الأولى اليوم كلها عن الصراعات السياسية بين الحزب المسيحي الديموقراطي، والحزب الجمهوري، وكلاهما مشاركٌ في التحالف الحكومي. بالطبع هذا هو التغييرُ الكبير الذي حدث. الديموقراطية. وأيضا لم يعد هناك نظام ملكيّ في إيطاليا. من المستحيل تخيّل هذين الأمرين حينذاك في 1938. على العموم مستحيلٌ بالنسبة لليليانا. ففي أيامها تلك لم يكن هناك سوى حزب واحد، الحزب الفاشستي. في وقت مغادرتها مرّ على الفاشست في السلطة ستة عشر عاما، وفي الغالب جرى إسكاتُ كل من اختلف معهم، بشكل أو بآخر.

فتحت الصفحة التالية، وهناك على الجهة المقابلة، ظهر لها وجهُ الرجل الذي لم تره منذ خمسين عاما، محملقاً في وجهها. أوغو مونتيللو.

عند رؤيتهِ، أحسّت كما لو أن الهواء شُفِط من رئتيها وغادر جسدها، وكأنما تعرضت للوخز في مركز شبكتها العصبية. خبطت راحتها على الصورة ونظرت إلى الأعلى. اضطرمت مشاعرُها واضطربت، واعتقدت أنها في حال غثيان. اجلسي بثبات، قالت لنفسها. هذا الأمر سيذهبُ بعيدا الآن. أغلقت عينيها، ولوهلةٍ خلف جفونها، رأت الطفلَ بعينيه اللتين كانتا في زرقة الياقوت. مشهدٌ رأته ألف مرّة من قبل، لكنه لم يدمْ طويلا. المحيطُ يعمّه الظلام الآن. فتحت عينيها، لترى كهلاً يجلسُ قبالتها مرتديا غطاء رأس مُسطّح، والذي كان قد خفض قليلا نسخته من صحيفة التايمز لمراقبتها. بفمٍ مفتوح، كانت تتنفس بقوة وبصوتٍ مسموع، ثم أغلقت فمها وبلعت ريقها.

نظرت تحت ولكن بدون تركيز على الكتابة التي تظهر من بين أصابع يديها. من حولها هناك الهدوءُ المعتادُ الذي يسود المكتبة. وعندما أحسّت بأنها أكثر هدوءا، رفعت يديها عن الصحيفة.

كانت صورةٌ قديمةٌ له، لا بدّ أنها من ذلك الزمن، عندما عرفته: في أيام عزّهِ، وبكلّ خيلائه. كان مرتديا بزّة الطيار، ويمسك قبّعته في يديه، بينما برز شعره المجعّد من قمة رأسه. وصفَ النعيُ خدمته العسكرية المميّزة، وكيف أنه في الستينيات، عندما كان مفوّضا للشرطة، قاد حملة شهيرة ضد العصابات الإجرامية. وتطرّق أيضا إلى خدمتِهِ كطيار في سلاح الجو خلال سنوات الحرب، وأنه ترقى إلى رتبة كولونيل، ولعب دورا مهمّا في «تهدئة ليبيا»، كما شارك لاحقا في الحملة الإثيوبية. وتوفي بسلام في بيته بشارع نومينتانا، في روما تاركا وراءه زوجةً رافقته لخمسة وخمسين عاما، وثلاثة أبناء، وسبعة أحفاد.

طوت الصحيفة وانتصبت على قدميها، وقفت ممسكة بها للحظات. إذن أوغو كان حيّا طوال هذه السنين. في مكان ما، في مكان مختلف ما، وحتى وقت قريب، كان يتنفس. والآن توقفت رئتاه، لكن رئتيها لا تزالا تعملان، تسحبان هواءً ساخنا من مكتبة نورث لندن، لتخرجاه من جديد. شهيقٌ وزفير. إنها تتنفس، ولم يعد أوغو كذلك.

بجانب رفّ الصحف هناك كومٌ من المجلات القديمة. رفعتها ودسّت نسخة لا ريبوبليكا تحتها. دفنتها في الأسفل تماما. ثم مسحت يديها في تنورتها وغادرت المكان.

لديها نصف ساعة قبل موعدها مع جوان، وبإمكانها التجوّل على فترينات المحلات. ربما عليها البدء في التخطيط لكيفيةِ إنفاق خمسمائة جنيه. أو بإمكانها التوجّه إلى مكتب البريد وإيداع المبلغ في حسابها، بالرغم من أن الخيارين لا يحققان دعوة آلان بإمتاع نفسها بسخاء. بينما سارت في شارع كوين، نحو جزيرة الدوران، راودتها مشاهدُ لآلان وهو يتلوّى من الألم في سرير المستشفى. «لا تدعيني أموت في المستشفى.» تضرّع لها. ولكن كيف يمكنها إخراجه من هناك، وقد وقع في قبضة المنظومة؟ فلن يسمحوا لها. وأيضا جال بخاطرها أوغو الذي «مات بسلام في بيته». طفرت الدموع منها، فأخرجت منديلا من حقيبة يدها، ومسحت عينيها في الخفاء.

أوغو، وآلان، شغلا فكرها. لكن لا يجب أن يكونا هناك، ليس في الوقت نفسه على الأقل. وهذا ما جعل رأسها يموجُ بالأفكار.

رأت الحافلة رقم 7 في الموقف. صعدت إليها، وحلّقت بها أفكارُها بعيدا. بدا أنّ أفكارها تنقّبُ عن أحداثٍ معيّنة في غابة أيامها، وعلى امتداد مسارب وجودها هي في تلك الفترة، كاشطةً المساحاتِ الرمادية والخرساء، ومحلّقةً فوق الجزء الصعب الاختراق، والمليء بالأشواك في مركزه. كانت الأفكارُ تحلّق في دوائر، وترفرف مثل طائرٍ متعَبٍ لم يتمكن من الاهتداء إلى عشّه، ولا يعرف أين سيحطّ على الأرض.

عند وصولها إلى البيت هاتفت مكان عملِ جوان، وتركت رسالة بأنها ولسببٍ طارئ، لن تتمكن من لقائها اليوم.

عندما أغلقت عينيها في تلك الليلة، كان أوغو، لا يزال هناك. وكأنه ينام إلى جوارها. لقد اعتاد النوم بالطريقة التي يفعل بها كل شيء، دائما مشحونٌ بطاقةٍ عالية، يشخّر ويملأ الغرفة باهتزازاته. وفي الظلام، شعرت بأنّ هواء الغرفة يزداد كثافة، بدا لها أنها في غرفة أوغو في «فيا أوفيديو» بطرابلس على السرير الخشبي الكبير، وتحت رِيَش مروحةِ السقف الدائرة ببطء. جلست ثم أشعلت إضاءة السرير الجانبية. رأت اللحاف الأزرق، والستائر الدامسقية الزرقاء برسوماتها المتكررة باللونين الوردي والزبَدي، ورأت كذلك قطعة السجاد الملاصقة للسرير مع خفّها المكسوّ بالفرو. أمامها الآن على الجدار المقابل هناك رسمٌ لقمّة جبل «إنغلرا» الذي قدمته هديّة لآلان في عيد ميلاده الخامس والستين. كل الأشياء المألوفة موجودة في أماكنها المعتادة. إنها الآن في بيتها بلندن، ولم ينجح شخير أوغو الذي تذكّرته، في اختراق نسيج الزمن. نزلت إلى الطابق الأرضي، وأعدّت لنفسها كأسًا من البابونج. وعند عودتها إلى الفراش كان أوغو لا يزال هناك، يستلقي على

ظهره، بينما صدرُه البرميليّ الضخم يرتفع وينخفض. لقد اعتادت أن تضع رأسها فوقه، حيث يلامس خدّها جلدَ صدره، وأن تنصتُ إلى ضربات قلبه، مدوّية، قويّة، وواثقة.

هكذا إذن، توفي بسلامٍ في بيته منذ يومين. لا بد أنه كان في التسعين من عمره تقريبا. لكن لمْ تجرِ قط محاسبته على أفعاله، ألا توجد عدالة في هذا العالم؟

استمرت في التّقلّب في الفراش، محاولة إيجاد وضعية مريحة. استلقت على جانبها، وضغطت أذنها على الوسادة. هناك دائما همسٌ في أذنها اليمنى، همهمة لا يمكنها تبيُّنها. أمّا الليلة، فهي مصحوبة، بنبضها المتسارع، مثل دقات طبل مضاعفة.

في صباح الثلاثاء وجدت نفسها في المكتبة من جديد. استقلّت الحافلة لأنها ستقابلُ جوان في ساعة الغداء، وتحتاج لشراء بعض التموين أولا. وسوقُ مُوسْويل هيل أكثر من ملائم لهذا الغرض. كان عليها الذهاب إلى شركة «ألكساندرا موتورز» للسيارات أيضا، لأنهم تمكنوا أخيرا من بيع سيارة آلان، الفورد كورتينا. وهناك صكٌّ في انتظارها. سبق وأن عملت في مكتبهم في الحسابات بدوام جزئي، وتعرفُ أنهم محلّ ثقة. لكن من المؤسف أنها تعدّت سنّ التقاعد، وتفضّلُ لو أمكنها العودة إلى هذا العمل مرة أخرى لملء ساعات الفراغ، بعد أن تركها آلان الذي كانت ترعاه. لم تتعلّم قيادة السيارة قط، لكنها أحبّت أن تكون بين الناس الذين يهتمون بالسيارات. خططت أيضا الذهاب إلى محلّ بيع الأدوات القديمة، في طريق كولني هاتش، لترى إن كانت لديهم أقمشة جديدة، لكنّه مغلقٌ الآن. هي دائما تبحثُ عن شالات حريرية، وكانت تنوي صناعة غطاء من قطع الحرير لسرير الغرفة الاحتياطية.

في الحقيقة لم تكن تنوي القدوم إلى المكتبة اليوم. واعتقدت أنها ستغيبُ عن إيطاليا والإيطاليين لبعض الوقت. لكنها أنهت جولتها وتبقّت لديها خمس دقائق، ولهذا توجد هنا الآن.

لاحظت أن كومة المجلات غير موجودة. ذلك أفضل، وإلاّ ربما تعرضت لإغراء الاطلاع على النّعي مرة أخرى، باحثةً عن حقائق ربما فاتتها. هل ذكر النعيُ شيئا عن تاريخ الجنازة مثلا؟ فالفترةُ بين الوفاة والجنازة أقصر بكثير في إيطاليا؛ طبعا ليست بالسرعة نفسها كما في البلاد الإسلامية، لكنها أسرع بكثير من إنكلترا حيث قد تستغرق أسابيع. لا بدّ أنّ أوغو، قد دُفن الآن ووُضع لحدٌ فوق قبره. سرتْ في ظهرها قشعريرة باردة، وشعرت كما لو أنّها يدٌ باردة تلمسها، فنفضتها عنها.

رفعت النسخة الأخيرة من لا ريبوبليكا من الرف. كان العنوان الرئيس في الصفحة الأولى. «محاولة اغتيال معارضيْن ليبييْن في روما». لم تعد لها صلةٌ بليبيا. ليس منذ اختفاء ستيفانو وعائلته. ومع ذلك لا تزال تقرأ أيّ أخبار تصادفها عن مستعمرة إيطاليا السابقة، أو شاطئها الرابع.

جلست إلى طاولةٍ قريبا من النافذة. قرأت أنّ رجلين أطلِق عليهما الرصاص في مقهى بروما، وأنهما ربما ذهبا ضحية التصفية الجسدية لحملة «الكلاب الضالة» التي أطلقها الدكتاتور الليبي العقيد القذافي، عندما أعلن ضرورة تصفيةِ كل

أعداء الثورة الليبية في الخارج. هناك صورةٌ لأحد الضحايا، وهو خالد المحمودي، الذي صُنّف أنه من أعداء النظام الليبي، حيث اتُّهم بعضوية حزب سياسي، والأحزاب ممنوعةٌ في ليبيا. أمّا الرجل الآخر فيبدو أنه أصيب بالخطأ، ولم يكن مستهدفا. وقالت الصحيفة إنّ المصابيْن في حالة خطرة. في نهاية المقال ذُكر اسم الرجل الثاني أيضا. عندها توقّف قلبُ ليليانا للحظة، ثم انطلق يدقّ بعنف. تسارع جريانُ الدمِ في عروقها، فاضطرت إلى وضع يديها على أذنيها. اسمه أبرامو كاتانيو العروفي.

ليس لديها شكٌ في الاسم. قد يكون لقب العائلة في وسط الاسم، لكن هذا هو ابن أخيها. إنه أبرامو، ابن ستيفانو. كان في روما، وأُطلِق عليه الرصاص.

تمايلت في كرسيها، يداها تضغطان على جانبي وجهها. لقد اشتعلت صحراء ليبيا داخل رأسها... الضوءُ، والحرارة العالية في الخارج، الظلمةُ والهواءُ الخانق داخل الخيمة، بحيث يبدو أن القماش نفسه يتعرّق. الصرخات التي تنطلق في الظلام. وأبرامو المولود لتوّه بخصلة شعرٍ سوداء فوق رأسه، وبوجنتيه البارزتين. عيناه السوداوان لا تركزان على شيء، وقدماه بعظامهما الرقيقة.

كانت هناك عندما وُلد، وهي أولُ من أمسكته بين يديها، ثمّ ناولته لأمه.

دسّت الصحيفة في حقيبتها، وغادرت المكتبة على عجل.

كانت جوان قد وصلت إلى المقهى، وجلست إلى طاولتهما المعتادة، عندما دخلت ليليانا مترنحة، ورمت جسمها على الكرسي المقابل، وهي تلهث. إنما تحاول التقاط أنفاسها، كأنّها قد حُبِست تحت الماء، وخرجت إلى السطح لتوّها.

«ما الأمرُ يا ليل؟» سألتها جوان بقلق وأردفت «كأنك رأيتِ شبحا ما.»

شربت ليليانا جرعات من الماء الذي صبّته لها جوان، وسحبت أنفاسا عميقة كما أخبرتها. استجمعت نفسها بينما طلبت جوان من النادل حساء البطاطا وطبق كرّاث لكليهما. «أخبريني ماذا حدث؟» سألتها.

وضعت ليليانا الصحيفة على الطاولة وأشارت إلى المقال.

«هذا بالإيطالية، ولا أعرف ماذا يقول.» نظرت عبر الطاولة وهزت كتفيها، كأنما طُلب منها أن تترجِم.

«إنه يتعلقُ برجلين أطلق عليهما الرصاص في روما.» تمكنت ليليانا من القول بصعوبة.

«حسنا، نسيتُ أنكِ إيطالية، مع أن إنكليزيتك مُتقنة تماما. وبالكاد أميّز أن لديك لكنة،»

رمشت ليليانا عينيها باحثة عن كلمات. لقد غادرها الآن إتقانها اللغة، وقالت أخيرا، «اعتقدتُ أنهم ماتوا منذ سنين.» وحاولت السيطرة على نفسها. لم تكن جوان تنظر إليها بقلق، وربما تمكنت من كبح اللهيب الذي بداخلها. «لقد

توقفتُ عن البحث عنهم.» نطقت بصوت مضطرب.

سحبت جوان مجموعة من المناديل الورقية من المِمْسكة وقدمتها لها، «من تقصدين؟»

«حزنتُ لفقدهم، وأرسلتُ عديد الخطابات إلى طرابلس، لكن لم يردّوا عليّ أبدا. وفي البداية ظننت أنّ ذلك بسبب الحرب.»

«من الذي لم يرد على رسائلك يا لِل؟ كلامك لا معنى له.»

«لأن بريطانيا وإيطاليا كانتا على طرفي نقيض في الحرب. أقصد أعداء.» وبعد ذلك سحبت نفسا آخر... «عاودتُ الكتابة. وقمت بتحريات، لكن لم أحصل على أيّ معلومات.» وهزت رأسها بأسىً.

«عذرا يا لِل، لكن عمّن نتحدث؟»

«عن أخي.» همست لها.

«لم أعرف أنّ لك أخا!»

كانت قد توقفت عن الحديث عنه منذ سنين. فلا يوجد جديدٌ يمكن أن يُقال. بالطبع، ما كان لجوان أن تعرف. صوتٌ محذّرٌ في رأسها كان يخبرها أن تصمت، وأن تهدّئ الأمر، فمثل صنبورِ مياهٍ صمامه معطل، لم تستطع التحكم في الكلمات التي تخرج من فمها. وأيضا هناك زوجته والأطفال، نادية، وأبرامو.

«تقولين إن أخيك وعائلته عاشوا في طرابلس، في ليبيا؟»

هزت ليليانا رأسها مؤمّنة على كلامها.

«لا أعرف حتى أين تقع ليبيا! ولا أظن أنني سأعثر عليها في الخريطة.» قالت جوان رافعة حاجبيها، وهازّة رأسها في عجب.

أطلقت ليليانا زفرة.

«آسفة. لا يهم إن كنتُ أعرفُ الحكاية تماما، لكن ما يهم هو ما الذي حدث الآن، كي يجعلك على هذا الحال.»

«أعتقدُ أن أحد الرجال الذين أصيبوا بالرصاص في روما هو ابن أخي.» قالت وهي تضع إصبعين على المقال الذي بينهما. ثم ارتعش صوتها، «لا أعرف ماذا أفعل؟»

رمشت جوان وهي تحاول استيعاب كلمات ليليانا. نزعت نظارتها وانتصبت واقفة. «ينبغي أن تذهبي.»

«أوه، لا يمكنني ذلك.»

استدارت جوان للحديث مع النادلة. كانت تلغي طلبية الحساء.

فكرةُ ركوب الطائرة والذهاب إلى روما، هكذا بكل بساطة، لا، فلا يمكن أن تستوعب ليليانا ذلك. هذا يتطلّبُ تخطيطا وتنظيما، وهي لا تعرف كيف تتصرف. لا تعرف روما مطلقا، ولا كيف تتحرك فيها. ذهبت إليها مرة واحدة بشكل عابر عندما كانت فتاة. كما لا يمكنها ترك كل شيء هنا. لكن هناك أمرٌ آخر، سببٌ يبرّر عدم استعجالها. كان يومض داخل رأسها مثل مصباح يدويّ به عطب ما. يُطفئ نفسه ليعود للعمل من جديد. لكن لا يَبقى مشتعلا بما يكفي لتتمكن من استخدامه.

«هل توافقين؟» سألتها جوان.

لقد فاتها تماما ما كانت جوان تتحدث عنه.

تابعت جوان، «لا تشغلي نفسك بتكلفة تذكرة الطيران، إن كان هذا ما يُقلقك. يمكنني إقراضك المال.»

«كلا، ليست هذه هي المشكلة.» وأخبرتها عن النقود التي تركها لها آلان.

«حُلّت إذن!» قالت مُصفّقة. «للربّ وسائل غريبة في تدبير الأمور. فهذا ملاكك الحارس يقودك إلى ابن أخيك.» وأومأت برأسها. «هيا بنا، سيارتي قريبة، وسأقلك إلى البيت»

«لا أعرفُ حتى المستشفى الذي يوجد فيه.»

«يمكنكِ مهاتفة المستشفيات المحتمل وجوده فيها في روما، وستعرفين.»

لا تزال ليليانا جالسة إلى الطاولة، القلب ينبض بقوة، وضجيجٌ متسارع يملأ أذنيها.

«يا لِل، هذه صحيفة يوم أمس، وإطلاق الرصاص حدث في اليوم السابق. وفي الغالب لن تكوني هناك قبل يوم الغد.» نظرت إلى ساعتها، ثمّ إلى ليليانا. «لا يجب إضاعة أيّ لحظة.»

«ربما أنت على حق.» قالت ليليانا بوهن.

«لنذهب ونحجز لك تذكرة الطائرة.»

* * *

على بعد ألف ميل، في روما، كانت سعيدة تُنصت إلى الطبيب وهو يُخبرها عن حال أبيها. قبل يومين عندما كان أبوها مع خالها يحتسيان القهوة في البار خلف محطة تِيرمني، اقتحم مسلحون المكان وضربوهما بالرصاص. كان الرجال من إحدى فرق اغتيالات القذافي. وأبوها هو هدفهم، لكن الخال أبرامو كان معه وأصيب أيضا. كان الطبيب يعطيها

معلومات مُهمّة، وعليها التركيز على كلامه. لكن هناك أمورٌ أخرى، أمورٌ لم تكن ذات شأن حينئذ، هي ما تستحوذ على اهتمامها الآن. النافذة مفتوحةٌ قليلا، والتيار يتلاعب بالستائر، وبالممسَكة في نهاية الخيط، التي تُستخدم لفتحها وغلقها. وظلّت تحاول إيجاد إيقاع معيّن لحركتها. بينما بدا لها أنّ الملاحظة الإرشادية على لوحة الإعلانات، حول الوعي بالجراثيم وغسل اليدين، تصرخ في وجهها، وتقول: انظري إليّ، واقرئيني مرة أخرى.

فأغلقت عينيها لطرد هذا التشتيت.

«هاتوا كوب ماء؛ فهي مصابةٌ بدوّار.» صاحت الممرضة، ثم خرج صوتُ الطبيب، «من المسؤول عن هذه الفتاة؟ هل هناك راشدٌ ما هنا؟»

فتحت سعيدة عينيها مرة أخرى ورمشت نحوهم، نحو الطبيب في معطفه الأبيض، وسماعته الطبية حول عنقه، نحو حاجبيه الكثيفين والمائلين؛ ونحو الممرضة بشعرها الذي على شكل خطوط سوداء وفضية. «إنه عظمُ مؤخرِ الرأس،» قالت مردّدة كلام الطبيب، وأومأت لتبيّن له أنها فهمت كلامه. كان يشرح كيف دخلت الرصاصة رأس أبيها، وأن الشظايا والحطام قد أزيلت كلها، لكن سيبقونه في حالة غيبوبة اصطناعية للسماح بتقلّص الورم في دماغه.

قبل ذلك سمعت الممرضات في الجانب المغطى بالستارة يتحدثن عنها. ويقلن ربما يتوجبُ القيام بإجراءٍ ما لأنها صغيرةٌ في السن. لم تكن متأكدة من فائدةِ إخبارهم بأنها قادرة على العناية بنفسها، وأنها بالنسبة للتسوّق، والطبخ، والتنظيف، والغسيل، وكيّ الثياب، فهي من تقوم بذلك، وليس أبيها. وأنها في الحقيقة من كانت تحاول إحداث نقلةٍ في تفكيره للتخلي عن التمسّك بالمفاهيم الليبية القديمة لصالح مفاهيم القرن العشرين، وأن تلفت انتباهه إلى التغيير الذي حدث في دور النساء في الحياة. على الأقل كان لدى الخال أبرامو، عدة مهارات يساعدُ بها ويأتي إليهم مرّة في الأسبوع لإعداد أكلات ليبية. البازين مع لحم الخروف، والطبيخ المبهّر؛ وشوربة لحم الخروف؛ وكرات اللحم المسماة «الكفتة» مخلوطة بالكزبرة والثوم. ومع أنّ أبيها لا يُعوّل عليه أبدا، إلاّ أنها كانت تحاول تعليمه كيّ الثياب من لحظة سكناهم روما منذ ثلاث سنين، وبدا كأنه يعتقد أنهُ غير مؤهل للقيام بذلك بحكم التكوين الجندري. بل ويكاد يكون هذا الأمر مصدر فخرٍ له. يأتي لها بقمصانه المجعّدة ويقول، «إن خرجتُ بها هكذا سأجلبُ العار لهذا البيت.» مقتبسا كلام جدتها، أمّه. فتطلق آهة، تدمدمُ، ثم تكوي قميصه من جديد، وللمرة الأخيرة.

«يا صغيرتي المسكينة، يا لفظاعة الأمر.» سمعت الممرضة ذات الشعر المخطّط تقول. «في الواقع اعتقدتُها فتاة إيطالية، لم أظنّ مطلقا أنها عربيّة.» علقت الأخرى المرتدية نظارة طبية، وبدت مستاءة كأنّ سعيدة خدعتها. «ألا تعتقدين أنها نصف إيطالية؟» قالت الأكبر سنّا، لكن الصغرى لم ترغب في أن يهدّأها أحد، فقالت، «ما الذي كانت تفكر فيه أمّها عندما تخلت عنها، هذا ما أودّ معرفته.»

بعد مغادرة الطبيب والممرضة، مسحت سعيدة وجه أبيها المتورم كثيرا. لم ترغب في تركه وحيدا، لكن عليها تفحّص حالة خالها، ثم الاتصال بأمها في ليبيا. لقد حجزت المكالمة بالفعل، وهناك حارسٌ مسلح جالسٌ عند المدخل للتأكيد على عدم تطفّل أحد، وعليه لا ضرر من غيابها لعدة دقائق.

كان الحارسُ الذي عند الباب مختلفا عن سابقِه. فقد جلس بكسلٍ على الكرسيّ، بسلاحه فوق بطنه. صافحته وعرّفت بنفسها. ثم قالت، «سأنزل إلى الاستقبال لاستخدام الهاتف، سأحاول الاتصال بأمي، ولن أطيل الغياب. أشكرك للقيام بالحراسة في غيابي.»

ابتسم قائلا إنه سيكون يقظا، وأنّ لا أحد سيدخل، ثم جلس معتدلا.

ذهبت إلى القسم الذي يرقد فيه خالُها، ولم تر حارسا مسلحا عند الباب، فأبوها هو من كان مستهدفا، كما أخبروها، والخال أبرامو ليس سياسيا، أو ليس بالقدر الذي عليه أبوها. باعتباره شاعرا، كانت مهمته التعبير عن قضايا أعمّ، أن يلاحظ ألم المهجر ويعبّر عنه، عوضا عن المشاركة الفعلية في النشاطات. كما أنّ لديه معارك أخرى يخوضها، أو ربما يتفادى الشخصيّة منها. كان شعاره كلمات جلال الدين الرومي: «ارفع كلماتك، لا صوتك، فالمطر هو ما ينبت الزهور وليس الرعد.»

لم تجد سعيدة أحدا من الطاقم الطبي لسؤالهم عن وضعه، لكن من المحتمل أنهم ما كانوا ليخبروها في جميع الأحوال، فهم لا يعرفون أنّ أبرامو خالها. فقد احتفظت بهذه المعلومة لنفسها. كانت فكرتها دائما أنهم كلّما عرفوا أقل كان أفضل. أيضا هي خائفة على عائلتها في ليبيا.

بدا لها الخال أبرامو في حال سيّئ. ليس بسوء حال أبيها، لكنها لا يزال مريعا. قبّلت جبينه، فارتعشت جفناه. «شكرا» خُيّل لها أنه يتمتم، وابتسم كأنّ باستطاعته أن يراها من خلال جفنيه المغمضين.

«سأعود لأقرأ لك قصيدة.» قالت، ثم رأت من الأفضل أن تفعل ذلك الآن، فإنْ كان شبه مغمى عليه، فهذا وقتٌ مناسب، ولديها خمس عشرة دقيقة قبل موعد مكالمتها. جلست على الكرسي، وراجعت المفكرة الصغيرة في ذهنها، والتي يتعاظم حجمها بمساعدته وتشجيعه، كانت تحفظ قصيدةً كل أسبوع، وقامت بترجمتها إلى الإيطالية. بدأت تقرأ قصيدة لأحد شعرائها المفضلين، نزار قباني: «أدمنتُ أحزاني فصرتُ أخاف ألاّ أحزنا.» لكنها ترددت، بحثا عن شيء مفرحٍ أكثر، لكن لم يخطر لها شيء سوى، «عمق حبك اليوم هو عمق جرحك غدا» همست له، ثم قبّلت جبينه مرة أخرى.

«شكرا.» بالكاد قالها.

«ليس عليك أن تشكرني على قبلتي يا خال أبرامو، إنها بدون مقابل.» قالت ضاحكة، لكن ضحكتها وقعت في سمعها مثل زفرة بكاء. «سأعود لاحقا، بعد الاتصال بماما، وأجلس قليلا مع بابا، وبعدها سأتلو عليك قصيدة (يوم وليلة) كاملة.»

«سنيورينا» ناداها الرجل في السرير المجاور، وهي تنهض للمغادرة. كان قد أوقع قطع الشيكولاتة على الأرض، ولم يستطع الوصول إليها، بعد أن تبعثرت تحت السرير، وخلف الكومودينو الجانبي. كانت القطع مختلفة، ومغلفة بأشكال زاهية متباينة من رقائق القصدير. التقطتها وأعادت وضعها في العلبة فوق الكومودينو. «ألم يخبرك أحدٌ من قبل أن لعينيك بريقا ذهبيّا؟» سألها؛ فأجابته، «على الإطلاق.»

«هي ومضات مشعّة.» أضاف. فابتسمت له، وفتحت عينيها على اتساعهما كدليل على قبولها إطرائِه. «هل لكِ أن تناوليني واحدة؟» سألها وفتح فمه. رأت أن له ثلاثة أسنان في الصفّ العلوي، وأربعة في منتصف التحتي، ولا شيء غيرها على الجانبين. فتحت قطعة حلوى ووضعها في فمه الشيكولاتي. قال لها: «خذي منها. خذي أكثر. خذي حفنة ملء يدك. فلدي الكثير منها.» ولمجاملته، ملأت منها جيوبها.

جمَالٌ عربيّ

مادة: بطاقة بريدية من طرابلس تظهر فيها فتاة محلية... كُتب عليها «جمال عربي«

وصلت رسالة ستيفانو الشهرية. كانت ليليانا وأمها تجلسان متجاورتين على الأريكة، ومن المنتظر أن يعود أخوها في زيارته الأولى إلى الوطن منذ مغادرته قبل ثلاث سنين. سيكون في مونزا لحضور سباق السيارات في سبتمبر، وللمرة الأولى سترافقه ليليانا. ستُوفّرُ لهما تذاكر مخصوصة، ليس فقط كزائرين لرؤية السيارات في المستودعات، بل سيجلسان في المدرج الرئيس مع بقية المشاهدين. الآن آخر شهر أغسطس، الجوّ ساخن وجاف في الخارج، والعشب بين بيتهم وسكة حديد القطار تحوّل إلى اللون الأصفر. وليليانا وأمها تنتظران عودة الأب ليقرأ عليهما الرسالة.

هذا الوقتُ هو الأكثر أهمية في الشهر، عندما يتعرفون على أخبار فتاهم الذي يجوب عالَمًا بالكاد يمكنهم تخيّلُه، لكنّه حاول قدر الإمكان وصفَه لهم. ابنهم الشاب هناك في أفريقيا، للمساعدة في إنشاء المستعمرة التي ستوفّرُ فرص العمل والعيش لمئات الآلاف من المحتاجين الإيطاليين. أحيانا، وبالطريقة التي تتحدث بها أمها للجيران عن ستيفانو، يعتقدُ المرء أنه يجلبُ الحضارة إلى أفريقيا، بمفرده.

دائما يقرأ أبوها رسالة ستيفانو لنفسه أولا، واقفا أمام البوفيه الجانبي، حيث يحتفظون بطقم الخزف الصيني المزخرف بخطّ ذهبي. نظارته نازلةٌ إلى طرف أنفه، فلا يمكنه القراءة بهما. يمسك بالرسالة على امتداد ذراعه إلى الجانب الأيسر، ليستخدم عينَه السليمة. يحرّكُ شفتيه، ويتمتم ليحيط فمهُ وذهنه بتركيبة الجُمل، ثم يدفع نظارته مجددا إلى مكانها، يهز رأسه وينظر إلى ابنته وأمها، ليؤكد أنه حصل على انتباههما. ثم يُنزل النظارة من جديد، ويبدأ القراءة بصوت عالٍ من الورقة الرفيعة التي تُغطي وجهيها كتابة ستيفانو المتراصة.

بهذه الرسائل عرفوا أنّ في مدينة طرابلس مبانٍ كبيرة لونها أبيض، ولها جدران من الحجر. وعند الاقتراب نحوها من البحر، تبدو مثل قلعة عظيمة. وأن الخليج الذي تقع فيه تحوطه جزرٌ صخرية، في إحدى نهايات هذا الخليج تقع السراي الحمراء، وهي قلعة متينة تُستغلّ الآن مقراً لمكاتب الحكومة، حيث يضطر للوقوف ساعاتٍ في طوابير للحصول على أختام لوثائقه. عرفوا كذلك أن طرابلس مدينةٌ في الصحراء حيث تبدأ منها وتنتهي عندها الكثير من طرق القوافل عبر تلك الصحراء. أخبرهم ستيفانو كيف تجلِبُ الإبل براميل المياه إلى المدينة من آبارٍ خارجها، وأنّ الرجال في بيت الضيافة الذي يسكنه أطلقوا اسم «أرتورو» على الجمل الذي يزوّدهم بالمياه، لأن هذا ما كان الجمّال يصيح به لسوق جِماله، أو كما بدا

وقعُ الكلمة في آذانهم الإيطالية. كذلك عرفت ليليانا وأبواها عن مشاريع البناء القائمة في المدينة، وعن كل تلك المباني الرائعة الجديدة، عن قصر الحاكم، والـ«غراند هوتيل»، عن الكاتدرائية، وعن المسرح، وكيف تم مدّ شبكة أنابيب المياه. احتفلوا معه، وإن في وقت متأخر باللحظة التي وصلت فيها أنابيب المياه إلى شارعهم في غرب المدينة، ما جعل آرتورو ورفاقه من الجِمال بدون عمل.

سمعوا شيئا عن الاختلاف بين الجزء الإيطالي الجديد، والمدينة القديمة، بشوارعها الضيقة المغطاة بالحصائر، أو طريقة بناء الشوارع على شاكلة الأنفاق حيث الشمس الساطعة والبياض المبهر في الخارج لا يخترقُ المكان إلاّ بحِزمٍ من خلال الفجوات، أو كوّات مبنيّة خصّيصا في الأسوار، مثل مداخل للضوء. أخبرهم كذلك عن الأسواق مثل سوق الصاغة، واللحوم، والخبازين، والنسّاجين ومعدات نولهم اليدوية، والخرّازين، والدباغين. تحدث عن صانعي الشموع، وعن بائعي العطور الذين يجوبون هذه الأسواق المزدحمة. لاحظ ستيفانو غياب النساء المحليّات، وإن وُجدن أصلا، تظهر المرأة مغطّاة برداء أبيض من رأسها إلى قدميها، عدا فتحةٍ تمكّن عينا واحدة من الرؤية. كذلك ورد ذِكرُ بعض نساء أخريات من فرقة أولاد نايل، وهي لراقصات مثيرات من الجزائر حيث رآهن يقدمن عروضا للرقص الشرقي في أحد الأماكن، يتمايلن مع هز أردافهن، وقد اصطحبه إلى هناك صديقه ألفونسو، الذي قابله في رحلة البحر. هناك رأى بعض الإيطاليين، من ضبّاط الجيش، أو رجال الأعمال الذين يترددون على مثل هذه الأمكنة. كانوا يقبّلون النقود الفضيّة، يبلّلونها بلعابهم، ثم يلصقونها بجباه الراقصات.

كانت أمّها مصدومة لتلقي مثل هذه الأخبار، وفي ردّها سألت ليليانا ستيفانو إن كان هذا الـ«ألفونسو» رفيقا مناسبا. لقد عانت ليليانا من التفكير في الأشياء التي يمكن أن تقولها في رسائلها، وحياتها تبدو رتيبة ومملّة بالمقارنة، فالروتين نفسه يحدث كل أسبوع. زيارة الكنيسة أيام الآحاد، وصلوات التسبيح في مساءات الأربعاء، ثم هناك تجمعات شباب الفاشيست في كل سبت، وفقط زيارة إلى السينما أحيانا هو ما يكسِر هذه الرتابة. هي الآن تعملُ في إدارة مصنع هينسمبرغر. وقد حدث شيء من الدراما منذ ثلاثة شهور عندما قُبض على الشابة أنجيلا، من قسم التجميع، بتهمة توزيع منشورات تحريضية. ومع ذلك فهذا حدثٌ نادر. لكن هناك حدودٌ لمدى ما تناله من متعة في كتابة فواتيرٍ لبطاريات التخزين الكهربائية، وكتابة رسائل حول قطع الغيار السيّارة.

أخبرهم ستيفانو أنّ شوارع المدينة القديمة ضيقة للغاية للسماح بمرور السيارات، ولا يمكنها حتى تمرير الإبل والحمير المحمّلة. وأن البضائع عادة ما تُنقل بواسطة حمّالين فوق ظهورهم أو رؤوسهم. عند هذا الحد يخفت اهتمام ستيفانو، وعادة ما ينتقل إلى الاستعدادات للسباق، والعمل على الحلبة وعلى السيارات. لكن دائما ما يمرّ على ذكر السيارات: البوغاتي الجديدة بسعة لترين التي جلبت النصر للسائق ماتيراسي في 1927 على الحلبة الجديدة ذات المنعطفات المحدّدةِ بتلال الرمال. ثم «ماسيراتس 26» التي قادها في ذلك العام ألفييري ماسيراتي، وكارلو تونيني، بمتوسط سرعة بلغ 113.37 كيلومترا في الساعة. ثم حالة العجب في المدرجات عند وصول بورزاكيني إلى خط النهاية بعد أن سار سبعة عشر كيلومترا

بإطار مثقوب. وكذلك الدراما التي أثارها ماتيراسي هذا العام عندما حضر إلى صف الانطلاق في سيارته «تالبوت» رغم صدور قرارٍ بحرمانه من المشاركة. لكن أمْر الحرمانِ طُبِّق على كل حال، ما نتج عنه سباق مملّ، لأن «نوفولاري» سيفوز في كل الأحوال.

بعد أن تُقرأ الرسالة، ويعلق ثلاثتهم على ما جاء فيها، يُسمح لليليانا بأخذها معها، للتفكير في كلمات أخيها.

لكن اليوم مختلفٌ. عندما سحب أبوها الرسالة من المظروف، وقعت منه قصاصة ورق صغيرة مطوية بعناية. يلتقطها الأب متفحّصا، ويقول، «هذه لكِ.» تجد أنها ورقة مدوّن عليها اسمها، ومطوية ثلاث مرات، ثمّ إلى ثلاث أخرى، كأنها مظروف خاص بها، وهي طريقة علمتها ليليانا لأخيها قبل سنين، عندما أراد أن يبعث برسالة غرامٍ إلى فتاة أعجبته.

تقبض على الورقة بقوة لتشعر بالإثارة. ربما سيعودُ إلى الوطن. وربما ستخبرها الرسالة أنّ الحظ حالفه بأسرع مما توقّع أن يبقى هناك، وأنه لن يغادر الوطن مجددا، أو ربما سيطلب من والديهما السماح بأن يأخذ معه ليليانا إلى طرابلس، عندما يغادر هذه المرة. لقد رأت أنّ الحالتين مناسبتان لها. وإن كانت تفضل المغادرة، إلاّ أنها سترضى بعودة أخيها إليهم. الجميع يخبرونها أنها محظوظة لحصولها على الوظيفة في هينسمبرغر، في الوقت الذي سُرّح الكثير من الرجال، ويتلهفون للحصول على عملٍ ما. لكنها ستترك هذا العمل في لمح البصر وبدون تردد. ربما جمع ستيفانو ما يكفي من المال ليفتتح ورشته الخاصة، ويمكنها حينئذ أن تصبح سكرتيرته والمنظّمة لأعماله، وآنذاك ستعود أفضل الفترات التي مرت بحياتهم.

سيصطحبها إلى حلبة السباق من جديد. سيفتح لها المحركات ويريها كيف تبدو من الداخل، ليخبرها بأشياء لا تفهمها، ولا تهتم بها، متلفظا بكلمات بالكاد يمكن ربطها بأي معنى: الكاربوريتور، الأسطوانة، مؤشر الدولاب، شمعة الاحتراق. تلك الجمل الذي يستخدمها أحيانا، ويلْحنُها بطريقة معيّنة، غالبا ما تدور في ذهنها، لكن أهميتها الوحيدة تكمن في مشاعرها تجاه أخيها، وتجاه ولعِه بعمله، وخبرته. ما تأمُله في الحقيقة هو أن يعرّفها على هؤلاء السائقين المثيرين. فالآن بعد أن صارت أكبر سنّا ربما سيلاحظها أحدُهم ويبدي اهتماما بها. كانت تعطي أمّها مرتبها الأسبوعي، ولكن القليل الذي تحتفظ به منه تدّخره لشراء فستان ترتديه في الحلبة، حيث تراودها أفكارٌ وهي ممسكة بذراع أحد السائقين. تعرفُ أنها ليست جميلة، لكنها تتساءل في نفسها، ربما بقليل من المال يمكنها أن تصبح جذابة.

تجلسان على الأريكة في انتظار أن يقوم أبيها بقراءته التمهيدية الأولى. وليليانا تتحرّق شوقا لقراءة رسالتها الخاصة. بالكاد يمكنها الانتظار. في الوقت نفسه تفكّرُ في سباق الشهر القادم وتتساءل إن كان تازيو نوفولاري سيشارك في السباق. هو وسيمٌ للغاية وبشوشُ المحيّا، يطلقون عليه في الحلبة الرجل الطائر من مانتوفا. لسوءِ الحظ عرفت أنه متزوج، لكنها لا تزال تشعر بالإثارة وهي تشاهده في المقدمات الإخبارية في صالة السينما. إنه مغامرٌ بحقّ. وأن تراه على الطبيعة أمرٌ مثير للغاية.

يتوقف أبوها قليلا عن القراءة. فهو لا يزال يقرأ من جهة الورقة الأولى. ينظر بحذر نحو ليليانا وأمها، يهز رأسه، يتنهد بعمق، ويعود إلى الرسالة.

شيءٌ ما قد حدث. تمد الأم يدها لتمسك يد ليليانا، وتشدّ عليها. يعضّ الأب على شفته العليا ويمصّ على نهاية شنبه، ثم يزفر من جديد. ويسرّح حنجرته، ثم يبدأ القراءة.

يقول ستيفانو إنه يأسف كثيرا، لكنه مضطرٌ لتأجيل رحلة العودة. حيث واجه مصروفاتٍ غير متوقعة. ويأمل ربما في العام القادم، إذا سارت الأمور جيّدا... أن يحصل على مكافأة بعد السباق، إذا كان ناجحا، بالرغم من أنّ الاستمرار به في الوقت الحالي يُعدّ مخاطرة بسبب نقص التمويل. ويقول إنّ السباق هذا العام كان كارثيّا، وثمة حديث عن أن المنظمين سيتخلّون عنه. يخبرهم أيضا أنه بحال جيدة، وأنه ركب بعيرا للمرة الأولى، وأن التجربة جعلته يشعر بدوّار البحر. كذلك لم يفسّر لهم المصروفات الطارئة، لكن لا يزال بإمكانه الحصول لهم على تذكرتين لسباق مونزا.

«ماذا يعني ذلك؟» تسألُ الأمّ.

«لن يأتي، ولن يزورنا الشهر القادم.» يجيبها، ثم ينزع نظارته ويضعها على الرف الجانبي، يفرك حاجبه، ويمسّد بأصابعه على عينه اليمنى المعطوبة. فتترك الأم يد ابنتها وتنتصب واقفة. تفكّ مئزرها وتضعه فوق ذراعها. ثم تتقدم خطوة نحو زوجها، وتلاحظ ليليانا أن قبضتها مضمومة، كأنها على وشك لكمِه. لكنها تستدير وتسير مبتعدة نحو الغرفة الملاصِقة، وتقفلُ الباب وراءها. ثم يسمعان صيحة مفجوعة عالية، تتحوّل تدريجيا إلى آهات متكررة.

«ستكونُ بخير.» يُطمئنها أبوها ويردف، «ستحزنُ، ثم تعتاد الأمر.» يقف وذراعاه متدليتان إلى جانبيه، وهو يهز رأسه.

«لكن ماذا عنّي؟» تتمتمُ ليليانا. وخطرت لها فكرة أنها ستبقى هنا، هي فقط، مع أبيها وأمها إلى ما لا نهاية، كانت الفكرة من الرعب حتى أنها وضعت يدها على فمها لتمنع نفسها من الصراخ.

يديرُ أبوها رأسَه على جنبٍ، ويسلّطُ النظر عليها بعينه السليمة. ينظر إليها بانشداه خالٍ من التعبير للحظةٍ، «اعتنِ بأمك، أنا ذاهبٌ للعمل.» في الحقيقة يقصد القول إنه ذاهب ليرى إن كانت هناك فرصة للقيام بالعمالة اليومية في محطة القطارات. سيقف ناصبا طوله قدر الإمكان ليبدو متمتعا بالحيوية، ولكن كالعادة، لن يختاره أحدٌ للعمل. فعماه الجزئي يجعل منه مكمنَ خطرٍ عندما تتأرجحُ الرافعات في الهواء. كما أنه كبيرٌ في السنّ. كان يعمل في السابق منظِّما للإشارات، له مكتب خشبي خاصٌّ به مدفأة غاز في الشهور الباردة. لكن لم يحصل على عمل منتظمٍ لأربع سنين الآن. وبدون النقود الذي يرسلها لهم ستيفانو، ستعاني العائلة أكثر مما تعانيه الآن.

تنتظرُ ليليانا حتى يخرج أبوها، ثم تأخذ قبعتها ومعطفها، وتغادر البيت أيضا. كان جانبٌ ما منها يأملُ أنّ رسالتها الخاصة ستفسّر لها الأمور بشكل مختلف. ربما قرّر ستيفانو توفير المال الذي كان سينفقه في العودة إليهم ليدفع ثمن رحلتها

إلى طرابلس. وطالما لم تقرأها، ستظلّ تعتقد في هذه الإمكانية. يمكنها تخيّل أن هذا التأخير يتعلق بها. تسير بسرعة في الشارع متجهة إلى وسط البلدة، بالكاد تدري بما حولها، وهي تركزُ على مدى احتمالية هذا السيناريو. سيكون من الصعب على والديها أن يذهبا أيضا، ولكن يجبُ تقبّلَ ذلك. يقتحم ذهنها للحظة مشهدُ نحيبِ أمها، فتطرده بعيدا. ماذا لديها في هذا المكان، بدون أخيها ليقدّمها إلى عالمٍ أكثر إثارة؟ أن تستمر في العمل في هينسمبرغر؟ وأن تكدّ وتعرق لتكسب ليرة إضافية؟ أن تتزوج من أحد الشباب المنضوين في العصابات، ولا تكون لها أيّ قيمة؟

دخلت إلى الفضاء الشاسع المفتوح لميدان ميركاتو، ووقفت تحت رواق الأعمدة. لا يمكنها الانتظار أكثر مما فعلت، فتأخذ الرسالة من جيبها. تلاحظُ أنه في الجانب المقابل للميدان يشيّدون دار سينما جديدة. مربعات البناء ارتفعت، وهناك جمهرةٌ من الرجال يتفحصون العمل الجاري على قدم وساق. هناك لافتةٌ على الستار الذي يحجب الجزء السفلي من البناء، تعلن عن تجمع للاحتفال بالذكرى السادسة لمسيرة الفاشيستت نحو روما. وثمة رسمٌ لموسيليني يرفع قبضته بفمٍ مفتوح، يحيط به جمعٌ من الشباب المنفعل. تنظر إلى الورقة بين يديها الساخنتين، ولديها شعور بأنها تحمل مصيرها. تبتلع ريقها، وتفتحها لتقرأها بسرعة.

تشعرُ بمرض مفاجئ. حيث يخبرها أخوها أنه تزوّج، أو كما قال: «تزوّجَ بشكلٍ ما» أيّا كان ما يعنيه. يخبرها أنه كان يشعر بالوحدة. تدسّ الرسالة في جيبها مجدّدا، وتستمر في سيرها شاقّة طريقها بين الحشود، وأكشاك البيع بمظلاتها البيضاء. تتشاحن الأفكار في رأسها. أخوها تزوّج. وتجد نفسها واقفة عند كشك بيع الخضروات المعتاد. «سنيورينا،» تنادي عليها البائعة، وهي فلاّحة مسنة ترتدي محرمةً قذرة فوق رأسها. يداها عليهما آثار من طين الريف. «فاصوليا رائعة، طازجة وقُطفت اليوم.» وتشير إلى زكيبة مملوءة بفاصوليا رومانو الخضراء المسطحة. تُدخل يدا ملوثة بالطين في الزكيبة وتغرف منها قبضة، ثم تتركها تسقط من جديد لتتمكن ليليانا من التقاط رائحة طزاجتها. أمُّ ليليانا تحبُّ هذا النوع من الفاصوليا، المطهية مع الطماطم والثوم. لكن ما فائدة الفاصوليا الخضراء الآن؟ تهزّ رأسها وتستمر في سيرها. تمرُّ على بائعي الدجاج، والحلوى، والنبيذ، والزيت، لكن بالكاد تعرف أين هي ذاهبة.

يقول إنه شعر بالوحدة. هو لا يعرف معنى هذه الكلمة.

تسيرُ عبر البلدة، مرورا بكاتدرائية سان جيوفاني، ثم تستدير يمينا نحو الجسر، وهناك، بعد أن كادت تصدمها عربة يجرها حمار، تصل إلى الممر المحاذي للنهر. تجلس على مقعدٍ تحت أشجار السنديان، وقد بدأت الأوراق تَحوُّلها إلى الأصفر، ومياه نهر لامبرو تبقبق في جريانها. تُخرِج الرسالة وتقرأها من جديد.

لقد تزوّج من فتاة محليّة، اسمها فريدة. ويقول: «هي صدمةٌ إلى حدّ ما، ولكن تعلمين فقد وصلتُ العمرَ المناسب، ولا توجد أي فتيات إيطاليات هنا؛ كلهن متزوجات، وأتيْن مع عائلاتهن، أو هناك أخريات مولعات بالتفاخر، واللاتي يفضلن من يرتدون البدلات. ولا يقصدن طبعا بدلة العمل الملوّثة بالزيوت. كلا ليس هذا النوع من البِدل».

هذا يخلو من الطرافة، ولن يضحكني. تقول لنفسها. فهي ترغب أن تكون واحدة من تلك الفتيات المبهرجات. ثم يذكرُ مرة أخرى التذكرتين اللتين رتّب لشرائهما لحضور سباق مونزا. لكن لماذا سترغب في الذهاب لمشاهدة السباق من دون ستيفانو؟

يضيف أخوها في النهاية «لا تخبري أبي وأمي. لم يحن الوقت بعد.»

أحيانا، وبين فترات غياب رسائل ستيفانو الطويلة، تصلهم بطاقات بريدية، كانت ليليانا ترتّبها في الجزء الخلفي من أدراج دولاب غرفتها. حيث تحتفظ هناك بصورٍ للكاتدرائية الجديدة في طرابلس بِبرجِ جرسها على الطراز الروماني، الذي لم يُستكمل بعد، وصورة لحوض السفن، ولزاوية شارع به حانة اسمها «بار إيطاليا»، وامرأة من السكان المحليين مرتدية اللباس التقليدي، وقلعةٌ مجاورة للبحر، وصفّ نخلاتٍ وراءها تلال من الرمال، وبعيرٌ يُخرِج لسانه الطويل، وكذلك صورة لإميليو ماتيراسي في سيارته «البوغاتي» عندما فاز في سباق طرابلس العظيم في السنة السابقة 1927. وبين كل ذلك صورة لفتاة محلّيّةٍ، كُتب وراءها «جمال عربي». ترتدي محرمةً سوداء فوق رأسها، لها حاجابان مرتفعان ومقوّسان، وعينان مائلتان مظللتان، في أذنيها أقراطٌ تبدو في حجم الأساور، مع عدد أكبر من الحليّ تتدلى حول عنقها وفوق صدرها، وكذلك قطعٌ مخرّمة، وشيء يبدو مثل حليَة حلزونية تتدلى من سلسلة. وبطريقة ما، مثبّتٌ في جانب رأسها الأيسر لويحة رفيعة من المعدن المطروق، مثل جرابٍ صغير. لها وشمٌ أسفل شفتها السفلى يصل إلى ذقنها، وآخرُ فوق جبينها. كانت ذراعاها البيضاوان عاريتين، ويصعُب فهم التعبير المرتسم على وجهها. ليست نظرة تحدٍّ، وليست نظرة ترحيب كذلك. إنها نوعٌ من الفراغ والتجرّد. وكأنما تسمحُ للمصوّر أن ينجز عمله لأنها مُجبرةٌ، لكنها لا تعطي كل شيء، وتحتفظ بشيء ما.

عند عودتها إلى البيت، تنظر ليليانا إلى البطاقة مرة أخرى. ربما الفتاةُ التي تزوجها أخوها تشبه صاحبة الصورة، فتحدّقُ فيها بعدوانية. ورأت أنّ ما فسرته في السابق بأنه تردّدٌ، تعتبره الآن تكبّرا واحتقارا. هذه المخلوقة البغيضة، بكل هذه الحليّ الباهظة التي لا يمكن تفسيرها. ماذا كانت؟ ألم يكن لديها ما يكفي من الأساور؟

قلبَت ليليانا البطاقة لتواجه الجدار، فلا يمكنها أن تطيق النظر إلى المتوحشة التي سرقت أخيها، وسرقت مستقبلها هي في جميع الأحوال.

حبيبتي

مادة: قطعة شوكولاتة مهروسة وملفوفة في رقيقة خضراء

حاولت سعيدة ثلاث مرات مكالمة أمّها في طرابلس دون نتيجة. ولا يوجد حتى صوتُ رنين، مجرّدُ أزيز عالٍ، كما قال عامل المقْسم، الذي اقترح عليها التحقّق من الرقم فربما لم يعد يعمل. اعتقدت سعيدة أنّ ذلك ربما سببهُ أجهزة التنصّت التي وضعتها السلطات على خط الهاتف. لقد اعتادت سماع صوت ضجيج، وأنفاس شخصٍ ما، وربما حتى سمعت الحديث أحيانا، لكن ألاّ تتمكنَ من الوصول إلى الرقم، فهذا جديدٌ بالنسبة لها. كانت متأكدة أن أمّها لا بد وأن عرفت بإطلاق الرصاص، لكن من الضروري إبلاغها بأنهما لا يزالان على قيد الحياة.

لم تستطع الوصول إلى الخط هذه المرة أيضا، فأعطت المشغّل رقم هاتف جارهم مسعود، الذي يسكن قبالتهم على الطريق الرملية في المنطقة الغربية من طرابلس. بينما الهاتف يرنّ، تخيّلت بيت عائلتها، والزهور البرّية الزرقاء التي تنمو فوق سور الحديقة الأمامي، ومن خلفه مياه البحر الرقراقة بلون الفيروز. ذهبت هنا إلى شاطئ البحر في «أوسيتا» ميناء روما، لكن البحر لا يبدو متلألئا كما في الوطن. ردّ مسعود على اتصالها، وأخبرها أنّ أمها كانت تتصل بالشقة في روما. بإمكان سعيدة أن تعرف من خشخشة الخط، أن هاتفه مراقبٌ أيضا، وتساءلت إن كان يعرف ذلك. «لا يوجد أحدٌ في الشقة، وكلنا في المستشفى. على كل حال، لقد انتقلنا، ولم نعد نسكن تلك الشقة.»

لم تستطع تفادي تزويد أمها أيضا بمعلومات غير صحيحة.

«أعطني اسم المستشفى ورقم الهاتف، وكذلك القسم الذي يوجدان فيه، وسأخبرها.» قال لها.

لكن إن فعلت، فستمرّرُ المعلومات إلى آخرين. «إنهما في العناية،» أخبرته، وأضافت، «إصابتهما بليغة، وقد يفارقان الحياة.» ثم تمتمت لنفسها، «لكن قد تتحسّن حالتهما، إن شاء الله.» ولمست تميمة الخُمْيْسة الفضية التي تتدلى من رقبتها.

«أنا شديد الأسف، وإن شاء الله سيتعافيان. لديّ قلمٌ، أعطني معلومات المستشفى.»

«عمّي مسعود، عمّي مسعود، هل يمكن أن ترفع الصوت، لا يمكنني سماعك.»

«ما زلتُ على الخط.» صرخ بصوت عال. وأغلقت السمّاعة.

في طريق عودتها إلى القسم، مرّت بالممرضة صاحبة الشعر المخطط، التي رأتها مسبقا، تسير في الاتجاه المقابل. «كيف حالك؟» سألتها الممرضة.

«بخير.»

«يؤسفني أن ليس لك أقارب في الجوار يمكنهم رعايتك.»

«ويؤسفني أيضا.»

«أليس لكِ حتى معرفة بعيدة ما، فكلنا لدينا عمّةٌ ما، أو قريبٌ ما، يمكننا أن نجده في مكان ما. أليس كذلك؟»

لم تكن الممرضة تتحدث عن أشخاص في مثل وضع سعيدة. أشخاصٌ في المهجر، جميع أقاربهم موجودون في قارة مختلفة، خلافا عن المصابين بقسوة. فكّرت في أمها، وجدّتها، وأخواتها الكبار، وكم هم بعيدون عنها، وكيف لا يمكنها الاتصال بهم حتى هاتفيّا. تمكنت من الابتسام لأن الممرضة كانت تحاول أن تكون لطيفة.

«كل أقاربي في ليبيا، وغير مسموح لهم بمغادرة البلاد. ليس من دون إذن رسمي، وهو ما لا يمكنهم الحصول عليه لأن أبي معارضٌ للنظام.»

لم تقل الممرضة كلمة، لكنها كانت منصتة.

«يتعيّنُ على عائلتي في ليبيا أن تكون حذرة، فقد اعتُقل المئات، وربما رأيتِ ذلك في الصّحف.»

كانت الممرضة ودودة، تقصدُ الخير، لكن يجب أن تكون سعيدة حذرة حول إعطاء أيّ معلومات. فأبوها يردّد دائما أنهم ضيوفٌ في إيطاليا، وأنهم وجدوا ملاذا هنا، وبالتالي يجب أن يتصرفوا باحترام تجاه مضيفيهم. تفهّمت الوضع، وكانت تصرفاتها وفقا لذلك، إلى حدّ ما. لكن القضية، أنه لا يبدو أن أحدا يفهم شيئا عن ليبيا. كانت ستفهمُ الأمر لو أنهم يتحدثون عن جمهورية كازاخستان، أو عن جزءٍ من الاتحاد السوفييتي لا يُعرفُ عنه شيء، وربما لم يذهب إليه الإيطاليون أبدا، لكن هذه ليبيا. المكان الذي كانت فيه إيطاليا مسيطرة، وشاطئ إيطاليا الرابع. في وطنها ليبيا، لم تُنس هذه الصلة أبدا، أمّا هنا، فلا يعلّمون هذا الجزء في مادة التاريخ في المدارس. أو على الأقل ليس في مدرستها. «لكن هل عائلتك في ليبيا آمنة؟» سألت الممرضة.

أومأت سعيدة برأسها، «كان على أبي الخروج وإلاّ ألقي به في السجن، ليس لأنه قام بأي عمل سيّئ.» وهزت رأسها بشدة، «إنما لمحاولته القيام بشيء جيّد، ولكنه شجاع. لهذا يريده العقيد القذافي ميتًا.»

ما كان عليها أن تقول كلمة ميّت. وما إن غادرت الكلمة فمها، حتى ضربت وجهها بيدها محاولةً منع خروج أنّةٍ فظيعة من فمها. عليها التحلي برباطة الجأش.

وضعت الممرضة يدا على كتفها وضمّتها إليها. «وضعُ أبيك جيّد فلا تجزعي، نحن نعتني به، وتقول الشرطة إن المهاجمين غادروا البلاد.»

«نعم.» قالت سعيدة من بين الأصابع فوق فمها.

«ونحن نقوم بحمايته.» فأنزلت سعيدة يدها من على فمها.

«شخص مريعٌ هذا القذافي. أن يرسل قتلةً وراء أناس مسالمين، لا يستطيعُ كسب قضية خلافيّة مع معارضيه بالمنطق، فيُسكتُهم بطريقة أخرى. هذا فظيع.» قالت الممرضة مرة أخرى.

«عندما أكبر، سأصبح محامية.» أعلنت سعيدة. لقد فكّرتْ في الأمر لبعض الوقت. في الحقيقة أرادت في البداية أن تصبح راقصة، لكن ربما مهنة المحاماة أكثر نفعا.

«أرجو لك التوفيق.»

ستكرّسُ نفسها للرّفع من مستوى الإنسانية، وفي محاربة الجهل.

«أتساءل لماذا أتى بك أبوك معه إلى هنا؟ ألن يكون حالك أفضل في وطنك مع أمّك؟»

تذكرُ في تلك الليلة عندما دخل أبوها إلى غرفتها حين كانت نائمة، وقُبلتُه هي ما أيقظها من النوم. نزلت من سريرها بعد مغادرته الغرفة، ووقفت على الدّرج منصتة لأبويها يقومان بترتيباتهما الخافتة، وإلى همساتهما الحادة، وجدالهما حول ما إذا كان من الأفضل أن يصطحبها معه. كان مضطرّا إلى المغادرة على الفور، فغدا أو اليوم الذي يليه، سيأتي في طلبه أعضاءُ اللجان الثورية. سيحاول الوصول إلى روما، ومن ثم إلى ملاذٍ توفره له صديقتهم، مدام سيمون، في بيتها. لم تتقبل أمها فكرة مفارقة طفلتها. لكنها أيضا أرادت لها حياة أفضل، وأكثر حرية. أمّا والدها، فلم يرغب في التفريق بين الأم وابنتها، وكان قلقا ممّا سيحدث لو اكتُشف أمرهما على الحدود. كان هذا مسار النقاش بينهما جيئة وذهابا. وعرفت أنهما يفكران في مصيرها، وأن أيام عيشها مع والديها مجتمعين قد ولّت بسرعة. صعدت الدرج من جديد، وارتدت ثيابها في الظلام. جهزت حقيبة صغيرة، وأعلنت، «أنا قادمة،» كانت في الحادية عشرة من عمرها، وحان وقت أن تتحكّم في مصيرها. «لا يمكنك الذهاب لوحدك يا بابا، فأنت لا تعرف الطبخ.» رأت العرق يتصبب من وجهه، على الرغم من الوقت كان صباحا، والشمس لم تشرق بعد. وأمها كانت تبكي.

«هي حكاية طويلة.» قالت للممرضة، لكنّ أبويّ أرادا أن أحصل على تعليم مناسب، وعلى فرصة لمستقبل أفضل. فأومأت الممرضة برأسها.

«هربنا أنا وأبي. تسللنا عبر الحدود إلى تونس، ومنها إلى روما لأنّ لنا فيها أصدقاء. من أسميها جدتي، مدام سيمون، هي من ساعدتنا. أما الخال أبرامو، فتبع خطانا لاحقا، لكن مبرّراته للهرب مختلفة عن أبيها. وقال إنها أسبابٌ شخصية.»

«وأين هي مدام سيمون الآن؟ ألا يمكنها رعايتك؟»

هزت سعيدة رأسها وقالت بصوت خافت، «إنها مسنّة.» لن تقول هذه الكلمة مرة أخرى. ليس بقصدٍ على الأقل.

«يا طفلتي المسكينة!» ضغطت الممرضة على كتفها مرة أخرى، ثم أنزلت ذراعها. «ظننتكِ نصف إيطالية.»

«بالفعل. أنا نصف إيطالية من ناحية أمي.» وأخبرتها أنّ جدّها وجدّتها لم يتزوجا رسميًا، وأنجبا أمّها، التي لم تُقبل من الكنيسة أو من الدولة. «ليس رسميًا على أيّ حال.» أرادت أن تضيف شيئا، في حال فُهم من حديثها أنها تتفاخر بأن تكون إيطالية أفضل من أن تكون ليبية، وهو ليس كذلك، لكنها لم تصل إلى فكرةٍ محدّدة.

«أها، هكذا إذن، سترين أنّ شيئا ما سيحدث.» ثم ربتت على ذراع سعيدة، وتابعت سيرها في الممر.

هناك مقعدٌ طويل خلفها، وأشارت ساعة الحائط إلى الثانية بعد الظهر، فقررت منح نفسها خمس دقائق. جال بخاطرها حديثٌ تبادلته مع الخال أبرامو، عندما سألته عن سبب عدم معرفة الناس هنا أيّ شيء عن ليبيا. وبطريقته المعتادة نظر إليها قبل أن يجيبها، وكأنه يقيس مستوى الرد الذي يزودها به، وقال: «هناك جانبان لهذا السؤال.» بإمكانها معرفة أن هناك أكثر من جانبين، لكنه كان يبسّط الإجابة لها:

«ثمة أشخاص يعرفون واختاروا ألاّ يتحدثوا عن الأمر، أو حتى يخفوه، وهناك من لا يعرفون، لأنّ أحدا لم يخبرهم قط، وعليه يعتقدون أنه لا يوجد أي شيء يمكنُ معرفته.» فكّرت فيما قال للحظاتٍ وقالت، «إذن، إن لم نعرف ما لا نعرف، فلن نعرف كيف نطرح السؤال في المقام الأول.» «تماما.» ردّ عليها، وأخبرها أن الناس في الغالب يحاولون إخفاء ما لا يطيقون رؤيته، أو ما يجعلهم يخجلون، أو ما يخشون أن يجعل حياتهم صعبة. «مثل بابا، في اضطراره إلى عقد اجتماعاته السياسية في الخفاء.» فوافقها أبرامو على كلامها «نعم. الناس يخلقون الأسرار ويحافظون عليها لأسباب مختلفة، الجيّد منها والسيئ، لحماية أنفسهم أو الآخرين، بالإضافة إلى تجنّب العسف والمهانة، لكن بغض النظر عن السبب، فالتأثير واحد. أن تعيش مع سرّ يعني أن تكون مقيّداً.»

تذكّرت الأسى الذي بدا على وجه أبرامو عندما قال ذلك، وهو ما جعلها تريد الركض إلى القسْم حيث يرقد، لكنها لم تتحرك. كانت على دراية بسرّها الخاص. لم تبلغ إدارة المستشفى أن أبرامو خالها، وخالجها إحساسٌ ما بالخجل كأنّها تتنكّر له. لكن على العكس من ذلك. كل ما أرادته هو تأمين حياته. «الحياة عمليةُ تسويةٍ. يا حبيبتي.» أخبرها ذات مرة. «الناس يطردون الوحوش التي بداخلهم، ويسدّون الباب بالطوب كي لا يسمعون صرخاتها.» فكّرت أن الوحوش التي يتحدث عنها هي ما اقترفته إيطاليا في ليبيا من سوء، مثل معسكرات الاعتقال، وعمليات الشنق، لكن في وقتٍ ما اكتشفت أنه لم يعد يتحدث عن إيطاليا وليبيا، وإنما عن نفسه وعن كيف كانت حياته في ليبيا، حيث يضطر من على شاكلته لإخفاء طبيعتهم الحقيقية. أخبرها مرّة: «كلما حاولتِ أكثر إخفاء سرّ ما، كلما تخطت أفعالك ذلك السر،» فقالت لنفسها، لا بد وأنّ أبرامو شعرَ بوحدةٍ قاتلة. رمشت عينيها ونظرت حولها.

على الجدار المواجه لها، هناك خزانةٌ لها باب قصير، وفتحة قفلٍ دائرية، لكنها تعرف أنه من النوع الذي يمكنها فتحه بأظافرها. ربما اشتملت الخزانة على مواد كهربائية. نظرت إلى الأعلى ورأت فتحة تهوية مستطيلة في سقف الممر. إذا ما حركت المقعد ووقفت فوقه، يمكنها فتح غطاء التهوية وأن تسحب نفسها بداخلها. تخيلت نفسها تزحف على طول ممرّ التهوية الموجود فوقها، والذي يمثل ممرا سرياً عبر المستشفى.

تخيلت فجوات عديدة، وخزانات مكانس، وغرف الغلاّيات، وأقبية، ومبانٍ خارجية، وأبواب مكتوب عليها للعاملين فقط، وملاجئ في المدينة يمرّ بها آخرون وقد لا يلاحظون وجودها. سجلت في ذهنها خريطة لهذه الأشياء على طول الطرق التي تسلكها عبر المدينة. كانت تعرف أنها كبيرة، وكم كانت مرئيّة من الطريق. وإن كانت تتوفر فيها مساحة للاستلقاء، وللوقوف، لشخصين أو ثلاثة.

في المجمّع الذي توجد فيه شقتهم في روما، لديها مخبأ سريٌّ. كان المبنى يتموضع فوق شارعين وله مدخلان منفصلان. أحدهما يقود إلى الشقق فوق الدّرج أ، حيث يقطنون في الطابق الثامن في الشقة الخاصة بمدام سيمون. والآخر يقود إلى الشقق فوق الدرج ب. وكلّ شقة لها مكان تخزينٍ خاص بها في القبو، وهي غرفٌ على شكل زنزانات، كلّ مخزنٍ له باب معدني في ممرّ خالٍ من النوافذ به إضاءة جانبية على طوله، تعمل بمؤقّت يُحدِثُ أزيزا كلما تمّ تشغيله.

في نهاية الممر حيث يوجدُ مخزنهم، وبعد آخر الأبواب المعدنية، اكتشفت سعيدة باباً من نوع مختلف، مصنوعا من الخشب، وتصعُبُ رؤيته لأنه مطليّ بالأبيض مثل الجدران الإسمنتية. كان يُفضي إلى درجٍ بالٍ يقودُ إلى تحت، نحو ممرٍّ ترابي، يؤدي بدوره إلى مجموعتين متوازيتين من السلالم يصعدان نحو بابٍ آخر يُفضي إلى حجيرات تخزين تحت الدّرج ب، وهناك قامت بدفعِ كلّ بابٍ معدني تحاول فتحه، حتى وجدت أحدها غير مقفول، وفارغا. وجدت المفتاح في القفل من الداخل فوضعته في جيبها، ربما لم يرغب صاحب الشقة التي يتبعها المخزن في استغلاله. أو ربما تكون الشقة نفسها غير مسكونة. وضعت في المخزن بعض الأغطية والوسائد إلى جانب بعض المعلبات المعدنية من فاصوليا بورلوتي. ثم راقبت المكان بانتظام فتأكدت أن لا أحد غيرها يدخله.

من بين كل أماكن اختباء سعيدة، كان هذا أفضلها لإمكانيةِ استخدامهِ أكثر من ملجأٍ مؤقت. فإذا ما تعرضوا للاستهداف أو المراقبة، أو شعروا بعدم إمكانية العودة إلى الوطن، تصوّرت أن بإمكانها أن تقود أبيها، أو ربما حتى الخال أبرامو إلى هذا المكان الخفيّ. ربما سيرونهم وهم يدخلون بنايتهم، ولكن ما أن يوجدوا بالداخل، سيختفون، وينتظرون انتهاء المحنة.

لكن ها هي الآن لوحدها في المستشفى، ولم تعد خطة اختبائها الساذجة قابلة للتطبيق. إنها محض لعبة طفولية.

لو أنّ مدام سيمون لا تزال حيّة، سيكون باستطاعتها رعاية سعيدة، أو لو أنّ لها قريبًا ما كما قالت الممرضة. كم رائعٌ، لو أن عمّةً ما تأتي إليها. تخيّلت امرأةً ما قوية وضخمة، بصدرٍ كبير وذراعين قويين، مثلما كانت عليه مدام سيمون

عند مجيئهم إلى روما أوّل مرة، لما كان عمر سعيدة ست سنين. فكّرت في ماهيّة الشعور بأن تُحتضن، بالرغم من أنها كبرت الآن، وليست بعيدة تماما عن النضج الكامل. ومع هذا، تخيلت هذه العمّة القوية ترفعها إلى حجرها، وتضمّها إليها. ستفوح منها روائح البسكويت وعطر الكولونيا. وتقول لها: «حبيبتي، عمّتكِ ستهتمُّ بكل شيء.»

قفزت سعيدة مستيقظة عندما ربت أحدهم على كتفها. «ماذا؟» سألت، «ما الأمر؟» وجدت نفسها مستلقية على ظهرها فوق المقعد الطويل.

كانت الممرضة الشابة صاحبة النظارات والشعر الأحمر المجعد، التي فاجأت سعيدة، تنحني فوقها. وأخبرتها، «لا يمكنكِ النوم في الممر.»

فركت عينيها الغائمتين، طوّحت ساقيها وجلست، وبدا لها أن الممرضة كانت تنتظرُ منها أن تقول شيئا. «هل من أخبار جديدة؟» نطقت أخيرا. فهزت الممرضة رأسها نفيا.

نهضت واقفة. هذه الممرضة لا تحبها، ولا ترى أنّ بإمكانها فعل شيء حيال ذلك، فربما هناك مشكلةٌ في الطريقة التي ترى بها الممرضة الأمور. حانت منها التفاتة إلى أقدامهما، هي بحذائها البالاريني الأحمر، والممرضة في حذائها الرسمي الأبيض بنعله الناعم ورباطه الأمامي، وانتظرت أن تغادرها الممرضة.

عندما تركتها، اتخذت سعيدة وضع القتال، ففردت ذراعيها، ومدّت سبابة يدها اليمنى نحو اللانهاية. مدام سيمون هي من علّمتها ذلك عندما كانت فتاة صغيرة. قالت من بين أسنانها، «أنا محارِبة.» مستدعيةً الطاقة من أسلافها الإناث اللائي ساعدن في تشكيل شخصيتها، ولولاهن ما كانت هنا. أحيانا تختارُ سيمون، التي عاشت حياتها يغمرها الحب دون تقديم تنازلات. في أحيانٍ أخرى تصوّرت أمّها التي لم ترغب في أن تفارقها ابنتها، لكنها رضخت في النهاية. لكن في الغالب، فكّرت سعيدة في جدّاتها الأسطوريات، عندما كنّ في ريعان شبابهن، قبل خمسين عاما، وعبرن الصحراء، يحملن أطفالهن، بينما القنابل تتساقط فوق رؤوسهم. لكنها اليوم تفكّر في امرأةٍ بعينها من برقة، اسمها زهرة. فعندما كانت الجدّات على شفير الموت، في قرية مهجورة في الصحراء الشاسعة، لا يملكن طعاما أو ماءً، وكأنما بفعل السحر، ظهرت زهرة، وأنقذت حياتهن.

لاحظت جلبةً في الممر، حيث يتمّ دفعُ سريرٍ متحرك بسرعة، من قبل شخصٍ ومعه الممرضة اللطيفة ذات الشعر المخطط التي تهرول في الجوار ممسكة بقنينة سائل موصولة بأنبوب إلى المريض في السرير. عند مرورهم، لاحظت أنّ خالها هو الذي يتمدد في السرير المتحرك بسرعة، فأحسّت بغثيان مفاجئ. «إلى أين تأخذون هذا الرجل؟» سألتهم.

«غرفة العمليات.» أجابت الممرضة.

«ظننتُ أنه تجاوز دائرة الخطر.» صاحت وراءهم. فردت الممرضة، «سآتي إليك فيما بعد، لكن لا تقلقي، فأبوك بخير.» وهرعت سعيدة عائدة إلى أبيها.

«كل شيء على ما يرام، ولا مشاكل يا سنيورينا.» أخبرها الحارس عند باب الغرفة.

«أحضرت لك بعض الشكولاتة.» أخرجت عدة حبات من جيبها، وأسقطتها في حجره.

ثم جلست بجوار أبيها، لتستأنف نوبة حراستها الخاصة.

واحة في برقة

مادة: بطاقة بريدية عليها صور بعيرٍ وراكبه خلفهما شمس حمراء تغرب في أفق الصحراء

اتّخذ ستيفانو له زوجة. في الواقع لم يذهب إلى الصحراء من أجل ذلك، ولا يزال غير واضح لديه كيف حدث ذلك، لكنه حدث على كل حال. وقد تغيّرت حياته في طرابلس بالكامل.

عندما يكون في عمله أثناء النهار يكاد ينسى أن له زوجة، ثم ينظر بعيدا عن المحرّك المنشغل بصيانته، فيتذكّر حقيقة وجودها في حياته، وتلك الحقيقة تعدّ استثنائية إلى الحد الذي لا يستوعبها بعد. ويريد أن يهرع إلى البيت ليتأكد أنه ليس حلما. هذا الذي حدث له كان من المستحيلات، وبالأخص لرجلٍ عادي مثله. لكنه يعرف أنّ الخيال يعوزه ليتخيّل مخلوقا مثل فريدة.

ثم يفكّر، ما الذي فعله؟ أحيانا ما يكون التساؤلُ مملوءا بالعجب، وأحيانا أخرى بالخشية، لكن في الأغلب يتمرجح السؤال بعنف من جهة إلى أخرى مثل إبرة باروميتر عندما تكون عاصفةٌ ما في الطريق. لقد أنفق كل نقوده التي كان يدّخرها لرحلة العودة إلى الوطن ليدفعها مهرا للعروس، وعلى استئجار بيتٍ في المدينة القديمة بطرابلس. لا يمكنه التفكير الآن في كيفية ردّ ديون ألفونسو المستحقة عليه، لكن سيكون على صديقِهِ أن ينتظر.

كان مُفتتنًا بعطرها الغريب وغير المعهود له، وببساطتها ورقّتها، وكذلك بحضورها البارز في حياته. مفتتنا بها وهي تنام في حضنه، عندما يستيقظ في الليل ويشعر بوجودها هناك منطوية بين ذراعيه، يبدو له وكأنهما يطفوان معا في قارب ما، يبحران في ظلمة ليل طرابلس.

الوقت الآن في الصباح الباكر، ولم تصحُ الفتاة بعد، فيفتح باب غرفتهما الشبيهة بالكهف ليدخل إليها بعض الضوء، ثم يعود إلى الاستلقاء بجوارها. كيف حدث ذلك، يقول لنفسه. لقد كنتَ تمضي بهدوء في حياتك البسيطة، حيث يبدو أن شيئا ما يقود إلى آخر، وتعتقد أنك تعرف ما القادم نحوك، لكن فجأة، بوووم، يتغيّر كل شيء.

* * *

في أبريل الماضي وبعد انتهاء سباق الجائزة الكبرى، كانت هناك فترة خفّ فيها العمل كثيرا، وخلالها جاء ألفونسو إلى المدينة لتمضية بضعة أيام. كان على وشك السفر إلى الجزء الشرقي من المستعمرة في برقة، ودعا ستيفانو لمرافقته.

رسم ألفونسو صورة رائعة لصحراء برقة الواقعة إلى الجنوب من بنغازي، وشرق بحر الرمال العظيم. وأخبر صديقه أن هناك واحةً تتمايل فيها أشجار النخيل، وبها بحيرةٌ ملحيّة يترقرق ماؤها في ظل قمرٍ وردي، وتلك هي وجهته وأن رحلتهما «ستكون مغامرة،» مضيفا، «سننام تحت سماء الصحراء، ونشرب حليب الإبل تحت ضوء النجوم.»

فكّر ستيفانو أنه يفضل لو يحتسي كأسا من النبيذ، لكنه لم يُفصح عن ذلك.

«كما أنك بحاجة إلى إجازة، متى كانت آخر مرة استمتعت فيها بعطلة ما؟» استمر ألفونسو يحثه.

لم يحصل ستيفانو على عطلة أبدا، ولم يشغله ذلك فلم ير أنه في حاجة إليها. لكن أشخاصا مثل ألفونسو، من رجال الأعمال الميسورين، هم من بحاجة إلى عُطلات، وليس أمثاله. وفي كل الأحوال فقد كان يدّخر النقود، ليقوم برحلة إلى الوطن الذي لم يعد إليه منذ أن غادره، كما أنه بحاجة إلى رؤية ذويه. وبالذات يرغب في رؤية أخته الصغيرة، ليس فقط لشوقه إلى رؤية وجهها الرائع الصغير، وإنما لأنه اكتشف شيئا غير مريح في نبرة رسائلها إليه.

لكن ألفونسو تعهّد بتحمل تكاليف رحلتهما، وقال إن ستيفانو سيكون عونا له، وهنا حيث استسلم لإلحاح صديقه.

تخيّلَ أنه سيقدّم مساعدة عمليّة خلال الرحلة، فعلى الأقل يمكنه الاهتمام بمحركِ السيارة التي سيسافران بها إن حدث لها عطلٌ ما. لكنهما تركا السيارة عندما انتهت الطريق المرصوفة في بلدة مُغبرة تسمّى اجدابيا، وتوجها إلى الصحراء على ظهور مجموعة من الإبل، وبالتالي لم يكن واضحا لديه نوع المساعدة التي كان يقصدها ألفونسو.

كان ستيفانو رجلا عمليّا، يحبّ أن يقوم بالأعمال المختلفة، لكن عندما عدّل وضع السروج على ظهور الجِمال لأنه اعتقد بوجود طريقة أفضل لربط الحمولات، رأى الجمّال في ذلك إهانة له وشتمه. ففسّر له ألفونسو أن العلاقة مع الأهالي في الصحراء مختلفة تماما. وأنه عليك أن تكون حذرا لأنك بحاجة إليهم لإرشادك، وليس التخلي عنك، أو تسليمك إلى قطّاع الطرق.

بينما هم يشقون طريقهم فوق هذه الإبل المتمايلة، أتخمه ألفونسو بحكايات عن المخرّبين الذين يظهرون في الطريق ثم يختفون مثل السراب، بحيث تقرصُ نفسك بعدها وتتساءل إن كنت في حلم، حتى تتبيّن أنهم مزّقوا قِرب الماء، وأطلقوا سراح الإبل.

لم يتحدثا عن العصابات وحسب، وإنما تطرّقا إلى حال بلدهما أيضا، حيث شرح ألفونسو نظرية كارلو روسيللي حول الاشتراكية الليبرالية، واتفقا على أنهما يَعتبران نفسيهما من أتباع هذه النظرية. كان كارلو روسيللي قد حوكم بالسجن لخمس سنين يقضيها في جزيرة ليباري. أيضا لألفونسو أسلوبٌ معيّن في تفسير الأشياء، ما جعلها واضحة في رأس ستيفانو، فكأنه يقول ما كان يفكّر فيه ستيفانو إلى حدّ ما، وإن لم يملك الكلمات المناسبة للتعبير عنه، وأن يسمع تفسيره بهذه الطريقة، بجُملٍ متكاملة، وقد عزز ذلك من فهمه للقضايا المختلفة. كان سعيدا بهذا، على الرغم من أنّ ما أخبره به

صديقه لا يقود إلى الشعور بالأمل. فأصوات المعارضة في إيطاليا كانت في تناقصٍ مستمر، وبسبب الرقابة على الأخبار بدأ جهلُ الناس يزداد. كانت الشعارات الفاشية تُكتب بخطوط عريضة في الأماكن العامة مثل شعار «الدوتشي دائما على حق» وكان الكثيرون يعتقدون بصحّة هذا الشعار. أو أنهم أرادوا أن يصدّقوا ذلك، لأنه يجعل الحياة أسهل. وحتى أولئك الذين حافظوا على استقلالية فكرهم، ولم يكونوا في السجون، أو في المنافي، صاروا أكثر هدوءا. لقد تمّ تدجينهم بالفعل. فأنت لا تعرف من قد يكون عميلا للنظام. كان لمنظمة البوليس السري (أوفرا) شبكة مراقبةٍ مُحكمة، تضم جواسيس في كل مناحي الحياة، فلا تعرفُ فيمن تضع ثقتك. والآن بعد أن ظهر أن هناك حوارا بين الكنيسة وموسيليني «الذي كان ملحدا متشددا قبل أوّل أمس» كما قال ألفونسو، فجأة تحوّل إلى شخص يخاف الله، وصار يعلن عن عُطلٍ دينية، وبالتالي لا مجال للوقوف في وجهه. كان من الأسهل الانصياع، وأن تستسلم لهم. كل هذا الحديث زاد من قلق ستيفانو على ليليانا، ولن يكون مفاجئا أن تنجذب إلى هذا النمط من الأفكار. كان ألفونسو يصدح بالغناء أحيانا لتسليتهما بعد هذه النقاشات المحبطة. ورأى أن له صوتا جذابا، ويحفظ كلمات أغانٍ عديدة. كما شاهد عرض أوبرا بوشيني الأخيرة المسمّاة (توراندوت) في مسرح كوستانزي، وحفظ منها مقطعا رائعاً بعنوان (ناسُّون دورما) فصار يصدح في تلك الصحراء.. فينشيرو (سأنتصر)

ومع ذلك مرت أوقاتٌ عديدة ركنا فيها إلى الصمت، لأن جوّ الصحراء ذاته يفرض ذلك. فأنت تسافر في صمت، وخفاف الإبل لا تحدث صوتا في الرمال، ومع ذلك يتعيّن رفع صوتك لكي تُسمع، كأنّ هناك ضوضاء يجب أن تتغلب عليها. كل تبادلٍ للأحاديث يتطلب مجهودا، لم ينجحا في بذله دائما.

تمنّى ستيفانو لو كان الآن في طرابلس حيث الطرق الممهدة تحت قدميك، وحيث يمكنك تناول الكابتشينو في الميدان. ففي المدينة هناك، لم يكن يمانع عندما يشاهد قطعان الإبل تُساق بالمئات في الشوارع، حيث رأى أنها جزءٌ من الإثارة في موطنه الجديد. لكنه الآن وقد اقترب منها أكثر، لم يحبّها. بسبب روائحها، ولعدم إمكانية التنبّؤ بتصرفاتها، إلى جانب رائحة أنفاسها الكريهة. كما كانت تتحرك بسرعة بطيئة تبعث على الضجر.

كان كَرَماً من ألفونسو أن يدعوه إلى هذه الرحلة، لكنه تمنى لو قال له لا. فالنهارات تغلب عليها الرتابة التي تؤلمه، والليل يغلب عليه البرد القارس، والرمال في كل مكان، إلى جانب عطش دائم ينتابه، وهكذا لا شيء يمكنه فعله، سوى مزيد من التحمّل.

في الأمسيات كانا يراقبان مسعود، حادي الجِمال، مع حسين، الدليل والمترجم، وهما يلعبان الدّامة على ضوء النار، مستخدمين قواقع بيضاء في لعبتهما.

بعد ثلاثة أيام من المسير عبر أرض مسطحة جرداء تخلو من الألوان، تتخللها أحيانا بقايا شجيرات ذات لون رماديّ، رأوا أمامهم صفا من تلال رملية، مشوبة قليلا بالأخضر من حولها، رأوا ضبابا يميل إلى الخضرة، وبينما أخذت إبلهم تصعد المنحدر تلاشى الضباب دون أن يوفّر البرودة المرجوّة منه، لأنه لم يكن إلاّ سرابا. وبعد اجتياز الجرف انحدروا

نحو بلدةٍ صغيرة بيضاء تحدُّ بحيرةً من الزرقة والشفافية حتى أنهم ظنوا أنفسهم في عالم مختلف. لكن البحيرة كانت عبارة عن وهمٍ أيضا لأن مياهها مالحة، لا تعيش فيها الأسماك.

كانت راية السنوسية تتكوّن من هلال ونجمة فضيتين على خلفية سوداء ترفرف فوق الزاوية، وهي مدرسة للتعليم الديني في الشارع الرئيس. فالبدو من أهل برقة كلهم يتبعون الحركة السنوسية. وشرح لهما حسين، أن هذه البلدة تقع في طريق القوافل التجارية التي تحمل العاج وريش النعام من الجنوب، وقد يجلبون العبيد الأفارقة أيضا إلى أسواق الشمال. عندما سمع ستيفانو هذا ازداد خوفه من الصحراء، وما تمثله. فهم قد وصلوا لِتوّهم إلى مشارف هذه البلدة، ومع ذلك لا يطيقُ صبرا على الرحيل بأسرع ما أمكن. لكن صديقه أخبره أنهم لن يمكثوا فيها طويلا. يومٌ أو يومان وبعد ذلك يواصلون طريقهم.

في الليلة التالية، كانوا يجلسون حول نار الطهي ومعهم بعض الرجال من البلدة عندما شعر ستيفانو بضيقٍ في أنفاسه، وعزا السبب إلى الغازات المنبعثة من الحطب الذي رماه مضيفوهم في وسط اللهب. فغادر دائرة الجالسين.

سار بصمت خارج الفناء الملاصق لبيت صغير مشيّدٍ بأحجار طينية كانوا يقيمون فيه، ثم عبر ممرّا رمليا متعرجا بين بيوت لا نوافذ لها، بأبواب قصيرة جميعها مغلقة، ثم اتجه نحو مجموعة من النخلات على حافة البحيرة، ووقف تحت شجرةٍ محاولا تسريح حنجرته بسلسلة من السّعلات، لكن ما يشعر به من عدم ارتياح ليس من النوع الذي يمكن التخلص منه بالسعال، وتساءل إن وقع فريسة للمرض. جال بنظره فوق تجمّع البيوت على خلفيّة نتوءات صخرية وراءها تلقي بظلالها الأرجوانية عليها وعلى السطح المتلألئ للبحيرة الزرقاء، وكثبان الرمال بلونها الباهت في الجهة الأخرى. كان الوقت هو نصف الساعة الأخيرة من ضوء النهار، عندما تأخذ الألوانُ دكنةً إضافية. وكانت السماء أكثر زرقة مما رآه مناسبا، فتوهّجت الرمال الممتدة إلى ما لانهاية بلون ورديّ. يَعرفُ أنه سرعان ما تختفي الشمس، وتغادر كافة الألوان هذا المشهد.

بكافة الوجوه لم يستطع تخيّل ما الذي يفعله في هذه البلدة/الواحة التي لا يتمكن حتى من نطقِ اسمها. وبعد أن تذوقَ الآن حليب الإبل رأى صحّة موقفه السابق حول تفضيله لكأسٍ من النبيذ. فطعمُ الحليب في الفم مرّ المذاق وثقيل على المعدة، كما أنه لا يروي الظمأ.

وقف تحت الشجرة وحدّق في بحيرة الملح إلى أن عثرت عيناه على خط الأفق الحادّ البعيد، ومن سبّاطه الجلدي الذي ابتاعه من سوق اجدابيا تسرّب إليه شعور بالمرارة، وانساب تحت سرواله الواسع، فصعد بداخله نحو صدره الذي يؤلمه. لم يعتد التدبّر في اللامحدود، لكن ها هو يحيط به من كل جانب، ولا يمكن إنكاره. هذا الفضاء الهائل، وتلك النجوم البعيدة المخفيّة هناك في القبة الزرقاء الباردة. هذا الاتساعُ العظيم من الرمال يمتدّ أمامه وخلفه، أكثر فأكثر، فيبدو له وحشيّا.

شعر ستيفانو بالوحدة عدة مرات من قبل؛ عام 1924 عندما اغتِيل الزعيم السياسي الذي أحبّه كثيرا، غياكومو ماتيروتي. وأثناء العمل في مونزا حينما نُبذ عندما لم ينضمّ إلى الحمّى الفاشية التي كانت تجتاح مقاطعة لومباردي. وعندما

قبض عليه السكوادريسي يوزع منشورات سرية وقرروا تلقينه درسا. وعندما تخلت عنه خطيبته تيريزا وبدأت تتجاهله تماما في الشارع. في الواقع، لم يكن يريد الانخراط في السياسة، فلم يُردْ لها أن تؤثر عليه، بل رغِب أن يحتفظ بأفكاره السياسية لنفسه، كي يوظف طاقاته في صيانة وتشغيل محركٍ ما، وفحص ومعاينة دواليب سيارةٍ بأفضل ما يكون، لكن مع ذلك لم ير طريقة لتفادي السياسة. وعندما أجبره أبوه على الاختيار . إمّا الانصياع أو الرحيل .كان ذلك بالنسبة له وقتا عصيبا شعر فيه بالوحدة القاسية، وأحيانا كرِه أبيه لما فعل بسبب خضوعه وتملقه للنظام. نعم سيدي. كلا سيدي. لقد شعر بالوحدة أيضا آنذاك بالرغم من ادّعائه غير ذلك حينما ترك بيت العائلة وانطلق صوب حياته الجديدة. مرت به أوقاتٌ عندما وصل شعوره بالوحدة إلى الذروة في ذلك البحر الهائج الذي كان يعبره من إيطاليا إلى شمال أفريقيا. لكن حينذاك التقى بألفونسو، وتشاركا احتساء قنينة روم، بينما الناس من حولهم يتقيئون ويصرخون، وعندها نسي جزعه. فألفونسو، كان الوحيد الذي ظلّ واقفا في تلك الباخرة الصغيرة، ووجد فيه رفقةً مرحة، ليس في تناول الشراب فحسب، وإنما أيضا في إحساسه بالشباب وقوّة تحمله بدنيّا، وفي الإعجاب الذي أبداه الرجل الأكبر سنّا لروح المغامرة عنده. أيضا منذ ذلك الوقت مرّت به أوقاتٌ كثيرة في طرابلس شعر فيها بالوحدة. فكل من عداه لهم زوجات يعودون إليهن بعد انتهاء عملهم، ولهم خطيبات في الوطن سيلتحقن بهم في وقت قريب. لكن بالرغم من كل هذا، فقد خلق لنفسه نمط حياة ما، وهناك كثيرون في طرابلس يمكنه احتساء فنجان قهوة معهم، أو يمضي الوقت بصحبتهم، وهناك أيضا عدد من الشباب يلتقون أحيانا للعبِ الورق في مقهى يقع في ميدان إيطاليا. ثم عندما يأتي ألفونسو في زياراته لأداء بعض الأعمال، بمفرده أو بصحبة رفيقته سيمون، فيلتقون، ويصطحبه ألفونسو إلى أماكن لا يذهب إليها هو في العادة: النادي الليلي عند قوس ماركوس أوريليوس، وإلى حانةٍ في المدينة القديمة حيث يشاهدون عروض الرقص الشرقي المثير، ويدخنون الأرغيلة، وكذلك عندما يذهبان إلى الشاطئ الغربي.

عليه كان الشعور بالوحدة يأتي ويذهب ثانية. لكن هنا في هذه الصحراء الواسعة المنعزلة، لا يبدو أن هناك فكاكا من هذه الوحدة. فهو يشعر بضآلته، وأنه لا يساوي شيئا. وأن لا قدرة لديه على تحمّل هذا الإحساس الطاغي بالوحدة.

رفع يديه إلى وجهه مغطيا عينيه، وضاغطا بأصابعه فوق جفونه، ثم أطلق تنهيدة. فجأة سمع صوتا إلى يمينه جعله يُنزِل يديه ويستدير إلى مصدر الصوت، كما شعر بالرعب من فكرة أنه مراقَب. لكن لم يكن مصدر الصوت سوى بعيرٍ يدبّ ببطء لأنّ قوائمه مقيّدة ويبحث عن طعام. مسح وجهه بظهر يديه وأخرج سيغارة من جيب سترته وأشعلها. لم يترك عينيه تشردان بعيدا من جديد في ذلك الفضاء المريب وإنما ركّز النظر في المكان المحيط به. حدّق في تلك البيوت البسيطة، وفكّر أنّ الأهالي ربما يكرهونه، حتى بدون أن يتعرفوا عليه لأنه واحدٌ من النصارى كما أنه من المحتلّين. وربما يقوم ألفونسو الآن بالمفاصلة لعقدِ اتفاق مع زعماء القرية حول استئجار هكتارات من الأرض وسقايتها من الآبار المحلية لزراعة أشجار الزيتون فيها، ومثل تلك الأمور. لكن ستيفانو يعرف، ولا بد أن ألفونسو على دراية أيضا، أن هؤلاء القوم، حتى وهم يصافحونك ويبتسمون في وجهك، ينصتون ويهزون رؤوسهم موافقين، إلا أنهم يتمنّون لو أنك رحلت عنهم.

أشاح بنظره بعيدا عن البيوت ونفخ دخان سيغارته في اتجاه مجموعة من الأشجار إلى يمينه. نظر إلى الأعلى نحو سعف النخيل وإلى التشكيل الذي تُظهره على خلفية السماء، ثم إلى ظلّها على الأرض، وبينما بصره يتواصل فوق وتحت لاحظ وجود شخص ما، يقف ثابتا وراء الشجرة.

أحدهم يراقبه إذن.

بالرغم من أنّ نبض قلبه كان يتسارع داخل صدره، إلاّ أنه ألقى سيغارته على الأرض كأنه لم يلحظ شيئا. وبالنظر إلى الظل فوق الأرض يمكنه اكتشاف وجود ذلك الشخص الجاسوس ملتصقا بظل جذع الشجرة. لاحظ مدى سكون ذلك الغريب، ووقفا هناك يفصلهما عن بعضهما متران، لا أحد منهما يتحرك. ألفُ فكرةٍ مرقت بذهنه عن جواسيس ومخربين ورجال يمتشقون مدىً طويلة، لكن الأهمّ من كل ذلك أن هذا الدخيل لا بد وأن لاحظ أنه غير مسلّح، فأشعل ذلك غضبه وكوّر قبضتيه. وكما يحدث في ذلك المكان، غربت الشمس بسرعة وحلّ الليل. ثم في تلك اللحظة العمياء عندما كان النور الوحيد هو ما تبقى من بهرة ضئيلة تركتها الشمس خلف جفنيه قبل غروبها، والذي لم يكن نورا كافيا ليمكّنه من الرؤية، وقبل أن يتمكن الجاسوس من الهرب في الظلمة، قفز ستيفانو عبر المسافة بينهما، وأمسك به، ليجد أنه أصغر حجما ممّا توقع، كما أنه أطلق شهقة وحاول التملّص من قبضته. ثمّ انحلّ رداءٌ خارجي كان يلبسه هذا الشخص، وجاء في يد ستيفانو الذي أمسك بشدة وصارع هذا المخلوق المراوغ فأسقطه أرضا.

حينذاك فقط، ولمّا كان يرتمي فوقها عرف أنّ الغريب ليس سوى امرأة. كان صدره يضغط بثبات على نعومة نهديها، وبإمكانه الإحساس بدقات قلبها، وشمّ رائحة القرفة في أنفاسها.

رمش محاولا تركيز نظره. كان الوهجُ الليلكي البارد والبعيد للنجوم وللقمر من فوقهما قد أخذ مكان الشمس الغاربة وأضاء وجهها. وتوقفت حينها عن المقاومة. كان يعرف أنّ عليه أن ينزل من فوقها ويقف بسرعة، لكنه لم يفعل، واستمر يحدّق فيها.

سمع صوت رجالٍ يقتربون منهما، فتدحرج عنها وانتصب واقفا، ثم مدّ يده لمساعدتها على الوقوف، لكنها رفضتها ونهضت دون مساعدة. سلّمها قطعة القماش التي أمسك بها فلفّتها فوق رأسها وكتفيها، وتوقّع أن تركض مبتعدة، لكنها لم تفعل. حدّقت في وجهه مباشرة وقالت شيئا ما على الرغم أنه لم يفهم شيئا من حديثها، وبقيت في مكانها إلى جواره في انتظار وصول الرجال إليهما.

لقد أمضى في هذه البلاد ثلاث سنين ولم يسبق مطلقا أن شاهد وجه امرأة من الأهالي بهذا القرب. ففي طرابلس، إن خرجت النساء أصلا، فهنّ مغطّياتٌ بالكامل من الرأس حتى القدمين، وكُنّ بالنسبة له مجرد صرّة لا شكل لها، لا تظهر منها سوى عينٍ وحيدة. وبالتالي لسن نساءً في الحقيقة. وهنا، في مثل هذه القرى، رأى بعضهن عن بعد، ينتظرن دورهن عند البئر، أو ينظرن تحت من فوق أسقف المنازل المسطحة، لكن ليس بهذا القرب.

وصل إليه رجالٌ يحملون فوانيس يدوية وأحاطوا به. أخذوا الشابة بعيدا عنه، أما هو فساروا به عائدين إلى الفناء.

«ماذا حدث، وماذا فعلت؟» سأله ألفونسو.

«لا شيء.»

لكنه مخطئ. فلا يمكن التغاضي عن هذا الأمر الذي حدث. ولم يكن لا شيء.

عبر متاهة من الأفنية والغرف أُقتيدَ ألفونسو وستيفانو مع دليلهما حسين إلى بيت آخر، ليصلوا إلى غرفة مركزية ولكن خالية ومضاءة بالشموع، طُرحت فيها سجادات من وبر الإبل على شكل دائرة. ووقفوا هناك ينتظرون، محاطين بعددٍ من أهل البلدة الذين كانوا يثرثرون.

«دعني أقوم بالحديث.» قال له ألفونسو.

اقتحم المكان رجل آخر. شيخٌ له لحيةٌ رمادية يلبس رداءً داكن الزرقة. كان جردُه الأبيض مربوطا إلى الوراء ليفصح عن خنجرٍ يتدلّى من وسطه، بينما يضع يده فوق المقبض. حملق في ستيفانو بنظرةٍ تُطلق شرراً. تحدث الشيخ وشاركه آخرون. ثم تحدث ألفونسو، بينما ساعد حسين في شرح كلامه. كان ألفونسو يفردُ ذراعيه أمامه وراحتيه إلى فوق في دلالة على الخضوع، وأحيانا يضع يده فوق جبينه وفوق عنقه وهو يقوم بالانحناء. رأى ستيفانو غرابةً في الحركات واستنتج أنها تقاليد تدّل على التسليم، فأحنى رأسه أيضا. «أخبِره أنني ظننتها جاسوسا ما يراقبني، ومخرّباً مثل الذين أخبرتني عنهم في السابق. لم يكن لدي فكرةٌ أنها فتاة.»

«الضررُ قد وقع بالفعل.» قال ألفونسو الذي كان وجهه رماديا في ضوء الشموع.

رفع الشيخ يده عن مقبض الخنجر وأشار لهم بالجلوس، فجلسوا في دائرة فوق السجّاد.

«حسنا، حسنا،» قال ألفونسو موجها الكلمات لنفسه، أكثر مما هي موجهة لستيفانو.

أُحضِرَ كانونٌ إلى الغرفة من أجل إعداد الشاي في الزاوية، وجُلبت مقاعد قصيرة ليوضع فوقها اللوز والتمور. وحينما صُبّ كأس الشاي الأول، تحدّث الشيخ من جديد، وترجم حسين.

«أيها الفتي. لقد نظرت إلى وجه ابنتي.» واعترف ستيفانو بفعلته.

«وهل أعجبك وجهها؟»

أحنى ستيفانو رأسه وهزه موافقا. كانت صورتها لا تزال في ذهنه، الضفائر السوداء السميكة، وعلامة الوشم فوق ذقنها، وبريق الأقراط الفضية في أذنيها، وحول رقبتها، وعيناها تلمعان تحت ضوء القمر. هما بحيرتان غامقتان مظللتان بالسواد.

صفّق الشيخ، فظهرت الفتاة، لكنها كانت محجّبة هذه المرة. وقف الشيخ وانطلق في حديث ثم شاركه الآخرون، بينما ظلّت الفتاة واقفة في منتصف الدائرة.

هناك شيء ما يشي به حديث أولئك الرجال، رغم أنه لا يفهم معاني الكلمات، وفهم ستيفانو أنّ الفتاة غير مُهمّة بالنسبة لهم. وأنهم لا يسعون لسماع رأيها. وقد جرحه ذلك. ثم أنهى الشيخ حديثه.

«هي لك إذن،» قال حسين.

«ماذا يقصد بذلك؟»

«إنها زوجتك، ولا بد أن تدفع مهرها خمسين قطعة فضية.»

شعر بالحيرة فالتفت إلى ألفونسو طالبا تفسيرا لما يحدث.

«إنهم يقترحون كتب كتابها عليك، وهذا نوعٌ من عقد الزواج.»

«زواج! أنا حتى لا أعرفها.»

«لن يُقبل هذا الزواج في إيطاليا، ولن ينال اعتراف الكنيسة، لكنه يحدث في المستعمرات طوال الوقت. في إريتريا والصومال على الأقل. لم يسبق وأن صادفتُه هنا، لكن لا يعني ذلك أنه غير موجود. فأنا لا أعرف كل شيء. ثم هناك مسألة اعتناق ديانتها، ويمكن تجاوز ذلك بسهولة، فأنت غير متديّن على كل حال.»

«اعتقدتُ أنك تعرف كل شيء،» قال ستيفانو بوهن في محاولة للتفكّه.

«يعطيك هذا العقد حقوقا زوجيّة، ويرتب عليك مسؤوليات كذلك،» واصل ألفونسو حديثه بجدية، «سيتعيّنُ عليك رعايتها، والإنفاق عليها، وعلى البيت والأولاد.»

«حقوق زوجية، لكنها لا تزال فتاة صغيرة،» ردّد ستيفانو بغباء.

التفت ألفونسو للحديث مع حسين، وسمِعَ ستيفانو ثرثرة بينهما. بالكاد تعلّم شيئا بالعربية منذ مجيئه إلى هذا البلد، لكنه يعرف الأرقام، فسمع كلمة (خمسة عشر) وأومأ ألفونسو برأسه موافقا، «وربما تكون في سنّ السادسة عشرة، وهو ما يعني في هذه الأنحاء أنها كبيرة بما يكفي للزواج.»

إذن، فهي تصغره بعشر سنين. بشكلٍ أو بآخر في مثل عمر أخته الصغيرة. وطارت أفكاره نحو ليليانا، بعيدا في مونزا، وتساءل إن كان سيراها ثانية.

ألفونسو لا يزال يتحدث، ويخبره عن جنودٍ يعرفهم ارتبطوا بنساء من الأهالي في ذلك الوقت عندما كان في إريتريا. «ربما يمكننا الخروج من هذا المأزق، ولكن يتعيّن علينا دفع المهر في كل الأحوال. سأهتمّ بهذا الأمر، وسيكون الأمر عصيبا،

لكن لا يبدو أنهم ينوون قتلنا.»

«لكن ماذا عن الفتاة؟» سألَ ستيفانو.

«من الصعب معرفة ذلك، حيث توجد فجوةٌ بين فهمنا وفهمهم.

«إن اصطحبناها معنا إلى طرابلس يمكننا...»

«ماذا؟ أن نرسلها إلى بيت الراهبات؟ أو أن نُطلق سراحها؟ ليس هناك مثل هذا الترتيب للنساء هنا، فلا حقوق لهنّ.» قال ألفونسو.

«لكن ماذا تريد هي؟»

«أووه، من أجل الرّب. كم مضى عليك في هذا البلد؟»

«لا أريد فرض نفسي عليها،» قال، وهو يعرفُ أنه فرضَ نفسهُ عليها بالفعل.

«أظن أن الوقت متأخرٌ كثيرا لمثل هذه اللطافات.»

«لا بد أن آخذها معي إذن.»

«لا ينبغي استعجال الأمور،» قال له هامسا، ثم بصوت عال للحاضرين، «لنجتمع ونقرّر في هذا الأمر.» وترجمَ حسين كلماته. الشيخ الذي كان جالسا وخنجره يستلقي في حجره، رفع لهما يده كأنه يقول، لكما ما تحتاجان من وقت، بصق نواة تمرة في الوعاء، وأخذ يتحدث إلى رجلٍ مرتديا عمامة حمراء يجلس قبالته. أخذ الاثنان يُميلان رأسيهما حول الفتاة المنتصبة بينهما ليريا بعضهما. وتناول الرجال الشاي وكسّروا قشور اللوز، والتهموا التمور. بعضهم لم يجدوا غضاضة في التحديق نحو ستيفانو والثرثرة عنه. بينما وقفت الفتاة في الوسط مثل تمثال مغطى بالثياب، ومُتجاهَلَة من الجميع. فرأى لو أنّ بإمكانها تحمّل هذا، بالتأكيد يمكنه كذلك.

«دعني أخبرك شيئا، لا يعرفه شخصٌ آخر في هذه البلاد،» قال ألفونسو بصوت خافت، ثم أخبره عن زواجه بفتاة في السادسة عشرة من عمرها، لم يعرفها من قبل، لكنها استولت على قلبه بجمالها. وأفصح له أن السيدة الفرنسية سيمون، التي ترافقه معظم الوقت في رحلاته إلى شمال أفريقيا، ليست زوجته، وإنما عشيقته. وأنها هي من جعل زواجه محتملا، فقبل أن يلتقي بها، كانت حياته كابوسا.

لم يكن ستيفانو يُنصت له بالكامل، وإنما كان يتدبّر وضعه هو، وقد صدمه اعتراف ألفونسو، أو أن يرى أنّ له علاقة بوضعه الراهن. كان مُنشدِهاً لمنظر انعكاس ظلال اللهب في الكانون على الحائط البعيد، وكيف أعطت تلك الظلال نوعا من الحركة للفتاة الواقفة في سكون. وفي الوقت ذاته، كانت أفكاره تطيرُ إلى ليليانا. كان واعيا بأنه تخلّى عنها،

وأنه إذا ما استدان مبلغ المهر هذا من ألفونسو، ستطول فترة تخلّيه عن أخته. وهو يخاف عليها من دون وجوده إلى جوارها. ثم بدأت الشكوك والتعقيدات تتلاشى تدريجيا. فأختهُ بعيدة للغاية، ولن يمكنه مساعدتها إذا ما حُزّت رقبته بواسطة بدوّي من القبيلة، وعادت أفكاره من جديد إلى الفتاة الواقفة أمامه. فهو يدري أنه كان يحاول إجراء عملية حسابيّة ما. نوعٌ من الحسبة تجرى وراء الاعتبارات الأخرى. شيءٌ ما يتعلق بما لو أمكنهم دفع المال والرحيل بدونها، وبالتالي إنقاذها من التعرض للعزلة الاجتماعية. أو الأسوأ من ذلك، دفعُ المبلغ وأخذها معهم. كان يحدّق في الفراغ للوصول إلى الرأي الذي يفضله والأنسب له. كما كان يتخيل رفع نقابها والنظر في عينيها، وأن يحني رأسه ويطلب غفرانها، وأن يمتلكها. خطر له أن ربما لن يعاوده الشعور بالوحدة بعد الآن.

جذب ألفونسو كم قميصه. «أعتقد أن هذا الشيخ مخادع، ويبدو لي أنه داهية. إنه ثعلب يأمل في التحايل علينا لنعطيه المال كمهرٍ للفتاة، لكن إن لم نعطه شيئا فماذا يمكنه أن يفعل؟ قد يقوم ببعض الشغب، لكن في نهاية المطاف سينسى الموضوع.»

«ومع ذلك، لا نعرف ما سيحلُّ بالفتاة.»

«لن يحدث لها شيء، فهي ابنته.»

«لا أعتقد أن هذا سيُحدث فارقا.»

«يريدونك أن تعتقد ذلك، يا ستيفانو. بإمكانهم رؤية أنك رجلٌ رقيق الحاشية، وهُم يجعلونك الآن تشعر بأنك المسؤول. لكن ما الذي حدث؟ لقد رأيتَ وجهها. والعادات هنا ليست كما في المدينة. فالبدويات يغطين وجوههن أمام الرجال الغرباء فقط، لكن في محيط القبيلة ربما يختلطن بحرّية دون نقاب.»

«لكنني غريبٌ بالنسبة لها.» قال ستيفانو.

هزّ ألفونسو رأسه باستخفاف، «لم تر سوى وجهها، لكنك لم تلمسها.»

مرّت فترة صمت.

«أووه. فعلتها إذن. لقد لمستها؟»

«أمسكتُ بها معتقدا أنها جاسوس ما.»

تنهّد ألفونسو. «وأفترضُ أنها بارعة الجمال،»

أومأ ستيفانو موافقا.

«إذن، ما هو قرارك؟»

«أتزوّجُها،» قال وهو ينهض واقفا.

«آه، حسنا،» ومدّ له يده لمساعدته على النهوض، «قد تفعل الأسوأ من هذا.»

كان الاحتفال بسيطا، فبعد تسليم المهر، حضر شيخٌ لأداء مراسم عقد القران وإجراء المراسم الدينية الأخرى المتعلقة بإعلان إسلامه. وفي الليلة التالية أعْطِيت لستيفانو والفتاة غرفة خاصة. ثم كما لو أنها هديّة، فقد جيء إليه بفريدة ملفوفة في أردية عديدة ملوّنة من الصوف والحرير، رُبطت بأحزمة ذهبية وفضية. كانت ترتدي سروالا حريريا تحت ثلاث سترات قصيرة، كل منها بتنوعٍ مختلف للأحمر؛ وصدرها مرصع بسلاسل ذهبية ودبابيس مزخرفة، مع أقراط ذهبية دائرية تصل إلى كتفيها. فوق ساقي سروالها يلتفّ خلخالٌ، وأسوارة تحيط بكل كمّ، وفي قدميها ارتدت سبّاطا أبيض من الجلد له شنوارةٌ مذهّبة، أمّا يداها فمزخرفة بأنماط من الحنّاء. وعندما رفع الأغطية العديدة عن وجهها، وجد أن وجنتيها لهما حُمرة بظلال متعددة، بينما رُسمت شفتاها بالأحمر اللامع، وتم إطالة ضفائرها بخيوط فضية، وهنا تعرّفَ على الفتاة التي شاهد وجهها على ضوء النجوم.

على نحوٍ ما، وكجزء من الصفقة تحصّل ألفونسو على خنجر الشيخ المعقوف برأسه المزدوج، والذي حمله معه إلى إيطاليا وكان فخورا به للغاية، كأنه ربحه في مبارزة ما.

* * *

الآن ها هما ستيفانو وفريدة يستلقيان معا، بينما ينتظر هو بهدوء، ويرمقها، فسيكون إلى جوارها عندما تفتح عينيها، وسيكون أوّل من تراه.

«ليس لديكِ ما تخافينه مني،» أخبرها عندما رفع النقاب عن وجهها أول مرة. ولم يتوقعها أن تفهم كلماته، لكنه أمِل أن تكون العاطفة في نبرته واضحة لديها.

«ليس لديكِ ما تخافينه مني،» أجابته، فأخفى دهشته. «لن أؤذيكِ،» واصل حديثه.

«لن أؤذيكِ،» ردّدت وراءه.

كانت تردد كلماته بالضبط، لكن أذنها كانت استثنائية، حيث التقطت نغمة كلماته بدقة.

«لقد دفعت لأبيك مهرك بنقود فضية، لكنني لا أمتلكك.» فبعد كل شيء يريدها أن تعرف أنها ليست ملكا له.

حدّقت فيه بثبات، لكنها لم تتكلم.

لم يكن متأكدا من أنه عبّر عما يدور في رأسه، وفرد ذراعيه ليبدي لها نواياه الطيبة. فخطت نحوه واندسّت في حضنه. بالكاد يصدّق ما يرى، وكيف بدت أنها تضع ثقتها فيه على الفور. فشعر بأن ميثاقا ووعدا غليظا قد قُطع، وهو

أكبر وأعمق من الكلمات.

كل هذا حدث منذ ثلاثة أشهر. وخلال هذه الفترة كانت تتعلمُ الإيطالية بمساعدة جارتهم في الطابق العلويّ، ولدهشته فقد حققت تقدما سريعا.

الآن تفتح عينيها وتنظر إليه.

«أنتِ جميلة للغاية،» ويرفع شعرها الكثيف عن وجهها

«أنت جميلٌ للغاية ولهذا اخترتكَ.» وتضحك للقلق البادي على وجهه وهو ينصت بعجبٍ إلى كلماتها.

أسفٌ مريع..

مادة: بطاقة صعود لتذكرة سفر على الخطوط الجوية البريطانية من مطار هيثرو لندن، إلى مطار فيوميتشينو روما، بتاريخ مايو 1980.

تكتشفُ ليليانا ضخامة المستشفى عند وصولها إلى أبوابه في الثانية بعد الظهر، لكن يبدو أنها اختارت المدخل الخاطئ للقسم الذي تريد. كرهت أن تسأل أحدا، فتجوّلت في المكان متتبعة العلامات الإرشادية للوصول إلى مبتغاها. في كل مرّة تصل إلى منعطف ما، تراجعُ الخريطة الإرشادية التي التقطتها عند الباب، بألوانِها المتباينة التي تدلّ على أقسام مختلفة، لكن مع ذلك لا يمكنها تحديد مكانها الحالي. في نقطة ما بين لندن، وروما المليئة بالضوضاء، والسطوع المفرط، بسمائها الزرقاء مثل خيال طفلٍ رسمها في كرّاس ألوانه، وبحرارة تزيدُ خمس عشرة درجة على لندن، فهي إن لم تكن تراجع خريطتها، تستخدمها كمروحة، لكن عند نقطة ما بين المدينتين، تخلّى عنها إحساسها بضرورة ما تقوم به الآن. فقناعتُها، التي ضختها فيها جوان، وإلحاحها عليها كي تذهب ولا تضيّع الوقت، قد فترت الآن.

«تمالكي نفسكِ.» نصحتها صديقتها، لكن قلبها أخذ يدقّ بضعف وتيرته المعتادة، واندفع الدم إلى رأسها، وطنينُ أذنيها أعلى ممّا اعتادت، مثل ألف صوت يهمس فيهما. رأت أنها بالغت في اختيار الثياب لرحلة روما. قميصٌ بأكمام طويلة، وبنطلون، وسترة صوف، ومعطفٌ مطري، مع شالها الصوفي الضخم المحيط برقبتها. تمالكُ النفسِ أمرٌ بعيد المنال.

كل شيء غريبٌ بالنسبة لها، ولديها إحساسٌ بأنها لو تحدّثت فلن يفهمها أحد. تجرُّ حقيبتها عبر ممرّ طويل، وتصعد درج ثلاثةِ طوابق لأنها لم تجد المصعد. تصل إلى جزء من الطابق الثالث لا يرتبط بالقسم الذي يُفترض أنّ به ابن أخيها. تتبعُ رجلا يدفع أمامه سرير مرضى فتكتشفُ مكان المصعد. تخرجُ منه عندما يغادره الرجل، معتقدة أنها في الطابق الأرضي. ينغلقُ باب المصعد وراءها وتسمعه ينطلق مبتعدا. تنظر إلى الرجل يدحرج السرير الطبيّ في ممرّ قليل الإضاءة، ويدور عند لافتة كتب عليها (المشرحة) وتكتشف أن الشخص الذي في السرير ميّت. يكتنفها الكربُ والضعف ويُطبق على صدرها، فتضع قبضتها فوق صدرها لمعادلة الضغط عليه. ثم تنتظرُ قدوم المصعد دهرا، وعندما يأتي تركبه إلى الطابق الأرضي. عليها البدء من جديد. تخرج من الباب الأمامي الزلّاق، وتقف للحظة تحت شمس العشية. ترى كشكا صغيرا يبيع المشروبات، فتشتري من البائع الواقف وراء النضد زجاجة ليمونادة باردة. إنها مُشوّشةٌ، وهذا واضحٌ لها. هي في حالة إثارةٍ بالغة وفزعةٌ مبلبلةُ الفكر. لقد قامت بكلّ شيء على عجل في لندن. إلغاء المواعيد، وإلغاء استلام الصحيفة اليومية، وتركُ ملاحظةٍ لبائع الحليب، وكل الأشياء الصغيرة الضرورية قبل السفر. بينما كانت جوان تحت تسأل عن مواعيد

الرحلات، فتحت الدرْج التحتي من خزانتها، لتصل إلى درجٍ أصغر، يحوي علبة اعتادت أن ترافقها في صندوق سفرياتها القديم. لقد احتفظت بها مستترة هناك لسنين. لم تفتحها. وبالكاد تنظر إليها. وضعتها في مكان ملائم في قاع حقيبة سفرها، ورمت فوقها بعض الثياب، واختيار عشوائي من الشالات. لا تتذكّر حتى ماذا أضافت من الثياب، آملة أن من بينها ملابس صيفية خفيفة. كل شيء حدث بسرعة، ولم يكن هناك وقت للتفكير.

تأخذ معطفها المطري وتضعه فوق ذراعها، تفك أزرار سترتها الصوفية. جاءت مندفعة على عجل من لندن إلى روما، وها هي الآن تقف على رصيفٍ تحت ظل كشك بجانب الطريق، ولم تعد متأكدة تماما إن كان قدومها هنا فكرة جيدة. فهي لا تعرف هذا الرجل الذي في المستشفى، ولا يعرفها. ما كان عليها ترك جوان تقنعها بالمجيء.

فجأة تطوف بخيالها شبه فكرةٍ ملتويةٍ من يوم أمس، وتنفتحُ بقوة أمامها مثل لافتة ترفرف في الريح: وتفكّر أنّ أبرامو لن يرغب في رؤيتها؛ لن تكون مرحّبا بها، لأن ستيفانو وعائلته لا يريدونها. هي شخصٌ غير مرغوب به. وهذا يفسّر رسائلها التي لم تتلق ردّا عليها طوال تلك السنين، وذلك الصمت عبر البحر الذي عذّبها. يعلم الله أنها لم تردْ الموت لعائلتها في ليبيا، لكن إنْ لم يقضوا كلهم في الحرب ـ وأبرامو حيٌّ إلى الحد الذي أطلِق عليه الرصاص منذ يومين، فهذا يثبت أنهم لم يموتوا. إذن هل يكون هذا الشيء الآخر حقيقةً؟ تضع زجاجة الليمونادة الفارغة فوق النضد.

«أتيتِ من بعيد؟» يسألها رجل الكشك.

«من لندن.»

«هل تزورين أحدا ما؟» تومئ بالإيجاب. لقد قطعتْ كل هذه المسافة بعد كلّ حساب، وحتى لو صحّ أن أخاها تخلى عنها، وهذا لم يحدث، فأبرامو من جيلٍ مختلف. ألم تكفّر عن ذنبها الآن؟ كل تلك السنين من العيش بدونهم، وحرمانها من أيّ أخبار عنهم، وحياتها الباهتة في لندن. اقبلوني في حياتكم من جديد. تقول لنفسها.

«شيءٌ مريحٌ أن يتلقى المريض زيارة، لأنها تُحدِث فارقا كبيرا.» قال البائع.

«هو ابن أخي»، بالطبع ليس صحيحا أنّ العائلة قطعت صلاتها بها. بل هي من اخترعت هذه الفكرة في لحظة ذعر، عندما كان التفسير الأكثر ترجيحا بأنّهم ماتوا جميعا، أكثر مما تحتمل. ما كان أخوها لينقلب ضدها أبدا. إلاّ إذا... لكنها تقمعُ الفكرة وتعيدها إلى مكانها. لن تسلك هذا الطريق المليء بالعواطف الجيّاشة. ليس الآن على الأقل. «شكرا» تقول لبائع الليمونادة. وتشعر بانبعاث إثارة بداخلها عند عودتها إلى داخل المستشفى. أبرامو لا يزال حيّا، وربما آخرون أيضا. ترى مكانا يمكن أن تترك فيه حقيبتها. وعندما تخلّصت من أثقالها، سألت عن طريق الوصول إلى القسم، مضيفة شيئا من لكنةٍ إنكليزية إلى حديثها. بشكلٍ ما شعرت بأنّ هذا أكثر أمناً. كانت التعليمات بسيطة جدا، ليس عليها سوى تتبّع الخط الأصفر. وعندما وصلت هناك وعرّفت نفسها بأنها التي اتصلت بهم أمس من لندن، تم اقتيادها إلى مكتب مدير القسم، وطُلب منها الجلوس.

تكتشف أنه منذ نحو ساعتين، وعندما كانت في الجوّ في مكان ما فوق جبال الألب، ربما عندما كانت تنظر من النافذة الصغيرة، وتتعجّبُ من نفسها، فلا يمكنها بلع الطعام الذي أحضروه لها، وتتخيل كافة تنوّعات ما سيحدث في المستقبل، والأشياء التي ستقولها له، والتي ستسأله عنها. في ذلك الوقت توفيّ أبرامو كاتانيو.

«لم يفق من غيبوبته أبدًا،» أخبرتها الممرضة، «ليس بشكل ملائم. بدا لنا أنه يتعافى، وبعد ذلك انتكس فجأة.» تحدثت أيضا عن انخفاض مفاجئ في ضغط الدم وعن نزيف. «نقلناه إلى غرفة العمليات بالأمس، لكن لم نستطع إنقاذه.» يتردد صدى صوت آلان في رأسها «أسفٌ مريع...» وهي طريقته في توصيف حدثٍ مأساوي ما، باستخدام جُمل بديهية أكثر تقنينا مما تتيحه تجربة ليليانا القاسية. لكن المساعدة تقلّلُ في بعض الأحيان من أثر الضربة، وتوزع حدّتها إلى شيء أقل تأثيرا. أحيانا.

«أتيتُ بأسرع ما أمكنني» تخبرُ الممرضة، وكأنّ سرعتها في المجيء أمرٌ مهمّ. لا يمكنها استيعاب الخبر، وتريد سؤال الممرضة إن كانت متأكدة مما تقول.

«فعلنا ما باستطاعتنا،» تقول الممرضة، وتبدأ في تقليب الأوراق على مكتبها، وترتّبها بشكل مختلف، كأنها تبحث عن شيء ما. ثم تشرح لها أن لديهم معلومات شحيحة عنه، ويأملون أن تسدّ ليليانا بعض الفراغات.

«يا إلهي،» تقول ليليانا.

حسب معلوماتهم، كان يعيش في روما وحيدا، لكن الشرطة ما زالت تقوم بتحرياتها. كان يحمل بطاقة تعريفِه في جيب سترته، لكنها تضررت أثناء تعرضه للرصاص، وليست واضحة بالكامل. تتوقف، وتنظر تحت إلى يديها الممسكتين بإحدى الأوراق، وهي نموذج مطبوع. ترفع نظرها إلى ليليانا وراء المكتب. «أعتذر منك، فما قلتُه تنقصه الكياسة.»

لم تكن ليليانا منصتةً. «عفوا؟» تسألها، حيث لا يبدو أن هناك مساحة كافية في رأسها لاستيعاب ما تسمعه. «لا، لا، لا عليكِ، إنه خطئي،» تقول الممرضة، وتعاود النظر إلى الورقة في يدها.

هناك رسمٌ لجسم إنسانٍ في الورقة الموضوعة على المكتب، ورُسمت دوائرُ على البطن، والصدر، والفخذ الأيمن. «أوه» تقول ليليانا مرة أخرى، وقد عرفت أنها توضّحُ الأماكن التي دخلت منها الرصاصات في جسد أبرامو. لا بد أن بطاقة الهوية كانت في جيب الصدر. وتقرأ من الورقة المقلوبة، جروحٌ داخلية، وفشل متعدّد في وظائف الجسم.

«تمكّنا من استخراج بعض المعلومات من البطاقة، تقول إن تاريخ مولده عام 1931 في طرابلس.»

«لا،» تقول ليليانا.

«أليس هذا صحيحا؟»

«لا،» تقول مجددا، وتميل في مقعدها إلى الأمام، واضعة رأسها بين يديها. «يا إلهي، يا إلهي.» ولبعض الوقت كان ذلك الصوت المتناسق الوحيد الذي يخرج منها. خلف عينيها أخذت تظهر صورٌ متوهجة، وحادّة تلو الأخرى، بتعاقب سريع، بلا معنى، ومثيرة للغثيان. ثمة فتاة ترتمي في بِركة دماء، وهناك طفل حديث الولادة بقدمين ضئيلتين ومتغضنتين. لا يزال جسمه مغطىً بسائل الولادة. ثمة عجوزٌ، تبدو مثل ساحرة، تنحني فوق جسدٍ ما، تعصره وتمزقه.

الأمرُ بالنسبة لها كما لو أنّ مخطافا حادّا يلتقط هذه المشاهد من مكان عميق بداخلها حيث كانت ترتمي مخفيّة. كانت خاملة، تحت ركام من الصخور، وخلف أبواب مقفلة، مسجونة. لكن الآن يتمّ جرجرتها إلى الخارج، وإطلاق سراحها جميعا في الوقت نفسه، سواء أرادت ذلك أم لا، يجري هزّها لإيقاظها. بكل ما تمثله من وحشيّة.

تتراجع المشاهد المريعة، وتعتدلُ في جلستها.

صبّت لها الممرضة كوب ماء، وقدمته لها. «اشربي على مهلك.»

«أشكرك،» تقول ليليانا التي تفتح حقيبتها لتخرج منها حبات دواء، «من أجل الصداع،» تشرح للممرضة، وتأخذ اثنتين منها، فتبلعهما مع الماء. «أعتذرُ منكِ، نعم وُلد في 1931، هذا صحيح.»

تضع الممرضة نموذج الكتابة فوق التقرير وتسأل: «هل تعرفين من قد يكون أقرب الناس له؟»

تهز ليليانا رأسها نفيا وتتساءل بينها وبين نفسها على ماذا تتأسف؟ كل هذا (الأسفُ المريع). أيكون عَلَى موت ابن أخيها وحيدا؟ أم على قرارها بالمجيء هنا؟ أم على تصفّحها للجريدة صباح الأمس ورؤيتها للخبر؟.

تضع الممرضة علامة استفهام على الخانة التي تنصّ على أقرب الأقارب.

أمْ أنّ الأسف المريع لأنّها حضرت متأخرة؟ «جئتُ متأخرة،» تقول بصوت عال. «آسفة من أجلكِ، لا بد أنها كانت صدمة مريعة لكِ.» تُميلُ رأسها إلى جانب، وتنظر إلى ليليانا، كأنها لم تفهمها في السابق كما يجب. «وقد أتيتِ كل هذه المسافة.»

تعضُّ ليليانا شفتها وهي تنظرُ تحت إلى حجرها، «متأخرةٌ جدا» تردّد.

«ما كان بيدكِ فعل شيء،» تقول الممرضة وتضيف، هذا طبيعي، الناس يشعرون لو أنهم أتوا في وقت أبكر، أو قاموا بفعل مختلف، ستكون النتائج مختلفة.

لكن ليليانا لا تعني أنها متأخرة بالنسبة لأبرامو، لكن متأخرة بالنسبة لها أيضا.

«حاولتُ أن أكون على اتصال، لكن بعد انتقالي إلى إنكلترا لم أسمع منهم شيئا آخر. أقصد من العائلة. فقد نشبت الحرب، ونشب بعدها القتال في شمال أفريقيا. لكن بعد انتهاء الحرب، وعندما سُمح لنا بالتراسل من جديد، لم تردني

جوابات منهم. اتصلتُ بالسلطات الإيطالية، والبريطانية أيضا، لأن ليبيا آنذاك تحت الإدارة البريطانية. لكن، كما تعرفين، يبدو أنه كان هناك الكثير من الإيطاليين يعيشون هناك. واعتقدت أنهم ربما انتقلوا من مكانهم. ربما ذهبوا إلى بنغازي، فقد تحدّث أخي عن الأمر. ثم تعرضت بنغازي للقصف بشدة عام 1942. وقد اعتاد أخي الكتابة لي بانتظام. رسائلٌ وبطاقات بريدية. دائما. واحتفظت بها جميعا.» تفطّنت ليليانا إلى أنها تهذي. فتصمتُ قليلا، وتنظر إلى الممرضة التي تهز رأسها بأسف. «دائما ما كان يراسلني».

تُخرِجِ منديلا من حقيبتها، وتمسح جبينها برفق. الجوّ خانقٌ في هذه الغرفة الصغيرة. تقدّم لها الممرضة معلومات عن الخطوات التالية، لكنها بالكاد تسمعها. كل ما تحتاجه الآن هو أن تنهض، تصافحُ الممرضة، وتمضي في طريقها. تتخيّلُ حقيبتها التي تركتها تحت، وبالذات العلبة الصغيرة في قاعها، والتي كانت تضعها فوق حاجياتها في صندوقها السفريّ، والتي هي في الأصل لحفظ المجوهرات وشرائط الزينة . إكسسوارات، كما يسمونها الآن . لكن لسنين طوال حوت العلبة وثائق وعدّة أشياء اختارت الاحتفاظ بها من الفترة التي قضتها في ليبيا. تفكّرُ أنّ من بين تلك الأشياء خصلتا شعر رأس داكنتان لرضيعين هما أبرامو ونادِيا. معرفتها بتلك الخصلات الموجودة في طابقين من تحتها أجّج شجونها بشكل هائل، فبالكاد تتمالك نفسها. ثم تضع سير حقيبتها فوق كتفها.

منذ عدة أيام، في المكتبة، كانت تفكّر في الماء الذي لم يعد باستطاعته تدوير طاحونة الهواء، أو حتى طحنِ الذرة. ثم يحْدثُ هذا الأمر معها. كائنا ما يكون.

يا لهذه الفاجعة، ويا لهذا الطّحن البشع لمشاعرها.

ستعودُ فورا إلى المطار، وتستقلّ الرحلة التالية إلى لندن، وستُقفل هذا الباب مجدّدا، وبسرعة قبل أن يتسرّب إليها المزيد من الماضي فيسمّمُ حاضرها، وهو على ما هو عليه من اضطراب. ما كان عليها أن تأتي هنا أبدًا.

لا بد أن تُجرَى عملية تشريحٍ للجثة باعتبار موتِهِ جريمة، وربما سينقضي بعض الوقت قبل أن يسمحوا بدفنه. جاءها صوت الممرضة.

لكنها جاءت لزيارة رجلٍ على قيد الحياة، وليس لدفنه.

فضاء الحواس

مادة: ملاحظة مدوّنة بخط اليد على ورقة تحمل شعار فندق الأمباسادورز، في ڤيا فنيتو، روما، تقول: (كاتدرائية طرابلس، عند منتصف نهار 8/5/1929. لا يجب أن تنسيْ).

ليليانا في طريقها إلى ولاية طرابلس لزيارة ستيفانو. ستأخذ القطار غداً إلى نابولي، لتستقل سفينة البريد. لكنها ستبيتُ الليلة في أحد فنادق روما.

ما زالت غير مصدّقة أن هذا اليوم قد حلّ أخيرا، وسُمح لها بالسفر، وأن أمها تركتها ترحل، وأنّ ستيفانو أرسل ثمن التذكرة، وأنها تركت عملها في هينسيمبرغر. تركت كل شيء خلفها، وسمحت بحدوث كل الأشياء المختلفة الضرورية لجعل هذه الرحلة ممكنة.

هي في روما الآن، ذاهبة لحضور حفلة تنكرية، كانت قد وضعت عطرا فرنسيا خلف أذنيها، وعلى رسغيها. تقف الآن في الشرفة الصغيرة لغرفة الفندق العالية، تنظر إلى الرائحين والغادين في الشارع من تحتها، فستانها الجريء والخارق للعادة يلمعُ، ويحدثُ حفيفا. فتشعر أنها محظوظة وغريبة ومُشوّشة أيضا. لقد استُجيب لصلواتها أخيرا.

في البدء وردت البرقية من ستيفانو. وفيها طلب منها الحضور بلا تأخير إلى طرابلس في زيارة طويلة. لقد وجد لها عملا هناك، وأرسل لها تكاليف الرحلة. في الرسالة التالية شرح لها أنّ حاكم ولاية طرابلس، الماريشال بادوليو، تدخّل بنفسه لإنقاذ سباق طرابلس الكبير. كالعادة كان مصير ليليانا في أيدي آخرين، وفعلت ما أمكنها كي لا تبدو فرحةً بالفكرة، لتكسب الوقت، ولتضمن تجاوز كل العقبات. حيثُ تعيّن العثور على أشخاص محترمين لمرافقتها في الرحلة، وتطلّب الأمرُ كذلك التغلب على اعتراضات أمها الشديدة.

بدأت ليليانا تثابر على الصلاة، وبعد انتهاء عملها تذهب كلّ مساء إلى الكنيسة، حيث أخبرت الربّ أن إرادته، وليس إرادتها، هي ما يجب أن تسود، لكنها أمِلت أيضا أنّ إرادتيهما قد تتزامنان معا هذه المرة.

تمكّن أبوها من العثور على مرافقيْ سفرٍ لها: الجنرال المتقاعد تودينو، وهو بطلُ حرب حائز على عديد الأوسمة، مع زوجته الكونتيسا. كان الجنرال في لجنة إدارة شركة القطارات حيث عمِل أبوها، وله ارتباطاتٌ تجارية في طرابلس. راسله أبوها حول الفكرة، ووافق الجنرال على الطّلب. لقد تكرّم بالموافقة على أن ترافقه ليليانا مع زوجته في رحلة طرابلس كما أعلنت أمها. لكن أباها قال إنّ هذا أقل ما يجب أن يفعله.

إقناعُ أمها بأن تسمح لها بالذهاب كان أكثر صعوبة. «هذا لأنها ستشتاق إليكِ،» فسّر أبوها عندما أغلقت أمّها على نفسها باب الغرفة وشرعت في الصلاة والنحيب بصوت عال. «اذهبي للحديث معها وبلطفٍ أخبريها أنّ غيابك لن يدوم،» قال أبوها، فركعت ليليانا على باب غرفة النوم، وبقدر ما تستطيع من حنكةٍ حاولت إبعاد مخاوف أمها، وأعملت المنطق في تفنيد حُجتها بأنها ستتخلى عنهما في شيخوختهما، وأنها ستُختطفُ من قبل المتوحشين الذي سيجعلونها جارية لهم، وأنها ستصابُ بمرض استوائيّ خطير ما، وتموت. لكن هذا المنطق إنما عمل على استثارة أمها أكثر.

«هي زيارةٌ فقط يا ماما، وسأعود.»

عند هذا الحد، فتحت أمها الباب بقوة، وجهها محتقنٌ، وعيناها على اتساعهما من شدة اليأس. نظرت تحت إلى ليليانا الجاثية عند حاشية السجادة وقالت: «لكن هُو لا، أليس كذلك؟ لن يعود إلينا.»

عرفت ليليانا أنّ أمّها بكت لأن رحيل ابنتها سيقلل من إمكانية عودة ابنها. فقالت: «سأحاول إقناعه بالعودة، وإن كان العمل الذي عثر عليه لي مثمرا، ربما سأتمكن من إرسال بعض المال إليكما لتأتيا إلى أفريقيا أيضا.»

«لن تريني أذهب إلى تلك البلاد المتوحشة أبداً.» تردّ الأم.

في اللحظة الراهنة في روما تنحني ليليانا على السياج المعدني، مستنشقة هواء المدينة، وملتقطة رائحة عطر (وردة الوادي)، وقد أحسّت بالدفء والانعتاق عند ملامسته جلدها.

كان شعار الحفلة التنكرية هو الفضاء الحيوي، «سبازيو فيتالي» وهي احتفالية خاصة بالمهمة المتجددة لتوسيع رقعة الإمبراطورية الإيطالية. والآن ترتدي ليليانا كاتانيو، فستانا من الشيفون الذهبي، والساتان الوردي، وقد تعطرت وارتدت حليها، وهذا يشكل في حالتها الخاصة نوعا من الفضاء أيضا. تشعرُ بذلك عندما يضغط قفصها الصدري على صدريتها الملتصقة بجسمها، عندما تنكمش رئتاها، وعندما يلامس شيفون غلالتها الجلدَ حول ذراعيها وفوق صدرها.

في الشارع تحتها، تصعدُ في الترام سيداتٌ متأنقات يحملن حقائب تسوّق، ويسيرُ رجلا أعمال يرتديان بدلتين داكنتين، وثمة شرطي مرور مرتديا قفازات بيض ينظّم حركة السير عند التقاطع. كانت مصابيح الشارع قد أضيئت لتوها، وأخذت تراقبُ مسيرَ رجلٍ مرتديا قبعة قشّية، يتنقّل من عمود إنارة لآخر، مأرجحاً عصاه. لا يزال الوقت من السنة مبكرا على ارتداء القبعات القشية، لكن روما أكثر حرارة من مونزا.

هكذا، بنفسها، ومن خلال تجربتها الشخصية عرفت أنّ روما أشدّ حرارة من مونزا. تشاهدُ رجلَ القبعة يرفعها احتراما لسيدتين أنيقتين تمرّان به، وقد ارتدتا ياقاتٍ من الفرو. كم تحب ليليانا ارتداء ياقة الفرو. تضعُ أصابعها على عنقها وتتحسسُ قلادات العقيق الثلاثة التي ترتديها. إحدى المرأتين ترتدي حذاءً بكعب عال، وأعجبتها مشيتها المغناج. بعد اختفاء المرأتين عند المنعطف، تحوّلُ انتباهها إلى صبيّ فوق الرصيف المقابل يبيع الصحف للمارة. يرفع عقيرته بالعناوين، ويلوّح بصحيفةٍ في يده للفت انتباه الناس. لا يمكنها تبيّن كلمات الصبيّ، لكن لا شكّ لديها أنها تتعلق بالاستفتاء العام

الذي أجرِي حديثا للتصويت على قائمة مندوبين لعضوية المجلس الأعلى للفاشية. ولم تعرف ليليانا أبدا معنى ذلك، لكن الزوجين تودينو يريان أنه شيء رائع.

«سيُغلِقُ هذا الاستفتاء الطريق أمام أولئك الليبراليين المتعجرفين،» علّق الجنرال، وهم يتناولون الشاي مبكّرا في بهو الفندق. «كما سيتيح لنا فرصة للقيام بما يجب أن نقوم به،» أخبر ليليانا بالكثير من المعلومات حول ما يجب القيام به في البلد الذي سيبحرون إليه، كما أخبرها عن الطيران، وعن المواصلات البحرية، وعن الإمدادات البارعة التي يقوم بها الإيطاليون. وكيف تمّ إخضاع قبائل متمردة في ليبيا لسيطرة إيطاليا، وتمّ نزع سلاحها. الكثيرُ منها استسلمت وأطلِق عليها لقب «سوتوميسي» أي المنقادين. كانت زوجته منشغلة تماما بمجلة (بيكولا) التي اشترتها لليليانا، فوضعتها جانبا، رفعت ذراعها اليمنى بتحيّة رومانية، وقالت، «تحيا الثورة الفاشستية،» لم تتبادل ليليانا معها من قبل أحاديث خاصة. ورأت أن هناك شيئا مثيرا ما حولَ التحاقها بهذا العالم المختلف، كأنها في وضعٍ أرقى مما هي عليه في الواقع، وكأنها جزءٌ من شيءٍ كبير ونبيل.

من شرفتها تشاهد سيارة رسمية بيضاء تتوقف عند حافة الرصيف، ويخرج منها رجلٌ مرتديا بدلة عسكرية. يمكنها أن تراه مباشرة حتى قمّة قبعته، لكنها لا ترى وجهه، وإنما تتعرف على البدلة بأنها تخص سلاح الجوي الملكي الإيطالي.

تنظر نحوه، فيبدو لها جسمه قصيرا من موقعها، وترى جانبا من وجهه مشعّا بالأبيض، وهو يقف تحت عمود الإنارة. وبينما هي تراقب، ينزع قبعته ويمرّر إبهامه حول حاشيتها ثم ينظر إلى فوق. قد يكون ينظر إلى السماء الليليّة، أو الأشجار، وهو يُميل رأسه إلى الوراء مادّا عنقه إلى الأعلى. لا يمكنه رؤيتها منحنية على السياج المعدني في هذا الضوء الخافت، وفي الجانب المقابل لضوء إنارة الشارع وظلال سعفِ النخيل. ومع ذلك يبدو كأنه ينظر إليها، وأنه يفتح ذراعيه. تملّكها أغربُ إحساس بأنها لو تعثرت، وسقطت من هذا الارتفاع الكبير، لتلقّفها بين ذراعيه.

يضع الرجل قبعته فوق رأسه مجددا، يدور على عقبيه، ويدخل إلى الفندق.

شرح لها الجنرال تودينو أنه في الوقت الذي ترتدي فيه النساء مثلها في الحفلة ثيابا مزركشة، تمثّلُ مختلف الأراضي التي تحتلها إيطاليا في أفريقيا – نساء القبائل من الصومال، ومن أفريقيا، وربما حتى المستعبَدات من فزان – سيرتدي العسكريون بدلاتهم الرسمية، فلا حاجة لهم بالتنكّر، لأنهم من يقومون بإخضاع (الفضاء الحيوي) لفائدة الجميع، وبالتالي فهم يرتدون حاليا القيافة المناسبة بالفعل.

كم محظوظةٌ هي لأن تكون بصحبة عائلة تودينو، وأن يسبغا عليها الحماية والنفوذ. لأنها معهما، ولأنهما أخذاها في كنفهما، فهي تسافرُ في نمط حياةٍ راقٍ ومريح. إنها نزيلة الآن في أحد أرقى الفنادق في روما. وغرفتُها ترتبط بباب داخلي بالجناح المخصص للزوجين تودينو.

لم يسبق لليليانا أن جرّبت صحبة الطبقة الموسرة. حيث تجلت لها حياة الراحة والدّعة هنا. فهي لم تألف عالما يكون فيه السؤال عمّا إذا كان يجب ارتداء اللؤلؤ أو الألماس أمرا ضروريا، وتساءلت في نفسها إن كانت ستعتادُ نمط الحياة هذه.

إنها ماضيةٌ في طريقها الآن ولن يوقفها شيء. وهي كما تحب الكونتيسا تودينو أن تصفها، امرأةٌ إيطالية من الطراز الجديد الذي يبدو أنه يعني أشياء كثيرة متناقضة: أن تكون ذكية، أنيقة الملبس، طموحة؛ جريئة، محتشمة؛ متدينة، لكن شكوكية أيضا بشكل بارع.

تفكّر الآن بالكونتيسا تودينو وبلقائهما في مونزا منذ ثلاثة أيام. تتذكر سيرهم مع أبيها نحو المحطة، وكيف أبطأت مع أمّها الخطى لمواكبة إيقاع مشي أبيها بدلا من خطوتها الواسعة المعتادة، وكيف جُرّ صندوق متاعها فوق عربةٍ مستعارة، بينما أبوها يخبرهما عن الزوجين تودينو ونفوذهما الكبير. بالطبع، لا بد أن تبدي لهما احتراما، على ألاّ تبالغَ في ذلك. وتقول إنّ لديها أسبابها الخاصة للسفر إلى طرابلس، وليست مدينةً لهم في دفع تكاليف رحلتها وإقامتها خلال الطريق، أي أنها ليست موضع إحسانٍ من أحد. لم يقابل أبوها زوجة الجنرال من قبل، لكنه عرف أنها وُلدت ميسورة الحال، وبالتالي يمكنها التحلّي باللطف تجاهها، وليس معنى ذلك أن تتوقعه منها. تتذكّرُ أوّل مرت رأت فيها هذه السيدة الراقية وقد لفّها بخار محرّك القطار، مرتدية معطفها الباريسي من صوف الخروف، ويظهر شعرها الذهبي الأجعد، بخواتمها الماسيّة، وبممسكةِ شَعرٍ مماثلة. لقد بدت لها مثل نجمة سينما. مثل غريتا غاربو. وهكذا حجبت هيئتها المتبرجة زوجَها الواقف إلى جانبٍ، مرتديا قبعته ومعطفه الداكن. تفكّر ليليانا كيف دفعها أبوها إلى الأمام، وهي غير متأكدة من قواعد «الإتيكيت»، وإنما كيف تترك انطباعا من الثقة، وأن تظهر استعدادا من البداية. فمدّت يداً لمصافحة الكونتيسا، ثم تتذكّر كيف نظرت إليها المرأة من رأسها إلى قدميها، كأنها من طينةٍ أخرى لم تصادفها من قبل، أو على الأقل ليس بهذا القرب. تستعيدُ مشاعر الحرج التي انتابتها وهي تتعرض لنظرات الكونتيسا تودينو الفاحصة. أخفضت بصرها ونظرت إلى حقائب السيدة الجلدية فوق عربة الحمّال، موقنة بشعور غير مريحٍ، أن ترتيبات السفر التي أجراها والدها قابلةٌ للإلغاء، وأنها متوقفة على نزوة هذه المرأة. أخبرتها غريزةٌ ما ألاّ تتكلم، أو تحتج، أو تستعطف، أو تدّعي أنها لن تسبّب لهما مشكلة. ولا أن تشرح أنها ارتدت ثاني أفضل ثيابها لأجل الرحلة، لكيلا يتغضن أفضل ثوبٍ لديها. ولكن عليها أن تطأطئ رأسها، أن تنتظرَ وادعةً، وأن تكون متواضعة. كانت تعي أن الجنرال تودينو يتحدث إلى زوجته، لكن صوته بدا لها مثل دمدمة، فلم تتبيّن كلماته. سار والدها إلى الأمام وقال شيئا أيضا. لا تستجدِ بابا... بل استجدِ يا بابا.

يدُها، نصفُ المنزّلة، لا تزال ممدودة أمامها كأنها تطلبُ إحسانا، أحسّت بها حين تلقفتها يدا الكونتيسا المقفّزتان، «أيتها الصغيرة المسكينة،» قالت لها.

ورفعت ليليانا عينيها فيها.

«إنها ترتجف» أعلنت الكونتيسا بنبرة اتهام لزوجها، ولوالد ليليانا، ولحمّاليْ البضائع الواقفين، ولفتاة أخرى محمّلة بالحقائب والطرود، ظهرت الآن ويبدو أنها مرتبطة بالمجموعة.

ابتسمت الكونتيسا لليليانا كما قد تبتسم في وجه طفل. «كم شاحبة، ورفيعة. كنتِ مريضة، أليس كذاك؟» لكن ليليانا التي كانت تتمتع بصحة جيدة طوال شهور الشتاء القاسية، سمعت نفسها تقول بصوت رقيق إنها بحال أفضل بكثير الآن. شكرا لكِ. «سأهتمّ بك وأرعاك،» قالت الكونتيسا. «سنأكل أشهى الطعام، وسأعمل على تسمينك، وجعلكِ شهيّة أيضا.» تركت يدَ ليليانا وصفّقت مرة واحدة، «يا للمتعة!» ثم دسّت ذراع ليليانا تحت ذراعها، وأدنتها منها، «سأضعُ هذه الشابة اللطيفة تحت وصايتي،» أعلنت، وكأنّ لا أحد غيرها يستحق الوثوق به.

ضمّت الكونتيسا ليليانا تحت جناحها، وكانت الفتاة سريعة التعلّم، تعرفُ متى تأخذ خطوة إلى الأمام، ومتى تطرحُ سؤالا، وكيف تأخذ خطوة إلى الوراء بهدوء تام. سُمح لها بالتألّق طالما تضعُ الكونتيسا لمستها عليها، وهي التي وفّرت لليليانا مجلات للقراءة، ونصائح حول الموضة. أعارتها الحليّ، وعلّمتها كيف تبدو بمظهر حسن، وكيفية التصرف اللائق لفتيات اليوم في إيطاليا الجديدة. الكونتيسا هي من أصرّت أنه إذا كانت ليليانا سترافقهما، فيجب أن تتأقلم مع الوضع، وألاّ تكون العلاقة بينهم مثل علاقة من الدرجة الثالثة، وأخبرتها: «لستِ موسرةً، ولا تملكين مركزا اجتماعيا، لكنك تمتازين بالشباب، وعليك استغلاله. ربما تبدين مثل دمية صينية قابلة للكسر، لكن بعض الرجال يحبون ذلك.»

وجدت ليليانا صعوبة في استيعاب أفكار الكونتيسا حول النساء. حول ما يمكنهن القيام به، وما لا يمكنهن، ما يجب أن يفعلن، وما لا يجب. وبالنسبة لحق الاقتراع للنساء، على سبيل المثال، لهنّ الحق نفسه كما للرجال في إنكلترا، وقد شاركن في التصويت العام الماضي. وعندما أبدت ليليانا دهشتها لهذا الأمر، قالت الكونتيسا: «لستِ إلاّ فتاة ساذجة، لكنك عزيزة عليّ أيضا. سأناديك بالغِرّة. لعمري، ماذا يعلّمونكم في تلك المعسكرات الصيفية؟» يبدو أنه ليست هناك أيّ فرصة لمشاركة النساء في التصويت، هنا في إيطاليا، وهو ما تراه الكونتيسا مناسبا. كما أطلقت على المناديات بهذا الحق لقب «عوانس»، فسألتها ليليانا، «هل جميعهن عوانس؟» ردّت الكونتيسا بشكل مُبهم: «أقرب ما يكنّ للعنوسة، لكن تأثيرنا هنا مختلفٌ، وأقرب إلى النعومة. لأنّ فضاءنا الذي نتحرك فيه هو فضاء الحَواس.»

كانت ليليانا تحاول التأقلم مع الدور الذي حدّدته لها الكونتيسا تودينو. بدا كأنها أرغِمت على ارتداء ثوبٍ ليس من مقاسها، لكنها يجب أن تتصرف كأن الثوب يلاؤمها. نعم، هو غيرُ مريح، لكن الحاجة تتطلبُ ذلك. عمرها سبعة عشر عاما فقط، لكنها ارتدت الكثير من الثياب طوال هذه السنين: مئزر المدرسة، بدلة شباب الفاشيست، وشاحها وقفازاتها البيض للكنيسة. كلُّ تلك الثياب تطلبت سلوكا خاصا بها وطريقة ما في التفكير، وقد تبنّتها جميعا كواجب ضروري. كانت تقرأ كتبها، وتلوّح ذراعيها مع بقية الفتيات في تجمعات صباحات السبت، وكانت تصومُ قبل حضور القداس الربّاني، مع ترديد صلواتها الليلية. لكن هذا الدور أكثر صعوبة لأنه يتبدّل حسب مزاج الكونتيسا، ولم يُحدّد له ثوبٌ فعليّ حتى الآن، وحتى هذا المساء، من أجل حفلة الثياب التنكرية.

«لا بد أن نجعلك كاملةً هذه الليلة،» قالت الكونتيسا تودينو، ولم تعرف ليليانا سببا لذلك، أو ما قد يعنيه الكمال، أو كيف يمكن أن يعني ذلك بالضرورة ظهورها في مكان عام شبه عارية.

لم تكن ليليانا ذاهبة إلى الحفلة إلى أن تدخّلت الكونتيسا وقالت في دهشة، «لا يمكنكِ الجلوس وحيدة في غرفتك، بينما نرقصُ تحت أضواء الثريات.» ثم توجهت إلى زوجها، «هل يمكنها ذلك، يا كَنزي العزيز؟» لكنها لم تنتظر منه ردّا، وعلى الهاتف دخلت في نقاش مع المرأة التي في متجر الثياب، فسمعت الكونتيسا تردّد أوصافها، «نعم، نعم هذا مناسب، قوامها يميل إلى الرفعة، وحجمها صغير. ما قلتِ؟ نعم، مظهرها صبياني، هذا ما قصدته.»

ما تمكنت الكونتيسا من العثور عليه لها، هي بدلة رقص لعرب جنوب سيناء، «لا تشغلي بالك بالتكلفة، لدينا حسابٌ، وسيهتمُّ الجنرال بالأمر،» همست لليليانا، التي لم تشغل بالها بشيء حتى هذه اللحظة.

«أين تقع سيناء. هل هي تابعة لنا؟» سألتها. فردّت الكونتيسا، «ليس بعد، لكني أعتقد أنها ستكون جزءا من المخطط الاستعماري طويل المدى.» ووضعت إصبعها فوق شفتيها، «اسسس، لا تخبري البريطانيين!» ثم ضحكت، واضطرت ليليانا لمشاركتها الضحكة.

عندما وصل الفستان جاءت الكونتيسا إلى غرفة ليليانا، قالت وهي ترفع الأساور والخلاخيل، وحليةً زجاجية معلقة في رباط جلدي، وتشكيلة من خِرقٍ وردية وذهبية رقيقة من أغلفتها القماشية، «غريبٌ هذا الثوب، فعادة ما تغطّي النساء العربيات أنفسهن، ولكن ليس الراقصات بالطبع.»

«أخي شاهد بعض الراقصات في نادٍ ليلي بطرابلس، وقال إنهن يرقصن بهز بطونهن.» قالت ليليانا.

«هل حقّا فعل؟ وهل هذا ما يفعله السنيور كاتانيو في وقت فراغه؟»

«أوه كلاّ، أعتقد أن ذلك كان لمرة واحدة، وقد اصطحبه أحدهم إلى نادٍ ليليّ في طرابلس.»

«شبابٌ عزّاب، ويحتاجون إلى هذه المتنفسات.»

«حقّا؟» قالت ليليانا، لكنها لم تذكر شيئا حول زواج أخيها المفترض.

«بالطبع، فهم مختلفون عنا. بالنسبة لهم الأمر مثل حُكاكٍ دائم ينتابهم، ويحتاجون إلى هرشِه. كما تفعل الكلاب.»

«أوه!» قالت ليليانا، واحمرّ وجهها للفكرة. فلا بد أن ستيفانو شعر بمثل هذا الإلحاح، ووجد في الفتاة البدوية من تهرشُ له هذه الحكّة. ربّما انتهت حاجته لها، ولهذا السبب أراد مجيء ليليانا.

«أظن أنكِ على حق، فهذه بدلةُ راقصةٍ،» قالت الكونتيسا تودينو، وهي تفحص أجزاء الثوب المختلفة تحت ضوء المصباح: الصدرية المرصعة بالترتر، قطعة قماش شيفون مذهّب، مع بنطلون وردي شفاف رأت ليليانا من خلاله اللوحة المعلقة على الجدار المقابل. «ليس بإمكان كل شخص ارتداء هذا، فقد يبدو بالغ الجرأة، بسبب الثنيات.» طرحت الثوب فوق السرير، وضعت يديها على خصرها ومرّرتهما تحت إلى بروز ردفيها. «هذه الثنيات اللعينة.»

«وددتُ لو أنّ لي ثنيات جسمك،» قالت ليليانا لإبداء الطاعة.

«حسنا، ما زلتِ شابة، وسينمو جسمك مع الوقت. هيّا، ضعي هذا الثوب ودعيني أراك، ثم بعد ذلك ستُلبسني مارتا.»

الغرفة التي أعطِيت لليليانا كانت في الحقيقة مخصصة للوصيفة مارتا، لتكون رهن إشارة الكونتيسا والجنرال في كل الأوقات. ولم تعرف ليليانا في أي غرفة بعيدة أسكِنت مارتا، ولا الطريقة التي تُستدعى بها. فقالت لها حينذاك، «آسفة، يا مارتا، لم أحبّ إخراجك من الغرفة.»

«لا تتودّدي لها،» قالت السنيورة بعد مغادرة مارتا. «إن كنت تودّين العودة لمستواك، أوضِحي ذلك، لكن ما دمتِ بصحبتي عليك الالتزام بالقوانين، وارفعي المستوى.»

لاحظت أن لكلّ من الزوجين تودينو طريقته في التودد للوصيفات، والخادمات، والحمّالين، والعاملين في الإدارة، لكن تعاملهما يتمّ بفوقيّة واضحة، وبمستوى عالٍ معين من الامتيازات والوثوقية التي يحوزانها.

جلست الكونتيسا على السرير تدير العمليات، فارتدت ليليانا البنطلون، ثم زرّرت الصدرية الضيقة التي بالكاد تلائم مقاس صدرها، وتُطبقُ على قفصها الصدريّ. ووضعت خلخالين كبيرين حول كعبيها، والأساور في معصميها. تحت أنظار الكونتيسا الثاقبة، كانت واعية بعُري ذراعيها، ومساحة كبيرة من وسطها، ما يكشف سرّتها كما لم تنكشف من قبل أبدا. وأمسكت بطرف القماش المذهّب، تريد لفه حول المنطقة الوسطى من جسدها، لتستعيد بعض الحشمة.

«لا، لا، هذا أولا.» قالت الكونتيسا وهي تنهض من السرير، ممسكة بالرباط الجلديّ، وقطعة البلور المضيء. «دعيني أقوم بذلك،» وبدلا من وضعه حول رقبتها كما هو متوقع، لفّت جسم ليليانا لتواجه المرآة، ومدّت ذراعيها بحيث صار جسمها ملاصقا لظهر ليليانا شبه العاري، وأحاطت خصرها بالرباط مستندة بذقنها على كتفها العاري لتنظر إلى صورتهما معا في المرآة، ثم حرّكت الرباط بحيث تستقر البلورة في نقرة سرّتها. وعندما تمكنت من تحديد الطول المناسب ربطت الشريط خلف ظهرها، قائلة، «هذا مناسب.»

في مواجهة عينيها في المرآة، وبينما ترفع الكونتيسا تودينو شعرها وتمسّده للخلف، رأت الضوء فيهما كأنه بريق محموم. قالت الكونتيسا «إن شعرها مثل شجيرة لم تقلّم أبدا،» لكنها مشطته وضفرته بحيث تدلّى بيسرٍ وراء ظهرها. ثم أنزلت يديها فوق ذراعي ليليانا إلى رسغيها، أمسكت بالأساور الكبيرة ودفعتها إلى الأعلى بحيث أحاطت بالجزء العلوي من ذراعيها. «هذه تُلبسُ هكذا،» قالت ثم رفعت أُنشوطة شعر ليليانا، انحنت، وقبّلتها بنعومة على مؤخرة عنقها. كانت لمسة خفيفة بالشفتين أرسلت خِدرا في ظهرها. «فتاةُ الحريم خاصّتي» همست لها.

تقفُ ليليانا في شرفة غرفتها، لا تعرف معنىً لهذا، وتسري ارتعاشةٌ في جسدها. تتساءل إن كان عليها التظاهر بالصداع، أو تقلصات المعدة، أو أي شيء حتى لا تضطر للاستعراض في العلن مرتدية هذا اللباس غير المحتشم. لقد رغبت

أن تُحدث تأثيرا على الكونتيسا، لكن ليس بهذه الطريقة.

تسمعُ طرقا خفيفا على الباب الذي يربط غرفتها بجناح الزوجين تودينو، «أأنتِ جاهزة الآن، أيتها الغِرّة؟» تسألها الكونتيسا.

تستدير نحو الباب بينما المرأة الأخرى تمرقُ خلاله. كانت الكونتيسا تودينو مرتدية ثوب أميرةٍ عربية وصلَ في تلك العشية من قسم الثياب المسرحية. ثوبٌ حريريّ طويل مخططٌ بالبنفسجي والذهبي، مع حذاء ذهبيّ عالي الكعب، وشعرها الذهبي محاطٌ بعصابةٍ مذهّبة أيضا. تخطو نحو المرآة وتقف أمامها قليلا لتسمح لليليانا بإبداء الإعجاب بها. «أعرفُ أن العُصابة ليست أصليّة، لكن حقّا، هل رأيتِ ماذا ترتدي تلك المتوحشات على رؤوسهن؟ هذه مسخرة، فلن أستطيع عندها رفع رأسي.»

«تبدين كالحلم،»

«وأنت، يا بطّتي. دعيني أنظر إليك ثانية،»

يظهر زوجها عند الباب المشرع. «جاهزات يا سيدات؟» فتقول الكونتسا، وهي تسحب ليليانا إلى الأمام، «ما رأيك يا كَنزي؟ إنها شهيّةٌ، أليس كذلك؟ وقابلة حتى للالتهام!»

عندما ينظر الجنرال إليها، ترى عينيه يتّسعان للحظةٍ، كأنه مصدوم. وعندما يتحدث يخرج صوته رقيقا، «أعتقدُ أنها ستصاب بالبرد، فصالة الحفل شديدة البرودة، أليس لديك شال تعيرينه إياها؟ ربما الشال الزهري الذي اشتريتُه لك من البازار.» لم ينظر إلى زوجته، إنما يستدير عائدا إلى غرفتهما، مناديا، «مارتا،»

«لقد جاءت البدلة ومعها نوع من الشال،» تقول ليليانا، وتجذب قطعة القماش المذهّبة، أمسكت بها حول جسمها. في هذا الوقت ظهرت مارتا عند الباب. «ساعديها يا مارتا،» قال الجنرال. لُفّت قطعة القماش المذهبة حول كتفي ليليانا، ودُبّست حول وسطها، كأنها طردٌ يحتاج إلى طبقة إضافية من التغليف. فاختفى الشكل المغوي، وتغلّبت الحشمة.

«هو مُفسدٌ للمُتع،» تقول عنه الكونتيسا، لكن زوجها يكتفي بهز رأسه، وإبداء امتعاضه. ثم يقول: «لنذهب ونشرب نخب الدولة الفاشية العظيمة، الموت والدمار لأعدائها،» ثم يؤدي التحية الفاشية.

تنضمُّ إليه زوجته، ثم ليليانا.

«دعونا نشرب الشمبانيا،» تقول الكونتيسا.

«نعم؛ هيا بنا،» تقول ليليانا، وكأنها اعتادت شرب الشمبانيا كل يوم، وعلى علمٍ الآن أنها فقدت حظوتها عند الكونتيسا، ويتعيّن عليها إيجاد طريقة ما لاستعادة موقعها.

هبطت ليليانا الدّرج الملتوي الفخم متأبطة ذراع الجنرال، الذي قال لزوجته، «دعيها تدافع عن نفسها، فهي تفضّل ذلك، وتحبُّ التباهي،» يمشي الجنرال ببطء بسبب سنّه، ولأجل معادلة هذا البطء، وربما لتسليتها يخبرُ ليليانا عن صناعة درابزين الدرج، وكيف أن كثافة الحديد نفسها تُستخدم في أطراف قضبان السكك الحديدية، ويضيف، «سيكون أبوك مهتمّا بمعرفة هذه المعلومة.» ثم يتوقفان لبرهة عند منعطف الدرج.

«سأخبره بذلك،» لكنها لا تفكر الآن بأبيها، فهي تنظر عبر الأبواب الزجاجية المفتوحة على مصراعيها إلى جمهرة الناس في الصالة خلفها. تلاحظ أن غالبيتهم يتجمعون عند الأطراف، وليس هناك إلا القليل منهم يتبادلون الأحاديث في وسطها، وهناك شمعدانان ضخمان عند كل طرف. وفي الجهة البعيدة قرب الناس المختلطين هناك فرقة موسيقية تقوم بدوزنة آلاتها. رأت أن الكثيرات من النساء يرتدين أثوابا مثيرة يفترض أنها أقرب ما تكون لثياب النساء في المستعمرات، بأحزمة تشدّ عليها، فتعطي شكلا لثياب فخمة، وكذلك أقمشة ملونة ملفوفة حول شعورهن، أو متداخلة مع تسريحتهن. فقالت لنفسها، لا بأس، ستمرُّ الحفلة ولن يلاحظها أحد.

أثناء هبوطهما الدرج أشار الجنرال إلى تفاصيل صناعة الثريات، حيث تتكون كل منها من أربعمائة وثلاثين قطعة بلّور، فتنظرُ إلى الأعلى وتُعجبُ بما تضفيه من بريق، ويُخبرها أنهم ينزلونها كل عامين من أجل التنظيف.

عند قاع الدرَج يلتفتان ليشاهدا النزول الفخم للكونتيسا، بفستانها الأميري يُصدر حفيفا من حولها، بينما أضواء الثريات تعكس اللون الذهبي في شعرها، ولمعان عصابة الرأس، فتبدو باذخة، ومتأنقة، وناعمة.

تقف في منتصف المسافة متخذة وضعية التصوير، فيبرق ضوءٌ فجأة وتلاحظ ليليانا مصوّرا يقف عند أحد الأعمدة. وتهبط الكونتيسا الدرجات الأخيرة متهادية لتنضمّ إليهما، فيلفتُ الجنرال انتباه ليليانا إلى أعمدة الرخام البرازيلي، وإلى الكوّات العلوية من زجاج المورانو.

«توقف عن دفعِ المسكينة للضجر بهذه الحقائق التي لا فائدة منها،» تقول الكونتيسا وهي تمطّط جملتها أثناء عبورهم إلى صالة الحفل، «اعثر لها على ضابط وسيمٍ ما، وعرّفه بها.»

«أتريدين ذلك؟» يقول، ثم يستدير ويرمق ليليانا بنظرة غامضة.

«هل الماريشال هنا الليلة؟» تسأل ليليانا، لمجرد أن تقول شيئا.

«يا إلهي. أنتِ تتطلعين إلى الأعالي،» ردّت الكونتيسا.

«إنما أردتُ شكره على إنقاذ سباق طرابلس للسيارات» لكن الكونتيسا لم تعد تسمعها، فقد لفت انتباهها شيءٌ آخر أكثر إثارة، وتمضي مبتعدة عنهما.

«لقد وفّر الماريشال الدعم لاستمرار السباق، وبذلك حصل أخي على مكافأته، ودفع تكاليف رحلتي إلى طرابلس» تشرحُ للجنرال.

«دعيني أرى إن كنت سأعثر عليه» يقول الجنرال وهو يرفع «المونوكل» إلى عينه، ويفتّش بين الضيوف.

كان زجاج المرايا متداخلا مع الزجاج العادي في نوافذ السقف والصالة، وكان النّدُل يطوفون بسُفر الشراب على الحاضرين فيقدّم الجنرالُ كأسا لليليانا ويأخذ واحدة لنفسه، يخبرها أنه لم يتمكن من رؤية الماريشال. تلاحظُ وجود العديد من الضباط بأوسمتهم المثبتة إلى صدورهم، وأزرارهم اللامعة، شواربهم دُهنت بالشمع، وأحذيتهم تعكس الضوء من كثرة تلميعها. في اختيارهن لفساتين السّهرة من الحرير والتافتا، لم تُبد بضع سيدات إلاّ لفتة رمزيّة لمناسبة الحفل من خلال ارتداء زنانير على صدورهن تحمل شعارات وطنية شهيرة ـ الفضاء الحيوي، ماري نوستروم، ويحيا الدوتشي ـ يصفُ الجنرال بعض الأشخاص لليليانا، معرّفا بأسمائهم، ورتبهم، ووظائفهم، فتومئ برأسها، وترشف من شرابها من خليط الفواكه، شاعرة بالأمان إلى جواره، وأنّ لا أحد يعرفها. ثم تتوقف أنظارها التي كانت تمسح الصالة على رجلٍ يقف قبالتها، وبدا أنه ينظر إليها. تلتقي نظراتهما لبعض الوقت، فتشيحُ بنظرها بعيدا، تسحبُ نفسا، وتشعر بصدرها يضغط على صدرية الشيفون المحيطة به. تتسلّلُ نظرتها من جديد، وترى شخصا يجذبه من كمّه، فيستدير للحديث إليه. هذا الذي لفتَ نظرها يرتدي بدلة سلاح الجو: سترةٌ بيضاء قصيرة، سروالٌ داكن اللون، حذاءٌ لامع، وقبعةٌ بيضاء محزّمة بشريط مذهّب ومقدّمة داكنة، وصفٌّ ميداليات تتدلى من أشرطة فوق الجانب الأيسر من صدره، وقميص أبيض مع ربطة عنق فراشية سوداء. الالتزام الذي قام به نحو جوّ الاحتفال هو ربط شريط قماشي حول جسمه ذي لون قرمزي مُبهر، ومثبت بدبوس مزخرف إلى كتفه. أيقنت أنه الرجل نفسه الذي رأته من الشرفة يصل في السيارة الرسمية، لكنها لا تعرف لماذا. كان يتحدث إلى الذي بجواره، وعندما يبدأ الآخر الحديث، يلتفت لينظر إليها، فتشيحُ بصرها بعيدا من جديد.

عثر الجنرال تودينو على ضابط شاب يعرّفه بليليانا، وهو ميجور متحمّسٌ في الجيش، طفق يحدثهما عن الخطبة الرائعة التي ألقاها الدوتشي، وكيف تم التخلص من آخر بقايا الديموقراطية في البرلمان الإيطالي. واحتفاءً بذلك تخلصت ليليانا أيضا من بقايا العصير في يدها، بما فيها كتل الفواكه في قعر كأسها، ودون تردد تقبلُ كأسا من الشمبانيا.

تبدأ الموسيقى، فيسلّمها الجنرال إلى الضابط، ويرقصان الفالس بين البقية. عندما تنتهي الرقصة، يطلبها ضابط شاب آخر للرقص، ثم تنتقل مباشرة إلى آخر، ثم إلى الثالث، فلا تتوقف إلاّ لتحتسي المزيد من الشمبانيا. ليس هناك نقصٌ في الراقصين، من الشباب أو ممّن ليسوا شبابا، وبعضهم كانوا مرافقين لزوجاتهم. الفالس والفوكسترت هما الرقصتان اللتان تعرفها ليليانا بشكل معقول، لكنها تجد أن شركاءها لا يهتمون لذلك كثيرا، ويحرصون على تعليمها رقصات أخرى، وبين أذرعتهم تتهادى حول حلبة الرقص. طوال مدة رقصها كانت على وعي بالرجل الذي يراقبها، ومكان وجوده أثناء تحرّكه في الصالة، وتبادل الحديث مع ضيوف مختلفين. رأت أن هالةً من الصلابة والرزانة تحيط به، وكأنّ الجو حيث يقفُ أكثر كثافة، وحيثما يكون يشدّ انتباهها دائما. بدا لها شديد الفطنة، ورسميّا، وسويّا، ومع ذلك رأت في عينيه اضطرابا كأنه قد

يفعل أي شيء في لحظة ما، وفي وقت ما. وبينما هي بين ذراعي كولونيل من فوج الألبيني يفوح برائحة الحبق والويسكي، نظرت وراء ظهره، فرأت الطيّار مسترسلا في حديث طويل مع الكونتيسا تودينو؛ ثم نظرا نحوها في الوقت نفسه، كأنهما شعرا بها تنظر إليهما، كأنهما يتحدثان عنها، لكن معرفتها بأنها لا يمكنها منافسة الكونتيسا تودينو في الجمال، أو الثراء، أو الجاذبية تجعلها تنزلق وتتقوقع داخل نفسها بشكل غير مريح. بالطبع لا يمكن أنهما كانا يتحدثان عنها، فهي بالكاد تستحق أن يولياها اهتماما. عندما ترى الرجلَ مرة أخرى كان يدخن سيغارة ويتحدث مع الجنرال وشخص آخر. تتمكن من اختلاس نظرات إليه وهي تتنقل على أرضية الرقص، وتعرف عن يقين أنه يتابع تحركاتها أيضا.

تنتظره أن يطلبها للرقص، وترقص مع آخرين خلال انتظارها له، كأنها تتدرب لمراقصته، وطوال الوقت يَشغلُ تفكيرها.

تتبدّل نظرةُ مراقِبها أثناء تحرّكها، كأنه يرى خلال لفّات الشيفون التي تُبرز الجزء الأوسط من جسدها، والتي تجعل منها مثل عمودٍ شبيه بتلك الأعمدة الرخامية البيض عند قاع الدرَج الملتوي. نعم بإمكانه رؤيتها واضحة أمامه وصولا إلى روحها العارية المضطربة بداخلها. تشعرُ أن كلّ الرجال غيره في الصالة راقصوها، إلاّ هو، ومع ذلك فهي لا ترقص إلاّ من أجله.

تتوقف الموسيقى، وتجد ليليانا نفسها مع مراقصها الأخير واقفيْن عند النهاية التي توجد فيها الأوركسترا في طرف الصالة، وتراقب بينما يضع الموسيقيون آلاتهم على الأرض ويسندون أقواس العزف فوق ركبهم. يدسّ عازف التشيلّو آلته في صندوق عند قدميه، يتكئ إلى الخلف على مسند كرسيّه، ثم يرفع كتفيه وينزلهما ثلاث مرات، ويرفع يده إلى خلف عنقه ليمسّدها.

دُقّ جرسٌ، وبالتدريج ران الصمتُ على صالة الاحتفال. تتوقفُ الأحاديث، وتخفتُ أصواتُ تلامس الكؤوس، ثم يبدأ الحاضرون بإعادة ترتيب أماكن وقوفهم، بينما يستديرون جميعا لمواجهة الطرف الذي توجد فيه الفرقة، وحيث تقف ليليانا. يتقدمون إلى الأمام، وتشعر ليليانا بحرارة أجسادهم من خلفها، وتجد نفسها محاطة بمجموعة من النساء الرسميّات مرتديات شعارات وطنية حول أجسامهن.

تُوضعُ منصة خشبية صغيرة بدرجتين فوق الأرضية الرخامية بين مكان وقوف ليليانا والأوركسترا، وتكتشف أنها تقف في مقدمة الصف الأمامي لهذا الحدث القادم. تنظرُ حولها باحثة عن الرجل، لكنها لا ترى له أثرا، فينقبض قلبها لفكرة أنه غادر دون أن ترقص معه.

يُقدَّمُ المزيد من الشراب، حتى يكون لكل شخص كأسٌ في يده. وتتفطن إلى أنها تحدّق بطريقة غير لائقة في عازف الشيللو الذي لاحظ ذلك. يرفع العازف نحوها حاجباً كأنه يقول: «انظري إلى نفسك في هذه الثياب.» إذنْ لقد اكتُشف أمرُها، وأنها ليست إلاّ مدّعية. بالمقابل ترفعُ له حاجبا وتدلقُ ما تبقى من شراب في جوفها، ثم تنظر إليه بازدراء. نعم

أنتمي إلى هذا المكان. وسأنتمي. أنت تجلس هناك وتعمل، أما أنا فضيفةٌ شرعية في هذا المكان. يهز رأسه نحوها، كأنه يحذرها، تنظر فترى أن الجميع ما زالوا يمسكون بكؤوس شراب مملوءة حتى حوافها وتظهر منها الفقاعات. وعندها تفهمُ الموقف. هناك نخبٌ ما سيُرفع. تمدّ يدها إلى نادلٍ مرّ بجانبها، فتضع على سفرته كأسها الفارغ، وتأخذ كأسا مُترعة. تنظر نحو عازف التشيللو، فيومئ برأسه مبتسما. ترى فيه صورة لأبيها، وتسيطر عليها فجأة فكرة التقدم نحوه، عبور الأمتار القليلة بينهما، والجلوس على ركبتيه لأنها بالرغم من وقوفها ثابتة، إلا أن شعورا يراودها بالتوهان وأن لا أصدقاء لها. تُغمض عينيها لحظة لطرد هذه المشاعر، تترنح وكأن الأرضية تميد بها. لكن سرعان ما تفتح عينيها. تريدُ المغادرة، لكن تجمّعا من الناس يحول بينها وبين الباب. لا بد أن تبقى إذن. وتثبّت نفسها بتركيز نظرها على المنصة الصغيرة.

فجأة ينفتح بابٌ لم تلحظه من قبل، ويدخل منه الطيّار. كيف يمكن ذلك، وقد كان معهم في الصالة؟ وتتبينُ الآن أنّ ما يثبّت وشاحه الأحمر في مكانه، هو دبوس زينةٍ زمرديّ على شكل خنفساء.

ثم يخطو فوق المنصة الصغيرة.

ومن هذا العلوّ ينظر إلى كلّ من في الصالة، لكنه لا ينظر إلى ليليانا على الرغم من قربها منه. ينتظر قليلا مادّا يديه أمامه، راحتاه إلى أعلى، مثل واعظ. ومع أن الجمعَ يسوده الصمت، ومُنتبه، إلاّ أنه ينشُد المزيد من الهدوء. بصمتٍ يطلب قدرا أكبر من الهدوء، وقدرا أكبر من الانتباه. لا بد أن يكون الصمت كلّيًا. وما إن تحقق ذلك حتى خاطبهم. تنصت ليليانا للنبرة الآمرة أكثر من إنصاتها للكلمات. يدوّي صدى كلماته بداخلها، في بطنها وهي واقفة في طرف دائرة النساء. ماري نوستروم، يصيحُ الرجل، فيرتجّ صدر المرأة إلى جوارها بالشعار الذي يطلقه. وتشعر ليليانا كما لو أنها تسبح فيه. ماري نوستروم. تشعر بانكماش رئتيها وبحاجتها إلى استنشاق الهواء. عندما تتمدد رئتاها، تحسّ أن جنبيها يضغطان على حزام الشيفون الذهبي الغليظ الذي يلف وسطها. وعندما ينكمشان من جديد تنزلق قطعة الشيفون المثبتة على كتفها بنعومة فوق الجلد حول إبطيها، وعلى صدرها. «باكس رومانا»*، يصيح الطيار. فتشعر بخضّة عنيفة. إنها الآن في بحر ما. ولن تنعم بعد الآن بأي سلام.

عندما رأت الرجل من شرفتها أوّل مرة. كانت المشاهدة من فوق، فبانَ لها الرأس، ولمحة من وجهه المرفوع. لكنها تنظر إلى فوق الآن فترى بروز فكّه، وانتفاخ صدره، كأنه تمثال فوق قاعدة حجرية. تشعر باضطراب، كأنها على حافة شيء ما، وفي طريقها للقفز.

يشرح لهم الرجل أنّ الماريشال لن يأتي إلى الحفل لأنه طار إلى طرابلس لحضور سباق السيارات هناك، وأنه موجودٌ هنا نيابة عنه. ترقبه ليليانا في عجب، ورأسها يدور. يتحدث عن الاستفتاء وكيف أنه لا يمكن وقف الثورة الفاشستية الآن. تسمع منه جُملا تخزّنها في رأسها

الذي تدور به الشمبانيا الآن، وتفكر أنها ستسأل الرجل لا حقا عن معناها. بينما تتمدد إيطاليا أكثر نحو الفضاء الحيوي، ستكون الإساءة التي ألحقها بها (النصر المبتور) شيئا من الماضي. يقترح الرجل شرب نخب الثورة الفاشستية، فيستجيب الجمع بصخب. يرفعون كؤوسهم، وتأخذ ليليانا رشفة من الكأس المترعة وتعيدها إلى سفرة نادلٍ مارٍ بها بعنف أكثر مما قصدت. كانت مؤخرة عنقها تؤلمها بسبب رفع رأسها إلى الأعلى. كم تحبّ أن تجلس، لكن ليست هناك إمكانية لذلك وهي مضغوطة في مقدمة الجمع.

تراقبُ عازف الشيللو وهو يلتقط آلته، مع بقية أفراد الفرقة الموسيقية الصغيرة. يمسك بقوسه في وضع الجاهزية، وينظر إلى زملائه. على وجهه ترتسم نظرة استسلام، يرفع حاجبا ويومئ برأسه، وعلى الفور يبدؤون جميعا في عزف نشيد الحزب الفاشستي، «جيوفينتزا» عندها ينزع كلّ العسكريين قبعاتهم، والحاضرون جميعهم يشرعون في الغناء بحبورٍ لحدود إيطاليا الجديدة، ولانتصار الشباب، وللفاشية المخلّصة.

تأخذ المرأة المحاذية لليليانا في الغناء بنغمةِ جوابٍ أعلى من كل من عداها، لها صوتٌ سوبرانيّ بالغ الحدة حتى أنه يهدد بتهشيم كؤوس الشراب في أيدي البعض. رجلُ التشيللو يعزف على آلته، ولا يزال يرتسم على وجهه تعبير الأسى. تشارك ليليانا بالغناء، فتشعر بالانطلاق والتحرّر عندما تأخذ نفسا. للحظة لا تدري سبب ذلك، ثم تكتشف أن الدبوس الذي يثبت حزامها في مكانه قد انفكّ. فتمسك بقطعة القماش إلى جانبها كي لا تسقط تماما. بإمكانها الآن سماع صوتها عاليا، وصادحا، وخاليا من النغم. ثم تخرج من فمها ما تشبه النخرة، وكأنها على وشك الانخراط في الضحك. أو في البكاء، فتجد صعوبة في كبح ذلك. وتقول لنفسها كم نحن تافهون لأننا جميعا نمارسُ لعبة. وهذا مشهدٌ من مسرحية لكل منّا دورٌ فيها. تتفهّم فجأة لماذا غادر الطيار الصالة. لقد خرج لكي يراه الحاضرون عندما يدخل عليهم ثانية. هذا هو العرض، وهو الممثل الرئيس فيه.

ترفع بصرها نحوه من جديد، وترى أن فكّيه يعملان، وشفتيه تتحركان، لكن ليس في استطاعتها تبيّن صوته. لديه صوت جهوري عندما يتحدث، ولكن في الغناء تغلب على صوته النعومة الشديدة. ربما ليس بإمكانه حفظ اللحن، ويعرفُ ذلك. في مرحلة الصمت عند انتهاء النشيد ينزل عن المنصة، ينحني للحاضرين، ويغادر الصالة. لقد غادر العرض، تفكّر ليليانا، لكنها كانت تأمل لو أنه أخذها معه.

عندما تنطلق الموسيقى ثانية برقصة البولكا البوهيمية، تسير عبر الصالة قابضة على حزام الشيفون المنحلّ حتى لا يسقط. إنها بحاجة إلى مغادرة المكان، أن تستنشق هواءً نقيّا، وأن تربط لباسها الذي انفك ويكاد يسقط. لم تعبر إلاّ نصف المسافة حتى خرج لها من يطلبها للرقص، ويتجاهل، أو لم يسمع اعتراضاتها التي خرجت منها في شكل قهقهة عصبية، أو ربما فهم ذلك على أنه تشجيع له. لم تستطع مقاومة إمساكه بها ومراقصته لها حول الصالة. تحتفظ بيدٍ ممسكة بالقماش على صدرها، وبالتالي لا تمسك بقوة كافية بشريكها الذي كان يتّقدُ حماسة وحيوية، فأخذ يلفها بقوة أكثر مما

يتطلبه إيقاع الرقصة. عندها، وفي لحظة الدوران، تنفلت يدها الممسكة به، فتدور فاقدة السيطرة على نفسها، وتترنّح. لكن أحدهم يُمسك بها من الخلف، وتجد نفسها بين ذراعي رجل آخر.

«أنا ممسكٌ بك.» يقول صاحبُ الدبّوس الخنفسي، وتسقط نحوه إلى الخلف، تاركة نفسها بين يديه للحظة قبل أن تقف على قدميها.

تلتفت إليه، شاعرة بسخونة ولزوجة في وجهها. وبما أمكنها من وقار تقول: «أشكرك.»

يمسكُ بيدها كأنه يريد العودة بها إلى حلبة الرقص، لكن بدلا من ذلك يخرجان من الباب المزدوج عبر ممرٍّ، ثم خلال باب ثان يقود إلى فرندة يقف بها أشخاص في مجموعات، يدخنون، ويبدون إعجابهم بسماء المساء، وبأضواء المدينة. بكلمة منه يغادرون المكان، ولا يتبقى سواهما. تفكّر بأنه رجلٌ مهمّ للغاية، لا يجب أن يُعصى له أمر، فتقهقه. يبتعد عنها خطوة، وينظر إليها من فوق إلى تحت، وقد ارتدي وجهه قناع الجِدّ.

«لم أضحك منك،» تقول، لكنها ترى من التعبير على وجهه أنّ الفكرة لم تخطر بباله. «كدتُ أن أجعل من نفسي أضحوكة في الصالة، فقد انفكّ رباط ثوبي.» وتشيرُ بيدها إلى الطرف المنحلّ من حزامها.

«لاحظتُ أنك تعانين صعوبة ما.» ثم يأخذُ بطرف الحزام الممسكة به. يقف الآن قريبا منها، وبإمكانها شمّ رائحة الكولونيا التي يضعها. رائحة صنوبر حادة.

«الراقصات لا يرتدين هذه حول خصورهن» خرج صوته منخفضا ومداعبا. يُنزل رأسه، وينظر إليها من وضعية منخفضة، مثل ثورٍ على وشك الانقضاض، ثم يشدّ قطعة القماش. في الوقت ذاته، وبيده الأخرى يضع يده على كتفها، ويدفع قليلا، وبالتالي صار يشدّ ويدفع في الوقت نفسه، فتفهم الحركة المطلوبة منها. ببطء، وبإصرار منها تبدأ في الدوران في مكانها، تاركة له أن يفكّ القماش عنها، حتى تجد نفسها واقفة وقد تعرّى وسطها، وبانت الحلية فوق سرتها. «هكذا،» يقول لها.

«عذرا أيها الكولونيل. اعتذرُ عن الإزعاج. سيارتك تنتظر،» يقول رجلٌ ظهر عند الباب الزجاجي.

هو كولونيل إذن.

«عليّ الذهاب الآن،» يعيدُ إليها قطعة القماش الذهبية الملفوفة، «متى يمكن أن نلتقي؟» يسألها.

«سأبحرُ إلى طرابلس في الغد،»

«وأنا في اليوم الذي يليه!» لكنه سيذهب في طائرة بَحرية، وسيصلُ قبلها، ويخبرها أنه سينتظرها. ثم يُخرج مفكرة سوداء من جيبه، يقلّب صفحاتها. «دعينا نلتقي عند الكاتدرائية في منتصف النهار، في الأربعاء الثاني من الآن. هذا موقعٌ

مركزي مناسب، ومن السهل عليك الوصول إليه، ومنه يمكننا الذهاب إلى الفندق الذي أنزل فيه.» لا يزال ممسكا بقلمه؛ «سنتغدى معا، هل تحبين ذلك؟» تومئ له.

يدوّن التاريخ في مفكرته، ويعيدها إلى جيبه. ثم يأخذ بيدها عائدا بها إلى الداخل نحو أحد المكاتب الصغيرة الموجودة في أنحاء الفندق. ينحني على المكتب ويكتب وقت وتاريخ لقائهما على إحدى أوراق الفندق، ينزع الورقة ويسلمها إياها، ثم يدنيها بالقرب منه. «لا تنسي،» يهمس في أذنها.

«لن أنسى.»

يتركها، ويأخذ خطوة للوراء. «سأرسلُ لك سيّارة،» ثم يغادرها.

لديها مَهمّة في طرابلس، وهي حتى لم تغادر الشواطئ الإيطالية بعد.

---

* باكس رومانا، تعني «السلم الروماني» فترة سلم نسبي عاشتها الإمبراطورية الرومانية، دامت نحو 200 عام. بغرض ضمان النظام والقانون والأمن داخل حدود الإمبراطورية، ولو أدى ذلك إلى التوسع العسكري. المترجم

أنا ملك نفسي

مادة: خصلةٌ من شعر طفلٍ ملفوفة في ورقة.

كانت الغرفة حيث وضعوا أبرامو تفوح برائحة المطهر. تمّ غسلُ جسده، ووُضع فوق عربة سرير مثل التي رأتها ليليانا سابقا. الملاءة التي تغطيه مطويّة ومثبتةٌ حوله من أطرافها وكأنما يأخذ إغفاءة، وفي الجانب المقابل للسرير هناك نافذةٌ عالية بدون ستارة، بينما وُضع كرسيّ خشبي في الجانب القريب. الديكور الوحيد في الغرفة كان صليبا بلاستيكيا يتدلى من الحائط.

وقفت ليليانا والممرضة عند قاعدة السرير. كان لأبرامو شعرٌ داكن قصير تحوّل إلى رمادي عند فوديه، ولحية صغيرة تكاد تكون بيضاء. فكّرت أنه من الطبيعي أن يبدو أيّ شخص متجهّما في حالة الموت. حتى عندما يرتّبونك، ويضعون لك شيئا من مستحضرات التجميل، ويعدّلون قليلا من ملامحك لجعلك تبدو أكثر أمناً، بقصد تحويل هيئتك لتلائم الجملة المعتادة: «لقد رحل إلى مكان أفضل» على الرغم ممّا يبدو على ملامحك من تجهّم، وأنك ميّت؛ هذا هو الشيء الأساس. وهو أن هناك تماثلاً في الموت. عندما أسلمَ آلان الروح، بدا مثل شيخٍ طاعن في السنّ، لكنه على الأقل عاش سنيّ كهولته وفوقها عشر وبضعٌ أخرى. لكن هذا الرجل، الذي كان ابن أخيها، انتُزعت الحياة منه مبكرا.

«كان له شعرٌ كثيف في طفولته،» صرّحت لمجرد أن تقول شيئا ما، وهي تفكّرُ في الخصلة الصغيرة الملفوفة في ورقةٍ صفراء في العلبة الموجودة داخل حقيبتها. «كانت عُقصُ شعرٍ ملتوية تغطي رأسه مثل إمبراطور روماني،» غلبت على نبرتها الحدّة والوضوح، ولمْ تفهم لماذا توجد هنا الآن في هذه الغرفة ذات الجدران البيضاء العارية. من المؤكدُ أنها في طريقها إلى المغادرة، وهي إنما جاءت لتوديع الممرضة.

أخبرتها الممرضة أنها ستتركها معه لعشر دقائق، ورأت ليليانا أنها ستنفّذ هروبها بمجرد أن يُقفل الباب.

لكن بدلا من ذلك انفجر حزنُها. وصدمها ما في هذا الحزن من قوّة. في البداية جلست على الكرسي عند سريره، وتمكنت منها نوبات نحيب خالية من الدموع، لكن بعد ذلك اضطرت إلى الوقوف وأخذت تروح وتغدو عند قاعدة السرير، وتنوح مغطّية وجهها بمنديلها.

دأبت تحدّثُ نفسها أنها في الحقيقة لم تعرف أبرامو، وبالتالي لا يجب أن تحزن عليه. وأنه لم تكن هناك فرصة لوجودها هناك. ومع ذلك، أن يوجدَ هنا أمامها ويُنتزعُ منها هكذا، وألاّ تحظي بفرصة معرفته في هذه الحياة من جديد، ولا حتى

لدقائق خمسة. استمرت تذرع المكان وتنتحب، لكن بدون دموع. كل شيء فيها رفض هذا باعتباره نهاية.

وفجأة تنتقلُ بأفكارها من جديد إلى الجانب البعيد من حياته. واقتحمها المشهد فجأة كما قد يطير سربُ عصافير مذعور. ترى فريدة في بيت الشَّعْر الرطب والمظلم تقريبا الذي تفوح منه رائحة الدم ودهنٌ حيواني محترق من الفانوس، ودخانٌ ينبعث من حطب محترق وبخور لطرد الحشرات. تحسّ بدفء المكان والدم. ثم ترى عيني فريدة اللتين انقلبتا في محجريهما، وكيف أمسكت به ليليانا بين يديها، هذا المولود الضئيل اللزج، ثم وضعته فوق بطن فريدة. من الخارج، وفي الضوء شديد السطوع، وتحت شمس لا تلين، جاءها صوت مدوّ لمحرك سيارة يهدر كالرعد. ثم الدم، الكثير منه. ونزيفٌ لا يتوقف.

ماذا كان اسم تلك القرية؟ ودمُ من؟ هل اقترفت هي، ليليانا جريمة ما؟ لا. أرجوك يا إلهي. لطالما لاحقها هذا الخوف، ولا يوجد من عساها أن تسأله. رمشت، فاختفت الرؤيا، ثم جلست متثاقلة بجانب أبرامو.

راقبته عن قرب وتملّت من ملامحه. خطُّ الذقن أسفل اللحية، وأثرُ بقعة بيضاء تحت الفود الأيمن لا بد أنها بفعل إصابةٍ قديمة. شفتان مكتنزتان فوقهما شارب داكن، مع انتشارٍ لخطوط دقيقة حول العينين بفعل طول تضييقهما تحت الشمس الساطعة، وتلك الأخاديدُ التي بين الخطوط. الملامحُ عادية. الأنفُ مستقيم. لا بد أنه كان في حياته رجلا وسيما.

رفعت طرف الملاءة باحثة عن يده، فوصل إلى أنفها أثرُ رائحة خاطفة، شيء له علاقة بالفلفل، مع لمسة من الزنجبيل. تتخيّلُ صورة لأبرامو وهو يضع الكولونيا ويربت على خدّيه الحليقين وعلى عنقه. وحقيقةُ أنه كان حيّا منذ وقت قليل تجعلها تشهق. يده فيها رخاوةٌ كالمطاط لكنها استمرت تمسك بها. كان يضع سوارا فضيا سميكا في معصمه، وتساءلت إن كان هذا يبدو غريبا لرجلٍ ليبيّ. مرّرت إبهاما فوق المعدن المصقول. كانت هي وفريدة تملكان سوارين فضيين متماثلين، اشترتهما ليليانا من الصائغ يعقوب في طرابلس، من أول راتبٍ تقاضته. وطلبت أن يُنقش عليهما رسمٌ لطائر. على سوارها نُقش الطائرُ بمنقارٍ مغلق والجناحان مرفوعان قليلا، وعلى سوار فريدة ينفتح منقارُ الطائر كأنه يغرّد، لأنّ فريدة دأبت على الغناء والثرثرة والهمهمة طوال الوقت. فهي تعرف كلمات عشرات الأغاني الإيطالية القديمة التي حفظتها من الاستماع للأسطوانات، وتدورُ إحداها حول فراشات النور. ماذا كانت تقول تلك الأغنية؟ «نلمعُ في الظلال، لأننا عبيدٌ لعالم متوحش.» بيدها الطليقة ربتت ليليانا اللحن فوق ركبتها. ابنكِ مات يا فريدة. لكنها لم تتحمل الفكرة وسرعان ما طردتها. لم تعرف ما حلّ بسوارها. لا بد أنها أضاعته في ليبيا. «لن يطول الأمرُ الآن، يا حبّي.» قالت بالإنكليزية بصوت عال. ذلك ما كان يقوله آلان وهو على فراش الموت. لكنها لم ترغب في التفكير كثيرا عمّا قد يعنيه ذلك، واليوم تحديدا لم تقدّم لها هذه الجملة الراحة القليلة المعهودة.

ستغادرُ الآن، ستأخذ حقيبتها وتنطلق إلى المطار. أو ربما ستجد فندقا هادئا صغيرا تقضي فيه ليلتها، لأنها مضطربة ومتعبة كثيرا. لم يسبق لها الإقامة بمفردها في أيّ فندق، ولا تعرف كيف تتصرف، لكن يمكن أن تطلب مساعدة سائق التاكسي. وهي لا تحتاج للبحث في روما فربما يوجد فندقٌ بالقرب من المطار. هناك ستغلق عينيها، فلا مكان لها هنا. لم

تكن منصفة مع هذا الرجل طول الفترة التي كان فيها حيّا، والآن فقد فات الأوان. إن بقيت في روما فربما ستتورط في تحقيق الشرطة حول مقتله، وفي ظلّ غياب أيّ قريب له أو شخص له صلة به، فربما تضطرّ لتحمل المسؤولية عما سيأتي من إجراءات. ورأت أن فكرة إشرافها على ترتيب جنازةٍ أخرى تدفعها للغثيان.

تركت يد أبرامو وغطتها بالملاءة من جديد. نهضت ووضعت راحتها فوق خده وتركتها هناك، بإمكانها الإحساس بشعره القصير تحت أصابعها، ثم انحنت وضغطت شفتيها فوق جبينه البارد.

من وراء القبر، سمح لها حبيبها آلان اللطيف، أن تفتح بابا كانت قد أغلقته من قبل. هو مثل بابٍ أفقيّ تحت قدميها، كأنها تسكن الطابق العلوي لبيتٍ به كل أنواع الغرف التي لم تُفتح، ولم يدخلها أحد. لقد سكنت مع آلان فوق، في العليّة، لأربعين عاما. لكنها ترفع الآن هذا الباب المخفيّ. ثم برعونةٍ، وبدون تفكير تسقط من خلاله وتحطّ هنا في هذا المكان، حيث لا شيء هنا سوى رجلٍ ميتٍ، وطريقٍ مسدود.

رفعت يدها عن وجه أبرامو، التقطت حقيبتها اليدوية، وضعت معطفها فوق ذراعها، وخرجت إلى الممر. سارت باتجاه المصاعد في الجانب البعيد. كان قلبها ينبض بعنف بأسلوبه الجديد المخيف، لكن جسدها صار أكثر بطئا. كل سرعتها تركزت في قلبها النابض الذي زاد معدّل دقاته. كانت تتحرك كأنها إحدى العاجزات والمريضات، مثلما يزحف حلزون ما، بينما يرتعش قميصها على وقع دقات قلبها العنيفة. عندما كادت تصل هناك، انفتح باب المصعد، وانطلقت منه هيئة صغيرة مثل قذيفة، ووقفت تحدق حولها في اضطراب. إنها شابّةٌ في سن المراهقة ترتدي بنطلون جينز، وحذاءً أحمر لامعا، وشعرها الأسود في ضفيرة طويلة. لاحظت ليليانا الكتابة على التيشيرت خاصتها، «أنا مِلكُ نفسي.» وتساءلت عن مغزاها. بدأت الفتاة تتحرك صوب ليليانا، ضفيرتها تتأرجح كلما لفتت رأسها لقراءة أرقام الغرف. وفي الوقت الذي تقاطع فيه مسيرهما انتاب ليليانا شعور متذبذب، لكنه كان خاطفا مثل تلك الأحلام التي ترى نفسك تتعثّر فيها، ثم سرعان ما تستعيد توازنك. كانت أساور الفتاة وقلاداتها تصدر رنينا عند مرورها بها.

استمرت ليليانا في سيرها. وفكرت في أنّ الفتاة لا بد وأن تلقت أخباراً مفجعة، لأن عينيها العسليتين كانتا على اتساعهما بفعل الصدمة والحزن. يا للبنت المسكينة، قالت لنفسها، وهي تدخل إلى المصعد، إنها مسكينة بحق.

مَهمّة سرّية

مادة: تذكرة درجة ثالثة على متن السفينة البخارية «إلترِكو» مؤرخة في مايو 1929،
لرحلة من نابولي إلى طرابلس. مع توقفٍ في كاتانيا، سيراكوزا، ومالطا.

صعد الركاب إلى سطح السفينة لمشاهدتها تدخل الميناء.

هناك على الرصيف توجد المنارة الجديدة المخططة، وعلى الشاطئ بين البنايات الحديثة، تظهر السراي الحمراء، ومن خلفها يمتدّ تنوّعٌ لا ينتهي من أسقف المباني، وقبب المساجد، ومآذنها الرفيعة، وبرجٌ حجري قد يكون لكاتدرائيةٍ جديدة. لقد تعرّفت ليليانا إلى هذه المعالم الأرضية من بطاقات ستيفانو البريدية، لكنها لا تزال غير مستعدة لتبيّنِ الشكل العام للمدينة، ومبانيها البيض الواقعة بين الماء الأزرق، وسماء أكثر زرقة، بإشراقها المكثّف.

تناورُ السفينة لترسو على الرصيف، بينما رجالٌ على سطحها يرتدون قيافة خضراء يرمون حبالا غليظة نحو آخرين على الرصيف، يتلقفونها ويلفّونها حول أعمدة ربط عمودية. تسمع أصواتا إيطالية تعطي تعليمات، مع ردودٍ عليها من رجال محلّيين بلغة ولهجةٍ غريبة، رأت أنها لا بد أن تكون لغةً عربية، وبدت لها مثل سلسلة متواصلة من تسريحِ حناجر، لم تتبيّن منها كلمة واحدة.

ثمة ضجيجٌ متواصل، واحتكاك المعدن المتكرر بالمعدن، وصوتٌ بعيدٌ لتشغيل محركٍ، وضوضاء صادرةٌ عن الركاب انتظارا لهبوطهم.

ناظرة إلى هذا المشهد، تشعر ليليانا كأنّ عينيها قد أزيل عنهما غبارٌ لم تعرف بوجوده هناك، بحيث أنّ الألوان، والتباينات، والضوء والظل، تندفع نحوها كما تفعلُ الحرارةُ الآن بعد أن سكن النسيم. تنطلق نحوها وعبرها كذلك. ثم ينقشع ضبابٌ غائم كان يلفّها، مثلما يلف بخارُ السفينة البخارية.

من تحتها تراقب الحمّالين، رجالٌ بوجوه سمرٍ يرتدون سراويل بيض ورمادية فضفاضة، تلتصق برؤوسهم قبعات بيضاء، يقفون في صفٍّ مع عرباتهم الخشبية، جاهزين لتحميل صناديق الركاب ونقلها إلى السيارات المنتظرة: ثلاث سيارات سوداء، وصفٌّ طويل من عربات الخيول (الكاليس) بسائقيها المحليين مرتدين جلاليب باهتة طويلة. في وسط هذا المشهد تقف سيارة مصقولة سوداء. وهناك يقفُ متّكئا عليها بظهره، يدخّن سيغارة، ترى ستيفانو.

كان مرتديا قميصا أبيض مفتوحا عند العنق، وسروالا داكنا يلفه حزام. يرفع ستيفانو شعره الأسود الناعم عن وجهه محدقا في صفّ النازلين، لكنه لم يلمحها بعد بين الركاب على سطح السفينة.

عدا حركة يده غير المعهودة وهو يرفع السيغارة إلى فمه، لا يزال هو نفسه أخوها ستيفانو، لكنها على نحوٍ ما تلحظ تغيّرا ما في هيئته، وأنه يتحرك براحة في وسط كل هذا الزحام الغريب في بلادٍ أجنبية.

عندما وقعت عيناها عليه، سكن شيءٌ ما داخل ليليانا، كلُّ ذلك الاضطراب الذي سادها خلال الأيام السابقة، والذي لم تعرف طريقا لتهدئته. أحسّت بفرحٍ شديد لأنه أتى لوحده. فأكّد لها ذلك ظنونها حول انتهاء علاقته بتلك التي تُسمّى زوجته. لا بد أن ذلك كان ترتيبا مؤقتا، وكان يجب أن تصل العلاقة إلى نهايتها بعد أن قضى وطره منها. ولهذا السبب يريد حضور أخته هنا، لأنه يشعر بالوحدة. وفجأة يخطر ببالها أمرٌ غير ذي علاقة إلى حد ما: قد لا تذهبُ بعد يوم الغد للقاء ذلك الطيار، الكولونيل أوغو مونتيللو. نعم ليست مضطرة للذهاب، وليس من الضروري أن يتقاطع مسارهما أبدا.

ذلك اللقاء الحميمي الذي حدث في فراندة الفندق في روما يمكن اعتباره شيئا من الماضي. ومجرد تفكيرها في هيئتها شبه العارية آنذاك يملؤها بالخجل، وبالرغبة أيضا. لقد كان للرجل وللشمبانيا مفعول السحر عليها، لكن أخاها حضر إلى هنا من أجلها، بشحمه ولحمه.

تنادي على ستيفانو وتلوّحُ نحوه بحرارة، بينما يستمرُّ هو في تركيز بصره مفتّشا في صف الركاب، لكن لا يزال لا يراها، ولا يغيّر من وضعية ميلِه على السيارة.

«أهذا أخوك؟» تسأل الكونتيسا تودينو التي ظهرت فجأة بجانب ليليانا. «نعم،» ترد عليها شاعرة بالزهو لوسامته البادية.

بالكاد رأت الكونتيسا خلال الرحلة. فالزوجان تودينو كانا في الطابق العلوي المخصص لركاب الدرجة الأولى، بينما هي من ركاب الطبقة السفلى، تتقاسم قمرةً مع الوصيفة مارتا. كانت القمرة قد حُجزت مسبقا بواسطة أبيها، وربما لم يجد الزوجان تودينو فرصة لتبديلها في وقت ضيّق، هذا لو أرادا إبقاء ليليانا بجوارهما. وفي المرات القليلة التي لمحت فيها الكونتيسا عن بعد، رأتها تسترخي مع زوجها على مقاعد طويلة تحت الشمس، أو تحتسي المشروبات في البار الواقع في ميمنة السفينة، أو تتنزّه مع سيدات راقيات غيرها، وتتأبطُ ذراع رجل ما. في بعض الأحيان بدا أنّ الكونتيسا لا تراها. وكانت ليليانا تفتعل جوّا من المرح وهي تتجول بخفة في المكان. لقد أيقنت الآن أنها ما لم تبدِ مقاومة لوضعها الذي حدّدوه لها، ومكان إقامتها تحت مع الخدم، أو في طابق أعلى في أفضل تقدير، فلن يَعرض عليها أحدٌ المشاركة في الحفلات، وفي لقاءات تناول الغداء، والرحلات الخارجية إلى الواحات والآثار الرومانية. كانت تأمل أن تتحقق وعود الكونتيسا لها بأنهم

سيرون بعضهم في الجانب الآخر. والآن هذه هي السيدة العظيمة بجانبها، وكأنهما لم يفترقا قط. «أخوك فتىً وسيم» تقول الكونتيسا في دهشة.

في تلك اللحظة بالذات يتمكن ستيفانو من رؤية أخته ويلوّح لها بحرارة. ينحني إلى الخلف ويحشر جذعه في السيارة دون أن يستدير، ويطلق الزمور ثلاث مرات.

«يا لها من سيارة رائعة!» تقول الكونتيسا.

«أخي يعمل في مضمار سباق السيارت.» تقول لها.

«كم مؤسفٌ أننا لم نشهد السباق من قبل، أعتقد أن بعض السائقين لا يزالون في الفندق، ولا أظن أنهم حزموا حقائبهم جميعا وعادوا إلى الوطن. دعينا نذهب ونحصل على كل الشائعات من أخيك، وبالمرّة أسلّمك له.»

كان ستيفانو ينتظر عند قاع السلّم. لم تكن عيناه إلاّ على ليليانا، وهي لا يمكنها تمالك نفسها؛ فتنسى أمورَ اللياقة وتركض نحوه لتلقي نفسها بين ذراعيه، تاركة الزوجين تودينو وراءها. يمسك بها ويرفعها عاليا ثم يدور بها فتطير قبعتها وتقع فوق الحصى. يضحك، وينزلها، ثم يلتقط قبعتها، يشدّها نحوه، ويضع ذراعيه فوق كتفيها.

لا بد أنّ هذا يوم احتفالي مميّز للحزب الفاشستي، لأن الجنرال يرتدي لمناسبة وصوله إلى طرابلس بدلة التشريفات، مع سيفٍ مزخرف معلّق في وسطه. يرفع التحية الفاشية في وجه ستيفانو، الذي يحني رأسه قليلا ردّا عليه، في حركة يمكن أن تُفسرّ كنوع من الانحناء. ثم تأخذ الكونتيسا يد ستيفانو وتقبّل خدّيه.

ستيفانو غير منبهر بالكونتيسا تودينو، ويبدي تجاهها أدباً، لكن بتحفظ. يشكرُ الزوجين تودينو على رعايتهما لأخته، ويرفع صندوقَ ليليانا الثقيل فوق كتفه، ثم يعتذر منهما لأنه في عجلة من أمره ويجب أن يعود إلى العمل. فيسيرُ الجنرال والكونتيسا معها إلى السيارة ممطريْن ستيفانو بأسئلة حول السباق. فيخبرهما أنّ الفائز به كان السائق غاستوني بريللي بيري.

«غاستوني بريللي بيري؟ من فلورنسا؟ نعرف عائلته، فأبوه يملك أرضا بجوار أصهار أخي.» قالت الكونتيسا.

«نعم، هذا هو،» يرد ستيفانو وهو يدفع الصندوق إلى مؤخر السيارة. «الناس هنا يحبونه، العرب والإيطاليون. ويسمونه غاستوني الأفريقي.»

«تقومُ بعملٍ جيّد أيها الشاب،» يقول الجنرال. يومئ له، يدقّ كعبيه ببعضهما، ثم يتركهما للإشراف على تحميل حقائبهما في إحدى السيارات السوداء.

«هذه المرة لم يستطع الفوز على بريللي بيري. إنه المكتوب كما يقولون في هذه الأنحاء.» يقول ستيفانو. «نعم، هو المكتوب،» توافقه الكونتيسا.

«مارغريتا،» ينادي زوجُها من السيارة المنتظرة، وبفيض من القبل، وأرفيديتشي، وبطّتي الحبوبة، وتعالي لرؤيتي في الفندق، تغادرهما، لكن بدون ترتيب محدّد حول اللقاء مرة أخرى. مع ذلك، فليليانا لا يزال لديها موعدٌ مع الطيار. رغم احتمال عدم ذهابها. لكن ستيفانو ترك انطباعا حسنا عند الكونتيسا، وبالتأكيد ستكون هناك دعوةٌ لهما في الطريق.

«تحبُّ نفسها هذه الكونتيسا، أليس كذلك؟» يعلّق ستيفانو وهما يرقبان مغادرة الزوجين.

«ما معنى مكتوب؟»

«يعني ما هو مقرّرٌ لك. فالناس هنا قدَريّون كثيرا.»

«مثل ماما؟» تسأله.

«لتتحقق مشيئة الرب.» يتمتمُ مقلّدا بصوتٍ خانع، وعلى الفور تتبيّن في صوته نبرة أمّهما.

تنظرُ إليه في حيرة. هل يستهزئ بماما؟ عند نظرها إليه، يخفض رأسه ويبدأ في التمتمة، وكأنه يمرّر حبات مسبحة بين أصابعه، مثلما يردّد صلاة. يرفعُ عينيه نحوها. تلك النظرة المشعة المليئة بالحيوية، ثم يضحك.

هي أيضا تضحك، ولكن بحيرةٍ. تفكّر أنها بعيدة كثيرا عن الوطن، ولا أحد يراقبهما. بل هما بعيدان عن الوطن كثيرا بشكلٍ ممتع، يفصلهما عنه بحرٌ بأكمله، وأرض شاسعة.

«لا، ليس مثل ماما. لأن الناس هنا لا يتذمرون من قَدَرهم. إنهم يستسلمون، ولا يقاومون،» يخبرها.

«هل يقاتلون؟ اعتقدتُ أننا قضينا على كل المقاومة» تفكّر، وفي ذهنها الجنرال وإحصاءاته التي لا تنتهي.

«هذا ما يقولون،» قال بدون إبداء اهتمام، «لكن تلك التي هناك،» ويشير إلى سفينة ضخمة ترسو على المخطاف في الخليج، «إنها ناقلة جنود.»

غادر كل من عداها من الركاب، وذهبت السيارات والعربات، لم يبق بالإضافة إليها وأخيها إلا الحمّالين، يفرغون حقائب البريد وبعض الصناديق الأخرى فوق عربات يدفعونها إلى أماكن التخزين. لم يبق إلاّ هما، والبحر الأزرق الذي تتكسر مويجاته على الشاطئ، والسماء الزرقاء حيث تحوم النوارس وتطلق صيحاتها.

يلتفت ستيفانو نحوها، «سعيدٌ برؤيتك يا أختي الصغيرة، أنت من صلّيتُ لأجله، والآن بعد مجيئك، ستتحسّن الأمور.»

«أرجو ذلك،» وقد تأثرت بثقته فيها. لكن جانبا منها، جانبٌ جديد غير مريح يجعلها غريبة حتى عن نفسها، الجانب الذي يفكّرُ في الطيار، وفي ترتيبات لقائها معه، والذي تفكّر فيه أحيانا كموعد غراميّ، وأحيانا أخرى كمجرد دعوة لتناول غداء وديّ.

«لنذهب إذن، سيكون المكان ضيقا بعض الشيء لأن السيارة مخصصة لشخص واحد.» ويطلقُ ضحكة. يساعدها على الركوب، وينتقل إلى الجهة الأخرى. كلاهما بأردافٍ رفيعة وبالتالي يوجد متسع لهما في المقعد، لكنهما اضطرّا للقيام ببعض الحركة لترتيب وضع أكتافهما.

«لا أعتقد أنني أخذتُ في الاعتبار حقيقة أنكِ قد كبرتِ،» الوضعية المناسبة التي توصّلا إليها هي أن تميل ليليانا إلى الأمام وتديرُ جذعها لمواجهته، وبالتالي ترفع كتفيها لكي يأخذ وضعا مريحا فوق المقعد.

يشغّلُ المحرك، فيصدرُ هديرا، وينطلقان.

الوضعية التي تتطلبها ترتيباتُ الجلوس الضيّقة، تقتضي أيضا أن يكون وجهُها قريبا من وجهه طوال الرحلة، فكل ما تراه طوال الوقت هو أنفه المستقيم، وخصلة الشعر السوداء التي تقفز إلى الأمام.

ما إن غادرا رصيف الميناء، حتى استدارا يسارا نحو طريق الشط. وفكرةُ أنها موجودة على الجانب الآخر للبحر، في طرابلس، بعيدا عن كل شيء، وأنّ كل شيء غير الذي كان، مع بدايات جديدة مرتقبة، كل ذلك يدوّي في أعماقها بقوة.

يرفع ستيفانو يده عن عجلة القيادة ويربت بخفة فوق ركبتها، قائلا، «ما رأيكِ في القيام بجولة، بإمكاننا الذهاب إلى الواحة، قبل أن آخذك إلى البيت. أم أنك تشعرين بالتعب. لديّ فسحة الصباح كله.»

«ظننتُ أنّ عليك الذهاب إلى العمل.»

«ذلك ما قلتُه لأصدقائِك الفاشست المتطفّلين.» ترفع حاجبيها نحوه، لكنه لا يلحظها، فعيناه مثبتتان على الطريق. أما هي فلم تعتدْ أن يتحدث أحدٌ عن الفاشست وكأنهم مخلوقات من نوع مختلف. لم تفهم مغزى حديثه. «حسنا، فكُلّنا فاشست الآن، ألسنا كذلك؟» تعقّبُ بعد حين.

«هه، أخمّنُ أننا كذلك، أو أننا نتصرف على أساس أننا كذلك. بعضنا أكثر فاشية من آخرين، وعندما ينطلق المدفع يجب أن تريْ المساكين هنا، يا للي. أعني السكان المحليين. حيث يقفزون إلى وضع الانتباه، يرفعون الذراع اليمنى إلى فوق وكأنما شُدت بخيط، ويصيحون جميعا، يحيا الدوتشي، مع أن نصفهم تقريبا لا يعرفون معنى ذلك.»

لا تفهمُ ما يرمي إليه، فتقول، «ربما يتمنّون له حياة مديدة.» وتبقى صامتة.

«لكن مقدرتكِ على تحمّل ذلك الرجل طوال أسبوع. يجب أن أرفع لك القبعة يا للي،»

«ما الذي تعنيه، وماذا فعل الجنرال تودينو؟»

«ألا تذكرين؟»

«ماذا؟»

«أوه،» يقول بلا مبالاة ثم يهز رأسه، «بالطبع لا تعرفين، فقد كبرتِ الآن، ونسيتُ أنك كنتِ مجرّد طفلة، كان الجنرال تودينو عضوا في مجلس إدارة السكك الحديدية عندما كان بابا يعمل هناك. وربما ما زال عضوا، من المؤكد أنه مشاركٌ في مشروع توسيع خطوط السكك هنا.» يومئ برأسه كأنه يراجع المعلومات مع نفسه، وأنه دقيقٌ وعادل في رأيه. «لقد ترأّس الجنرال اللجنة التي قررت أن الحادث الذي أفقد أبانا عينه ليس مسؤولية الشركة.»

ينظرُ جانبا نحوها، للتأكيد على استيعابها لحديثه، «وبناءً عليه بشكلٍ ما، فإن بابا هو المخطئ لأن خطّاف الرافعة ضربه في وجهه. وبسبب هذا الرجل لا يستلمُ بابا سوى ثلث مرتبه التقاعدي.»

تسري رعدةٌ في أوصال ليليانا، وكل ما تتمكن من قوله، «أوه!»

«أتذكّرُ عودة بابا إلى البيت وإخباري أن الجنرال تودينو نفسه الذي أفضى إليه بقرار الشركة، وقال عنه: ‹سيهتمّ تودينو بأمري وسيبحث لي عن دورٍ ما أقوم به›»

«لكنه لم يفعل، أليس كذلك؟» تقول ليليانا بخفوت. كم هي حمقاء أن تظن أنّ هؤلاء الناس يهتمّون بها.

بعد فترة يقول، «آسف. هل اعتقدتِ أنه رجل مسنٌّ مهذب؟»

«لماذا لا يخبرني الناس بأي شيء، وكيف لي أن أعرف إن لم يخبرني أحد؟»

«ربما أراد بابا أن يجعل رحلتك ميسّرة.»

«وربما شعر الجنرال تودينو بالذنب، وأراد إجراء تعديلات ما، ولهذا وافق على اصطحابي معه.»

«أشكّ في ذلك، بل ربما أراد صحبتكِ، أو ربما زوجته من أرادت ذلك. لا أعتقد أن أشخاصا مثله لديهم ضمير. وبالتالي يُبقون الأمور مبسّطة. أبيض أو أسود، ولا ألوان أخرى بينهما. كما أنهم دائما في مواقع المسؤولية.»

يسيران الآن ببطء في طريق الشط، فهما عالقان الآن وراء شاحنة محمّلة.

«وهو في الحقيقة لم يقدم لك خدمة كبيرة، أليس كذلك؟ فقد كانا في طريقهما إلى هنا. ولم يدفعا عنك شيئا، أليس كذلك؟»

تتذكر غرفة الفندق في روما، واستئجار الثوب، وكمية الملابس التي أعطتها إياها الكونتيسا، كلها تعبُر مخيلتها. ربما ستفكر في هذه الأشياء لاحقا، عندما تكون بمفردها.

تستدير الشاحنة التي تتحرك أمامهما ببطء، وفجأة تنفتح لهما طريقٌ طويلة واسعة على امتداد الشاطئ. «تمسّكي بقبعتك، سنذهب إلى الواحة،» يصرخ فوق صوت المحرك، وبهدير عال تزيد السيارة من سرعتها.

* * *

في طريق عودتهما إلى المدينة بعد مسيرٍ في الواحة، يخبرها بحكايات عن غاستوني الأفريقي الشهير، وعن غيره من سائقي السباقات. وعن ليلة السباق، عندما بانت لهم مشكلة مع سيارة تالبوت الخاصة بغاستوني التي تسيرُ بوقود خاص يُسمى إلكوساين، والذي يبدو أن تغييرا قد حدث في تركيبته بسبب درجة الحرارة. عندها اكتشفوا، ولا تسأليه كيف، أنّ الكحول النقي مناسبٌ أيضا. وهكذا أمضوا الليلة كلها يطوفون بالصيدليات في طرابلس لشراء زجاجات الكحول، لتجميعها والوصول إلى الثلاثمئة لتر المطلوبة.

«كنا هنا على هذه الطريق، لونغو ماري فولبو، وملأنا السيارة بالكحول، هناك في الخلف عند القلعة،» ثم جاء غاستوني إلى هذا المكان هادرا. كان الوقت ليلا، نحو التاسعة. لقد وصل إلى هنا مثل البرق، محقّقا سرعة قصوى، وكنت أراقبه من الرصيف» يقول ويضحك لتلك الذكرى.

لقد تغيّر أخوها، يبدو لها رفيعا أكثر مما كان، لكنه في الوقت ذاته كان أكثر ثباتا، وبدا أنه مستمتعٌ بحياته. «برقٌ أزرق» تقول له.

«هي الحقيقة. كان هناك لهبٌ أزرق ينبعث من عادم السيارة. وأعتقد أن ذلك الخليط العجيب هو ما مكّنه من الفوز.» يقول هازّا رأسه برضىً. «كان ذلك سباقا جيدا.»

يخبرها أيضا عن السيارة التي يستقلانها، وتسمّى سلومون، لكنها ليست من ذلك النوع المهيأ بأربع أسطوانات، يتحدث كأنها ستفهمُ مثل هذه المصطلحات. بل هي من فئةِ السيارات الصغيرة في السباقات، وقادها شابٌ يدعى ماريو مورادايي، في أول مشاركة له على الإطلاق، لكنه اضطُر إلى الانسحاب بعد دورة واحدة.

لكن الطيار أوغو مونتيللو يشْغلُ تفكيرها من جديد، وسيكون من المؤسف ألاّ تذهب للقائه، فقط لمجرد اللقاء، لأنه لن يكون أكثر من موعد غداء، وقد عدّلت أحد أثواب الكونتيسا الحريرية وزهري اللون، مع الأربطة والذي يناسب جسمها بشكل رائع.

«قمتُ ببعض العمل على دفّاع الكاربورايتور لمورادايي، فقال إن بإمكاني استعارتها، وهكذا جئتُ لنقل أختي الصغيرة بفخامةٍ تليق بها» ثم يلتفت نحوها ضاحكا، فيلمع بياضُ أسنانه. من الجميل أن تسمع من جديد هذرهُ حول السيارات، والسائقين، وأعمدة الرفاص، وصناديق التعشيق.

«المسرحُ هناك» ويشير نحوه بيده. تلتفتُ لترى مبنىً كبيرا من طابقين مشيداً بأحجار بيض، له نوافذ طويلة، والجزء العلوي مقسّم إلى فرضات. (ميرامار) تقول الحروف التي تظهر أعلى الواجهة.

«لكن لا يعني ذلك أنني دخلته، ها ها.»

«إنه غراند هوتيل» يقول فترى مبنىً كبيرا باللون الأبيض، بدا لها مثل قلعة، وترى سقالة أمام الجهة اليمنى من الواجهة. هنا حيث ينزل الزوجان تودينو. تلتفت لتواجهه وترى ما وراءه على طول الطريق العام، فيقع نظرها على الكاتدرائية. تنقبض معدتها، إمّا بسبب الدوران المفاجئ الذي قام به ستيفانو إلى اليسار، أو للذكرى المفاجئة بأنّ موعدها سيكون بعد يومين من الآن. يتعيّن عليها أن تكون عند باب الكاتدرائية في منتصف النهار تماما. حيث سيرسل الطيارُ سيارة لتقلها، فكل المعلومات مكتوبة على الورقة. تهزّ رأسها، وترى أن لا شيء سيحدث إنْ أخلفت الموعد، فأوغو لا يعرف عنوانها في طرابلس، وربما لن تذهب إليه.

«لم أعرف أنّ الكاتدرائية زهرية اللون» تقول.

«بل هي مزهّرة قليلا».

يقف بجانب الرصيف خارج مقهى، في شارع تجاري واسع. لو لم يكن لصفِّ أشجار النخيل على طول الرصيف، لبدا مثل شارعٍ في وسط بلدةٍ إيطالية ما. «هل تقطن هناك؟» تسأله بينما كان يحرّك ردفيه لتحريرهما والخروج من السيارة.

«سيكون رائعا، أن يعيش المرء في شارع فيتوريو إيمانويل» يقول مبتسما وهو يقف على الرصيف تحت مظلة المقهى.

«حسنا لا أعرفُ. أليس كذلك؟» لكنها تعرفُ أنها تجلس في بِركةٍ من العرق، وأن فستانها التصق بمؤخرة ساقيها. وسيكون منظرها سيئا.

يرى حالتها ويعتذر منها، «هذا أحدُ الشوارع الرئيسة في الجزء الإيطالي الجديد من المدينة. ومباني البلدية عند ذاك الطرف، ويوجد أيضا مبنى البريد الرئيس. وبعده القلعة التي مررنا بها على طريق الشط لأننا سِرنا في دائرة، وعدنا من الاتجاه الآخر، أيْ من حيث دخلنا صوب الكاتدرائية كما رأيتِ. لقد فكّرت أن نحتسي القهوة قبل أن آخذك إلى البيت.»

ينظر نحوها ثانية، «لا نسكنُ في أي مكان مماثل لهذا، يا للي. بل نعيشُ في المدينة القديمة. وهي ليست بعيدة من هنا، لكنها تبدو كأنها في كوكب مختلف. سترين ذلك بنفسك. وأعتقد أنك ستحبينها، لأن لها جوّها الخاص.» ثم يتمتم بجزءٍ من لحن يبدو لها حزينا، لكنها لا تعرفه، ويحرك أصابعه كأنه يعزف على آلة.

رائعٌ أن تشعر بأنها مشمولة بالاهتمام بشكل جيّد. وأنه يستخدم الضمير (نحن) ويتحدث إليها باعتبارها أكثر من مجرد زائرة، كأنها ستنتقلُ هنا، وتعيش معه في هذه البلاد الأجنبية المثيرة.

إنها هنا. أخيرا جاءت إلى هنا، وهي مع ستيفانو الآن، وشمس أفريقيا تشعّ فوقها وتُلصقها بمقعد السيارة. إنها على وشك تناول أول كابتشينو لها في طرابلس، ولديها موعدٌ قد تذهب إليه، وقد لا تذهب. وهناك شيءٌ آخر. شيء يتسلل

بداخلها، مثل لمحة في المرآة، إنه شعور مشعّ ومركزّ. فتبتسم لأخيها الواقف على الرصيف. يبدو لها أن الشعور التي انتابها يظهر في ارتعاشة شعاع الشمس على الرصيف بين مساحتي ظل من غطاء المقهى.

«في السابق، كنتُ أعيش في المساكن الحكومية، لكن هذا عندما كنتُ أعزب،» يقول مبتسما، «وهي في النهاية غير مناسبة لرجل متزوج.»

فجأة يغادرها الشعور بالإشراق.

«ما الأمر؟» يسألها وقد تلاشت ابتسامته.

«لا شيء، إنها الحرارة،» تمروحُ يدها أمام وجهها لتهويته.

«حسنا، نحن في أفريقيا» ثم يمدّ يديه فيشدّها، ويكاد يرفعها من السيارة. «هذه مصممةٌ للسرعة، وليس للركاب، وبالأخص ليس لفتيات في فساتين واسعة.»

تتبعه إلى المقهى، وبشكلٍ رصين تحاول تحرير فستانها الملتصق بساقيها. المقهى فارغٌ إلا من رجلٍ يرتدي زيّا عسكريا يجلس موليا لهما ظهره على أحد المقاعد العالية حول نضد الكْروم. يلتفت الرجلُ نحوهما، لكنه لا يشبه أوغو مونتيللو في شيء.

إذن فهي مخطئة بالمرّة، وستيفانو لم ينفصل عن الفتاة المحليّة، وكان معها طوال هذه المدة. متى أرسل إليها تلك الملاحظة، مطوية داخل رسالته الشهرية؟ في أغسطس من العام الماضي. إذن، هما معا منذ عشرة أشهر على الأقل.

يجلسان حول طاولة مستديرة من الكروم بعيدا عن النافذة، في ظلٍّ نسبيّ في آخر المقهى، حيث تحركُ مروحةٌ معلقة في السقف الهواء الثقيل. فتنزع ليليانا قبعتها، وترتب وضع شعرها.

مع حضور الكابتشينو أمامهما، يقول ستيفانو، «ما أريده منك هو نوعٌ من المهمّة السرية. أريدك أن تعلميها ـ أعني فريدة زوجتي ـ الحياة الإيطالية.»

«عفوا؟»

ثمّة توقعات كثيرة لم تكن تعرف تماما أنها تملكها. الحفلات، والأمسيات، والمعجبين من الضباط الشباب. ووظيفة مكتبية مثيرة في مضمار السباق، وزيارات إلى الأسواق المحلية بصحبة سيدات متأنقات مع صديقات الكونتيسا. يمكنها الإحساس بأنهم يتخلون عنها وينفضُّون من حولها. وكذلك الشعور بأنها متشظية، فكأنما هي مقطّعة ومتناثرة بواسطة ألواح المروحة التي تدور فوقها.

«أريدُ أن تتعلمَ فريدة أسلوب الحياة الإيطالية» يردّد لها. ويتحدث إليها بصوت تآمري خفيض. وجهه يلمع، وتبدو عليه العصبية، وطفوليّ. تفكّر أنّ فريدة لن تشبه بالطبع تلك الفتاة، والمخلوقة الغريبة التي رأتها في البطاقة البريدية، بذلك الوشم، والحليّ الضخمة التي ترتديها مثل صحون متدلية، لكن ماذا يريد أخوها منها بالضبط؟

«إذن، هذه الفتاة تعيش معك في طرابلس؟»

يتفرّسُ فيها، وتظهر على ملامحه نظرة انزعاج، «وفي أيّ مكان آخر يمكن أن تعيش؟»

«وتريدني أن أعلمها أسلوب الحياة الإيطالية.»

يومئُ قليلا بنفاذ صبر، وكأنما يقول ما زلنا في هذه المرحلة من النقاش؟ ثم يشرح لها الخطة. يتحدث بخفوت حتى لا يسمعه العامل من وراء نضد الخدمة. يريد من ليليانا أن (تطلْينَ) فريدة. أن تعلمها عاداتهم، وأن تخرجها من وضعها الحالي. أن تتكلم معها بالإيطالية، فرغم أن مستوى لغتها الآن لا بأس به، لكنها بحاجة لأن تكون أكثر طلاقة. أن تعلمها القراءة والكتابة. لكن الأهم من كل ذلك، يريدها أن ترتدي ثيابها مثل أيّ امرأة أوروبية وأن تخرج معه. «أريدها متأبطة ذراعي، فهي الآن لا تخرج إلاّ مرتدية الفراشيّة، وهي قماش أبيض واسع يلففن به أنفسهن.»

«ألا يمكنها القراءة؟»

«كلا، فهم لا يعلّمون الفتيات هنا. في الحقيقة أغلبهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، وليس البنات فقط. تستطيع فريدة كتابة اسمها وبضع كلمات أخرى بالعربية، لكنها لا تعرف حروفنا اللاتينية مطلقا.»

لا تعرف ليليانا ماذا تقول فتلتزم الصمت.

«إنها تخرجُ ملفوفة في تلك الملاية اللعينة، وتسير على بعد ثلاث خطوات ورائي، كأنها خادمتي.»

وبينما تحاول ليليانا أن تخرجَ بردٍّ غير جملة «على الأقل أحدكما يعرف مكانته» ينطلق أخوها ففي الحديث فيروي لها كيف التقى بها. يخبرها عن الصحراء، حيث الرمال في كل مكان تدخل بين أسنانك، وأنه لم يحبّ ذلك، لكن لديه احتراما للبدو، «فهم يعيشون في وسط كل ذلك القفر، لكنهم ينجبون فتاة مثل فريدة. ثمة شيئان بديعان قاموا بهما. بعضهم ممن رأوا اختراعاتنا، لا يعيرونها أي اهتمام. فلم ينخدعوا بأجهزتنا ومعداتنا، أو هذا الشيء الذي نسمّيه حضارة.» ثم يهز رأسه في عجبٍ لهذا الأمر، «لكن ليس مثلي، فأنا مخدوع، مخدوع تماما.» وترى هي أن ذلك صحيحٌ بطرق عديدة.

«لم أظن أن التغيير سيحدث بين يوم وليلة. بالطبع لم أظنّ ذلك. لكن عند هذا الحدّ اعتقدتُ...» ثم يعض شفته وينظر بحزن إلى أخته.

أخوها الكبير المسكين.

«إنها تغطي نفسها من رأسها إلى القدمين بتلك الفراشيّة السخيفة مثل بعيرٍ مغطّى العينين، حتى أنها لا ترى تماما إلى أين هي ذاهبة. واستغرقها دهرٌ لتعرف طريق سوق السمك، وسوق الخضار. أنا عالق في مشكلة يا ليليانا، كلانا عالق. ولا أعرف ماذا يجب أن أفعل.»

«ولا تستطيع، ولا تريد أن تفكّر في...» تنظر إليه مختبرة ردود أفعاله.

«ماذا؟»

«أن تعيدها إلى قومها؟»

يبدو مخيّبا. فيسحب نفسا، ويزفره ببطء. «أوه، يا للي،»

يدفع مقعده إلى الوراء وينتصب على قدميه، يقف لدقيقة مستندا إلى المقعد، يغلقُ عينيه ويعصرهما كأنه يتألم، كأنه يحاول منع نفسه من البكاء، أو أنّ غضبه على وشك الانفجار. هذا يبدو غير منطقي بشكل مجحف، ماذا قالت؟ إنّ تلك الفتاة ليست زوجته القانونية. فهو لا يمكنه الآن التفكير بشكل قويم. يلقي نظرة فارغة فوق رأسها في اتجاه النافذة ونحو الشارع، ثم يهز رأسه ببطء من جانب لآخر. وبعد برهة يُخرِج علبة دخان من جيبه، يسحب منها سيغارة ويضعها بين شفتيه. يُشعلها، وحينذاك فقط ينظر إليها. «لقد رتّبتُ لحضورك هنا، للقيام بهذه المهمة. لن أعيدها إلى موطنها. ولا يوجد مكان يمكنني إعادتها إليه.» يتوجه إلى النضد ويدفع الحساب، ثم يخرج من باب المقهى، ويقف مدخّنا سيغارته في الخارج.

تنهض من مكانها، وتتبعه، تشبك ذراعها في ذراعه، «آسفة، سأحاول ما بوسعي، ولكن اشرح لي من جديد، فأنا متعَبةٌ من الرحلة. وأشعر بنوع من البلادة.»

«إن كان بوسع أيّ أحدٍ القيام بهذا، فهو أنت. لا أقولُ نَصرّيها، أو اجعليها كاثوليكية. لا شيء من هذا القبيل. ولا أهتم كثيرا بمسألة تعليمها القراءة، فالكثير من الإيطاليين يعيشون حياتهم وليس باستطاعتهم قراءة غير أسمائهم.» إذن الفتاة ليست حتى مسيحية! كما أنها أمّيّة.

دعينا نحدد مهلة ثلاثة شهور. وإن لم تتمكني من القيام بهذا، سأفكر ثانية في الأمر. وستضطرين للعودة إلى ايطاليا.

* * *

بعد انطلاق السيارة بهما من جديد، رأى ستيفانو أنه لم يتعامل مع الأمر جيدا. كان أخرق وغابت عنه الحساسية، بطرحه مثل تلك الخطة بهذه البساطة، وأن يتوقع منها الموافقة على الفور. كان التفكير في خطة (طلْينتها) قد شغل تفكيره كثيرا، ولم يعرف كم سيبدو غريبا للآخرين. وبالطبع لم يكن لليليانا أدنى معرفة مسبقة بالخطة، حيث لم يشأ أن يحدث ذلك.

لم يستطع إخبارها مسبقا لتهيئتها، فقد كان حذرا من الرقابة. أحد معارفه من العاملين في قاعدة الملاّحة الجوية أخبره أنّ رسالة بعث بها إلى الوطن وصلت كلها مخططة باللون الأسْود، ولم تتمكن زوجته من قراءة سوى سطرٍ واحد هو «سلامي ومحبتي لصغيرنا بينو.» كان عسكريّا، وربما لهذا السبب وضعوه تحت المراقبة الشديدة. لكن على كلّ حال، فستيفانو حذرٌ في مراسلاته، ويحرصُ دائما على الإشارة لأشياء رائعة تقوم بها إيطاليا في طرابلس، مثل بناء الكنائس والفنادق وإقامة الميادين، ومدّ خطوط الصرف الصحي، وفتح مخابز إيطالية جديدة حيث يمكن شراء البريوش، واستغلال أعناب جبل نفوسة غرب طرابلس لصناعة النبيذ، ومثل هذه الإنجازات. لم يتطرق أبدا إلى حالة الفقر، وإلى الأطفال العراة الذين يحوم الذباب حول وجوههم الملوثة، ولا إلى المدينة العشوائية التي تمرّ المجاري الملوثة في وسطها، أو إلى الأكواخ المسقوفة بالصفيح. لم يذكر أبدا معاملة السكان المحليين التي كان شاهدا عليها، مثل الرّكل والضرب بالسياط، ولم يردّد قصصا سمعها حول أجساد تتدلى من منصات الإعدام بعد محاكمات صورية. ومع أنّ ستيفانو يشك في أنه غير مهمّ للسلطات بحيث يراقبون مراسلاته إلى الوطن، لكن مع ذلك لم يشأ المغامرة.

في المرة الأخيرة التي رأى أخته فيها، كانت محض فتاة خرقاء تمشط شعرها على شكل ذيل حصان. لكن انظر إليها الآن. شعرها مصفوف وناعم، مربوط بدبوس تحت قبعتها. تضع أحمر شفاه وترتدي حذاءً بكعب عال. بل حتى تبدو مثل تلك الفتيات اللاتي يتسكعن على شط البحر بمظلاتهن الملونة.

لكن شيئا مختلفا هو ما جعله يطرح القضية بوضوح تام. شيء يتعلق بالطريقة التي قالت بها، «حسنا، فكُلّنا فاشست الآن، ألسنا كذلك؟» كأنه شيء عادي بالمطلق، ولا يقبل الجدل، وحقيقة من حقائق الحياة. وربما حتى دلالة على الحضارة. وتلك الطريقة التي نظرت بها إليه عندما قال شيئا حول كونه لم يعد أعزب. وكيف تغيّر وجهها.

كان يخشى هذا. فالدعاية المحمومة في إيطاليا التي تُسمّم العقول الغضة لهؤلاء الشباب من أمثالها. وتختزل العالم في التصرفات العنيفة. كذلك لم يوفّر لها أحدٌ رؤية مغايرة. فأبوهما الذي كان مفكّرا، ورجلا يطرح الأسئلة، أعلن استسلامه تماما، بشكل يجعل ستيفانو يشعر بالخجل. على الأقل كان عليه أن يُخبر ليليانا عن الجنرال تودينو، فما فائدة معاملتها كطفلة؟

لقد عاش ستيفانو أفضل ما يمكن في كنف أبويه، وهذا أمرٌ مؤكد. كما أنه على الأقل، عايش زمنا ساد فيه نوع من الوسطيّة في إيطاليا. لكن ليليانا لن تعرف شيئا مختلفا غير الذي عرفته. كما استغرق وقتا طويلا قبل أن يحسّن وضعه المالي لإخراجها مما هي فيه، وأن يأتي بها إلى هذا المكان. لقد اعتقدَ أنه لن يتمكن من إحضارها أبداً، لكن شيئين حدثا وغيّرا من الوضع. في البداية تحصّل على مكافأة بعد انتهاء السباق، والأمر الثاني أنّ ألفونسو الذي مرّ بالمدينة في إحدى رحلاته التجارية، أبلغه بقرار إلغاء ديْنِه عنده عندما دفع له ثمن مهر عروسه، وقال إن خنجر الشيخ المعقوف الذي حصل عليه أثناء مغامرتهما في الصحراء تعويض كافٍ له. أخبره بأنه يعلّقه الآن على حائط الصالة في بيته، ويحبّ إخبار بناته أنه حصل عليه من قطاع الطرق.

في تلك الزيارة جلب ألفونسو هدايا عرسٍ لستيفانو وفريدة: آلة غرامافون مع عدة أسطوانات لموسيقى مشهورة. أحبَّ أن يأتي لستيفانو بتسجيلات كاملة لأوبرا توراندوت، لكنها لم تُسجّل بعد، ومع ذلك عثر على اسطوانة لبنجامينو غيغلي «نيسون دورما». تشحنُ الآلة بالمقبض الدوار، ثم تضعُ الإبرة على الجزء الخارجي للاسطوانة فتنطلق الألحانُ من مكبر الصوت. «أعرف أنك تحبُّ الأجهزة» قال ألفونسو. لكن فريدة هي من أحبّت الآلة أكثر منه. فكانت تستمع إلى الأغاني عندما يذهب إلى العمل، وتغني معها بصوتها الدافئ. كما ساعدت التسجيلات في تحسين لغتها الإيطالية، وهي سريعة التّعلم. وطوال تسعة شهور كانت الابنة الصغرى للسنيور ياكوف، مالك البيت، تنزل إليها لإعطائها دروسا في اللغة الايطالية. لكن (أستير) غادرت منذ شهر بعد أن تزوجت. كانت أستير اليهودية تخرج دون حجاب، وأمل ستيفانو أن يشجع ذلك فريدة لتقليدها، لكن ذلك لم يحدث. عندما يكون ستيفانو في البيت، يتحدثُ إلى فريدة أغلب الوقت، يقرأ لها، ويخبرها عن يومه في العمل، لكن الحقيقة الآن أنها بحاجة إلى معلّمةٍ غيره، وإلى رفيقةٍ أيضا، من تكون باستطاعتها إخراجها من قوقعتها. وهذا هو دور ليليانا.

في الحقيقة، ليس ذنب ليلينا أنها أصبحت فاشستية صغيرة في غيابه. يمكنه اكتشافُ ذلك من رسائلها إليه. وهذا المزيج المربك بين الدين وإيديولوجية الدوتشي. وبطريقة ما استُدعي الربُّ للقيام بأعمال موسيليني القذرة. لكن كيف حدث ذلك بحق السماء؟ وتلك الطريقة التي تحدثت بها ليليانا عن أنجيلا، الفتاة التي تعمل معها، وقُبض عليها لتوزيعها مناشير مضادة للفاشست، وكتبت له عنها أنها كانت ناشطة سرية. وكأنّ أنجيلا استحقت ما لحق بها. أراد أن يخبرها أن أنجيلا وأمثالها أناس شجعان. وأنه عندما تفيق أنجيلا عند الفجر لتكون أوّل الواصلين إلى العمل، وتوزع المناشير الممنوعة عند خزانات العمال أو عند آلاتهم التي يعملون عليها، كان يُفترض أن يغمرها الخوف، وأن يبلغ قلبها حنجرتها. لكنه لم يستطع كتابة ذلك في رسالة.

ومع ذلك يأمل ألاّ يكون الوقت قد تأخر لإعادة صياغة أفكار أخته. ينظر إلى جانب وجهها وهو يتوقف خارج مصنع التبغ في (فيا جيويا). ويشتبك مع عينيها عندما تبتسم له. كم كانت ودودة عند وجودهما معا في الواحة، وكانت فضولية تسأل عن كل شيء. بالطبع لم يفت الأوان بعد. لقد صدم أخته العزيزة، وستكون هي وفريدة خيرَ رفيقتين. وأخيرا يخرج من السيارة ثم ينحني ليرفعها منها.

من حيث ينفذ الضوء

مادة: خريطة مطوية للمستشفى

في قاعة استقبال المستشفى هناك صفّان من المقاعد غير متقابلين. أحدهما يواجه الخارج نحو الباب، والآخر إلى الداخل وهو الذي تجلس عليه ليليانا.

شعرت بالوهن أثناء هبوطها في المصعد، وعند وصولها إلى الطابق الأرضي رأت المقاعد، وقررت الجلوس لبعض الوقت. لكن مرّت نصف ساعة، ولا تزال في مكانها.

خفّ تسارعُ نبضها، وغادرها ما أحسّت به من دوار. نظريّا، يمكنها النهوض ومغادرة المكان، لكنها لم تفعل. لم يكن الحزن والإعياء فقط هما ما ألما بها، وإنما الإدراك بأنها ما إن تغادر المكان، فإن هذا الفصل من حياتها سيختفي، وأن لحظة الإمكانية هذه هي التي يبدو فيها أن الأبواب تُفتح لها بدلا من تُغلق، وأنها قد عثرت على عائلتها المفقودة؛ كل هذا قد ينتهي تماما. سيتعيّن عليها محاولة مواصلة حياتها في لندن. وتحاولُ تخيّل إفراغ محتويات حقيبتها في بيتها في (كراوتش إند)، وإعادة علبة التذكارات إلى مكانها تحت الدرْج السفلي في خزانة غرفة نومها. وتساءلت إن كانت ستجد القوة الكافية لذلك، وماذا سيكون الغرض منه.

تحاصرها ضوضاء المستشفى: هسيسُ الأبواب المنزلقة، والأصوات الصادرة عن حركة المصاعد، ودويّ بوق سيارة الإسعاف أحيانا، وخشخشة العملة المعدنية عند إسقاطها في صناديق نقود الهواتف العامة. هناك حركةٌ مستمرة للناس، على الأقدام وفي كراسٍ مدولبة. المرضى، والمسنون، وآخرون يحملون أطفالا، والأطباء، والممرضون والممرضات، والزوار.

تطاردها فكرة أنها لن تعرف أبدا ما حلّ بستيفانو وفريدة، فيخيّم عليها الحزن. لكن ربما الأسوأ من ذلك عدمُ معرفة النفق المظلم الذي انحدرت إليه ليليانا عندما أخذت حياتها في طرابلس مسارا خاطئا. هذا الشيء التي كانت تحاول لملمته من أجزاء متباينة، لكنها لم تتمكن أبدا من تجميعه إلى كلٍّ متّسق، لأن شيئا حيويّا ما كان مفقودا. الخيمة، والدم، والعجوز المشعوذة بيديها المعذِّبتيْن. تعرفُ ليليانا أنها لم تكن بخير آنذاك، أي خلال شهورها الأخيرة قبل مغادرتها ليبيا. كانت معتلّة الجسد والفكر. حتى أنّ ستيفانو أطلق على حالتها (مرض البكاء). كانت غير مستقرة وأبعدتها فريدة عن طرابلس لتتماثل للشفاء. تتذكرُ الرحلة بالسفينة، ونُتفاً بسيطة من فترة بقائهما في بنغازي، ثم لا شيء سوى أجزاءٍ مبهمة حتى عودتهم إلى طرابلس في الشقة الجديدة التي استأجرها ستيفانو قريبا من البحر. لم تكن قد شُفيت بعد، فذهنُها لا يزال مشوّشا، وبدنها

ضعيفا. بل حتى بعد عودتها إلى مونزا استمرت تعاني من تشتّت الذهن. ومع حلول الوقت الذي ربما أرادت فيه إيجاد تبريرٍ لما يحدث معها، لم تعرف كيفية التصرف. كانت هناك أسئلةٌ تدور في رأسها أخافتها إلى الحدّ الذي وجدت فيه صعوبة في السماح لها بالتشكّل في ذهنها. بل لا تزال تجد صعوبة في ذلك. بدا كأنّ أجوبة الأسئلة موضوعة فوق رفٍّ عال، بعيدا عن متناول اليد، فتمد يدها أحيانا لتصل إليها، لكنها لا تطالها أبدا. وحينها يبدو أن عقلها مشتّتٌ بعيدا. ربما، لو أنها موجودة برفقة فريدة من جديد، ستكون الأمور أكثر وضوحا، دون حاجتها لطرح الأسئلة المستحيلة. لكن هذا لم يحدث. وعند ذلك توقفت الرسائل، ومرّت السنون في صمت، واختفت فرصة أن تعرف ما حدث أبدا، ثم وبأفضل ما استطاعت، حاولت التوقف عن التفكير في الموضوع برمته.

تلك الفتاة الصغيرة المميّزة، التي نظرت إليها مرةً بعينيها الزمرديتين، في حين كان كل ما عداهما مظلما. هل كانت الفتاة خسارة في هذا العالم، وهل هذا هو ما عليه الأمر؟

كيف يمكنها تحمّل العيش دون أن تعرف؟ تخطرُ ببالها جملةٌ اعتادت فريدة ترديدها، «الجرحُ هو المكان الذي ينفذُ منه الضوء إلى جسمك.» كان لفريدة أقوال عديدة تحاول أن تجد عبرها تبريرا للمعاناة. وبإمكان ليليانا أن تشعر بالجرح وهي تجلس وحيدة في هذا المستشفى. لكن لا يوجد ضوء.

بمجيئها إلى هذا المكان فجأة وغير مهيّأةٍ، تخلّت عن حذرها فذهب أدراج الرياح. وكأنما، في سنّها المتقدم هذا، اعتقدت أن مستقبلا مختلفا ما ينتظرها. يا لها من حمقاء. تغلقُ عينيها للحظة وتترك الدموع تسيل فوق خديها من جفنيها المغلقين. وتفكّر في كل تلك السنين، كل تلك السنين الضائعة. ورسائلها التي لم تلق ردّا. وتتذكّرُ جيَشان أملٍ وحشي كان ينتابها في كل مرة يجري فيها حدثٌ كبير في ليبيا . إنهاء الحرب، وتخلي إيطاليا عن سيادتها على ليبيا في 1947، إعلان استقلال المملكة الليبية المتحدة في 1951، ثم انقلاب العام 1969 والإطاحة بالملك إدريس . كأنّ تاريخ البلاد مثل مفرشِ طاولة، يُرفع من حين لآخر لتنفيضه، وكأنّ أفراد عائلتها القاطنين هناك هم مجرّد فتات خبز، الفتات غير المرغوب فيه، والذي يتم التخلص منه مع كل اضطراب يحدث في البلاد. اعتقدت أنها نسيت أمر أفراد عائلتها عندما طرد القذافي بقايا الإيطاليين عام 1970، ولم يكونوا من بين العشرين ألفا المصدومين الذين وصلوا إلى بلاد لا يعرفونها، بحقيبة واحدة مع كل منهم. لكنها لم تنْسهم. ليس تماما. وفي مكان ما بداخلها، تمسكت بأسمال أملٍ بالية.

لكن الآن، في صالة انتظار هذا المستشفى، حان الوقت لأن تتخلى عن كل ذلك.

يأتي الناس لاستخدام أجهزة الهاتف المثبتة على الحائط أمامها، فيتداخل شيء من أحاديثهم مع أفكارها. يقول أحدهم: «أنت محقّ، هناك أملٌ طالما هناك حياة» وتقول امرأة: «أبلغتك أن تشتري الدجاج وليس لحم الخروف، فماذا سأفعل بالخروف؟» وجدت أنه من الغريب أن تكون محاطة بأشخاص يتحدثون الإيطالية جميعا.

تسمعُ صوت شابة تتحدث العربية، فترفع بصرها نحوها، ومع أن الفتاة تدير لها ظهرها، إلاّ أنها تعرّفت عليها. نعم إنها الفتاة التي قابلتها في الممر العلوي. الحذاء القرمزي، وضفيرة الشعر السميكة المتدلية بين لوحي كتفيها. تلاحظ أنّ الخيط الأزرق الذي يربط نهاية الضفيرة قد انسلّ جزئيا، ونزل وراءها. كانت الفتاة تقف عند آخر جهاز في الصفّ، أي المخصص للمكالمات الدولية.

تضع الفتاة السماعة وتميل إلى الأمام. ترى جسمها ينكفئ على نفسه، وكتفاها يرتفعان وينخفضان. فتعرفُ أنها تبكي مستندة إلى حائط المستشفى.

تقف ليليانا على قدميها. لقد نسيت القليل من العربية التي عرفتها ذات مرة، فتسألها بالإيطالية، «أنت بخير؟» تستدير الفتاة نحوها، فتتأرجح ضفيرتها فوق كتفها، وتمسح أنفها بظهر يدها.

تشعر ليليانا بذلك الأمر مجددا. ذلك الإحساس بأنها تفقد تماسكها. هناك شيءٌ ما حول هذه الفتاة يبدو لها مألوفا بشكل طاغٍ. تفتح حقيبتها اليدوية، فتجد منديلا ورقيا تقدمه لها، «هل يمكنني القيام بأيّ شيء لك؟»

تنظر الفتاة نحوها بتركيز شديد، وبدلا من الشعور بالامتعاض من تلك النظرة، تقررُ ليليانا أنها ترغب في اجتياز الاختبار، مهما يكن.

«هل تعرفينني، يا سنيورا؟» تسألُها الفتاة.

تنظر ليليانا إلى وجه الفتاة المذعور والغائم من الإرهاق. ومع معرفتها بعدم احتمالية لقائهما من قبل، إلا أنها أرادت أن تجيبها بنعم.

«ربما عندما كنتُ صغيرة آنذاك.» تستمر الفتاة وتشير بيدها إلى طول فتاة صغيرة.

بشكلٍ ما، ومن مكان ما في أعماق عقلها، ينطلق صوتٌ خفيض. ربما هو صوت آلان، يقول لها. حذارِ، يا حبي، انتبهي لتصرفاتك، ولا تتعجلي الأمور. لكنها تهز رأسها، وتقول لها، «كنت أعرف أبرامو كاتانيو،» وتساءلت في نفسها إن توخّت الحذر بما فيه الكفاية هنا.

«عرفتُه عندما كان طفلا، ثم قرأت في الصحيفة عن إطلاق النار، وهكذا جئتُ لزيارته في المستشفى، ومنذ قليل عرفت أنه قد...» وهزّت رأسها في أسىً. كانت الفتاة تتحدث بصوت شديد الخفوت، بحيث لم تتبين كلامها. لكنها اعتقدت أن الفتاة قالت إنّ أبرامو خالها. لكن ذلك غير ممكن، لأن الممرضة كانت ستخبرها إن كانت لأبرامو ابنة أخت هنا.

«لم أخبرهم،» تهمسُ الفتاة، «لم أخبر الناس هنا، بأن أبرامو خالي.»

«لماذا؟» تسألها همسا. «لأنني كنت خائفة،» وتبدأ في البكاء من جديد.

لا تستطيع ليليانا استيعاب كل ما يجري، لكن قلبها الواهن المسكين يقفز فجأة. «يا عزيزتي المسكينة. أنا هنا من أجلكِ الآن.»

فتاة الصحراء

مادة: بطاقة بريدية لطرابلس تبيّن حارة اليهود في المدينة القديمة.

يصفُّ ستيفانو سيارته أمام مبنى كبير يُسمّى مصنع التبغ. لم ينطق بكلمة منذ أن ركبا السيارة أمام المقهى. كان مستغرقا في أفكاره، لكن الآن يرفعها خارج السيارة ويُنزلها فوق الرصيف، ويخبرها كم هو سعيدٌ لأنها هنا أخيرا. سيقطعان الجزء الأخير من رحلتهما على الأقدام، ويخبرها أن ذلك بسبب شوارع المدينة القديمة الضيقة للغاية ولا تسمح بمرور السيارات، وأن حارس بوابة المصنع سيتكفل بمراقبتها لنحو نصف ساعة، وبعد ذلك يجب أن يعيدها، وإلاّ ظنّ موراداي أنه سرقها.

يفكّ رباط صندوق أمتعة ليليانا، يضعُه فوق كتفه، ويمسكه بكلتا يديه فوق رأسه، أثناء مرورهما تحت قوس منهار نحو شارع أثري، يستمر ستيفانو في ثرثرته.

تمشي ليليانيا بصمت، أحيانا بجواره، وأحيانا أخرى خلفه. وتصيرُ واعية بالضياء الساطع وبالقذارة المكوّمة، فتحتفظ ببصرها أغلب الوقت على الطريق حتى لا تدوس فوق أكوام القمامة أو فضلات الحمير. أحيانا، عندما كانت تسير وراءه تلحظ بقعا من العرق في قميصه، وتشاهد كيف تتكور عضلات ذراعيه تحت أكمامه.

بيتُ أخيها يقع هناك، بعد منعطفٍ له بابٌ مرصّع على طول الممر بأقواسه البيض الثلاث، ثم منعطفان إضافيان، ثانيهما له ثلاثة تجاويف مربعة في أعلى الجدار، ثمّ المرور بمبنىً برتقالي باهتٍ تعلوه كتابة قديمة تقول: كنيس دار الباشا. وهذا الشارع غير النافذ يبدو مثل ميدانٍ صغير مغلق. كأنه ميدان خاص بهم. وهنا حيث استأجر أخوها بيتا من تاجر يهودي، هو السنيور ياكوف، الذي يقطن مع زوجته فوقهم، في بيته الكبير بشرفة علويّة. للسنيور ياكوف ثلاث بنات متزوجات، إستير وهي الصغرى، اعتادت النزول إلى بيتهم لتعليم فريدة اللغة الإيطالية، لكنها انتقلت بعيدا الآن بعد زواجها. وتُعرف المنطقةُ بحارة اليهود، التي قد تبدو كأنها في قلب المدينة، لكن ما إن عرفت ليليانا فيما بعد طريقها حول المكان، صار بإمكانها التواجد في مكان تطل منه على البحر. هذه المباني القديمة لها جدران عريضة ونوافذ قليلة، وهذا ما يحافظ على برودة المكان في حرارة الصيف. وعلِمت أن ستيفانو يخطط في ما بعد للانتقال إلى بيت مقابل للبحر، حيث الهواء منعش ونظيف، وحيث يعمل نسيم البحر على تبريد كل شيء، لكن في الوقت الراهن هذا مكانٌ مناسب، بعيدٌ عن الأعين، ومخفيّ قليلا.

كلّ هذا عرفته ليليانا أثاء سيرهما من مصنع التبغ إلى البيت.

لقد وصلا الآن إلى الشارع المغلق، وإلى شجرة قديمة تنتصب في الوسط، محاطة بأبنية بيض لا نوافذ لها. هذا هو المكان.

«ستحبّين المكان،» يقول بضحكة خجول، «يمكنكِ تخيّل أنك تعيشين في الزمن الماضي. نعم أقصد كما في زمن العهد القديم في التوراة.» ثم يدفع بابا خشبيا عتيقا يفضي إلى ممرٍ ذي بلاط داكن، وينادي على فريدة، قائلا إنه قد جاء مع ضيفتهما. لقد وصلت أخته الصغيرة. يدوران عند الزاوية وفجأة يدخلان إلى فضاء مفتوح ومضيء. «أتمنى أن تكونا صديقتين،» يخاطب ليليانا من فوق ظهره، ويتنحّى جانبا.

حينذاك تراها. هذه التي تسمّى زوجته. إلى حد ما كانت تشبهُ ولا تشبه أيضا، فتاة (الجَمال العربي) في بطاقتها البريدية في إيطاليا. شعرها الأسود مرسلٌ في ضفائر طويلة. جلبابها أسودٌ مخطط بالبرونز يبدو واسعا حول جسمها، وهناك وشمٌ فوق ذقنها وجبينها. لها وجهٌ بيضاوي صغير، وعينان واسعتان بلون الزبرجد ومحدّدتان بالأسود. تتدلى حليّ فضية من رقبتها وحول رسغيها وكعبيها، ومن أذنيها كذلك. لاحظت أنها صغيرة الحجم ودقيقة التكوين، تبدو على استعداد لأن تجفل عند أول صوت أو حركة مفاجئة. وجال بخاطرها تعبير الجسم الأثيري، فرأت أن الفتاة بحاجة لكل هذه الحليّ المعدنية لتثبيتها على الأرض حتى لا تطيرفي الهواء.

تحدقان في بعضهما بشيء من الحذر. تنظر الفتاة إلى قبعة ليليانا، ثم تحت إلى ساقيها المجوربتين، وإلى الأربطة في حذائها. ثم تتحول عيناها إلى عنقها الذي تحيطه بسلسلة في نهايتها صليب. لم يخطر ببال ليليانا أن فتاة الصحراء يمكن أن يكون لها رأيها الخاص فيها. لكن من الواضح أن كلاً منهما تقيّمُ الأخرى، وإدراكها لذلك يجعل جسدها يقشعر. تفاجئ نفسها بالقول في سرّها، أرجوك تقبّليني، ثم تتفاجأ لرؤية قدميها العاريتين مرسومتين بخطوط دقيقة. إنها حقا متوحشة، ثم، أودّ أن أقبّلها.

يمكن لليليانا شم رائحة ماء الورد، ونوع من التوابل، وشيء لا تدري كنهه لكن له علاقة بالتراب، مثل جذور مقتلعة من الأرض. هناك صوتُ خرير ماء من مكان قريب ما. هم الآن في وسط فناء مفتوح على السماء. فناء داخلي، وفضاء مضيء غارق في نور الشمس وفي الظلال أيضا. يا لهذا الجمال المخبوء، من كان يظن أنه موجود هنا؟

تبتسم بوجل لفتاة الصحراء الغريبة، التي تبادلها الابتسام. وللحظة أخرى تستمرّان في الوقوف هناك تنظران إلى بعضهما. في تلك اللحظة تشعر ليليانا بشيء صلب في وسط صدرها، ونوع من ألم خلف قفصها الصدري، ينتفض كأنه على وشك أن يتفكك. عندما تخطوان نحو بعضهما، تتصافحان، وتنحنيان لتقبيل الخدود، والتفوّه بتمتمات الترحيب. هناك نوع من الألفة بينهما مخلوط بشيء من الغرابة، كأنّ جانبا ما من كل منهما قد ذهب مسبقا والتقى مع الأخرى.

واقفتان هكذا، أيديهما تمسك ببعضها كأنها على وشك الانخراط في لعبة طفولية والرقص في دائرة في الفناء، ثم التفتتا معا تنظران إلى ستيفانو.

«لنقدم الشاي للمسافرة!» يهتف نحوهما.

سرعان ما جلست ليليانا فوق وسادة تحتسي كوبها الأول من شايٍ برغوةٍ ومنكّه بالنعناع، يُسكبُ من برّاد من المينا ذي لون برتقالي.

ملاك حارس

مادة: فتلة من خيط صوفي أزرق بالٍ.

تململت سعيدة في فراشها وانتقلت إلى حالةِ صحو مؤقت لجزءٍ من الثانية، قبل أن تسحب ذراعها المطوي تحت رأسها، وتنقلب لتواجه الجهة الأخرى، مُسندة خدها على بقعة ندية من أثر اللعاب. اعتقدت أنها تنامُ في بيتها وأنّ منبّه الساعة لم ينطلق بعد، ثم تذكرت ما يحدث حولها.

من بين جفنيها راقبت السيدةَ المسنّة التي تجلس على الطرف الآخر من السرير. عندما راودتها الفكرة المستحيلة لاستحضار أفراد عائلتها البعيدين، تخيّلت مثلا إحدى النساء من بلدتها، التي ستأخذها في حضنها وتحيّرُ السلطات الإيطالية بغرابتها، وعنادها، وقوانينها المغايرة. أو حتى أفضل في هذه الظروف، تخيّلت واحدةً مثل مدام سيمون، المرأة الضخمة، ولكن الناعمة، التي تمتلك موهبة الاحتضان، ولكن أيضا التي تعرف جيدا كيف تعمل المنظومة هنا، وستقوم حيالها بما يلزم من جدلٍ أو إضفاء شيء من سحرها، حسب ما يتطلبه الموقف. الأفضل من كل ذلك، بالرغم من انزعاج سعيدة للاعتراف به، هو أن يكون قريبُها هذا الذي تنتظره رجلا. لأن في هذا المكان مثلما الأمر في وطنها، بإمكان الرجال تحقيق اختراق سريع إن كانوا في صفّك. نعم، ستعمل هي على تغيير هذا الوضع يوما ما، لكن سيكون عليها انتظار فرصتها. فهي في الرابعة عشرة فقط من عمرها، وهي ابنة منفيّ سياسيّ تمت مطاردته والإيقاع به. كما أن خالها الحبيب فارق الحياة. كان الهلع ملازما لها منذ الحادثة، لكن لا يجب أن تسمح له بأن يتمكّن منها، وفيما بعد سيتوفرُ لها الوقت الكافي للبكاء.

لكن من حضرت استجابة لرجائها كانت ضعيفة هي نفسها. والأشياء الواضحة الوحيدة المتعلقة بها هي شعرها الأبيض المجعد الهائج، وشالها ذي اللون الأخضر الزمردي. ما عدا ذلك، فهذه السيدة المسنّة، التبريرية، والمرهَقةِ، التي تتحدث الإيطالية بنعومة وتردّد، والتي تنتفض أحيانا كأنّ أحدا تسلل وراءها وربت فجأة فوق ظهرها، هذه العجوز تبدو على الأقل في مثل حيرة سعيدة، حول كيف يجب أن تمضي الأمور. إنها أقل المنقذين حظا، لكنها موجودة هنا الآن، وتودّ تقديم المساعدة.

كانت سعيدة حائرة في أمر هذه السنيورة جونز من لندن، وبالكاد يمكن البدء في معرفة رأيها فيها. عرفت فقط أن السنيورة جونز كانت حزينة مثلها، وأنّ حزنهما هي النقطة التي تلتقيان فيها. لم تفهم لماذا جاءت لزيارة خالها أبرامو رغم ما

بدا أنّ معرفتها به تعود لفترة طفولته، وأنها لم تره مذاك الحين. لكن هذا غير مهم. لا بد أنها قد عرفت أمّها أيضا، وسيكون لديها الوقت الكافي لاحقا لاستجلاء هذه الأمور.

لكن وجود السنيورة جونز هناك جعل سعيدة أقل إحساسا بالوحدة.

كانت العجوز تحرك ردفيها فوق الفراش، تتمتم بكلمات وهي تنظر تحت إلى يديها اللتين تعصرهما في حجرها. راقبتها سعيدة فرأت تأثير تلك التربيتة الخفية فوق كتفها، والرعشة التي سرت فجأة في أوصال السنيورة. لقد اقشعر بدنُ سعيدة لمجرد رؤيتها ذلك. رفعت السنيورة جونز عينيها، حدقت في والد سعيدة ثم فيها. فهي لم تعرف أن الفتاة كانت مستيقظة ومفتوحة العينين تحت كثافة شعرها. ومع ذلك فقد أغلقتهما مجددا لأنها لم تشأ التطفل.

ثم قالت السنيورة لأبيها بصوت عال: «ابنتُك الجميلة طلبت مني الحديث إليك، وأن أروي لك حكاية، لكن ها أنا غارقة في أفكاري.»

«آسفة، لقد وعدتُها أن أكون حارسة لها،» وأطلقت إحدى ضحكاتها الخاطفة الغريبة، التي تفصح عن ارتباك أكثر منه عن تسلية.

صحيح، أن سعيدة طلبت من السيدة أن تُقسم بأنها لن تترك الغرفة، وأنها ستوقظ أبيها إن حدث أيّ تغيير. وردّاً عليها صالبت العجوز يديها فوق صدرها، ثم أشارت بيدها اليمنى إلى السقف. لم تفهم سعيدة معنى ذلك، لكن السنيورة شرحت لها أن هذا ما يفعله البعض في إنكلترا، وفي الغالب الأطفال عندما يقطعون وعدا، كما يقولون أيضا، «أقسم على ذلك، وأموت إن حنثتُ بقسمي»

على صوت السيدة الناعم والمريح، خلدت الفتاة للنوم من جديد.

* * *

أخبرتهما الممرضة أن الرجل طريح الفراش، الموصول إلى أنابيب وجهاز الإنذار يمكنه أن يسمع، بالرغم من عدم قدرته على الردّ. تصفحت ليليانا الجريدة التي تحدثت عن عملية اغتيال أخرى لصحفي في ميلانو يُعتقدُ أنها جرت على أيدي إرهابيين يساريين، وفي الصفحة الثانية هناك الصورة نفسها للرجل الذي رأته في الصحيفة في مكتبة موسويل هيل. العنوان يقول، «تمكن القتلة من الفرار.» حيث كان قاربٌ سريع ينتظرهم في فوموشينو. لم يكن ذلك الاعتداء الأول في روما، فقد سبقته اعتداءات أخرى في لوس أنجلوس، وأثينا، بالإضافة إلى لندن. جاء في المقال أن القذافي، الذي يحبُّ تسميته بالأخ القائد، أراد أن يبيّن للآخرين أنّ يده طويلة، قادرة على الوصول إليهم، وأنّ لا مفرّ من انتقامه، حيث سيصطاد معارضيه واحدا بعد الآخر. وفي لندن أيضا، قامت قوات مكافحة الإرهاب المعروفة باسم ساس باجتياح السفارة الإيرانية، ملقية

قنابل صوتية خلال النوافذ، وأنهت الحصار فيها. لكن لا شيء من ذلك يبدو مناسبا للقراءة لرجل اخترقت دماغه رصاصة.

وضعت عدسات قراءتها جانبا. لم تنظر إلى وجه الرجل، لكن عند دخولها الغرفة أوّل مرة، التقطت لمحة لمحجري عينيه المسودّين، والاصفرار الشديد في وجهه. وكان ذلك كافيا لتعرف حالته. أخبروها أنه يكافح من أجل الحياة، وكان كفاحا هادئا في الظاهر، لكنه عنيف في داخله.

«كنتُ في لندن عندما قرأت عنكم في الصحيفة.» وتجدُ صعوبة في تصديق أن ذلك كان بالأمس فقط، «وحثّتني صديقتي على المجيء، قائلة إن عثوري على النقود كان علامة لي كي أحضر هنا. ملاكي الحارس هو من كان يقود خطواتي إلى هنا، لكن عندما حضرت...»

توقفتْ هنا، فلن يساعد هذا الرجل إخبارُه أنّ الضحية الذي كان برفقته قد توفي. لم يكن رفيقه فحسب بل ماذا؟ نعم إنه صهره. وأن تحاول الوصول إلى رجلٍ في مثل هذه الحالة المتردية التي يصعب الوصول إليها، يحتاج حديثها له أن يحتوي على الجَمال والأمل.

«صديقتي جوان تؤمنُ بالملائكة الحارسة، ولا تعتقد أنهم محض مفهومٍ مجرّد. بل تظن أنهم موجودون هناك بالفعل، بأجنحتهم وغير ذلك. غير مرئيين، لكنهم حاضرون.»

تفكر ليليانا في النقود التي تركها لها آلان، وكيف جلست هناك تعدّها فوق اللحاف الأزرق في غرفة النوم. تصوّرت بيتها في لندن، الستائر والوسائد بقماشها الرائع الذي عثرت عليه في محلات الأنتيكا، وفي المزادات، وخاطتها بنفسها، ثم فكرت في الحديقة الضيقة الطويلة بالنافورة في نهايتها، وشجرة التفاح الكبيرة المائلة، ثم في أثاث الحديقة في الشرفة، والكراسي البلاستيكية. تذكرّت المسحاة المرمية بالقرب من حوض الخضروات، التي لا بد أنها تركتها هناك أثناء محاولتها غير الجادة لعزق الحوض، ولأن تحافظ على الوضع كما قد يفعل آلان. كم بدا الأمر حينها مؤقتا، وكم كان اعتباطيا. لقد عاشت في إنكلترا لأربعين عاما. لكن الآن يبدو أنها أخذت استراحةً. ووقتا مستقطعا من الواقع. لرؤية دم وموت عنيف.

رافقت ليليانا الفتاة إلى هنا، حيث يرقد أبوها المصاب. تتبعتا الخط الأصفر الإرشادي. الخط الأرجواني لقسم الأورام، والأخضر للولادة، والأصفر للحوادث. وهذا ذكّر ليليانا بالخط المرسوم على رصيف قطارات الأنفاق في لندن، الذي يحدد مكان الوقوف الآمن لانتظار القطار. وكوّن لديها ذلك شعورا بأن عقودها الأربعة من الوقوف خلف الخط، وفي الاحتفاظ بمسافة بينها وبين الخطر، قد وصلت إلى نهاية ما.

خلال دقائق ستستقل سيارة أجرة إلى شقة سعيدة لجلب بعض الثياب لها. لديها المفاتيح في حقيبتها والعنوان الذي دونته لها الفتاة. لقد وافقت حتى على البقاء هذه الليلة، ولا تعرف في الحقيقة ما الذي جرى لها.

عصيدة بالرّب

مادة: بطاقة بريدية لبيت طرابلسي نموذجي، تبيّن نافورة وفناءً داخليا مبلطا.

تقوم فريدة، فتاة الصحراء، بتجهيز الإفطار لكليهما في وسط الحوش المضاء بنور الشمس. كانت مثل عصفور صغير، عصفور خجول يحطّ مؤقتا في ضوء الشمس ثم يقفز نحو الظل. تتحرك مسرعة في أنحاء المكان لتجميع ما يلزمها: علبة ملح من فوق الرف، وكيس دقيق، وقطعة قماش تضعها فوق كتفها، قصعة كبيرة ذات لون أصفر، قنينة زيت، ووعاء يحتوي على معجون داكن.

ستيفانو غادر إلى العمل منذ فترة ولم يبق سواهما في البيت، ليليانا والفتاة الغريبة المغطاة بالحلي، ذات العيون المطلية بالسواد والقدمين المزخرفتين بالحناء. ليليانا مفتونة حقّا بهذه الفتاة.

صحنُ البيت نصف مفتوح على السماء، ويغطي نصفه بروزٌ من ارتفاع طابقين ونصف، مسنود بأعمدة رفيعة من الرخام الوردي. هناك شرفة عالية في الجانب الشمالي من الحائط مغلقةٌ بستارة خشبية لها زخرفة محفورة تسمى مشربية، استُخدمت في الماضي من قبل النساء في الطابق العلوي، وتسمح لهنّ بالنظر إلى تحت، ورؤية ما يحدث في الأسفل. هذه الشرفة تتبعُ مالك البيت، وهي في الجزء الذي يقطنه السنيور ياكوف، لكنه أخبر ستيفانو أنه أغلق الباب المؤدي إلى الشرفة، ولا أحد بإمكانه بعد الآن رؤية ما يدور في بيتِه. هناك ثلاث غرف تفتح على وسط الحوش. غرفة نوم ستيفانو وفريدة، وأخرى ضيقة تستغلها ليليانا، وغرفة الخزين. في نهاية كل غرفة توجد منصة تسمى سدّة، يمكن أن تُستخدم كسرير، والجزء السفلي كمكان تخزين، ليس للغرف نوافذ، بل لها أبواب خشبية ثقيلة مرصعة بمسامير نحاسية تفصلها عن وسط الحوش. كانت ليليانا تترك بابها مفتوحا في اللِيل، فليست الظلمةُ هي التي تزعجها قدر إحساسها بأنه لا يوجد مخرج، وأنها مسجونة.

كانت قد أفرغت محتويات صندوقها السّفري، ووضعته عند طرف السدّة، وعلقت ثيابها فوق حبل مربوط على الحائط.

على طول الممر الذي يقود إلى خارج البيت هناك غرفة غسيل ذات بلاط أبيض، بها فتحة عالية غير مغطاة بالزجاج، وهي النافذة الوحيدة في بيتهم، لا يمكنهم الرؤية منها إلى الخارج، ولا يستطيع أحدٌ من الخارج رؤيتهم. أخبرها ستيفانو أن النساء يمضين حياتهن في المدينة بهذا الشكل، بالرغم أن البعض لديهن مشربيات على شرفات خارجية، أو

فرندات فوق الأسطح تمكنهنّ من إلقاء نظرة على العالم الخارجي. ومن الواضح أن السنيور ياكوف يملك فرندة فوق السطح، وتتصل عن طريق جسر صغير في الطابق الثاني بمساحة أوسع يمكن منها رؤية أسطح بيوت المدينة ومآذن المساجد. يمكنها الآن سماع أصوات في مكان ما فوق، لنساءٍ يتبادلن أحاديث ويضحكن، ويبدو أنهم ضيوف زوجة السنيور ياكوف.

أغلب حياتهم تجري هنا في وسط الحوش، بجدرانه وأرضيته المغطاة ببلاط أبيض وأخضر. وتم تخزينُ أشياء المطبخ فوق رفّ أسفل الجانب المغطى. كلّ الطبخ يجري فوق فرنٍ من الطين يسمونه الكانون، والأثاث هنا بسيط، فالمقعد الواطئ الطويل يستخدم أيضا كطاولة أكل، وفي اللِيلة السابقة تناولوا طعامهم حوله جالسين فوق وسادات كبيرة ملونة، وأخبرها ستيفانو أنه بدأ يعتاد الجلوس بهذه الطريقة، ويحبها كذلك، لأنها أكثر اجتماعية. "لقد بدأتَ تأخذ عادات أهل البلاد،" علّقت ليليانا، وشعرت بأن عيني الفتاة مسلطتين عليها، لكن عندما التفتت لتقابلهما، لم تتمكن من معرفة سرّ ما فيهما.

قدمت لهما فريدة الكسكسي مع طبيخ اللحم، وبعد ذلك شربوا الشاي المرّ. "ماذا يحدث عندما تمطر؟" سألت ليليانا، فرد ستيفانو، "لا تمطرُ كثيرا هنا، فكل الأشياء تجفّ سريعا، حتى لا تعرفين أنها كانت مبللة. المطر ليس مشكلة هنا، وإنما القبلي هو ما ينبغي أن تحتاطي له." أومأ لها، ودوّر عينيه. "ما القبلي؟" سألته، وخمّنت أنه يتحرق شوقا لإخبارها عنه. "ذلك حينما تأتي الصحراء إلى المدينة." ووصف لها الرياح المحملة بالأتربة التي تأتيهم من الصحراء، وتغطي كل شيء بترابٍ أصفر.

من المقعد الواطئ تراقبُ الفتاة وهي تتحرك في أنحاء المكان، قدماها الحافيتان لا تحدثان إلاّ أخفّ الأصوات فوق الأرضية المبلطة. كانت مرتدية ثوبا أسود بخطوط برونزية عمودية، يحدثُ حفيفا أثناء حركتها. لم تبال بمراقبة ليليانا لها، وبدت كأنها تتمتم لنفسها. ربما كانت تردّدُ صلاة أو ابتهالا ما، أو ربما تردّد تعليمات أو ملاحظات لنفسها، لكنها تقوم بذلك دون وعيٍ منها، أو أنها لا تعرف أن الحديث لنفسها غير مستساغ في وجود آخرين. ولكن ربما هذا مقبولٌ في البيئة التي خرجت منها، فربما هناك يتحدث الرجال لبعضهم البعض، بينما تتحدث النساء لأنفسهن.

تراقبها ليليانا، ولا تعرف كيف تقيّمها، وتخشى أن تكون قد أهانتها. لكن لا يمكنها معرفة ذلك.

قبل ذلك وضعت ليليانا فوق سريرها أحد أثوابها الذي اعتقدت أنه سيكون مناسبا لفريدة. يصل طوله إلى ربلتي ساقيها، له أكمام طويلة، ورقبة بيضاء مزرّرة. بسيطٌ جدا ومحتشم. بابُ غرفتها كان مفتوحا، وعندما رأت الفتاة في وسط الحوش نادت عليها لتريها إيّاه، فجاءت إلى باب الغرفة لكنها لم تدخل. "اعتقدتُ أن هذا يناسبك،" التقطت الفستان، وفردته لتبيّن طوله. لكن لم يبدُ على الفتاة أنها فهمت الفكرة فقدّمته لها، لكنها أخذت خطوة إلى الوراء. "هذا لكِ،" وسارت نحوها بالفستان في يدها.

"شكرا،" قالت فريدة الواقفة بباب الغرفة في ضوء الصباح والفستان فوق ذراعها، كأنها لا تعرف ماذا تفعل به. في الثّنية الفوقية بدا أثرٌ لتمزيقٍ حاولت ليليانا خياطته بكل عناية، لكن السلك المختلف الذي استخدمته كان واضحا في ضوء النهار.

"هذا من أجلك، كي ترتديه،" وظلت فريدة مسلطة عينها على الفستان.

"إلى أن نأتي لك بثياب خاصة بك،"

"لديّ ثيابي،"

"نعم، ولكن هذا عندما نخرج معا،" قالت مشيرة للفتاة، ولنفسها، بتشابك الذراعين، ثم قلدت حركة المشي بأصابعها.

حدّقت الفتاة برعبٍ في حركة أصابع ليليانا، ثم في وجهها. كأنما طلبت منها أن تتعرّى وتستعرض نفسها في الشوارع. أطلقت سيلا من كلمات غير مفهومة، ثم وضعت يدها الطليقة حول رقبتها ثم فوق حاجبها. وبعدما بدا أنها تمالكت نفسها، قالت، "لا. لا يمكنني فعل ذلك."

"فيما بعد،" قالت ليليانا وأخذت الفستان من يدها، "ليس الآن، في وقت لاحق، بعدين، بعدين." ثم حركت يدها في الهواء، كأنها تطرد الفكرة بعيدا.

طأطأت الفتاة رأسها وهي تبتعد، وتساءلت ليليانا إن كان ستيفانو قد تحدث معها أصلا حول المهمة التي أوكلها إلى أخته، أي عن (المشروع الإيطالي) كما يسمّيه. كانت على يقين أنّ فكرة خروجهما في ثياب محتشمة لن تكون مشكلة كما ألمح ستيفانو. وبدلا من ذلك كانت قلقة حيال الوشم الذي تضعه الفتاة فوق ذقنها. لم يتطرّق أخوها إلى ذلك، وكأنه سيختفي بمجرد خروجها مع فريدة في ثياب أوروبية، كأنّ ذلك سيكون كافيا، لكن هذا الوشم ليس مثل الحناء، بل محفورٌ في المساحة التي تحت ذقنها، ولن يختفي. على كلّ، هي لا ترى الآن أن معضلة الوشم هي السبب المباشر لقلقها. فهناك شيء أكثر جوهرية يجب أن تتغلب عليه أولا. وليس باستطاعتها الآن التفكير في طريقةٍ للقيام بذلك.

عندما جمعت فريدة كل ما تحتاجه لإعداد وجبتها، تجلس مقرفِصةً بجوار الكانون، وتهوّي الفحم بورقة من سعف النخيل، إلى أن وصل قِدر الماء الذي وضعته فوقه إلى درجة الغليان. بينما أخذت تغني بصوت ناعم أثناء عملها، كانت ليليانا جالسة فوق المقعد تنظر إليها.

تغرفُ الفتاة حفنة دقيقٍ بين راحتيها، وتسقطها في الماء، ثم تحركها بلوحة خشبية. قدماها العاريتان ثابتتان فوق الأرضية، بكعبيها متجاورين، وركبتيها منفرجتين، بينهما وحولهما طيّات من ثوبها الأسود تصل إلى الأرض. معلّقة في هذه الوضعية فوق الأرضية وقريبة منها، لكن على مستوى الكانون الصلصالي، يمكنها الميل إلى جانبٍ لتغرف حفنة دقيق أخرى

من الكيس، ثم تعود إلى المنتصف وتتركها تسقط من يدها في الخليط الذي بدأ يتخثّر، بينما تقوم بالتحريك بقوة بيدها الأخرى طوال الوقت.

"ماذا تطبخين؟" ترفع الفتاة بصرها نحوها وتبتسم، "هذه عصيدة. نأكلها مع الربّ،" ومن الأرضية ترفع علبة من معجون داكن. "هذا هو الربّ، ويصنع من التمور، أي ثمار النخيل. إنه لذيذ، وشديد الحلاوة."

تنهض ليليانا من مقعدها وتأتي إلى الموقد، تأخذ علبة الرب وتشمها. لا تتذكّر تماما كنه الرائحة، لكنها حلوة بنكهة الثمار. "رائحته جميلة،" تقول وتجلب الوسادة من جانب المقعد، فتجلس عليها بجوار الموقد لتشاهد عن قربٍ أكثر. جانبٌ من غريزتها يخبرها أن تكون أكثر رفاقيّة للفتاة، وأن تحاكي حركاتها. لكن تنّورتها من الضيق فلا تسمح لها بحرية الحركة، وتخاف أن تتعثّر فتسقط، وعليه تجلس باسطة ساقيها أمامها، ومستندة بظهرها إلى المقعد.

تكرّر فريدة حركة رش الدقيق إلى أن يصبح محتوى القِدر صعباً على التقليب بيد واحدة. تأخذ الخرقة الثقيلة المرمية فوق كتفها، تلفها حول القدر وترفعه من فوق النار، ثم تلقي بثقلها مع القدر على الأرض. كل شيء حول الفتاة غريبٌ بالنسبة لها، حتى حركات جسمها. فهي تقوم بحركات لا يمكن لِليليانا أبداً تأديتها، ففي عالمها هذه الحركات غير مطلوبة، أو أنها تُعتبر غير محتشمة. جالسة على الأرض الآن، تباعد بين ساقيها، وتضع القدر الساخن الملفوف بالخرقة بين قدميها فتأخذان وضع انحناءٍ حول دوران القدر، وتثبّتانه. كيف يمكن لستيفانو أن يتوقع من ليليانا أن تمدّن هذه المخلوقة البدائية التي تستخدم قدميها كيدين إضافيتين؟ الآن يدا فريدة حرّتان وتستخدمهما للإمساك باللوحة الخشبية، وغرسها في العجين السميك المقاوِم، فترفعه من جانب لآخر، ثم تضغطه مجددا على الأجناب بكل قوتها. فتقوم ليليانا لا شعوريا بتقويس قدميها وفردهما داخل شبشبها.

الآن تأخذُ فريدة القصعة وتضعها فوق حِجْرها، تصبّ فيها قدرا من الزيت الذي تنشره بأصابعها مغطية قاعها، ثم ترفع كتلة العجين من القدر بواسطة اللوحة وتضعها في الوسط. تشكّلها بيديها إلى كتلة مدوّرة، وتصنعُ بيديها نقرةً في أعلى الوسط، ثم ترشّها ببعض الزيت، وتضع ملاعق من الربّ في النقرة. تستدير فريدة وتضع القصعة مع ملعقتين فوق المقعد. كانت تظن أن العجين في حاجة إلى مزيد من الطهي، وربما خبزهُ في الفرن، ولكن لا، ستأكلانه هكذا، عجين نصف نيّئ. "يبدو لذيذا،" تقول لها، فتفهمُ ليليانا أنهما سيتقاسمانه، ويأكلان من الطبق نفسه.

"هل لنا أن نذهب إلى أحد الأسواق؟" تسألها، وتشعر بما يحويه صوتها من نعومة، فهي تعدّل نبرتها كأنها تحاول إقناع طائرٍ صغير بالتقرب منها. "أحبُّ أن أرى سوق الصنايعية. هل يمكن أن تريني الطريق؟" ثم تضيف، "بإمكانكِ ارتداء الفراشية."

نقلٌ وربط

مادة: قصاصة ورق مدونٌ عليها عنوان بلازا أرمينيا، في روما. وفي الخلف قائمة بالثياب وأشياء أخرى، تشمل مَنامة، وفرشاة أسنان.

وقفت ليليانا بلا حراك عندما وصلت إلى الدور الثامن من البناية التي تقطنها سعيدة. تناهت إليها أصواتٌ من دَرجِ السلّم، وخبطُ بابٍ، ووقع أقدام، ثم ضوضاء حركة المرور البعيد تأتيها من الأسفل. لكن بالقرب منها لا توجد أدنى حركة. كان السّكون يخيّم على محيطها القريب، إلى درجة أن الوشوشة في أذنها اليمنى، وصوت الطنين المتواصل، الذي تتفطنُ له دائما عندما يعمّ السكون من حولها، بدا لها عاليا.

كانت قد استقلت تاكسي من المستشفى، وبعد نزولها أمضت نحو عشر دقائق جالسة في حانة مقابلة تراقبُ الباب الأخضر الواسع للمبنى السكني باحثة عن أي نشاط مشبوه، لكنها لم تر شيئا.

لديها ما يكفي من الوقت، لتفحص الواجهة الدائرية، والدرجات المرمرية المربعة الأربعة المفضية إلى الباب، وكذلك استدارة الشرفات الصغيرة على جانبي البناية، وبلاط الواجهة ذي اللون الورديّ، ومصاريع النوافذ البنّية المتماثلة. قدّرت أن البناء قد يعود إلى بدايات عقد الثلاثينيات، وربما لم يتم تشييده بعد في المرة الأولى التي أتتْ فيها إلى روما. لا بد أنها كانت تتوهّم ما أحسّت به من ألفةٍ مع المكان، وأن عقلها المتعب والمضطرب عاطفيا يمارس معها الألاعيب.

أخيرا تعبرُ الطريق حاملة حقيبتها وكيسا صغيرا من المشتريات جاءت به من أقرب دكان، فاجتازت الرواق وركبت المصعد. عند وصولها وضعت الحقيبة بباب المصعد حتى لا يستدعيه أحد، فهو وسيلتها للهرب. الآن دفعت المفتاح في القفل وأدارته، فانزلقت المسامير الثلاث جانبيا في تجويف العلبة. هذا ليس من نوع الأبواب التي يمكن فتحها عنوةً بسهولة. دفعته بركبتها فانفتح جزئيّا وانتظرت قليلا. لا شيء. دفعته أكثر لكنها لم تقف في مواجهة الفتحة. رأت انعكاس وجهها الممتقع في المرآة ذات الإطار المذهّب المواجهة لها مباشرة، فأشاحت بوجهها على الفور. كانت هناك طاولة نصف دائرية تحت المرآة، وإلى جوارها حامل مظلات، وعمود له خطاف لفتح النوافذ المرتفعة.

أخذت خطوة إلى الداخل، وضعت كيس التسوق على الأرضية الخشبية الملمّعة، وبسرعة نظرت إلى اليسار نحو بابٍ نصف مفتوح، تأتي منه آخر خيوط ضوء النهار، ثم تنظرُ إلى اليمين فترى أبوابا موصدة، وتعود إلى المرآة. تضع يدا على قلبها، وتسحب نفسا عميقا، ثم تطلقه خارجا. بينما قلبها يدقّ في جنون من جديد. ترى أنّ مرجع هذا الاضطراب قد

يكون قهوة الإسبريسو التي تناولتها أثناء مراقبتها للبناية، وقد يكون مبعثُه حالة الرعب التي تكتنفها. خمّنت بأن لا أحد موجودا في المكان، لأن الهواء بالداخل راكدٌ إلى حدّ ما، ومع ذلك عليها أن تكون حذرة، فهذه ليست لعبة. لأن رجلاً فقد حياته، وآخر يرقد في غيبوبة.

أدارت مفتاح النور، اختارت من الحامل مظلة لها رأسٌ معدنيّ مدبب، وشرعت في عملية استطلاع للمكان. على رؤوس أصابعها، تحركت إلى جهة اليمين تمرجحُ المظلة أمامها كأنها كاشفة معادن، أو كاسحة ألغام. في نهاية الممر هناك حمّامٌ مبلطٌ بحجيرة دوش في الزاوية، ورأت مجلاتٍ عربية فوق طاولة بيضاء صغيرة بجوار المقعد، وكانت نافذة التهوية مفتوحة أقل ما يمكن. وبينما عبرت المكان لغلقها تجمدت في مكانها للحظة بعد أن ظنت أنها رأت خيالا متحركا، لكن لم يكن ذلك سوى انعكاس صورتها في المرآة فوق الحوض، فواصلت تحركها.

عادت أدراجها عبر الممر، ووصلت إلى المطبخ بخزاناته المعلّقة وفرن طهي ثابت. هناك كوب غير نظيف بجوار الراديو فوق الطاولة، وستارة النافذة مسحوبة إلى نصف المسافة، وكأنما لمنع شمس الصباح من إزعاج عينِ شخصٍ ما. فتحت خزانة الزاوية بحذرٍ لتجد الأرفف معبأة بعلب الطماطم والحمص، وأكياس الأرز والمكرونة، وكيس قهوة مفتوح.

تحركت نحو الصالة من جديد ملوِّحة بالمظلة أمامها. كان الباب المجاور يفتح على غرفة نوم كبيرة بها سريرٌ مزدوج، وآخر مفرد، كلاهما مرتّبان بعناية. هناك خزانةٌ بمرآةٍ على طول الجدار البعيد بها ثيابٌ زاهية معلقة من سقفها. شقت طريقها وراء السرير المزدوج، وبعده الأدراج، وفتحت الباب الأقرب إليها بيدٍ واحدة، بينما المظلة جاهزة في اليد الأخرى. لكن لماذا قد يختبئ قاتلٌ ما داخل خزانة. رأت بعض القمصان، وسروالا بحمالات، وعدة فساتين. لا بد أنها لِسعيدة. إلى جوارها هناك سترة بالية بأكمام مرقعة، وأربعة قمصان رجالية، مع عدة بنطلونات. هذه تخصّ أبيها. وفي أرضية الخزانة حذاءُ باليه وردي خفيف من الجلد الناعم، وآخر من الساتان الزهري بأشرطة. تردّدت قبل أن تفتح الباب الآخر، فانحنت ومدت المظلة إلى اليسار فقابلتها مقاومة ما، فتجمّدت وحبست أنفاسها. لكن لم يحدث شيء، واشتعل الطنين في أذنيها مثل ألف صوت تتداخل مع بعضها، فانحنت وطرقت بالمظلة على ما رأته مقاومةً، لكنها عرفت من الصوت الذي سمعته أنه خشبٌ، فسحبت المظلة وأغلقت الباب. للحظة قابلت عيناها هيئتها في المرآة لمدة كافية لترى كم يبدو مظهرها مضحكا وهي تقف هناك في معطفها المطري، شالها الحريري ملفوفٌ حول عنقها، ومسلّحة بالمظلة. سحبت الباب الأيسر جانبا، لتجد مجموعة من الفساتين الزاهية مرتّبة حسب ألوانها، وتملأ نصف الخزانة، لكنها مضغوطة في مساحة أقل من حاجتها. بعضها مغطّى بالبلاستيك الشفاف. وتحتها وجدت صندوقا له أرفف مع عدد كبير من الأحذية النسائية. لا بد أن هذا ما قابلته المظلة من مقاومة. هنا شعرت كأنها دخلت إلى موقع تصوير أحد الأفلام، كل ما حولها تلفّهُ حالة من الغموض.

أغلقت باب الخزانة وتابعت جولتها في الشقة. في الغرفة الأخيرة هناك أريكة سرير مطوية، فوقها ملاءات غير مرتبة، وعدا هذا كانت الغرفة منظمةً بعناية، يوجد جهاز تلفزيون فوق طاولة منخفضة، ويغطي الجدار من الخلف دولابٌ بأرفف

مليئة بالكتب، في الزاوية توجد طاولة أكلٍ مستديرة مغطاة بمفرش دمقسي أحمر، ومحاطة بأربعة كراس. هناك لوحات فنية معلقة على الجدران، وأعلى الأريكة تنوّعٌ من الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود، وساعة حائط مؤطرة بالزخارف. ثم بابان زجاجيان بارتفاع الغرفة يقودان إلى الشرفة، أحدهما مفتوح قليلا.

ماذا لو كان أحدُ قتلةِ القذافي في الشرفة ملتصقا بالجدار؟ لكنها قرأت في الصحف أن المسؤولين عن عملية الاغتيال غادروا البلاد. وأكدت الشرطة لِسعيدة أنهم غادروا بالفعل. لكن هل من المحتمل وجود قاتل آخر؟ خرجت إلى الشرفة ممسكة بسلاحها، فوجدتها خالية. هناك أصصٌ تحتوي على نبتات من النوع الذي تضاف أوراقها إلى الطعام، وطاولة معدنية صغيرة، وكرسيي طيّ معدنيين مسنودين إلى الحائط، وكذلك منشر غسيل واقع على الأرضية. وفي الأسفل شاهدت حركة مرور محمومة.

ليس من أحدٍ في الشقة. وهي متأكدة من هذا مئة في المئة. خطت إلى الداخل من جديد، أغلقت الباب الزجاجي، وأسدلت الستائر، ثم خرجت إلى المصعد وحرّرت حقيبتها، سحبتها إلى الداخل وأغلقت باب الشقة. الآن حبست نفسها في الداخل.

مرة أخرى رأت انعكاس هيئتها في المرآة ذات الإطار المذهب. في هذا المكان هناك الكثير من المرايا التي تلتقط خيالها بغتة. عيناها مفتوحتان على اتساعهما ومحدّجتان، وجبينها مجعدٌ بفعل عبوس يكسو ملامحها. شعرها منكوشٌ، وكتفاها متهدلان للخلف ما جعلها تبدو كهارِبة. أعادت المظلة إلى مكانها، خلعت معطفها، وحرّرت شالها، ثم علقتهما معا على المشجب المجاور للباب. استدارت مجددا لمواجهة المرآة، ومررت يديها فوق شعرها لتعيد ترتيبه إلى شكل ملائم. رغم ابيضاض شعرها بالكامل إلاّ أنه لا يزال كثّا، تبرز منه خصلات مجعدة خارج السيطرة. وكذلك ليس باستطاعتها فعل شيء حيال هذا الجبين المتغضن، وهيئة الخوف التي تغطي ملامحها، فيبدو عالقا في هذه الحالة. «لو كان للريح أن تتغيّر، سيبقى وجهك على حاله.» كان آلان يقول لها، كلما عبست في وجهه.

تعرفُ أنها ستكون في حال أفضل بعد تناول كوب شاي رائع.

أفرغت محتويات كيس التسوّق في المطبخ. وكانت قد اشترت الشاي، والحليب، والخبز، والزبد، والبيض. فهي لا تعرف ما قد تحتاجه. بحثت عن السّخان ولم تجد له أثرا، ثم تذكرت أن الإيطاليين لا يستخدمونه، فأحضرت بكرجا، ملأته بالماء ووضعته فوق الموقد، وعندما بدأ في الغليان توجهت إلى غرفة النوم الكبيرة لرؤية شيء لفت انتباهها. نظرت إلى القماش المنسدل من السقف، وإلى التموجات والأشكال الهندسية المرسومة عليه. مثلثاتٌ، ومُعيّناتٌ سود، ونقطٌ فوق خلفيّة بيضاء تتخللها حزمٌ عريضة باللون الأحمر والأصفر المؤكسد. تذكّرت أنها منذ سنين طويلة كانت تبيع أقمشة مماثلة لكسبِ عيشها، وأنّ حبّها للأقمشة يعود إلى ذلك الزمن. من الغريب أن ترى هذه هنا، ملفوفة ومُسدلة بنقشها البديع، في تقليد للخيمة البدوية. توجهت إلى الخزانة وفتحت الجانب المحتوي على الثياب الزاهية. أخذت قفطانا بلون برتقالي داكنٍ مثل الذي كان الناس يرتدونه في بواكير السبعينيات. كانت تلك الموضة السائدة آنذاك. وكان القفطان على مقاس

امرأة ضخمة. لقد ظنت أن الفتاة وأبيها يعيشان لوحدهما. لكن من الواضح أن شخصا غيرهما شغل الغرفة أخيرا، ولا بد أنه كان ضيفا مؤقتا. في هذا المكان توجد أدلة على وجود امرأة كبيرة الحجم ولها ذوق معيّن في انتقاء الثياب. أعادت القفطان إلى مكانه والتقطت غيره. كان من الحرير الأبيض بأكمام شفافة، وبطولٍ حتى الكعبين، وتحته بنطلون متجانس في الألوان. وهو النسخة الأوروبية للباسٍ خاص بالحفلات في شمال أفريقيا. قاسته على جسمها من الخارج، وعندها انطلقت في ذهنها ذكرى لها مرتديةً البنطلون الوردي الهفهاف والقميص المرصع، فأشعلت كيانَها مثل ألعابٍ نارية تطلق شررها على امتداد ذراعيها وصولا إلى أطراف أصابعها. بيدين مرتعشتين أعادت الثوب إلى مكانه، ووبخت نفسها: «اهتمي بشؤونك الخاصة.»

عادت إلى المطبخ، ووجدت إبريقا من الخزف الصيني لحفظ الشاي. وقفت تحدق من النافذة بينما الشاي يختمر. وأرسلت بصرها فوق قبّة وبرج كنيسةٍ في الجوار، وفوق أسطح بنايات بهوائيات تلفزيون مثبّتة فوقها وتخترق سماءً ورديةً تميل إلى البرتقالي، ليصل بصرها إلى خطّ داكنٍ في الهضاب البعيدة. لقد أتت إلى روما وواجهت موتا، وطريقا مسدودا، لكن عوضا عن التوقّف، كما يجب أن يفعل المرء عندما يكون الطريق مسدودا، وأن تستدير وتعود أدراجها إلى وطنها، فقد استُحِثّت عند سماعها صوت سعيدة، ورؤية ضفيرتها المتأرجحة. لم تستطع صرف النظر عنها، فقد تولّد لديها شعور بأنّ هذه الفتاة قريبتها. لكن الآن، وهي تقف في مطبخٍ غريبٍ في الطابق الثامن من بنايةٍ في سان جيوفاني بروما، تساءلت إن كانت قد تمادت في خطوتها. فما الذي تفعله هنا؟

حدّقت في آخر حافّة لا تزال تظهر لها من الشمس، ولاحظت كيف بان بوضوح اللون الأسود المتموج للهضاب البعيدة، مقابل حُمرةِ الضوء المتبقية.

تناولت شايها ووضعت الكوب في الحوض، ثم فكرت، إنها هنا الآن ومن الأفضل أن تواصل مهمتها التي أتت من أجلها. الساعة تقترب من السادسة، وتشعر بقدميها متعبتين. عادت إلى غرفة النوم، وتوجهت نحو الأدراج المطلية، واختارت لِسعيدة منامة، وثيابا داخلية نظيفة، وتيشيرت بنفسجي. ومن الحمام أخذت أنبوبة معجون أسنان وفرشاة، ومنشفة، دستها جميعا في كيس تسوّق وجدته معلقا خلف باب المطبخ. ثم أغلقت الباب وراءها جيدا، ونزلت في المصعد.

مرت على مطعم للوجبات السريعة وابتاعت تنوّعا من الطعام الساخن: كرات الأرز المحشوّة، وقطعة لازانيا، و(سوبلي) وهي سندوتشات الموزريلا المقلية. وضعوا لها الطعام في علبتين لتحملهما معها، ثم استقلت سيارة أجرة إلى المستشفى. لاحظت أن الحارس المسلح يغطّ في النوم، حيث كانت قبعته مائلة أماما لتغطية وجهه. «معذرة،» قالت لتنبيهه إلى وجودها، فأطلق نخرةً، وعدّل من جلسته، رفع قبعته عن وجهه، ونظر نحوها بريبة، ورأت أنه مسنّ. فظنّت أن مستوى الخطر قد تم خفضُه. أشار لها بالمرور مع هزّة خفيفة من رأسه، في تعبير عن الحنق لإزعاجه.

سعيدة، كانت جالسة تقرأ لأبيها. وقالت، «أوه، السنيورة جونز، كم لطيفٌ منك» وأبلغتها أن لا تغيير في حالة أبيها حيث مرّ عليهم الطبيب. «لقد أحضرتِ سوبلي!» هتفت الفتاة مندهشة عندما فتحت علبتها. «إن كان هناك

شيء يمكن أن يوقظه، سيكون هذا.» أخذت تحدّث أبيها برفق، وتمرّر كرة الأرز تحت أنفه لإغرائه، ثم سحبتها وأخذت قضمة منها. ابتسمت لليليانا وقالت، «رائحة السوبلي ستعيده إلى هذا العالم، فهو يحب مذاقه.»

لم ترغب الفتاة في العودة إلى الشقة برفقة ليليانا، وقالت الممرضة إنهم سيسمحون لها بالبقاء إلى جوار أبيها لليلةٍ ثانية. ستستلقي على السرير السفري الذي أحضره العامل ما إن تنتهي من تناول طعامها وتنظيف أسنانها. كأنّما ذكّرتها بذلك ليليانا التي شعرت فجأة بالسعادة لقيامها بهذا الدور. «نعم، نظفي أسنانك، وارتدي منامتك، وادخلي الفراش. كل الأمور على ما يرام في الشقة.»

تَركت الطفلةَ هناك إلى جوار أبيها الغائب عن الوعي، وجهاز الإنذار المربوط إليه والذي تشع منه أنوارٌ خضر، وكذلك الحارس الوسنان عند الباب، والممرات المعتمة حيث تُصدر الأضواء هسيسا خفيفا.

بعد العودة إلى الشقة، تناولت طعامها الذي صار باردا الآن على طاولة المطبخ، ثم استعدت للنوم. وبينما كانت تفتح سرير الأريكة، وصلت إلى أنفها رائحة عطر فوّاح لم تتبيّن كنهها، لكنها جلبت إلى مآقيها الدموع. دسّت الملاءات في سلة الغسيل في الحمّام، وجدت أخرى نظيفة، ورتّبت الفراش من جديد وهي تنوح طوال الوقت. ثم نفضت أنفها، ومسحت وجهها، شغّلت التلفزيون، وصعدت إلى السرير. كان هناك برنامج ألعاب، لكن قواعد اللعب غير مفهومة لها، أما الإعلانات فجميعها تتعلق بوجبات الطعام المجمَّدة. ورأت أن هذا غير مناسب تماما في إيطاليا، حيث يمثّل طهي الطعام من البداية أهمية كبرى. عن نفسها، فهي تستخدم الأطعمة المجمدة، فلم تكن أبداً طاهية جيدة، ولم يتذمّر آلان طالما لا يكون ذلك كل يوم. وحقيقة أن بإمكانها فهم كل كلمة يقولونها في البرنامج، جعلها تنتبه إلى أنه بعد كل هذه العقود، لا تزال بعض الكلمات أو سياقُ جملةٍ معينة بالإنكليزية تغيبُ عن بالها. وعندها أطفأت التلفزيون.

استلقت هناك تستذكرُ بعض المصطلحات الإنكليزية المفضلة لديها، كبديل عن القيام بالعدّ جلباً للنعاس. وفكّرت في مصطلح يقول إنّ (الكلابَ تنبحُ على الشجرة الخطأ) ظنّا منها أن الطريدة تسلقتها، وهذا ينطبق تماما على ظنّهم أن الإيطاليين سيعتادون الأطعمة الجاهزة. نعم، هذا اصطلاحٌ مناسب. أمّا الآخر فهو (انزلاق الماء عن ظهر البطّة) وفي معرِض إحساسها بأنها لا تقبل إساءة بسهولة، ومقاومتها بوعيٍ لتأثير إهانة ما، لكنها لم تعثر على مقابلٍ إيطالي للمصطلح. ورأت أنّ المفهوم نفسه ربما يكون غريبا. هناك أيضا جملة (رميُ الحذَر أدراج الرياح) وهذا مصطلح آخر فكّرت فيه في البداية، بمعنى القيام بشيء دون التفكير في عواقبه السلبيّة، لكن الإيطاليين يقولون (رميُ الحذر إلى نبتةِ الحُرّيق.)

خطر ببالها بيتر وهو زميل لآلان في العمل، الذي لم يكتشف أنها إيطالية إلاّ بعد لقائه بها أربع أو خمس مرات، وذلك عندما استخدمت خطأ المصطلح الإنكليزي، (في رقبة الغابة)، بمعنى المنطقة المجاورة، وبالنسبة لها لم يكن لهذا التعبير معنىً. فالغابة لا رقبة لها. كانت ستشرحُ لهما أنها مجرّد زلة لسان، لكن آلان تدخّل فأخبره عن أصولها الإيطالية، ولم تستطع إيقافه، فقد كانت أخطاؤها في اللغة محبّبة إليه، مع أنها تزعجها.

«وكأنك اجتثثتِ أصولك الإيطالية،» قال بيتر.

«بل أنا الآن إنكليزيةٌ بطريقة ما» قالت مراوغةً.

كان حديث بيتر انتقادا، لكنها اعتبرته إطراءً لها، وبعد ذلك علّق على طريقة نطقها لبعض الحروف، فعملت من جانبٍ على تحسين نطقها، ونجحت بصورة جزئية.

الناس يقولون إن الإيطاليين لا يفقدون لهجتهم لصالح الإنكليزية إلاّ إذا تربّوا على الحديث باللغتين، ومع ذلك بذلت ليليانا ما بوسعها. وكان الأصعبُ بالنسبة لها هو التخلّص من الحركة التي يضيفها الإيطاليون في نهاية الكلمة. أي إلغاؤها تماما، ثم إضافة حركة أخرى داخل الكلمة، أي قطعها في النهاية، وإضافتها في المنتصف أو في البداية. أي أنها عمليةُ نقلٍ وربط للكلمات.

نقطة الاستدارة

مادة: غلاف مطويّة سياحية لشمال أفريقيا الإيطالي، بها صورة للغراند هوتيل في طرابلس.

من مكانها المظلّلِ نسبيّا عند مدخل الكاتدرائية، تنظرُ ليليانا نحو الميدان. كانت قد استقلّت عربة يجرها حصانٌ في شارع واسع من منطقة باب الجديد وهو قريبٌ من بيتهم، وفي محيط المدينة القديمة. تشعر أنها قد استهلكت مقدار يومٍ كامل من الجرأة بعبورها القوس، وبجسارتها على الاقتراب من الرجال ذوي الوجوه الحنطية الذابلة، وثيابهم البالية، يجلسون في صفّ، وبين فينة وأخرى يفرقعون سياطهم، فوق ظهور أحصنةٍ مسنّة منتنة بعظام أكفالها الناتئة. تحلّت بالجسارة وهي تتحسّس طريقها بين روث الخيل، متجاهلة النظرات، ومتسلقة العربة بثوبها الحريري الوردي دون مساعدة من أحد، ثم جلست هناك أمام أعين الجميع. لقد أجهدت نفسها، وكانت متهالكة بالكامل.

ميدان الكاتدرائية واسعٌ وخالٍ من الناس، جديدٌ، ومن النظافة حتى يكاد المرء لا يصدّق أنه حقيقي. حتى الكاتدرائية نفسها تبدو غير حقيقية، فلم يمض وقت طويل على استغلالها، حيث تنعدم فيها آثار قرون طويلة من الركوع طلبا للشفاعة من النادمين على خطاياهم، وتخلو من روائح البخور والشمع المتأصّلة عادة في مثل هذا الأماكن، وأجيالٍ من نساءٍ يتمتمن بصلواتهن، أيْ أنها لا تملك تاريخا. بدا الأمر كله كأنّ خشبة العرض جاهزة. هي في فستانها غير المألوف الذي يبدو الآن مثل إحدى ثياب العرض، منتظرةً كي تدخل إلى المسرح، وترتعدُ كأنما انتابها خوف الظهور أمام الجمهور. والثوب الذي ترتديه لممثلة تلعبُ دور شابة محنّكة، اعتادت لقاء ضباط فاشيين كبار في المستعمرات.

من الصعب تصديق أن الطيّار سيفي بوعده ويأتي. أو حتى أنْ يرسل لها سيارة. ومن المحتمل ألاّ يفعل. فقد مرّت عشرة أيام منذ لقائها به في روما، وربما نسي أمرها.

إنها مجردُ دعوةٍ للغداء، تحدّثُ نفسها، غداءٌ في الفندق الذي ينزل فيه كما قال، وتحاول إقناع نفسها أنه سيكون في مكان عام، في مطعم، وسيكون هناك أشخاصٌ غيرهما. إنها لا تعرفُ ما يحدثُ الآن سوى أنها ترتدي الفساتين التي تخلت عنها الكونتيسا، مثل هذا الثوب الحريريّ الوردي الذي عدّلته حينما كانت على السفينة ليلائم مقاسها، وترتدي كذلك القبعة القشيّة الوحيدة لديها، وبالتالي ستفي بالغرض. كانت قد زيّنتها بشريط حريرٍ ورديّ يلائم لون الفستان، وتضعها الآن فوق رأسها بزاويةٍ في تقليدٍ للكونتيسا، بالرغم من أنها لا تبدو القبعة المناسبة، وتنحو لأن تعدّلَ نفسها وتستوي أفقيا فوق الرأس. لم تملك في حياتها فستانا بهذا الجمال، وتأملُ أن يضفي عليها لمسة رقيّ. تُمسك بزوجين من القفازات البيض

اللتين قدمتهما لها أمّها بمناسبة سفرها. كانا أنيقين عندما تسلمتهما منها في تلك اللحظة، ورمزا لحياة قادمة. لكنها ليست متأكدة أنهما سيجتازان الاختبار مع فستانها الجديد. لقد تغيّرت ثوابتها منذ أن أمضت بعض الوقت مع الزوجين تودينو، ومن المؤسف أنّ ستيفانو منعها من الاتصال بهما.

أووه. كم ترغب في أن يأتي الطيّار، وإلاّ كيف ستكون حياتها في طرابلس؟ عالقة مع تلك الفتاة الغريبة التي تتحدث مع نفسها أكثر مما تفعل مع ليليانا، وأحيانا تنطلق في الغناء دون مقدمات. كانت قد ارتدت القفازات وخلعتهما مرات عديدة ففقدا اتساقهما وبان عليهما التغضن.

ربما ذهب الطيارُ بعيدا لشأنٍ ما يخص المستعمرات. وربما يكون الآن هناك في الجو، يطير فوق الهضاب الرملية. أو أنه استُدعي إلى روما لاجتماع ما.

إن لم تأت سيارة لنقلها، فلن تعود مباشرة إلى الشقة، بل ستذهب إلى الشاطئ، ولا يمكن أن يكون بعيدا من هنا لأن بإمكانها شمّ رائحة البحر. ستذهب في نزهة على القدمين، وستمرّ من أمام الغراند هوتيل، وربما ستلتقي صدفة بالزوجين تودينو. لن تسعى إليهما، لكن إن تقاطع طريقاهما فلن تتجاهلهما. قفز إلى ذهنها منظر الكونتيسا وهي تنظر إليها مباشرة فوق سطح التريّض على السفينة. وتمنّت لو أن بإمكانها الوقوف في وجه مثل تلك النظرة، ويوما ما ستتمكّن من ذلك، لكنها بحاجة إلى ذلك الآن. وقد عرف أبوها هذا أيضا وإلا ما أرسلها مع آل تودينو. وانقبض صدرها عندما فكرت في الأذى الذي ألحقه الجنرال بأبيها.

أرجوك أرسِل السيارة، تحدّثُ نفسها، لكن وعياً ما يمنعها من إضافة كلمة الله إلى الجملة، وتحويل أمنيتها إلى دعاء صلاةٍ. فكيف ستدبّر أمورها إن لم تأت السيارة؟ هل كانت ستأتي كل هذه المسافة من مونزا لو أنها عرفت أنّ العمل الذي رتّبه لها ستيفانو هو أن تكون مدبّرة منزله، وأن تروّض تلك الفتاة المتوحشة؟ لكن ما هذه الأفكار المريعة. فريدة هي زوجة ستيفانو، أو تقريبا زوجته، ولا يجوز لومها لأنها ليست إيطالية.

ما كان عليها أن تقلق، فها هي سيارة يبدو عليها الطابع الرسمي، مع سائق أفريقي يرتدي بدلة رسمية، وطربوشا بشنوارة. إنها فيات 525 سوداء توقفت أمام الدرجات التحتية. فوجدت نفسها الآن تنكمشُ وتتقهقر. ربما لن تذهب بعد كل حساب وتنسحبُ أكثر نحو الرواق. فقد داهمها فجأة إحساسٌ بالخطر كأنها على وشك أن تُختطف. ستدخل إلى الكاتدرائية وتصلّي طلبا للهداية، وعندما تخرج ربما لن تكون السيارة موجودة. هكذا سينتهي الأمر.

ينفتحُ باب السيارة الخلفي، وتتبرزُ منه ساقا رجل، ثم يخرجُ الطيار واقفا بثبات فوق الرصيف وفي الشمس الساطعة. لم يكن مرتديا بدلته العسكرية، وإنما كان في ثيابٍ غير رسمية. بدلة بلونٍ باهت مع منديل أبيض في جيب صدر السترة. لقد حضر بشخصه. ها هو الرجلُ الكبير بنفسه. كل هذه الهيمنة الكامنة فيه، والقوة الخالصة المنبعثة منه، ضربت ليليانا مثل موجة عارمة. تشعر الآن بهذا الجذب المغناطيسي نحوه، حيث جرى التغاضي عن الجانب فيها الذي يقول إن وجودها هنا

هو عملية اختيارية. لقد تُرِك هذا المنطقُ خلفها هناك مع قفازيها المتغضنين في مدخل الكاتدرائية، بينما لم تستطع مقاومة نزول الدرجات متجهة نحوه. بدا لها أكبر سنّا تحت الشمس اللاهبة. «عزيزتي،» قال وهو يتلقف كفّها، وينحني لتقبيل ظهر يدها، يقلّبها بين يديه ويحتفظ بها، إنه يتملّكها الآن. وتشعر أنه قد تمّ امتلاكُها بالفعل.

كم أحسّت بالراحة لذلك. ثم يقودها إلى مقعد السيارة الخلفي.

لم يسألها كيف وجدت طرابلس، أو كيف كانت رحلتها. في الحقيقة لم يقل شيئا، وإنما ظلّ يهمهم ويمطرها بتمتمات التودّد. يجلس ملتصقا بها ويستمر في الإمساك بيدها التي يقلّبها بين يديه. ترغبُ في أن تعطي انطباعا بأنها فتاة مسلّية وظريفة، لكن لا شيء في ذهنها بعد، ولا تستطيع التفكير في أي شيء يمكن قوله. لاحظت أن النوافذ الجانبية مغطاة بستائر ورقية تُسحب إلى الأسفل.

يدفع أصابعه بين أصابعها. يدُه غليظة وكبيرة بعظامٍ قوية، وأصابعه تتخلّل أصابعها. وتتساءل عن مكان قفازاتها. كانت من القلق هذا الصباح لتتناول فطورا، ومعدتها تُصدرُ قعقعة، لكنها لحسن الحظ ليست مسموعة فوق صوت المحرك.

«لم أكن متيقّنا من حضورِكِ، لكنني سعيدٌ أنكِ أتيتِ.» يرنو إليها وكأنه يُحبها بالفعل، فيتولّدُ لديها إحساسٌ بأنه يظنها امرأة غيرها.

لم تكن متأكدة من كيفية مخاطبته، وماذا يجب أن تناديه، وما الصفة التي تستخدمها. فهو يكبرها سنّاً. وهو برتبة كولونيل، أو ربما ليفتاننت كولونيل. كما أنهما في الواقع لا يعرفان بعضهما. ولم تملك إلا الاستمرار في الابتسام.

«لديكِ غمازة عندما تبتسمين. هنا تماما.» ويتتبع بظفر خنصره القوس على وجنتها اليمنى. لا تزال يداهما متشابكتين. ينحني إلى الأمام ليقول شيئا للسائق. يعطيه معلوماتٍ ما بلغةٍ لا تفهمها. وتشعر بأثر إصبعه فوق وجنتها، كأنّ هذا ما يجعلها تبتسم. ثم تتساءل أين يذهب بها، وتعرف أنها لا تهتمّ بذلك أبدا، طالما لا يُفلت يدهُ منها.

يستديرون الآن نحو طريق الشط، وهو أحد الشوارع التي سلكتها برفقة أخيها. كانت الألوان من خلال ستائر النوافذ أقل سطوعا.

«حجزتُ لنا غرفة في الغراند هوتيل.» يُخبرها.

الغراند. حيث يسكن الزوجان تودينو. ربما ستتناول معه سلطعون البحر. فقد أخبرتها الكونتيسا من قبل أنّ السلطعون الذي يقدمونه في الغراند شيء لا مثيل له في الروعة. أو ربما ستختار طعاما تعرفُ كيف تتناوله. شيء لا مخالب له، ولا يحتاج إلى أدوات معينة، ومهارات لا تُحسنها بعد.

تتوقف السيارة في مرآب خلف المبنى، فيلتفت نحوها، ويمسك بيدها، ثم يُميلُ وجهها نحو وجهه ويقبّل فمها، يضغط بشفتيه الغليظتين فوق شفتيها، فقد كان يقضم شفتيها كأنه يريد التهام وجهها. وكانت تفوح منه رائحة الجِلد وبلسم

الليمون.

لا تعرف ماذا يجب أن تفعل في هذا الوضع، فتتركُ الأمور تجري على أعنّتها. يبتعد عنها، لكن وجهه لا يزال على بعد سنتيمترٍ واحد منها، ويلعق شفتيه. «طازجة،» يقول كأنما يخاطب نفسه.

يحافظُ على الإمساك بيدها بقوة، وهو يصعد الدرَج الخارجي خلف الفندق. «انتظري هنا، سأحضِر المفتاح.» يتركها في الممر إلى جوار بابٍ مغلق لا بد أنه يقود إلى مطابخ الفندق، لأنها تستطيع سماع طرقعة الأطباق، وأزيز الطبخ، وأن تشم رائحة الثوم، وزيت الزيتون، والزبد، والريحان الطازج. «عفوا، سنيورينا،» تسمع صوت رجلٍ، فتستديرُ قليلا وتتحرك للخلف نحو زاوية عند الدّرج لتسمح له بالمرور. كان يحمل سفرة مملوءة بسلطعونات البحر. التي في الأعلى تلوّح بمخالبها في الهواء، بينما آخر صغير في زاوية السفرة يتعلّق بالحافة ويحاول أن يرفع نفسه، باذلا آخر مجهود يائس للهرب من مصيره المحتوم.

يختفي الرجل داخل المطبخ، وتسمع صوت ضجةِ ترحيب، كأن الطباخين كانوا في انتظار هذه التوصيلة. ثم يخرجُ نادلٌ مرتديا بدلة مخططة وقبعة بيضاء. يحمل سفرة في وسطها صينية فضية بالإضافة إلى وعاءين يحويان مادة قشدية صفراء، وأدوات أكلٍ فضية لامعة، مع مناديل مائدة بيضٍ ملفوفة. كان النادل متجها إلى الناحية الأخرى نحو مقدمة المبنى، ولن يمرّ بجوار ليليانا، بل حتى لم يرها رغم بعده عنها بخطوتين. تخرج إلى الممر من جديد وتشاهده يبتعد، ثم يدخل عبر بابٍ بعيد فتلتقط لمحة من صالة الطعام المغمورة بضوء الشمس، طاولات تغطيها شراشف بيض، وكؤوس لامعة، ومن خلال نافذة مقوّسة ترى بحرا أزرق متلألئا قبل أن ينغلق الباب خلفه. بعد دقيقة يخرج من المطبخ نادلٌ غيره ويسير في الاتجاه نفسه، وما إن يدفع الباب البعيد حتى يعود الأول وسفرته الفارغة تتدلى من أصابعه.

مَعدتها لا تزال تُصدر قرقرة وهي تقف في الممر، مأخوذة بخروج النّدُل وعودتهم، وبالطريقة التي يستديرون بها من باب المطعم في اللحظة الأخيرة، حيث يتكئون عليه، ويدفعونه بظهورهم، ثم عند نقطة معيّنة، يستديرون إلى الصالة خلفهم، كل هذا والسّفرُ متوازنة بين أيديهم. تلاحظُ كيف ينتظرون اللحظة المناسبة عندما يؤدي ثقل أجسامهم على الباب، والضغط المناسب الذي يبذلونه، إلى إحداثِ التأرجح المطلوب، وبعد ذلك تأتي استقامة الجسم، والدوران، ثم اتخاذ المظهر المناسب لمواجهة ما وراء الباب. لكنها تتخيّلُ أنهم يتحكمون في تعبيرات وجوههم أيضا، وربما عند نقطة ما، أي نقطة الاستدارة، التي يتمُّ التركيزُ فيها على كل التغييرات البسيطة. افتكاكُ الظهرِ من الباب، توازنُ السفرة، ورسمُ تعبيرٍ حياديّ على وجوههم، ولكن متكيّف مع الموقف أيضا. هنا يقوى لديها الإحساسُ بأنها خارج الواقع الذي عاشته في رواق الكاتدرائية. فهؤلاء النّدلُ ممثِّلون في عرضٍ ما، وهي تراقبهم أثناء استعدادهم للمشاركة فيه. ثمة أمرٌ آخر أيضا، أكثر ممّا تقوم بمراقبته الآن، وهو يتعلق بالدوران، والتوازن، والنظر إلى الخلف من حيث أتوا. تنظر لوهلة خلفها، وخارج الباب المفتوح الذي دخلا منه إلى موقف السيارات، فترى عربة حمارٍ تقف بجانب الفيات السوداء. وهذا يتعلق أيضا بنظراتها الخاطفة لصالة الطعام المغمورة بنور الشمس عندما ينفتح الباب في كل مرة من قبل النّدل. لاحظت أنّ المطعم بدأ يمتلئ بالناس، الذين لا

بد أنهم دخلوا من واجهة المبنى عبر بابٍ غير مرئيّ لها. على عكس ليليانا والطيار فهؤلاء الأشخاص لم يدخلوا مِن باب الخدمات. فاجأها افتراضُها أنّ الطيار جاء بها من الجهة الخلفية، لأن الازدحام أمام باب الفندق يعيق دخولهما، لكن من الواضح أن ذلك لم يكن السبب. ثم لماذا يحتاج إلى مفتاح؟

مستوعبةً ما يمور في ذهنها، الذي ينحو الآن إلى ما يشبه اليقين حول ما يحدث. ربما لم تُقل كلماتٌ صريحة، لكن بما أبدته من انحلالٍ في روما، وحضورها اليوم، وبالسماح له بأن يتملّكها، وأن يقبّلها في السيارة، فقد وافقت على شيء ما. وتشعرُ الآن بنوع من همسٍ لحوحٍ في أذنيها يخبرها بأنّ وقت التصرّف قد حان.

تنظر إلى الخلف نحو الباب الذي أتيا منه، ثم تدور، وبعزيمة تمرقُ من خلاله. كان السائق مقرفصا بالقرب من الدرجة السفلية، يدخن سيغارة، وقبعته فوق ركبتيه. تترددُ لحظة ثم تنزل الدرج. وتخبر نفسها، ما إن تتخطاه حتى تبدأ في الجري. لكنه ينهض عند اقترابها منه، ويقول شيئا لا يمكنها فهمه. «عليّ المغادرة،» تخبره، وتشيرُ له بأنها يجب أن تعود من حيث أتت. فيقول كلاما لا يمكنها فهمه، ويشير بيديه. من الواضح أنه يسدّ طريقها، وبالتالي تعود مجدّدا إلى المبنى.

تتحرك في الاتجاه الذي يسلكه النُّدل نحو مقدمة المبنى، ربما ستجد الباب الأمامي هناك. ستنزل الدرج، وتعبر الطريق، ثم تسير بمحاذاة طريق الشط حيث يمكن أن تجد المتنزهين هناك. أو ربما ستستدير عند المنعطف الذي قاد فيه أخوها سيارته. إنه في الشارع التالي، أو الذي يليه، وهناك ستجد الدكاكين التجارية. وكلها محالٌّ تجارية إيطالية. ستتوجه هناك وتندسّ في وسط الجمع، ومن هناك ستعثر لها على عربة كاليس تعيدها إلى مصنع التبغ.

تأخذ عدة خطوات مترددة إلى الأمام، فتصل إلى مكان يَفتحُ فيه الممرّ على صالة استقبال. ترى مصعدا في الجانب، وأمامها على طول الممر يمكنها رؤية مدخل الفندق. كان الطيار يقف هناك بجوار المكتب مولياً ظهره لها. يتحدث في هاتف الفندق، وكانت نبرته حادة. سيتعيّنُ عليها المرور بجانبه للوصول إلى الباب الأمامي، لكن ماذا لو استدار؟ حينها تتخلّى عن خطتها، وتقف بجوار باب المطبخ. عندما يعود ستخبره أنها تحب سلطعون البحر. ستقولها بأسلوب سهل وعادي، وسيفهمُ أنها ليست من نوع الفتيات اللاتي يمكن أن يأخذهن إلى غرفةٍ خاصة. ستتحدث معه كأنها ليست على علمٍ بنواياه، لكن لا يمكنها التظاهر بأنها لا تعرف، على الأقل ليس لنفسها، وليس بعد تلك القبلةِ التي كانت حميمية، كأنه يريد افتراسها. كان تصرفا حيوانيا من جانبه. وتعجّبت ماذا كان يعني عندما قال عنها (طازجة). تتحرك نحو الباب الخلفي من جديد، وتفكر أنّ السائق لا يمكن أنه قصد منعها من المغادرة، وأنه ربما غادر مكانه الآن. لكنه لا يزال هناك، وأيضا ليس بمفرده. كان محاطا بمجموعة من الرجال المقرفصين في دائرة، والجالسين على مقاعد واطية. كانوا قد أشعلوا نارا، ويبدو أنهم يعدّون الشاي، لكن لا يدور بينهم أيّ حديث. كذلك لم تر في المكان أيّ أوروبيين. الأمرُ معقدٌ إذن، وأكثر من قدرتها على السير وتجاوزهم.

لا تعرف ليليانا إلاّ القليل عن أوغو مونتيللو، سوى أنه شخصٌ مهمّ، وتعرفُ كذلك أنها متشوّقة لعودته بقدر خوفها منها. تعودُ إلى المكان الذي تركها فيه، وبعد لحظات يعودُ هو. لقد انتهت الاستراحة الوجيزة، وترى الاحتقان باديا على

وجهه. «أعتذرُ، فقد حدث بعض الإرباك.» قال ممسكا بيدها من جديد، ثم قادها أعلى الدرج الخشبي، الذي تعرف أنه لا بد أن يكون المخصص للخدمة وللاستخدام من قبل العاملين. الآن صارت قبضته على يدها أشدّ قوة، وكأنّ الارباك الذي أشار له، مهما يكن، جعله أكثر إصراراً على نيل ما يريد. أو ربما يعرف أنها كانت تفكر في الهرب.

بداخلها، لا تزال هناك ذرّة من اعتقاد بحسن النّية، فتتخيلهما جالسين إلى طاولة صغيرة في شرفة الغرفة. بعد كل شيء، لا يزال وقت تناول الغداء.

يفتح الباب دون أن يُفلت يدها، يقودها إلى الداخل ويأخذها معه عبر الغرفة إلى النافذة، وبيده الحرّة يُمسك بحبل الستارة. «طعامُ البحر مناسبٌ لكِ؟ طلبتُ منهم أن يُحضروا شيئا منه.» تنطلق منها ضحكة أشبه بصيحة، عبّرت بها عن خليطٍ من الارتياح والإحساس بالخجل لما كانت تفكر به، وعن شكوكها غير المبرّرة. «ما الذي يضحككِ، أيتها الصغيرة الضحوكة؟ ألا تحبّين طعام البحر؟» ويُسدل الستارة، فتختفي الشمس، والبحر، والسماء. ثم بدون انتظار جواب منها يُطبق عليها، بينما تستمر في الضحك في مواجهة فمه. يضع يديه على كتفيها ويمسك بهما، بإمكانها الإحساس بلهفة أصابعه فوق جلد ذراعيها، ثم من جديد يضغط بفمه المكتنز على فمها. وتنزلق إحدى يديه وراء ظهرها لتصل إلى وسط خصرها ويشدّ عليه. يضغط عليها، ويدفعها، ليس بيديه فقط، وإنما بكامل جسمه، تتراجعُ بضع خطوات إلى الوراء حتى تشعر بملامسة ربلتي ساقيها للسرير، فتسقط خلفها بهدوء، ويرتمي هو فوقها. يرفع فمه عن فمها ويدسّ وجهه في عنقها، ثم يحني ظهره ليتمكن من رفع تنورتها، ثم يُنزل لباسها الداخلي، وطوال هذا الوقت كانت يده منبسطة فوق وسطها لتثبيتها، ومنعها من الحركة، وأيضا تتحرك اليدُ فوق بطنها، وتقرصُ جلد خصرها. ظلت أصابعه تُفتشها، أصابعهُ الخشنة مقابل نعومتها، وظلّ يتحدث طوال الوقت، وهو يحاول نزع ملابسه، ثم تشعر باختراقٍ ما لجسمها، كلُّ هذا يحدثُ بسرعة لا تعرف معها ما تفعل. «يا راقصتي الصغيرة الحبّوبة،» يقول لها. فتصيح «لا.»، لكنه لا يسمعها، لأنه يُخبرها عن ماذا كان يودّ أن يفعل بها عندما رآها على حلبة الرقص في روما، وأنه كان يعرف طبيعتها، وأنهما يلائمان بعضهما البعض.

لكنهما ليسا كذلك، ليسا بمثل هذه البداية. تصرخ من شدة الألم، الذي لا يُطاق.

«لم أكن أعرف.. لم أكن أعرف،» وينظر إليها في اندهاش، «شكرا لكِ. سأحاول أن أكون حذرا، وأن أتلطّف بكِ»

لا تعرف في الحقيقة معنىً لكلامه. فما يجري لها لا علاقة له باللطف. إنه ساخن، ودمويّ، ومبلل. وهو يحرق جسدها مثل نارٍ مشتعلة. «لا،» تقول من جديد، لكن نبرتها أكثر وهناً الآن، فقد فات أوانُ جعله يتوقف.

فوق التلال

مادة: صورة فوتوغرافية مقتطعة من صحيفة للكولونيل أوغو مونتيللو، يجلس في قمرة قيادة طائرة كابروني/ كا 37.

في تباشير الفجر الأولى، حين لم تتلاش النجوم بالكامل، وقبل أن يصير اشتعال الشمس مبهرا للعيون، يُنزِل الطيّار نظارات الحماية فوق عينيه، ويعدّل الرباط الجلدي ليُحكِم شدّه حول رأسه، ثم يرتفع بطائرته في الجوّ شديد الإشراق. ومع تحوّل صوت المحرك إلى ضجيج هادئ منتظم، يسمعُ الآخرين ينتشرون خلفه. ثمانيتهم يطيرون في تشكيل زاوية منفرجة. كل طائرٍ يعتبرُ جزءا من طائر أكبر، وهو في المقدمة يمثل الرأس. إنه المنقار الحاد.

في البداية يطيرون محاذين للساحل، محتفظين بتلألؤ البحر، وخليج السدرة إلى شمالهم. وعندما يرى أمامه مدفع قلعة النوفلية، يتحوّل مباشرة إلى اليمين فوق اليابسة، ثم يتجه جنوبا. كان الجيش على الأرض يضيّق الخناق على قبيلة المغاربة المثيرة للمتاعب من مضاربها ومناطق تجمّعها في الواحات. وكانت المهمّة المكلف بها الطيارون هي تعقّب من تمكن من الفرار من الثائرين.

لم تتوفّر لدي قائد السرب خريطةٌ مطبوعة مناسبة، وهذا المكان الذي يتجهون نحوه يُعدّ منطقة غير معروفة لهم من قبل. لكن ما إن ينجزوا مهمتهم، ويُخضِعون المنطقة لسيطرتهم، حتى يأتي الرجالُ، والخبراء، والمسّاحون، ورسامو الخرائط. أي يدخل كلّ الاختصاصيين لتحديد كل شيء على الأرض، يرسمون الخطوط، ويقيسون المسافات، يُعطون أسماءً لمجاري الأودية، ولكلّ مرتفع أو هضبة. سيضعون الخرائط للزمن القادم الأكثر تحضّرا. لكن ليس الآن، ليس بعد.

في جميع الأحوال، يقول لنفسه، وهو ينظر إلى المخطّط المرسوم باليد الذي فرَدَه فوق لوحة القيادة، فهو يفضّل هذه الطريقة، وأن يقوم بذلك الآن، وأن يكون الطرف الفجّ من القوة التي تنشر الحضارة والمدنيّة، بدون خريطة، لكن بأسلحته وبما يملكه من فهم. هنا حيثُ يريد أن يكون.

يحلّقون فوق الصحراء الشاسعة التي لا ملامح لها. ينظرُ ثانية إلى قصاصة الورق، يقارن العلامات المدونة بالقلم مع ما يراه تحته. هذا الخلاء التي تنعدم فيه الألوان، والمرقّط أحيانا ببعض الأجمات. لا بد أنّ تحفظ هذه العلامات في رأسِك، خطّ الشاطئ في الخلف، والمنطقة الخالية في الأمام، بالطريقة التي وصف فيها ذلك البدويّ المنطقة له ودلّه على تفاصيلها، والذي كان يتحدث ويحرّك يديه بأصابعهما العظميّة الطويلة ليبيّنَ له كيف يتصلُ شيءٌ ما بغيره، هناك هضبةُ الحصى،

والتلالُ الرملية التي يجب عبورها، ثم أثرُ نهرٍ جاف، يسمّونه الوادي، الذي يجب أن يتتبع خط مروره. هناك حيلةُ للاحتفاظ بكل هذه المعلومات في رأسِك، أي التفاصيل، وذلك القوس الهائل. تقوّسُ الكرة الأرضية عند خط الأفق، وآثار قدمي طفل في الرمال.

الموقع الذي يسعون إليه ليس مكان تجمّعٍ سكني. فليست هناك أبنية، أو مكان تخييمٍ دائم هناك. ومع ذلك، فهذا مهمّ، حتى مع عدم رسمِهِ على الخرائط، لوجود الكثير من مصادر الماء، وأماكن رعي الماشية، وهي تمثّل مصدر حياة للعدوّ الظمآن، وللعائلات الفارّة نحو واحة زلّة إلى الجنوب، تضع كل ثقتها في الصحراء وفي الابتعاد قدر الإمكان.

من تحته رأى الصخور المبعثرة، بعضُها في حجم البيوت. ومن هذا القُرب قد يبدو سطح القمر بهذا الشكل. إذنْ، هذا ليس بالموقع المناسب لهبوط اضطراري، فهو لا يرى أيّ مكان مستوٍ مناسب للهبوط. يقعُ نظره على الوادي، الذي ليس في الحقيقة سوى أخدود. يهبطُ إلى ارتفاع أقل، ويمسح العرق عن جبينه بظهر يده. عندما تطير أحيانا على هذا الارتفاع ترى مخلوقات صغيرة تهرب مذعورة، وهي الجرابيع التي تختبئ في جحورها عند الاقتراب منها. والأفضلُ منها قطعان الغزلان التي ترعى في أنحاء منطقة سرت الكبرى. من الصعب رؤية كيف يمكنها البقاء على أقلّ القليل من الطعام المتوفّر، والنباتات الضئيلة الشحيحة، لكنها رغم ذلك تنجح في البقاء.

في الغالب، لا ترى كثيرا من الغزلان في هذه المنطقة، فأنت لا تشاهد سوى ظلّ طائرتك الذي يدكّن الأرض من تحتك.

يبحثُ عن مكان تنحدر فيه الأرض نحو غورٍ شاسع، وقد اعتادت عيناه على رؤية المساحات العشبية، لكنه لا يشاهد أي اخضرار على امتداد البصر، فيرتفع أكثر، يطيرُ في دوائر، ويقتفي الآخرون أثره.

إن استمرّ في اتجاهه هذا سيصل إلى النتوءات الحادة لصخور البازلت البركانية في محيط الحقل البركاني لجبال الهاروج، وعندها سيعرفُ أنه ذهب أبعد ممّا يجب. سيكون عليهم الدوران والعودة فلا وجود لقلعة عسكرية، أو محطة تزودٍ بالوقود في هذه الأنحاء. لكن لا يوجد ما يكفي هنا ليلفت النظر، لا علامة أرضية يُمكِن الاهتداء بها في هذا الفضاء المضجِر، فالتفاصيل المهمة تغيب عنه. ليس هناك سوى قفرٌ شاحب لسهوب الصحراء، يدعو إلى الحزن.

وعند ذلك رآه: ليس أخضر اللون، وإنما فضّيا. بطرف عينه اليسرى رأى ومضة فضّية وحركة لهيئةٍ بيضاء، فيديرُ الطائرة نحوها، وينخفض أكثر نحو تجمّع من أجماتٍ بلون بنّيّ باهت. إنه الآن على ارتفاع أمتار قليلة عن الأرض، وقد اختفى الوميض الفضي، لكن هناك شيء غيره.

آثارٌ فوق الرمال، يتتبعها بينما السبعة الآخرون ينتشرون حوله وخلفه. ثم في لحظة اكتشافٍ رائعة يجدون أنفسهم فوقهم تماما. تجمّع من الناس والحيوانات مثل عشّ نمل هائج، نساءٌ وأطفال ينكمشون حول بعضهم البعض من الخوف، ورضّعٌ يبتعدون عن أمهاتهم فيسْحبنهم إلى جوارهن. أطفالٌ يلوّث المخاط أنوفهم ويغطي الذباب عيونهم، وإبلٍ تقضم

حزيمات من عشبٍ مغطى بالغبار، وعنزٌ ما تحاول التقاط شيء تأكله. كان الجيش قد قضى على معظم ما يمتلكه المغاربة من ماعز وضأن، وبدونها حَرمهم من سُبل الحياة.

هناك عدد قليل من الرجال المسنّين وعرف ذلك من الطريقة التي يقفون بها. لا بدّ أن المقاتلين قد سبقوهم. ورأى تلك الطريقة التي ينظرون بها فوق ويلوّحون بقبضاتهم، بغباء وبلا معنى، يلوّحون بقبضاتهم في الهواء. يسحب أوغو طائرته ويرتفع إلى علوّ أكثر نحو زرقة السماء الهائلة، لا يسمع شيئا سوى ضجيج المحركات. يستقر لحظة ثم يعطي الإشارة. واحدٌ بعد آخر يحلّقون فوق ذلك الجمع ويرمون حمولاتهم. بوووم. يقوم بالدوران، منتظراً انقشاع الغبار ومحلقا في الأعالي مع الصقور ومع طيور غيرها. ثم يحلّق عائدا مرة بعد أخرى إلى أن تتكوّن هناك حفرةٌ بدلا من انحدار طبيعي كانت عليه من قبل. حفرةٌ مملوءة بعظام وخرق.

عندما لم تتبق أيّ مخلوقات على قيد الحياة، يقومون بصنع حفرٍ بقنابلهم في التراب، فيرسلون سحبا من الغبار في الجو. هم ليسوا إلاّ جزءا من قوى الطبيعة، وهم يخلقون وراءهم عواصف رملية.

بينما هم يستديرون بعد إنجاز المهمة، يرى ذلك الوميض الفضي مجدّدا، ويرى انعكاس الشمس فوق المعدن. يقوم باستدارة أخرى لكنّ سحابة الغبار فقط هي التي تتحرك. قد تكون إحدى خدع الضوء، ومع ذلك يشير إلى رفاقه الطيارين بالاستمرار في الابتعاد، بينما ينخفض هو أكثر، وعيناه تمسحان الأرض القفر التي لا ملامح لها.

فجأة يظهر له فارس، وقد تخلّى عن غطائه الذي كان يختبئ فيه، مع أنه لا يوجد مكان ملائم يمكن اتخاذه كغطاء، هناك فقط تلك الأجمات الهزيلة التي مرّوا بها من قبل. كم هم مخادعون ثوّار الصحراء، فهم يختبئون حيث لا توجد أماكن يمكن الاختباء فيها.

لا بد أنّ الفارس أغمد سيفه العقيم للتوّ. لا بد أنه راقب الدمار الذي حدث. والآن بدأ يعدو بجواده. بينما كان عليه الانتظار حتى مغادرة الطائرة.

لا يزال لدى الطيار قنبلتان بعد أن أسقط كل ذخائره. يمد يده اليسرى نحو المدفع الرشاش، بينما الفارس يعدو بسرعة قصوى وثيابه البيضاء تطير حوله وخلفه. ارفع بصرك. انظر إليّ. انظر إلى وجهي.

الطيار يريدُ أن يعرف الرجلُ أنه بدون الوميض الفضي لسيفه، ربما ما كانوا ليعثروا على التجمّع. شكرا، يقول الطيار قبل أن يطلق النار.

ماري والملائكة

مادة: سبحة بخرزٍ أزرق، وصليب فضي.

يُنزِل السائقُ ليليانا حيث أركبها من قبل، أمام الكاتدرائية، كأنها تسكنُ هناك، ولا يعرف ماذا يجب أن يفعل غير ذلك. فتصعدُ الدّرج بوهن وتدخل إلى الكنيسة.

تقف في الخلف، عند منتصف صفّ من الكنيسة الواسعة الخالية من البشر. وتُغلق عينيها في انتظار مصيبة تحلّ بها. «خُذني، يا إلهي،» تقول همساً بعد برهةٍ لم يحدث لها فيها شيء، ربما سيستغرق الأمر وقتا أطول، وربما خلال ثانية. فتفتح عينيها من جديد، وتنظر حولها، المذبحُ البعيد عنها، والأعمدة الصلدة المحزّمة، وصفوف المقاعد الخالية، والخشب الداكن حيث يركع المصلون. يقع بصرها على قفازها المغضّن المرمي فوق مقعدٍ في الصف الخلفي، فتختطفه وتضغطه فوق أنفها الذي يلتقط أثر رائحة عطر الخزامى من الغصينات التي لفّتها أمّها بين ثيابها عندما حزمت لها أمتعتها. تصعد صرخة في حنجرتها، فتضغط على فمها بالقفاز وتبقيه هناك لإسكاتها. الصوت الذي يخرج منها الآن، والذي تسحبه من أعماقها، بدا لها مثل أنّات بقرة جريحة.

لا أحد يأتي إليها ليتبيّن ما بها، ليؤنبها، أو يطمئنها، أو يواسيها، أو ربما يخبرها أن الكنيسة ليست مكانا لمثل هذا التصرف. لا يوجد كاهنٌ، أو راهبة، أو منسّق زهور، أو منظف ممرّات لإعادتها إلى ما يقتضيه المكان من لياقة، وإرجاعها إلى وقتٍ عندما لم تكن تعرف ذلك الوحش الشهوانيّ الذي بداخلها. تضعُ يدها على بطنها، تحت، حيث ضغطت يدُ الكولونيل في وقت مبكّر، وحيث تحسّ الآن، بداخلها بثقلٍ شديد، وألمٍ نابضٍ ينتابها، فتنتشر ضوضاء حادة حول كيانها.

بعد فترة تهدأ الضوضاء، ولم يسمعها أحد. فتستوي في جلستها.

لم يصعقها الربّ، فلم تسمعْ أو تلحظ شيئا. ولن تجد مواساة أو تأنيباً لها في هذه الكنيسة. خطر لها أنّ الكنيسة حديثة العهد. ربما لم تُعتمد حتى الآن، وبالتالي ليست كنيسة رسميّة بعد، فتمسحُ عينيها النديّتين وأنفها السائل بالقفاز الذي طاله التلف الآن، وأصبح عصيّا على الرجوع إلى حالته الأولى.

تسوّي قبعتها، وتسحبها إلى الأمام بحيث تغطّي جانبا من وجهها، ثم تستدير وتسير ببطء خارج الكاتدرائية وتهبط الدرجات كأنها في حلم. تقف بجانبها عربة كاليس مغطاة. لقد نسيت اسم ذلك الباب في المدينة والقريب من بيت ستيفانو، في جميع الأحوال لن تذهب هناك، فكيف يمكنها مواجهة الفتاة فريدة؟ التي ستلقي عليها نظرة واحدة بعينيها

الياقوتيتين الصافيتين، وعندها تعرفُ كل شيء. تتذكّر ليليانا فقط الآثار الشهيرة، فتذكرُ للسائس قوس ماركوس أوريليوس، وتصعد إلى الداخل. فهي تعرف أنّ المكان يقع في الحافة الشمالية للمدينة القديمة.

تلقي نظرة تائهة إلى الخارج أثناء مرورهم بالطرق التي عبّدتها إيطاليا، وراء القلعة وبعد برج الساعة. تسيرُ العربة قليلا بجوار البحر، وقبل أن تصل إلى مبنى الجمارك، تأخذ دورة حادة إلى شارع ضيّق، وتجد نفسها بجوار قوس روماني أثري تَجري صيانته. تهبط وتدفع للسائق أجرتَه. رأت الناس يتجولون في المكان، ولأنها لم ترغب في لفت الأنظار إليها بما يبدو عليها من جهلٍ بالمكان، تشقّ طريقها إلى جانب مسجد ضخم له مئذنة يعلو قمتها اللون الأخضر. تشعر بمتعة أن تضلّ طريقها في متاهة الأزقة الضيقة. ستتعمقُ أكثر وأكثر في هذه المتاهة إلى أن تبتلعها لأنها خاطئة. هي امرأةٌ وضيعة، ولن تعود أدراجها. هي ليست ميّتة، لكنها أنهت حياتها بالفعل. لقد انقلبت على أنفسِ ما تملك، كائنا ما يكون، وقتلته. تحثّ الخطى بلا وعي، متتبعة دوران وانعطافات الأزقة الضيقة، مارّة بمسجد آخر كان رجالٌ في ثياب بيض يدخلون إليه، وتستدير عند المنعطفات كأنها تعرف طريقها، لكنها تحتفظ برأسها مطأطأً. تدلفُ إلى زقاق يشبه النفق حيث المباني على الجانبين لها دعامات تلتقي في الأعلى، فترحّب بطمس أشعة الشمس وزرقة السماء. إنها تتجه الآن نحو الغموض.

ولكن فجأة ينفتحُ الشارع على ميدان، ويظهر ذلك الضوء الساطع القاسي من جديد، ثم تجد أمامها وبصورة غير متوقعة، كنيسة أخرى.

تتأملها. كنيسةٌ بسيطة مطلية باللون الأبيض، لها برج للجرس، وساعةٌ تبيّن أنّ الوقت هو الرابعة بعد الظهر. هناك لوحة إعلانات على يمين المدخل، فتتقدم نحوها لقراءتها. إنها كنيسة سانتا ماريا دللي أنجلي، وثمّة قداسٌ سيقام عند الخامسة والنصف. تفكّر أنها قريبة منها، وقد تكون هذه علامة من السماء.

تدخل إلى مكان دافئ قليل الإضاءة وتستقبلها رائحةُ البخور، وصلادةُ الخشب والحجارة، وتمتماتُ المصلين. هذه كنيسةٌ بالفعل، وليست خشبة مسرح في صورة كاتدرائية، وبالتالي ستكون مكاناً أكثر ملائمة ليصعقها الربّ فيها، ومع ذلك تشعر الآن أنه لن يفعلها. لا بدّ أن له تدبيرا مخالفا لاعتقادها. تغطس يدها في الماء المقدس، تبارك نفسها، وتتحرك بهدوء إلى الأمام في الممر الأوسط. تلاحظ مجموعة نساء يركعن عند المصلّى الجانبي، يردّدن الصلاة بصوت موحّد. حيث تردد إحداهن النصف الأول، وتلتقط الأخريات النصف الثاني من الترنيمة في توافق مع البداية.

تجثو ليليانا في الصحن أمام المذبح العالي، وتُغمض عينيها، ثم تشارك في الصلاة المقامة فتتمتمُ مع الأخريات يا ماري المقدسة، يا أم الرّب، صلّ من أجلنا نحن الخطاة الآن، وحتى يحينُ أجلُنا. كانت الكلمات محفورة في لا وعيها منذ صغرها وظلت ترددها بدون تفكير. كانت الكلمات تخرج منها وتحوم حولها، وهي مستغرقة تماما في الترنيمات التي كانت مسكّنة لروحها مثل تيّار مياهٍ لطيف. الأفكار تخرج إلى السطح ثم تطفو مبتعدة. بلا شك إنها امرأةٌ زانية. وهي تجثو الآن في كنيسة مريم العذراء، بينما هي نفسها لم تعد عذراء. ولم يصعقها الرّب بعد. يأتي شخصٌ ويجثو في الصف نفسه، فترفع نظرها لترى رجلا بهيئة وقورة يومئ لها مرحّبا، فتفكر في نفسها، ألا يبدو على وجهي ما اقترفت من ذنب؟ ألا يمكنك معرفة ذلك؟

تشارك في الغناء من جديد وتفكر، أوغو مونتيللو رجل متزوج، وزوجته تعيش مع أطفالها في روما، وربما تكون مسنّة مثله، ربما سيجدُ سببا ما ليسلوها لصالح ليليانا. وحتى ذلك الوقت ستكون خليلتَه، وعشيقته، ستكون محظيته. إنها امرأة آثمة، ولا يجب أبداً أن تخطر ببالها مثل هذه الأفكار. وأنْ تفكر فيها داخل الكنيسة هو أسوأ ما في الأمر. تردّدُ اغفر لي خطاياي، ونجّني من الشرّ. فلن يقبل بها أحد بعد الآن. لكن لا بأس بهذا، فهي لا تريد أحدا غيره. ترغبه هو فقط. إنها تهيم به حبّا. لقد خدعها، وأفقدها عذريتها. ومع ذلك ذهبت معه بمحض إرادتها. لكن هل ذلك صحيح؟ هل كان هناك عنف؟ كلا لم يمارس معها أي عنف. ولن يمتلكها أحد غيره بعد الآن. هذه هي الحقيقة. لو يعرف أخوها أو والداها بفعلتها، فهل سينبذونها؟ منذ نصف ساعة فقط، كانت تريد نبذَ نفسها، لكن قدميها قادتاها إلى هذه الكنيسة. بالتأكيد لن ينبذها أخوها الحبيب، الذي دائما ما ينظر إلى تلك الفتاة المتوحشة بالطريقة نفسها التي نظر بها الطيار إليها. نعم يبدو أوغو مسنّا، ويكاد يكون مثل أبيها، رغم أنه يصغره بكثير. تستمر في الغناء مهمهمة، لتقّدس ثمرة رحِمِكِ، يسوع. لقد أكدّ لها الطيار أن رحمها لن يحمل أية ثمرة، فقد أخذ احتياطه الضروري. في المرة الأولى انسحب، وفي الثانية ارتدى واقيا من جلود الحيوانات. لقد رأته يلمعُ فيما بعد، وعليه أثرٌ من دمها. بالكاد تصدّق الأمر، لو أن الإثباتات لم تكن هناك في جسدها، جسدها الموجوع، وفي ساقيها اللتين تؤلمانها، ونبض قلبها المتسارع، وذكرى ذلك الدم، وما كان يتلفظ به من كلمات التحبّب: لقد ناداها براقصتي الصغيرة، وقطعتي المحببة الشهية.

منعُ الحمل محرّمٌ من الكنيسة ومن الدولة كذلك، وقال موسيليني في ذلك: من ليس أباً، ليسَ من الرجال في شيء. لكن أوغو أبٌ بالفعل. وأطفاله الثلاثة موجودون مع أمهم في روما.

مع استمرار ترديدها لترنيمة الصلاة، ترفعُ بصرها وتنظر إلى اللوحة المعلقة فوق المذبح التي تُظهر العذراء مريم مرتدية فستانا بلونٍ أزرق غامق وأحمر قان، تحمل الرضيع يسوع، كما تحيط بها ملائكة يعزفون على آلات موسيقية. كان ينبعث منها نوعٌ من إشعاع متوهج، وفي الخلفية تظهر طرابلس كما يبدو أنها كانت عليه في القرن الماضي.

مريم العذراء هنا مع ليليانا في طرابلس. لقد كانت هنا منتظرة بالفعل، وعثرت عليها، أو أنّ مريم هي من عثرت عليها.

عندما توقّف الإنشاد، أحنت ليليانا رأسها من جديد، كأنها منخرطة بالكامل في الصلاة، إلى أن تفرّقت بقية النساء. ثم نهضت، وتحركت نحو خلفية الكنيسة انتظارا لبدء القداس.

بدلا من إلقاء الموعظة المعتادة، يقرأ عليهم الكاهن رسالة بعث بها قداسة البابا بيوس الحادي عشر إلى كافة الكنائس لإعلامهم عن معاهدة (لاتيران) التي وقعتها الكنيسة مع الحكومة الفاشية في فبراير الماضي. ويبلغهم الكاهن أنه وفقا لبنود الاتفاقية فقد تمّ الإقرار بأنّ الكاثوليكية هي الدين الوحيد لدولة إيطاليا، وأنّ مدينة الفاتيكان أصبحت دولة مستقلة، والبابا هو حاكمها الأعلى. كان للكاهن طريقةٌ في الحديث الذي يخرجُ منه بزفير، مع صوت صفيرٍ يصاحب الكلمات أحيانا، ربما يكون مصدره أنفه المنتفخ. ويضيف الكاهن، أنّ الكنيسة والدولة يسيران الآن يدا بيد، ويتقاسمان الكثير من الأهداف

المشتركة لمحاربة الشيوعية والإلحاد، وليغرسا في الأذهان الحسّ بالواجب، وبالوطنية، والتضحية بالأجساد وبالأرواح من أجل الأمّة الإيطالية النبيلة. ثم طلب من المصلّين أن يتدبّروا ما يعنيه لهم هذا التطوّر الجديد هنا في المستعمرات

إنه يتحدث عن الإيمان، والطاعة، والحماسة، وعن كيف أنّ القيم الروحية للفاشية تأتي في مقامٍ أعلى من خصوصية الثقافة الليبرالية التي تسعى إلى مصالحها الشخصية، ويتحدثُ أيضا عن القيام بقفزة إيمانية. هنا أعادت كل الأفكار المتناقضة التي خطرت ببال ليليانا ترتيبَ نفسها في سياقٍ جديد، مثل خلط أوراق اللعب وتوزيعها.

إنّ أوغو مونتيللو شخص مهمٌّ ذو مرتبة عالية في النظام الفاشستي. وقد وقع اختياره عليها. إذنْ فهي منتقاةٌ من بين كثيرين لخدمة الأمّة، وها هي الكنيسة تدعوها أيضا إلى التضحية. لقد ضحّت ببراءتها وعذريتها. وبالتالي فليليانا كاتانيو امرأة مهمّة، ليس في شخصها، ولكن كجزء من كلٍّ أعظم. وهكذا ليس مهمّا ما سيأتي لاحقا. فأوغو رجلٌ بعيد عن عائلته، يقوم بواجب نشر الحضارة نيابة عن الأمّة، وواجبها أن تقدم له المساعدة. لقد اختِيرت كمساعدة له. قد تكون التطبيقات العملية لمهمتها صادمة، حيوانية، ومُدنّسة للخصوصية، لكن الغاية تبرر الوسيلة.

رأت أن هذه التبريرات التي تحاول تسويقها لنفسها ملتوية إلى حدّ ما حتى أنها وجدت صعوبة في التشبث بها، لكن في النهاية تصلُ كلّها إلى نوع من الضوابط التي تسير على هدْيها. فالكنيسة الكاثوليكية والحزب الفاشستي أصدرا إعلانا وميثاقا. وهما متلازمان بشكل معقّد، وهناك تواصلٌ مبهمٌ بينهما، بحيث يصبح كلّ ما يخدم أحدهما يخدم الآخر أيضا. أما مصيرُها هي فهو مصير بلدها أيضا؛ فهي بمثابة مجندةٍ في حملتها العامة، وقد اختيرت لهذا الدور. إذن ليس هذا بوقتٍ يتزعزع فيها إيمانها. لقد نودي عليها للتضحية بنفسها من أجل المنفعة الأكبر، وأن تقدّم نفسها قربانا في هذا المجال.

إنه قدرُها، ولا بد أن ترحّب به.

عندما انتهى القدّاس، وقف الكاهن عند باب الخروج لتحية المصلين والحديث إليهم. كان جانبٌ منها يريد تجاوزه مطأطة الرأس، لكن عوضا عن ذلك تنظر في عينيه وتقول، شكرا يا أبتِ لقد نوّرتْني هذه الموعظة، وهي التي لم يسبق لها من قبل الحديث إلى أي كاهنٍ بهذا الأسلوب، أيْ مثل امرأة راشدةٍ ما. فيبتسم لها بطريقته الكهنوتية، يمعنُ النظر فيها، ولا يرى فيها ملامح امرأة فاسقة. إنه الأب بيدري فرانسيسكو الذي رحّب بها في أبرشيته.

متسلّحة بالشجاعة، ترتدي هيئة فتاة جريئة، وتدير ظهرها إلى الزقاق القريب من الكنيس اليهودي، حيث يقيم أخوها. تعرفُ أنها تركت فريدة طوال اليوم بمفردها في البيت، لكن عندما تقابلها لا تُتبادل كلمة بينهما، أو حتى نظرةٍ من الفتاة التي تقول لها، «اذهبي واغسلي أوساخ المدينة عن جلدك، وسأعدّ لكِ الشاي.» كانت تطبخ لهم العشاء، الكسكسي مع لحم الخروف.

تذهب ليليانا وتغسل نفسها. تملأ المغطس بالمياه وتدخل إليه، ثم تجلس هناك تراقب أثر دم أحمر يتخفّف ويتحوّل إلى اللون الزهري. مثلما ينتشر الحبر. ترتدي ثوبا مريحا، وتعلّق فستانها الحريري على الحبل. ثم تخرج إلى الفناء وتساعد فريدة

في إعداد العشاء، وتسأل أثناء ذلك لمعرفة أسماء المكوّنات، طالبة من فريدة أن تعيد وصف مراحل عملية الطبخ، من تحريك، وتقطيع، وبرْم.

نومٌ بلذة الموت

مادة: نسخة صغيرة من ديوان أزهار الشر، للشاعر شارلس بودلير. وكتابة بالحبر على الصفحة الأولى، تقول إن الديوان قُدّم إلى فرديناديو كاتانيو كهدية عام 1884 لمهارته في الخطابة.

جافى النوم عيني ليليانا وشغلت تفكيرها الفتاة سعيدة التي بقيت وحيدة في المستشفى إلى جوار أبيها الغائب عن الوعي. كانت النظرةُ في عيني الفتاة عندما حضرت ليليانا حاملة الطعام تشي بفرح عارم. نعم، عبّرت عن فرحتها الشديدة لرؤية ليليانا، فرحٌ بمعنى «لقد أسعدتِ يومي». لا تتذكر ليليانا آخر مرة نظر إليها أيّ شخص بهذا الشكل. ولا تزال تحتفظ بذلك الشعور الرائع الذي أحدثه فيها. مثل من يتدثر في البرد ببطانية دافئة.

لكنها أيضا لم تستطع إبعاد أبرامو عن أفكارها. ذلك الطفل حديث الولادة الذي ساعدت في خروجه إلى هذه الدنيا، وهو الآن في منتصف العمر، يستلقي متيبّسا وباردا. كم غريبٌ أن تكون شاهدة على مولده وعلى موته أيضا، وألاّ تعرف شيئا عن العقود التي انقضت بين هذين الحدثين، كأنّ حياته اختُطفت في اللحظة التي بدأت فيها تقريبا.

لكنه عاش اثنتين وأربعين سنة، وكلّ ما في الأمر أنها لم تعرفه طوال هذه المدة.

تمرُّ بذهنها صورة جسم المولود الزلق داخل تلك الخيمة المشحونة بالعرق، والدم، والحرارة التي لا تطاق.

تجلس في فراشها وتضيء المصباح الجانبي. هذه الذكرى تملؤها بالأسى، إنْ كانت ذكرى أصلا. لكن أيضا ليس لها محتوىً ملموسا يفيدها، ولا تجيبُ عن أيّ أسئلة. لماذا لم يكن هناك سوى مولودٌ واحد؟ وأين نادية؟ ودمُ من كان الذي رأته؟ وهل مات أحدٌ ما؟

ظلّ حلمٌ ما يراود ليليانا بأنها قاتلة. وأنها قد اقترفت جريمة قتل، وأنها دفنت الجثة تحت الرمال، واستمرت تعيش حياتها في الوقت الذي كان يجب أن تنزل بها عقوبةٌ ما. أحيانا تكون تفاصيل الحلم مقنِعة للغاية. فهي لم تقتل أيّ شخص عابر، بل قتلت وليدها نفسه. عندما يراودها الحلم، تستيقظ هلعة، يملؤها الرعب من نفسها، ويستغرق الأمر وقتا قبل أن تعود لهدوئها. لكنها غير واثقة أن ذلك الحلم المزعج يغادرها إلى الأبد، فهي تشعر بأنها تحمل بقاياه بداخلها، أي تحمل المعرفة بطبيعتها الحقيقية، الكامنة في كيانها.

كانت تتساءلُ أحيانا إن كان المولود ذو العينين بزرقة الياقوت هي نادية، لأنّ عيني نادية زرقاوان. لم تكونا بالزرقة المذهلة التي للطفل الذي يراود حلمها، على الرغم من أنّ لون العينين يبهت. لكن صاحب العينين الياقوتيتين كان طفل ليليانا، ونادية ليست طفلتها. لكن ليليانا ليس لها طفل، ولا يمكنها إنجاب الأطفال.

يا إلهي، تفكّر مُطلقة هذا الدعاء، ثم تُنزل قدميها من الفراش، وتجلس قليلا على الحافة، بالكاد تلمس قدماها الأرض.

تتذكّر عودتها مع فريدة إلى طرابلس، ومعهما الطفلان عند رجوعهما من موطن فريدة في بَرْقة. لقد ظهرت نادية في الصورة آنذاك، وكانت مع أبرامو في قفّةٍ من سعف النخيل. كانت كل منهما تمسك بمقبض القفة وتحملانها بينهما. ليليانا مريضة ولا تزال تشعر بالإنهاك، لكنها في حالٍ أفضل بكثير من الوقت الذي غادرا بَرْقةَ فيه. استأجر ستيفانو لعائلته الجديدة بيتا في غربي وسط المدينة وأقرب على البحر. يمكنك دائما شمّ رائحة البحر من هذا البيت، ورؤيتَه إنْ صعدتَ إلى السطح. كان من عادتِهم الجلوس هناك في الأمسيات، والتحديق في النجوم.

عندما راسلت ستيفانو والعائلة في السنين التي أعقبت مغادرتها ليبيا، قبل أن تذهب لتعيش في إنكلترا، قبل أن يختفوا، وقبل أن يتوقفوا عن الرد على رسائلها، كانت تتصورهم في ذلك البيت المجاور للبحر، جالسين فوق السطح في الأمسيات، مراقبين غروب الشمس، والطفلان يلعبان من حولهما. أحيانا ترى أنه من غير المنصف أن يكون لفريدة طفلان، ولا شيء لها، لكن حينذاك تتذكر أنها لا تستحق أن تكون أمّاً لطفل، فتنسى الأمر وتستمر في حياتها الحالية المعتادة.

لم تتمكن من استعادة وظيفتها في مصنع هينيسمبرغر، ليس لأنها غابت لفترة طويلة، ولكن أيضا لبدء تطبيق تحديداتٍ معينة على أعمال تجارية خاصة، وبالأخص الإستراتيجية منها التي تُنتج قطع الغيار، وتوظفُ الإناث. فكل النساء اللاتي عملت برفقتهن تم تسريحهن باستثناء أرامل الحرب. مع ذلك عثرت على عملٍ في مصنع للقبعات، ووجدت أنّ الفتيات اللائي ترعرعت معهن كبرن الآن وتزوّجن، ولهنّ أطفال. وبالتالي لم تكن لها قواسم مشتركةٌ معهن، وفضّلت الابتعاد عن الجميع. كان سنُّ أبويها المتقدم وحالة العجز عندهما، قد استثناها من ضرورة الانخراط في التجمعات الفاشية، وهي نشاطات تجري بعد انتهاء العمل ينبغي أن يشترك فيها كل المواطنين، وهكذا تمكنت من أن تعيش حياة هادئة. في الواقع، لم تكن تنشد أكثر من ذلك. كانت فاشلة في دورها كوطنيّة إيطالية لأنها لم تتزوج، ولم تنجب أطفالا كما يقتضي واجبها الوطني؛ يبدو أنها أصبحت واحدة من تلك العوانس اللاتي كانت الكونتيسا تتحدث عنهن بامتعاض. من طرابلس

كانت تصلها في مونزا رسالة كلّ شهر، حيث تذهب وتجلس في مقعد بجوار النهر، لتقرأها بإمعان وتتشرّب محتواها، ثم تعود إلى البيت لتجلس أمام الخزانة الجانبية وتأخذ في قراءتها بصوت عال بينما يجلس والداها على الأريكة المشجرة التي لم تعد بحالها السابق، وتظل تخبرهما بما يفعله حفيداهما اللذان لن يتمكنا من رؤيتهما أبدا. تخبرهما عن كيف نطقا الكلمات للمرة الأولى، وعن يومهما الأول في المدرسة، وكيف كان أداء نادية في الرقص عند تمثال الجندي المجهول، وكيف يجيد أبرامو

القراءة بسرعة، وكيف أحبّا الذهاب إلى شاطئ البحر، وتعلّما السباحة في سن الخامسة. لكن بالكاد ذُكرت أيّ صعوبات قد تكون العائلة واجهتها. أحيانا تكون هناك ورقة منفصلة لليليانا، مكتوبة بأسلوب مشفّر تقريبا، ودون منح أسماء حقيقية للناس. وعَبر هذه الرسائل عرفت أنّ صادق، وهو أخٌ لفريدة، قُتل في معارك الجبل الأخضر. ولكن في العموم، فقد قدّم ستيفانو صورة وردية لحياة العائلة هناك، وكيف ينمو الأطفال، ومدى ملائمة سكناهم للحياة. كانت فريدة، أو روزيتا كما يسمّيها ستيفانو في رسائله، بخير وتبعث لها أفضل أمانيها. وحلبة السباق تتطور للأفضل بعد العمل في 1933 بنظام المراهنات لتمويل هذا الحدث. مع حلول منتصف عقد الثلاثينيات عُدّ هذا من أسرع وأغنى سباقات السيارات في العالم، يأتي إليه الناس من أماكن مختلفة. لقد ارتفع نجم أخيها بصورة كبيرة حتى أنه في عام 1935 عندما أقام (إيتالو بالبو) حاكم المستعمرة الليبية الموحدة، حفل استقبالٍ في قصر طرابلس، كان ستيفانو أحد المدعوين. وفي وقت لاحق من ذلك العام سمعت أنّ أوغو ذهب إلى الحبشة للقتال في الحرب الجديدة هناك. وبلا شك سيقصِفُ عدة ألوف من الأبرياء خلال مهمته، ويشارك في الجزء التالي من مغامرة إيطاليا الاستعمارية الشجاعة. لكن مخاوفها من احتمال انتقامه من ستيفانو قد تلاشت.

عندما قرأت تلك الرسائل ووصْفها لحياتهم السعيدة، عرفت أنها كانت محقّة في المغادرة. فهُم في وضعٍ أفضل من وجودها بينهم.

شعرت بألمِ الفراق أكثر في جانبٍ ما من كيانها، وخلفَ أضلعها، كأنها تعرضت لركلة حصانٍ أو بعيرٍ ما، فأصابتها بعاهة مستديمة. لكن يمكنها تحمّل ذلك إن عملت بحرصٍ على عدم مفاقمته. كان للركلةِ علامتها البنفسجية الواضحة التي لوّنت جوفها. وكانت تتسلمُّ الرسائل على الأقل طوال الأعوام السبعة التي قضتها في مونزا، لكن ما قضى عليها هو الصمت الذي هيمن عليها بعد توقف الرسائل، ومهما بدا مظهرها الخارجي، فقد تعرضت لرضّةٍ دامية بداخلها.

تقول لنفسها، هيّا أيتها المرأة المُرضّة. ثم تقفُ وتتجول في أنحاء الشقة، تدسّ رأسها في كل غرفة، تفتح وتغلق الخزانات كأنها دسّت شيئا ما في المكان الخطأ. تنظر إلى غرفة النوم الكبيرة، حيث يمكنها رؤية انعكاس بهرة الضوء المُزرقّ قليلا والقادم من النافذة على مرآة الخزانة الكبيرة، فترى أنّ كل شيء مرتّب وفي مكانه. تتوجه نحو الحمّام وتشعل الضوء، تفتح درج خزانة وتنظر إلى صابون الحلاقة والفرشاة، وإلى أنبوبة معجون أسنان، وتغلقه من جديد، ثم تراقب عنكبوتا ملتصقا بالبلاط، فتطفئ الضوء وتغادر. في المطبخ تأخذ كوبا زجاجيا من الخزانة وتملؤه بماء بارد من الثلاجة.

ترتطم قدماها العاريتان بأرضية الغرفة من خشب الباركيه، ثم تقف في منتصف المسافة بين الطاولة والباب الخارجي. تُنصتُ لكنها لا تسمع شيئا خارج المألوف. ليس لأنها خائفة كما كانت منذ قليل، لكنها متأكدة تماما أنه لا يوجد أحدٌ سواها، ومع ذلك تُمِيل رأسها إلى جانبٍ وتمعن التركيز، فهي تحاول الإنصات إلى شيء لا يمكنها سماعه.

خطر لها أن هذه هي ليلتها الأولى في إيطاليا منذ 1938. فماذا يمكن أن تكون رؤية آلان لها؟ ربما كان سيقول لها كعادته، نورا الغاضبة، يا حبي، ما الذي ورّطتِ نفسك فيه؟

لا يزال اليوم الذي قابلته فيه محفورا في ذاكرتها. فبعد مراسم تشييع أمها، ذهبت للحديث مع الأخت مادّالينا، في ديْر سانتا كلاريس، لاعتقادها أنّ الأمر لم يفت بعد لتتحوّل إلى سلك الرهبنة. كانت في مرحلة بحث عن شيء ما تكرّس نفسها لخدمته بعد أن فارق والداها الحياة. يا لتعاسة روحها الحائرة. وهكذا رأت أن تكريس نفسها لله قد يكون الحلّ المناسب لها. وحتى أوانِ ذلك الحديث الذي خاضته مع الأخت مادالينا، لم تكن تعترف بتخلّيها عن الإيمان. ليس تماما. فهي لا تزال تذهب إلى القدّاس كل يوم أحد، لكنها غادرت الدير تحيط بها غيمةُ قنوط مُظلمة، وفي طريق عودتها إلى البيت توقفت في ميدان ترنتو تريستي، صاعدة درجات تمثال الحرب البرونزي الضخم الذي أقيم أثناء فترة غيابها بطرابلس، ودُشّن رسميا في 1932 وهو العام التالي لعودتها. كانت تحتفظ في جيبها بالرسالة الأخيرة من ستيفانو، لكنها لم تفتحها بعد، فليس باستطاعتها مواجهة الأمر بدون دافع القراءة لأبويها، هذا الدافع الذي غاب عنها، وأيضا لِما كانا يوفّرانه لها من دعمٍ وحماية. عوضا عن ذلك وقفت أمام التمثال وبدأت في قراءة أسماء مواطني مونزا الذي ضحوا بحياتهم، وتساءلت عما يمكن أن تفعله الآن بحياتها هي.

واقفة في ثوبها المسائي في ظلمة ليلة دافئة من شهر مايو في روما، تنتصب قدماها العاريتان الرفيعتان فوق الأرضية الخشبية، ويسري في كيانها حنينٌ لأيامِ ليليانا الصغيرة الخالية. إنها الآن في السابعة والعشرين من عمرها، لكنها رأت أن الزمن قد نال منها، وأنّ حياتها قد ولّت.

سارت إلى النهر بقصد الجلوس تحت الأشجار، ورأت رجلا جالسا في منتصف المقعد الذي اعتادت الجلوس فيه. مقعدُ أحزانها. كان الرجل يتكئ بمرفقيه فوق ركبتيه، ويضع ذقنه بين راحتيه، يبدو أنه منخرطٌ بالكامل بالتفكير في الماء المتدفق أمامه. كانت ستمضي في طريقها وتجتازه لكنه نظر نحوها من خلف عدستين طبيتين مدوّرتين، ودون أن يقول شيئا، تزحزح من مكانه وطبطب على المكان الشاغر بجواره. لم يتعلق الأمر بلطف حركته، رغم أنها كانت وادعة، وإنما بالنداء الذي رأته في ذينيك العينين الزرقاوين بلمسة رمادية. كأنما يقول لها (أرجوك)، فجلست بجواره. واصل تدبّره في مياه النهر، بينما أخرجت هي رسالة ستيفانو، وكالعادة تعلق موضوعها دائما بالسيارات، وكيف أن "الاستعدادات بدأت لانطلاق السباق الكبير الذي من المنتظر أن يسيطر عليه السائقون الألمان بسياراتهم المرسيدس -بنز. وأن الهندسة الألمانية لا يُعلى عليها، بالإضافة إلى ذلك ذكرَ نيْل أبرامو جائزة من المدرسة عن قصة كتَبَها، فهو يقتفي خطى بابا يا للي، لأنه حاذق في استخدام العبارات. أما نادية فتمضي ساعات خارج البيت تنطّ بالحبل، وبإمكانها القيام ببعض الحِيل. ذكر أيضا أنه يفكر في ترك حلبة السباق والانتقال إلى بنغازي، وأن يبدأ فيها مشروعا تجاريا خاصًا به، فالفرصُ جيدة في برقة كما يقول. وأخيرا يخبرها أن فريدة بخير وتبعث لها سلامها، كما أن لديها الآن نولُ نسيجٍ صغير، وأنها بدأت تعمل عليه.

في مرحلة ما أثناء قراءتها للرسالة، نهض الرجلُ الجالس بجانبها وغادر المكان، فشعرت ليليانا بجيشان عواطفها ورغبةٍ في البكاء. لقد عملت خلال السنين السبعة الماضية على كبت مشاعرها وألاّ تسمح لدموعها أن تسيل، فالبكاء الخفيف على أمور صغيرة مسموحٌ به، لكن الأمور الكبيرة يجب أن تظلّ حبيسة في قبوها المظلم الرطب، وعليه وضعت رأسها بين

يديها وهزته يمينا ويسارا في محاولة لكبت عواطفها، لأن الصرخة التي تحاول مغادرة فمها ستكون هائلة تصمّ الآذان. كانت تخشى خروجها لأنها ستطيح بها من فوق ذلك الرّف الصغير الذي عثرت عليه لتستقر فوقه، كما أنّ قبضتها قد بدأت تضعف، وما سيحدث لها هو انجرافٌ كلّي. حينذاك سمعت صوتا بلكنة غريبة، لكنة أجنبية يقول: «محطة القطارات؟» نظرت إلى فوق ورأت الرجل صاحب الشّعر بلون الرمال. قال المزيد، لكنها لم تفهم منه شيئا لأن حديثه كان بالإنكليزية، ورغم غرابة ذلك، إلاّ أنها لم تكن تتحدث الإنكليزية آنذاك. لم تفهم كلماته، لكنها فهمت الإشارات. كانت إيماءاتُه توحي بأنه يشعر بالغباء لأنه ضلّ طريقه، ولاحظت أن هناك شيئا مثيرا، وعطوفا، ومختلفا أيضا في عينيه الرماديتين حتى أنها قفزت واقفة وهي تردد، «أنا ذاهبة في هذه الطريق، سأرشدك.»

هذا الرجل، الذي هو آلان، لم تكن لديه فكرةٌ في تلك اللحظة، أو حتى بعدها، أنه لم ينقذ ليليانا من السقوط فحسب في ذلك الطريق المظلم التي قد لا تخرج منه أبدا، لكنه نجح في جعلها تطفو فوق السطح طوال الواحد وأربعين عاما القادمة. كان مهندسا بريطانيّاً وعضوا في فريق صغير يعمل مع شركة محلية في مشروع لتطوير شبكة السكك الحديدية. كما أنه في إيطاليا طوال خمسة شهور، وفي نهايتها طلب منها أن تتزوجه، فتظاهرت بأنها ستفكر في الأمر، وبعد خمس دقائق أبلغته بموافقتها.

عام 1938 منعت الدولة الإيطالية نظام مادامات‍و، الذي يسمح باتخاذ زوجات من الأهالي في المستعمرات. ورأت الدولة أن هذا النظام سيخِلّ بنقاء العِرق الإيطالي، ويعني أيضا أن ليس بإمكان ستيفانو أن يُحضر فريدة والطفلين إلى إيطاليا حتى لو أراد ذلك.

يا آلان العزيز الرائع، وتساءلت كيف كانت ستكون حياتهما معا لو أنهما رزقا بأولاد. ثم تجتاحها ذكرى أخرى، أي تلك الليلة عندما قررت أن تغويه. كان قد عاد بعد انتهاء الحرب، وكانت علاقتهما جيدة وهادئة، لكنها أرادت أن تحبل بطفل وبدأت تفكر أن ممارستهما الحب كواجب زوجي كل أسبوع والأنوار مطفأة ليس كافيا بشكل ما لحدوث الحمل، وبالتالي المطلوب هو ممارسة الجنس بوتيرة وبنشاط أكثر. لم تكن أبدا منفتحة مع آلان في هذا الشأن، ولم تبادر أبدا في المغازلة، لكنها لم تعرف ماذا ستفعل بنفسها من دون طفل. وهي الآن في الخامسة والثلاثين من عمرها، عليه إمّا الآن وإمّا أبداً. حدّدت ساعة الغواية كي تكون في أوج خصوبتها، ورأت أنه بدا مصدوما من تصرفها، لأنه لم يسبق أن رأى هذا الجانب فيها، فلطالما كانت بسيطة وعادية، لكنه مع ذلك تجاوب معها. اعتادت التفكير فيما يمكن أن يكون عليه طفلهما، وكيف يمكن أن تكون له بشرة باهتة مثل أبيه أكثر ممّا تكون له بشرة قمحيّة مثلها، وعمّا إذا كان سيرث شعرها المجعد أم شعرَ آلان المرسل. بعد ذلك، وفي كل شهر عندما يحين موعد أباضتها كانت تكرّر الغواية، بتنويعات عدّة. داومت على هذا النهج لعامين كاملين. وطوال هذه المدة شكّل ذلك علامة فارقة لعلاقتهما معا. لكن بعد واحدة من تلك اللقاءات الحميمة، تقتنص آلان وهو يرمقها بحذرٍ، كأنه لا يعرفها حقا، وهي الحقيقة بشكل ما، وغالبا ما تساءلت ما الذي حبّبه فيها. بالنسبة لها لم يكن لديها الكثير لتقدمه له، وبالتالي شعرت أنها امرأة باهتة لا قيمة لها.

آلان العزيز المسكين. الذي تعرض للإثارة الجنسية من طرفها بشدة، وتعرض إلى محاولة إخراجه عن نهج استقامته المعتاد، كان هدفا للملاطفة وإثارة الرغبة فيه. لكن لم يفلح شيء من ذلك. وفي النهاية تخلت عن محاولاتها، وشعرت بثقل ذلك عليها، أي أن تتبدد آمالها وتذهب هباءً في نهاية كل شهر. أحسّت في النهاية بارتياحه لهذا التخلي عن المحاولة من جانبها، لكنهما لم يناقشا الأمر أبدا. لا يزالان يمارسان الحبّ، ولم يتوقفا عن ذلك أبدا، لكنهما تحوّلا في علاقتهما إلى نوع من المعاشرة الدافئة اللطيفة.

يا الله، كم أحبّت أن تنجب طفلا!

دائما ما يخطر ببالها ذلك الطفلُ المميّز بشعره الأسود وعينيه الزرقاوين المضيئتين، وعندها ينتشر الأسى في كيانها ويغمرها بشكل كلّيّ، فتقف في الممر محاولةً تجاوزه. ثم ببطء، تصبح واعية بوجودها الماديّ، وبالمكان المحيط بها في تلك اللحظة، وبالفضاء البسيط الذي تحتله منه، والفضاء الكلي الآخر الذي لا تشغله. تشعر بقدميها العاريتين، وتحسُّ بالأرضية الخشبية تحتهما، وبالانحناء البارد للكأس بين راحتيها، وبالطنين الهامس في أذنها اليمنى، وبالألم المعهود في وركها الأيمن، ثم تشعر بدفء الهواء المحيط بوجهها.

تعود مجددا إلى غرفة المعيشة وإلى سريرها. هناك رفٌّ كتب كبير فوق جهاز التلفزيون كانت قد لمحته من قبل، ورأت أنه مملوءٌ بالكتب، وللغرابة فمعظمها بالفرنسية، وهو ما جعلها تتجاهلها. تنظرُ بدقة أكثر الآن فلا ترى إلاّ القليل من كتب التاريخ باللغة الإيطالية، تلتقطُ مجلة من سلّة فوق الجهاز، لترى تحتها كتابا صغيرا بعنوان مألوف.

أزهار الشّر...

هناك عشرات الكتب بالفرنسية في هذه الشقة، ولم تر غرابة في وجودها، لكن مع ذلك، صُدمت عند رؤيتها لهذه النسخة. كأنّ هذا ما تبحث عنه عندما كانت تفتح أبواب الخزانات كلها. تحملُ النسخة التي رأت فوق غلافها صورةً للمؤلف مثل النسخة التي كانت عند أبيها، وتتذكر أنها قالت لأبيها ذات مرة ظنّا منها أنها تمدحه، إنه يشبه بودلير، فردّ بغضب، «تقولين إنها تشبهُ ذلك الداعر المدمن على مخدر الخشخاش، شكرا جزيلا لكِ!»

تأخذ الكتاب معها إلى الفراش. تمسك به وبإبهامها تقلب الصفحات أماما وخلفا، فتلحظُ أنّ أحدهم قد وضع علاماتٍ باللغة العربية بقلم رصاص، وأن هذه الملاحظات وُضعت تاليةً أو قريبة من ملاحظات سابقة بالإيطالية. تُمسك بالكتاب مفتوحا أمامها وتتمعّن في مجموعات الملاحظات باللغتين، ورأت أن العلامات الأخيرة بالعربية التي لم تتمكن من حلّ غموضها، هي في مضمونها تعليقات على القصائد، وأيضا على الملاحظات السابقة التي بهتت الآن لكنها بالكاد تُقرأ.

تعود إلى الصفحة الأولى فترى أنها بالفعل نسخة أبيها، وهي الجائزة التي تلقّاها من المدرسة، حيث وجدت الإهداء المدوّن باللون الأخضر إلى فرناندينو كاتانيو، وعلى الصفحة المقابلة كُتب بخط يد ستيفانو: «إلى أبرامو، لذكرى جدك.

نوفمبر 1938»

تضمّه النسخة إليها بقوة. فهذا كتاب أبيها الذي أرسلته من مونزا إلى ستيفانو في طرابلس، والذي عاد إليها الآن في روما. وتفكر في آخر مرة أمسكت فيها بهذه النسخة بيديها.

* * *

في خريف عام 1938، وفي صباح اليوم الذي ستغادر فيه إلى إنكلترا عندما حزمت صندوق متاعها، ودفعت ما عليها من ديون، وأتمت معاملات شقتها، دقّ جرس الباب، فهرولت ليليانا نازلة الدرج متوقعة أن تجد جارتها التي ستستلم منها المفاتيح، لكنها وجدت بالباب ساعي بريد ومعه طردٌ لها.

الطوابع على الطرد كانت تُحيي ذكرى معرض طرابلس التجاري الدولي فعرفت من أين أتى الطرد، كما تعرّفت على كتابةٍ بخط أخيها على الملصق. أرادت أن ترفض استلام الطرد، وأرادت أن تقول لا، آسفة، لقد غادرت ليليانا كاتانيو، ومن المستحسن أن تعيده.

كان الدافعُ لحظيّا، لكنها لم تستجب له. حملت الطرد إلى الطابق العلوي وكأنّ محتوياته قابلة للكسر، بالرغم من أن بإمكانها معرفة محتواه اللّيّن غير القابل للكسر. ما إن دخلت حتى وضعته تحت النافذة في غرفة المعيشة. ثم أخذت خطوة إلى الوراء وأمعنت النظر فيه. أنهت كل شيء، وقامت بكل الترتيبات، كل ما عليها القيام به هو غلقُ باب الشقة، وتركُ المفتاح عند جارتها، ثم تذهب في الطريق التي تختارها نحو محطة القطارات، حيث ستستقلّ القطار الليليّ. لكنها لا تزال هنا الآن، في مونزا. لقد ولّت حياتها السابقة، ولم تبدأ حياتها الجديدة بعد، ودخلت في منطقة مشتركة بين الحياتين. إنها ارتباطٌ كالحلم، وبقعةٌ حرة لا هي هناك، ولا هي هنا.

لم تكن مستعدة لهذه المقاطعة لخططها، ولم تعرف ما عليها أن تفعل.

فكّرت في الطرد. لا بد أنه هديةٌ من أخيها الذي لم يسبق أن أهداها شيئا من قبل، ولم يبعث لها سوى الرسائل، والبطاقات البريدية، والصور أحيانا. كم قاسٍ أن تتسلم منه رسالة الآن بعد أن غادرت أفكارها إلى مكان آخر، ومن الصعب استعادتها.

تساءلت إن كان عليها ترك الطرد هنا، فلا تفتحه، كأنه وصل متأخرا بعد مغادرتها. لكنها قالت لنفسها، كفّي عن هذه السخافات.

جثت فوق ركبتيها واستندت إلى مؤخرة كعبيها، ثم فتحت المغلّف. لتجد أنّ الشيء الليّن الذي بالداخل كان شالا بلون أزرق غامق مصنوعا من الحرير الدقيق. رفعته بيديها وتركته ينساب بين أصابعها كما قد ينساب الماء. حوى الطرد أيضا رسالة، ورسومات، وصورة فوتوغرافية للعائلة مجتمعة، التُقطت في استوديو فيّا مانزوني بطرابلس كما بيّن العنوان في

الخلف. ورسمت نادية صورة للبناية التي تقع فيها شقتهم والبحر من خلفها، ثم صورة لنفسها وهي تنطّ الحبل كتبت عليها، «إلى عمتي للي» بينما صنع أبرامو طائرة من ورق بأجنحة ملوّنة، وكتب بالأسود على خزان الوقود «طائرة روميو، طراز سي 4» غير دارٍ أنّ عمته من بين كلّ الناس، ستتعرفُ على نوع الطائرة دون حاجة للشرح. في نهاية رسالته التي خصص أخوها أغلبها لوصف سيارة السباق ماسيراتي ذات المحرك المكون من ثماني أسطوانات، سألها إن كان باستطاعتها أن تبعث له تذكارا ما من أبويهما، وصفه «بالأثر المميّز الذي يعني الكثير لبابا وماما.»

تحت النافذة حيث يتكوّم الشال، رأت أثرا مستطيلا أكثر دكنة فوق الأرضية الخشبية حيث كانت تستقرّ الخزانة ذات مرة، كما انتقل بصرُها إلى الأريكة، وإلى الملاءات الممتازة، والسرير الزوجي، ثم إلى السرير النهاري، والطاولة مع كراسيها، والسجادة العجمية، وإلى معدات الطبخ، كل هذا تمّ بيعه في المزاد. حيث جلب طاقم الخزف الصيني بحواشيه المذهبة سعرا جيدا، وكذلك كُتب أبيها التي بيع معظمها لمكتبة تعرض الكتب القديمة. يبدو أن الشاعر المفضل عند أبيها في الماضي غابرييل دانوزو، يحظى هذه الأيام بشعبية ما، ربما لوفاته في العام الماضي. وكانت قد قدّمت أفضل ملابس والديها ومتعلقاتهما الخاصة إلى الراهبات في دير سانت كلير، الذي سيوزعها على المحتاجين، وتم التخلص من كل ما لا يمكن بيعه، أو التبرع به. لم يتبق شيء...

تركت ليليانا رأسها يسقط أمامها فوق الأرض ودفنت وجهها في قماش الشال الذي رأت أنه يحمل أثرا من رائحة ماء الورد والقرفة، وقفزت إلى ذهنها صورة أصابع فريدة وهي تعمل على النول. رفعت رأسها قليلا وأزاحت جسمها جانبا، ثم تركت رأسها يسقط مجددا فوق ألواح الأرضية العارية، وأن تصطدم جبهتها الخشب بقدْرٍ خفيف. ثم رفعت راسها وخبطته مجددا مرتين أخريين. بعد ذلك أراحت نفسها هناك وركزت على أطرافها الراجفة منتظرة أن يختفي الألم.

عندما تمكنت من السيطرة عليه، وقفت على قدميها، ثم جمعت محتويات الطرد والمغلف، وذهبت إلى الصالة حيث يوجد صندوقها جاهزٌ للرحيل. وهناك الحقيبة النهارية حيث تحتفظ بكل حاجياتها اليومية: منامتها، وأدوات النظافة التي تشمل زوجا من قطع الصابون برائحة الخزامى التي ابتاعتها من الصيدلية، ومجموعة من الألبسة الداخلية، وثوبٌ بلون أسود وأزرق تنوي ارتداءه عند وصولها إلى لندن. طوت الشّال ووضعته في حقيبتها النهارية، ثم فتحت الصندوق ورفعت الدرْج الذي بداخله، وأخرجت منه وشاح أمها والكتاب الوحيد الذي احتفظت به من أبيها، قصائد بودلير. في مكانهما وضعت رسالة ستيفانو، والرسومات، والصورة الجديدة. ثم أغلقت الصندوق من جديد وجلست فوقه. بالكتاب والوشاح في حجرها.

لن يتمكن ستيفانو من قراءة بودلير لعدم معرفته الفرنسية، وعلى كلّ فهو غير مغرمٍ بالقراءة خلا المجلات المختصة بالسيارات. لم تعرف ما قد يفعل بوشاح أمها، لكنها لم تجد ما يمكن أن ترسل له غير هذين الشيئين.

كان بودلير أول ديوان شعر يقتنيه أبوها، وأشعَل فيه حبّ الشعر. خلال سنوات منتصف عمره أحبَّ ترديد أشعار ومقتبسات من أقوال «دا أنوزيو» الغامضة والروحية. «قبضةٌ من بخورٍ فوقَ جذوةٍ مشتعلة، إنها عبقُ روحٍ طاهرة» وكان

يردد بغموض أن هذا ما يعنيه الإنسان الحقيقيّ. لكنه تخلّى عن كل هذا، كجانب من وهمٍ أكبر عندما تخلت عنه قناعاته القديمة واحدة تلو الأخرى. لقد فقد الإيمان بالفاشية وبموسوليني. هذه الانتكاسة ربما بدأت مع مغادرة ستيفانو إلى طرابلس في 1925 ومع الأحداث التي أدت إلى ذلك. لا بد أن كل هذا قد تفاقم، فبعد عودة ليليانا إلى الوطن في 1931 فوجئت بمدى نحافة أبيها، وكيف كان مشتت الذهن. وجدت أنه توقف عن الإيمان بمقدرته على تغيير أيّ شيء، وأن لا شأن له بكل ذلك وكأنه لا يعنيه. بل حتى أنه توقف عن تحدي مقولات زوجته الغيْبيّة، كأن تقول له: ليس من مهمة البسطاء مثله أن يغيّروا أيّ شيء، بل عليهم التحمّل والتسليم بما يحدث. فكان يومئ برأسه ويقول، «نعم، أنتِ محقة» ولم يكن ذلك بقصد الحدّ من حماس أمها، لكن هذا ما يحدث في النهاية.

أمّا بودلير الذي تخلّى عنه لكونه فرنسي ـ حيث يلقي أبوها باللوم على الفرنسيين بسبب التقسيم غير العادل للمناطق بعد الحرب ـ فقد عاد ليحتل مكانته من جديد، لأن أبيها كان قد فقد الاهتمام بفكرة أحقية إيطاليا في السيطرة على أراضيها التي لم تُعوّض عنها. اللغةُ الفرنسية البسيطة التي تعرفها ليليانا حصلت عليها من قراءة قصائده المفضلة من ديوان بودلير، أزهار الشرّ، وحتى أنها تحفظ بعضها عن ظهر قلب. وإذا ما زارت فرنسا سيكون باستطاعتها نطق بعض الأبيات حول الجمال وحالة المنخوليا، لكن طلبَ فنجانِ قهوة، والاستفسار عن الطريق إلى أقرب بقالة سيكون أمرا عسيرا.

عندما تقرأ بصوت عال كان أبوها يشاركها، وغالبا ما يأخذ زمام القراءة لوحده، ويقوم بتصحيح نطقها للكلمات، ويردّد الأبيات التي يحبها وتمسّ شغاف قلبه. «شبابي ليسَ إلاّ عاصفةً مظلمة» كان إحداها يقول، وكذلك، «أريدُ أن أنام! فَالنومُ أفضَلُ مِن الحياةّ، أريدُ أنْ أسْقُطَ فِي نَومٍ بِلذّةِ الموْت.» عندما يتذكّرُ، كان يبتسمُ لها ليبيّن أنه ليس حزينا بالقدر الذي يبدو عليه، بالرغم من أن كلاهما يعرف أنه كذلك.

في أيامه الأخيرة لم يعد صوته سوى تنهيدة، محض عزمٍ أكثر منه صوتا مفهوما، وفي النهاية يثقل لسانه ويتوقف عن المحاولة. ثم تقرأُ له عديد المرات: «تَحلّ بالصَبرِ يا ألَمِي... كُنتَ تَرجُو بُزُوغَ الفَجْر... وهَا هُو يَأتِي.»

لوقت طويل قبل وفاته كانت صحّة أبوها تعتل تدريجيا، وبدا أن نهايته ستكون تتويجا لتلاشيه البطيء، وأنه سيذوي ويذوي حتى لا يعود منه شيءٌ للاستمرار. لكن الأمر لم يجْرِ كذلك.

في التاسع من مايو 1939 تم الإعلان رسميا عن الإمبراطورية الفاشستية، وبدا أنها قد سيطرت بالكامل. وجرى الادعاء بأن الحملة الإثيوبية حققت نجاحا منقطع النظير. فالدوتشي لا يمكن أن يرتكب أي خطأ. وفي اليوم التالي خرج أبوها للمشي معلنا رغبته في أن يكون بمفرده، وأخذ معه المظلة السوداء التي يستعملها أحيانا كعكاز.

توجه إلى فناء محطة القطارات حيث كان يعمل، وبشكل ما خطّط لأن يُلقي نفسه أمام قطار بضائع يتحرك ببطء. لا يزال الغموض يلف الطريقة التي حدث بها ذلك، ولم يكن هناك شهودٌ عدا السائق الذي لم يره، وإنما شعر بالارتطام.

أشار الناس إلى أن أبيها كان لا يرى بإحدى عينيه، وأن صممه كان يتفاقم مع الوقت، وبالتالي لم يعد يقف بثبات على قدميه، واستنتجوا في المهاية أن الحادث كان مؤسفا.

رأت أن جُملاً وكلماتٍ معينة في الكتاب قد وُضع خطٌّ تحتها، ودُوّنت ملاحظات في الهوامش. خطوطُ قلم الرصاص كانت قديمة وباهتة، لكن بسبب هذه التعليقات والتفسيرات المقروءة بالكاد، والتي دوّنها أبوها في صباه، فقد اختارت أن تأخذ معها هذا الديوان إلى إنكلترا. هذا الكتاب دليلٌ على أنه قبل أن يصبح أباها، وقبل أن يلتقي بأمها، قبل أن تُقعده الحياة والحرب والإعاقة، كان فرناندينو كاتانيو من ذلك النوع المميّز من الفتية. ألمعيٌّ يحصد الجوائز المدرسية، ويمكنه القراءة بالفرنسية، والذي كان يعلّم فقرات ما بملاحظات من قبيل: «الرمزية = تعبير يغطي المثالية بشكل مادّي» و «صنعة الشاعر هي التعبير عن الجَمال، وبالتالي أن يُقارب اللانهائي.» كانت هذه شهادة على طموح صاحبه المحدد. في الجدال، وفي تحفيز العقل، والإلمام بالثقافة. وحتى على الرغم من أن المستقبل الآخر الذي لمح إليه قد صار بعيد المنال، فإن تدوين هذه الكلمات وما تحمله من أفكار، حول الجمال والمعاني التي خلفها، حول ما وصفه في إحدى خربشاته بـ«ضرورة أن يكون للشاعر نظرة ثاقبة» لا تزال تشكل خيطا مضيئا يمر عبر حياته الوجيزة، مثل مرور جدولٍ بأرضٍ قفر.

جلست ليليانا فوق صندوق متاعها بالقرب من باب الشقة وتصفّحت الكتاب محاولةً إيجاد جملة غير سوّية، أو شيءٍ يتعلق بأن الشِّعر هو الرقص بذراعين وساقين. لم تتمكن من العثور عليها، وتساءلت إن كان هذا أصلا هو بودلير. ولكن لا بأس، فهذه الجُمل كانت عالقة في ذهنها. هذه الكلمات الفرنسية الجميلة العطوفة التي يبدو أنها تؤثر في أبيها، بالطريقة التي يؤثر فيها الدِّين في المؤمنين.

أغلقت الكتاب، ونظرت أولا إلى عربة التحميل المسنودة إلى الحائط والتي استعارتها من المحطة، ثم إلى المسامير خلف الباب حيث اعتادوا تعليق معاطفهم. فكّرت في أمها وكيف أن التديّن لم يوفّر لها العزاء المنشود، على الرغم من تدينها وإخلاصها. قالت أمها إن التيبّس والألم في ركبتيها له علاقة بكثرة ركوعها للصلاة. وتُوفيت بعد وفاة زوجها بعام ونصف، ربما لأن بإمكانها الرحيل آنذاك، أو هذا ما بدا عليه الأمر، فلم يعد هناك من تعيش لأجله، وفقدت الرغبة في الحياة ما إن غابت عنها مناكفات والد ليليانا. وحتى لو قالت لها ليليانا «لقد ربحتُ اليانصيب يا أمي، وسآخذك في طائرة بحرية من أوسيتا إلى طرابلس للقاء عائلة ستيفانو، والتعرف على روزيتا (اسم الشهرة لفريدة) التي سمعت عنها الكثير، ولكن لا تعرفها إلا قليلا.» كانت أمها ستردّ بأنها متعَبةٌ للغاية، وأنها تتطلع إلى سماع أخبارهم عندما تعود ليليانا إلى طرابلس، ثم تخبرها عن كل الشائعات والثرثرة التي تدور في مجموعة الصلاة التي تشارك فيها، ثم تقولشيئا عن لذة طعم الكاسترد في رغيف البانتوي الذي صنعه الخبّاز، وتسرح بأفكارها بعيدا في حكايات أخرى، لكنها كانت ستنسى أن تطرح أيّ أسئلة. طوال الثمانية عشر شهرا بين وفاة والديها، كان فضول أمها يتعلق في الأساس بحركة أمعائها، ومن أين ستحصل على قطعة الكيك التالية.

أخرجت ليليانا من حقيبتها قلما وقصاصة ورق وضعتهما في مقدمة الكتاب. ثم قلبت ورق التغليف بحيث صارت الطوابع ومُلصق العنوان مخفيّة بالداخل، ثم كتبت عنوان ستيفانو في الأعلى، وأحكمت ربط الطرد بخيط.

لم تمانع كثيرا في التخلّي عن الكتاب، فقد وجدت نزعة بودلير للشعور بالمرارة والعذابات التي لا تنتهي أمرا محبطا. ولم تعتقد أنه كان يبحث عن الجمال في الشرّ، بل رأت أنه مدمنٌ على الشعور بالبؤس، كما أحبَّ أن تكون له روحٌ معذَّبة. لو أنه جرّب بعض العثرات والمشاقّ الحقيقية التي يصعب تحملها، ولو أنه ألقِي به في هاوية كالتي وجدت نفسها فيها ذات يوم، فربما سيحمل نظرة مغايرة للأشياء البهيجة في الحياة.

أيضا لم تعد بحاجة للقراءة بالفرنسية، فهي ذاهبة إلى إنكلترا.

لاحقا، وبعد ذهابها إلى البريد لإرسال الطرد، عادت إلى البيت وجمعت حقائبها، أغلقت الباب للمرة الأخيرة، ثم تركت المفتاح مع الجارة، وسارت ببطء إلى محطة القطارات، وهي تسحب الصندوق وراءها فوق عربة الجرّ.

موعد قطارها بعد ثلاث ساعات، لكنها لا تريد أن تكون في غير هذا المكان. كانت قد ودّعت كل شيء: مصنع القبعات، ودار السينما، والسوق، والحديقة، والمِقعد الذي بجوار النهر، وحلبة السباق. لم تعد تريد أيّا منها بعد الآن. جلست منتظرة على رصيف المحطة، محاولة ألاّ تفكّر كثيرا. بعد قليلٍ أخرجت كتاب الجُمل والقواعد الإنكليزية الذي اشترته عندما حملت كتب أبيها إلى مكتبة المطبوعات القديمة. كان في الكتاب وصفٌ لكيفية النطق إلى جوار كل جملة. وتمتمت لنفسها بالإنكليزية، «كيف حالك؟ هل تمانع إن أغلقتُ النافذة؟»

* * *

إذنْ فقد احتفظ أبرامو بكتاب أبيهما طوال هذه المدة. احتفظ به، وأحبَّه أيضا، وكان يتصفحه دائما ويفكّر في الجَدّ الذي لم يقابله أبدا، وما قد يقول عنه. لا بد أن ستيفانو قدّمه مباشرة لابنه بمجرد وصوله إلى طرابلس. وربما حصلت نادية على الوشاح.

الملاءات التي نزعتها مبكرا عن السرير ودسّتها في سلة الغسيل كانت لأبرامو. لا بد أنه نام هناك في تلك الليلة قبل أن يُطلَق عليه الرصاص. وللحظة تتخيّل نفسها تهرع إلى السلة وتُخرج الملاءات لتحصل على أثرٍ منه، وكأنها بذلك ستقتربُ أكثر من أخيها.

إنها ليلة منعشة، لكن ليليانا تستلقي وجسمها يرتعش، فالأسئلة والتفسيرات المحتملة تتشكّل لتتلاشى سريعا في ذهنها المشوّش. إذن سعيدة هي ابنة أخت أبرامو الذي كان مقيما في هذا المكان. وماذا يعني كلّ ذلك إذن؟ تبدأ في التفكير في الأمر لتجد أن أفكارها تقودها إلى منحىً آخر. حبلُ أفكارها غير تامّ، ومنبوذ في طريقٍ مهملٍ ما. ربما لم تعن سعيدة أنّ أبرامو هو خالها الحقيقي. وربما كانت ترى كل الليبيين هنا في روما أخوالها، أو ماذا كانت الكلمة التي

استخدمتها؟ «خال». ذهن ليليانا المشوش كان مثل غابة كثيفة تحاول شق طريقها عبرها. إن كان أبرامو هو خال الفتاة بالفعل، فمعنى ذلك أن الرجل الذي يرقد في غيبوبة هو زوج أخت أبرامو، وهذا الأمر واضح لها كما أنه غامضٌ في الوقت نفسه. تستمر أفكارها في الهرب منها، ثم تبدأ من جديد لتأخذ مسارا مختلفا. لكن لمن تعود الثياب التي في الخزانة؟ وماذا يمكن أن تستنتج منها؟ تتلصص حولها في هذه الغابة المتشابكة، تدوس فوق الأشواك، وتتعثّر في جذور الأشجار، لكنها لا تصل إلى حل.

قِبلي

مادة: بطاقة بريدية مخضبة باللون الأصفر، لعاصفة تهبّ في الصحراء.

القبلي قادم...

تاجرُ السمك في الكشك المجاور، هو من أخذ يحذّر زبائن السوق في صباح الجمعة. كان يشير إلى السماء فوق البحر، حيث يُسمعُ هسيسُ أسراب الطيور التي تتحشّد في تشكيلات غريبة متمايلة، فترسمُ علامات سوداء على خلفية سماء زرقاء خالية من الغيوم. القبلي قادم، يصيح الرجل ويبدأ في غلق كشك العرض، مشيرا إلى الزبائن بالابتعاد، ومُرتِّبا صناديق الأسماك فوق بعضها تحت الطاولة، ثم يشدّ حولها المشمّع. ينتقل التحذير على طول صفّ الأكشاك، وفجأة يسود الاضطراب المكان.

«ما هذا؟ ما الذي يجري؟» تسألُ ليليانا التي كانت تنتظرُ لشراء بعض أسماك البوري. كانت تعتزم إعداد شوربة سمك، مسترشدة بوصفة قدّمتها لها زوجة مالك البيت، السنيور ياكوف.

«أوزِن أسماكي أولا، يا محمد.» تقول امرأة بجوارها، «هيّا، إنه القبلي.» وتقلب عينيها نحو ليليانا.

الكلمة ليست غريبة عنها، لكن ليليانا نسيت معناها.

«إنها عاصفة السيروكّو،» تشرحُ لها المرأة وهي تضع أسماكها في السلة. «فهي تأتي من الصحراء، وتهبّ هناك.» وتقوم بإشارة كما لو أنها تلتقط شيئا، وترميه عبر البحر المتوسط. «ثم تسقط فوق رؤوس عائلتي في صقلية، الذين يسمّونها الأمطار الدامية.» وتقلبُ عينيها من جديد، «كأنّ مصيبة قد حلت بهم». فتقول ليليانا، «أووه، تقصدين الرياح القادمة من الصحراء؟»

«عودي إلى بيتك، وتأكدي من إغلاق كل الفتحات بإحكام،» تقول المرأة الصقلّية.

«لم أشتر أسماكي بعد،»

«لن تحصلي على شيء الآن،» ثم تهرع مبتعدة.

تعودُ مسرعة إلى البيت بأقصر طريق تعرفه، على طول الحارة الكبيرة حيث يقوم الباعة بسحب سُفر حلوياتهم ويغلقون محلاتهم، وبدقّة كانت تحسِب الانعطافات التي تقوم بها حتى لا تخطئ، فإذا ما وصلت إلى سيكارا هوسك أنجلو، ستعرف أنها ابتعدت كثيرا.

«فريدة...» نادت عند وصولها إلى الباب الأخضر.

فريدة كانت تجلس على الأرض في الفناء وتطحن البهارات في وعاء.

«القبلي قادم نحونا.» تصيحُ ليليانا.

تنظرُ إليها فريدة بعينين واسعتين، ثم تنتصب واقفة وتقول، «أحضري أغطية الأسرّة،» ثم تلتقط شرائح القدّيد المعلقة فوق الحبل في الجانب المشمس من الفناء. كانت تجففها بغرض إعداد وجبة شهية في الأسبوع المقبل.

معا استخدمتا الأغطية للفّ الأطعمة وخزين المطبخ، وكذلك الصندوق المحتوي على الخضار الطازجة لإعداد طبيخ السمك لعشاء الليلة، الطماطم والبصل، الثوم والكزبرة، ثم سحبتا الصندوق إلى داخل غرفة الخزين، ووضعتا فوقه غطاءً إضافيا.

ملأتا إبريقا بالماء وحملتاه إلى غرفة النوم الكبيرة، وبقيتا بالداخل بعد إغلاق الباب، ما جعل الغرفة في ظلام دامس، فأشعلت فريدة الفنار ووضعته فوق صندوق الخزانة عند طرف السرير. ثم طوت منشفة على شكل لفافة وسدّت بها أسفل الباب. كل هذا وليليانا جالسة فوق السرير.

تقف فريدة خلف الباب مباشرة، جامدة تماما، منتظرة ومنصتة. ثم يُسمعُ صوتٌ مثل ماءٍ يغلي داخل قِدرٍ مغطى، فتقول، «ها هو قادم.»

تلتقط فراشيتها من وراء الباب وتلفها حولها، «في الصحراء عندما يهبّ القبلي نفعل هكذا،» وتسحب الغطاء فوق رأسها، ثم تفترش الأرضية. تُخرج رأسها من فتحة الرداء العلوية لترى المفاجأة على وجه ليليانا، فتضحكان معا. تنهض من مكانها والفراشية من حولها ومن خلفها، تدور وتلتفّ فتُحدث أصواتا خافتة غريبة، ثم تختفي من جديد داخل القماش الذي يغطيها، تختفي بالداخل وتصبح ساكنة وصامتة، فبدت مثل جلمود صخر صحراوي فوق أرضية غرفة النوم.

تنحني ليليانا وترفع طرف الفراشية. «هل يمكنني الدخول؟» ثم تزحف إلى الداخل وتقرفص فوق عقبيها قبالة فريدة، بحيث كوّن رأساهما خيمةً ثنائية القمة. في الخارج وفي شوارع طرابلس، قد تكون الرياح المحملة بالرمال الخشنة والأتربة تمنع وصول الهواء، ومغطية كل شيء بغبار أصفر، فتنغلق الفتحات والمسارب. يمكن أن يكون القبلي الآن يزمجر ويصفّر في الأزقة، ويهبّ بعنف عبر أقواس المآذن. قد يكون يهبّ بقوة الآن فوق البحر ليلتقي بالرطوبة ويظل معلّقا هناك مثل غيمة

كبريتية. لكن هنا، الهدوء يسود خيمتهما المزدوجة. فلا وجود لصوتٍ عدا أنفاسهما. وفي ضوء الفنار الباهت، لا تستطيع ليليانا تبيّن شيء سوى بريق قرط فريدة، وبياض عينيها.

«كم الوقت الذي يمضيه المرء هنا؟ وعندما تكونين في الصحراء ويأتي القبلي، أقصدُ كم يبقى؟»

«قد يستمر لمدة طويلة،»

باستثناء ذهابهما للتسوّقْ، لم تسمع ليليانا فريدة تستخدم قَطْ أرقاما محددة. فتسأل من جديد. «هل يستمر طوال فترة الصباح؟»

«ربما يستمر يوما أو يومين.»

«وماذا تفعلين أثناء ذلك؟»

يمكن لليليانا من خلال رفرفة القماش حولهما معرفة أنّ فريدة خفضت رأسها ورفعته، وهي حركة تقوم بها عندما لا تفهم ما يقال لها، وترغب في مزيد الإيضاح، لكن لا يصاحبُ ذلك تغيّرٌ في ملامح وجهها. لا علامة على الحيرة مثل هز الكتفين، أو تكشيرة، أو نظرة متسائلة. استغرقت ليليانا بعض الوقت لتفسر حركتها، لأنها ليست بعيدا عن الإيماءة. وهي تعرف أن لا جدوى من إعادة ما قالت للتو، وأنّ الفشل في التواصل لا يعود إلى سوء فهم فريدة لكلماتها. فتقول في النهاية، «ماذا تفعلين لتمضية الوقت، وشغل نفسك؟»

تكرّر فريدة إيماءة عدم الفهم، وتطقّ لسانها فوق أسنانها علامة على التأكيد. بإمكانها إحداث الطقّة بعدة أجزاء من فمها، وكلّ صوتٍ له معنىً محددا. إن رفعتْ رأسها، وقلبت عينيها إلى فوق، وقامت بطقّةٍ واحدة، فهذا يعني لا. وطقتان على أعلى باطن الفم، مصحوبتان بحركة رأسها قليلا إلى الوراء تعني: لا بد أنك تمازحيني. حقا؟ أنت متأكدة من هذا؟ وهي تستخدمُ هذه الحركة كثيرا مع ستيفانو الذي يحب دائما رواية حكايات غريبة ليرى كيفية استقبالها لها. ثم قد تُخرِج صوتا أكثر رطوبة عندما تضع لسانها خلف أسنانها التحتية، ويبدو أن لهذه الحركة استخدامات أوسع وأكثر مجازية. وتعتقد ليليانا أن هذه الحركات دالةٌ على شيء يبيّنُ كيف أنّ هذا العالم مليء ببدعٍ وغموضٍ لا حدّ له.

لديها حركةٌ أخرى تتعلق بالإبهام، عندما تدسّ إبهامها تحت صف أسنانها العلويّ، فحينها تعني، لا يمكن، كما قد تعني لا شيء، أو أن هذه نهاية الطريق. ثمة شيء مبتذل وشوارعيّ يتعلق بهذه الحركات، لكن ليليانا وجدتها ممتعة. وتصورت أنها أشياء تفعلها النساء بصحبة غيرهن، لكن ليس في حضور الرجال.

تفكرُ ليليانا في نشاطٍ ما يمكنُ القيام به بواسطة شخصٍ يجلسُ وحيدا داخل رداءٍ واسع أثناء عاصفة رملية. «ربما تغنّين؟» تسألها، لأن فريدة تحب الغناء، فأحيانا تشغّلان الغرامافون وتغنّيان معا.

«بل نذهب إلى الداخل»

«أووه،» تقول ليليانا وتفكر في هذه الأحجية للحظة، «الداخل؟ أين بالضبط؟» فجأة ينتفخ القماش حولها عندما مالت فريدة إلى الأمام. ثم تَشعر بيدِ فريدة فوق جبهتها، وأثرُ إبهامها على المنطقة بين حاجبيها. «بالداخل هنا،» تخبرها، وتتمتم بعض كلماتٍ بلغتها، فتبدو كأنها تبحث عن طريقة أكثر وضوحا لتفسير أفعالها. تُبقي إبهامها حيث هو ضاغطا فوق جبهة ليليانا كأنها تدلّكها. إنها البقعة نفسها التي يمسحُ فيها الكاهن الرماد خلال قداس أربعاء الرماد.

«بالداخل هنا» تقول مرة أخرى بعد تفكير عميق، بينما أصابعُها ترفّ فوق عين ليليانا مثل ريش مسطّح في جناح طائر، فتظلّل أصابعها ضوء الفنار الواهن، وتشاهد خطوط النور عند حافة رؤيتها.

«وماذا بعد ذلك؟» تسأل ليليانا.

«ننتظر.»

«وماذا يحدث إذا جعتِ أو عطشت؟»

«لا شيء.»

لا تزال فريدة قريبة منها، وجهها على بعد سنتيمترات منها. ترفع ليليانا يدها وتضغط إبهامها فوق المكان نفسه في جبهة فريدة. «بالداخل هنا،» تقول لها. تريد ليليانا أن تخبرها بقصتها. تريدُ أن تقول: يا فريدة، عندما أتسلّمُ تلك الرسالة التي يُحضرها لي ذاك الفتى، ثم أخرج للقاءِ أشخاصٍ من السفينة التي حدثتك عنها، أي أصدقائي الإيطاليين، في الحقيقة إنما أذهبُ للقاء عشيقي. وهو يدفعني إلى القيام بأفعال شتّى. عندما أكون بصحبته لا أعرف حتى نفسي. فأنا أخافه، وأعبده كذلك. فهل سأذهب إلى الجحيم؟

«كيف تقولين (الجحيم) في ديانتك؟» تسألها، لكن فريدة تبدأ الحديث في الوقت نفسه، «عفوا، ماذا قلت؟»

«بالداخل، هنا،» تقول فريدة وتضغط مرة أخرى، ثم ترفع يدها وتضع راحتها فوق ثدي ليليانا الأيسر،«وهنا أيضا.»

تحبسُ أنفاسها، فلم يسبق لأحد أن لمس ثدييْها سوى أوغو.

تسحب فريدة يدها وتعود إلى موقعها السابق، لكن ليليانا تعرف أنها لا تزال تحت مراقبتها.

«أنت مثل أخيكِ، وفي الوقت نفسه لستِ مثله.» تنهض واقفة، فترفع الرداء عن كليهما، وتعيد تعليقه فوق مخطاف الباب، ثم تجلس فوق السرير وترفع ساقيها.

لا تزال ليليانا على الأرض ولا تعرف ما حدث للتوّ، لكن جسمها مصاب بخِدْر من رأسها حتى قدميها، ثم تنهض من مكانها، «هل كنتِ خائفة كثيرا عندما أخذوك إلى أخي؟ للمرة الأولى؟»

في ضوء المصباح الباهت تراقب فريدة وهي تتحرك إلى الجانب البعيد من الفراش، فتجلس بجانبها في المكان الشاغر. تخبرها: «رأيته أثناء قدومه إلى قريتنا. راقبته، وتبعته إلى ضفاف البحيرة، واختبأتُ خلف الشجر.» وتسند رأسها على كتف ليليانا، «لقد رغبت فيه،» تفكر ليليانا في ما سمعت للتوّ. فستيفانو كان قد أخبرها كيف التقيا، لكن هذا منظور جديد للواقعة. «وهل أنت سعيدة بأن تتركي بيت ذويك؟» تسأل بعد قليل، لكن فريدة كانت نائمة. فتستلقي بجانبها، منصتة إلى ذرّات الرمال وهي تضرب الجانب الخارجي من الباب، وقبل أن تخلد إلى النوم هي أيضا، تخطر لها فكرة حول اتفاق قد تعقده مع فريدة. ستقول لها، «سأخرج مرتدية ملابسك، على أن تخرجي مرتدية ملابسي.»

«بحق الربّ، ما الذي تفعلانه؟» أيقظهما صوت ستيفانو.

بينما لا تزال ليليانا ترمش عينيها في محاولةٍ لتذكّر أين هي، تدحرجت فريدة من حاشية السرير إلى الأرض. هذه الفتاة سرعان ما تنام وسرعان ما تستيقظ. تحيّي ستيفانو وتسأله، «هل ذهب القبلي؟» ثم تتجاوزه إلى خارج الباب وإلى الفناء.

«لقد نمنا.» تجلس ليليانا وتقول دون مبرر.

«ماذا تفعلين وأنت تستلقين هنا أثناء ساعات النهار، مثل أي عربيّ كسول؟» فترد أخته بعتاب، «يبدو أن لدينا شخصٌ هنا، بمزاجٍ عكر.»

كان الفناء مغطى بطبقة من الغبار الأصفر، فتشرعان في تنفيض الأغطية وتكنسان الأرضيات، بينما يقوم ستيفانو بالاستحمام.

تُوقدُ فريدة الكانون وتعدّ الشاي بالنعناع، والمنكّه بأوراق العطرشان.

«ماذا تعلّمتِ اليوم؟» يقول وهي تملأ كوبه، وتقدمه له فوق سفرة عليها صحنٌ به لوزٌ مملّح.

هنا تأتي ليليانا لنجدتها. «لقد عطّلَنا القبلي، واضطررنا إلى البقاء في البيت. لكنني تعلّمت كلمة جديدة هي حرايمي. التي تعني طبيخ السمك. أم هو حساء السمك؟» وتنظر نحو فريدة.

«نعم،» تقول فريدة.

«الفكرة هي أنك من تعلمينها، وليس العكس يا للي. هذا هو الصحّ.»

«نعم، أعرفُ ذلك.» لكنه يبدأ في رواية كيف سار يومه، ويخبرهما قصصا حول كاربوراتورات مسدودة، وكيف كان على وشك الانزلاق والاصطدام بأحد الحواجز عندما كان يجرّب سيارة بوغاتي تمت صيانتها، وفي معرض روايته، نسي استياءه منهما واتهامه لهما بالخمول.

سوق التّرك

مادة: بطاقة بريدية بها صورة لشارع طويل يُعرف بسوق الترك، وفي الخلفية البعيدة يظهر برج ساعة.

يخرج ياكوف من متجره في سوق التّرك، وينظر إلى جهتي الشارع يمينا ويسارا.

كعادته دائما، يجلس التاجر الذي في الجهة المقابلة له ساكناً فوق سجادة صغيرة، بينما تعبث يداه بأصابع قدميه، لكن ياكوف ليس من نوعية التجار الذين يعبثون بأقدامهم. فداخل متجره لديه مصطبةٌ، وكرسيّ، ودفتر حسابات، حيث يقوم بتدقيق حساباته، والقراءة أحيانا، وربما استقبال زبائنه. الآن يخرج بين حينٍ وآخر من المتجر ليرى ما يحدث في الشارع، ويمشي ذهابا وأيابا أمام محلّه. عندما يكون مساعده موجودا، يذهب أحيانا لزيارة محل صياغة المجوهرات الذي يملكه في جزء مختلف من المدينة القديمة، لتفقّد سير العمل هناك. لكن مساعده ليس موجودا اليوم، حيث ذهب في مَهمّة لجمع إيجارات العقارات التي يملكها ياكوف.

في سوق الترك هناك تنوّعٌ كبير من البضائع، وثمة قدْرٌ يسير من كل شيء. في أسواق طرابلس، لو عرفتَ ما تريد، وترغب في الحصول على شيء ما: فضةٌ، أو ذهب، أو مصنوعات جلدية، أو قماش، أو صبّاط، أو بخور، فتذهب حينها إلى مكان مختص بهذه الأشياء. وإن رغبت في ابتياع طبق نحاسي مزخرف، أو مزهريّة ستتوجه إلى (صنايعية) الحديد والبرونز بالقرب من برج الساعة، حيث تُسمعُ أصوات طرق الصنّاع من الصباح وحتى المساء.

وأن أردتَ مجرّد الفرجة، فسوقُ الترك هو المكان المناسب. لأنه يمتلئ بالحياة وبالتجارة والتنوّع. لكن هذا القسم من السوق حيث يوجدُ متجر ياكوف يغلب عليه الهدوء، وبه دكاكين متنوعة الأحجام والمحتوى من المعروضات. فمن مجرّد تجويفٍ في الجدار، مثل الذي في الجهة المقابلة، حيث تُعرضُ جلاليب وبضع برانس متسخة يعلوها الغبار، إلى المعارض الفسيحة التي تبيع الأسلحة الأثرية ـ بنادق بسبطانات طويلة، وخناجر، وقوارير البارود، وأحزمة مزركشة لحمل البنادق والسيوف، وحقائب سفر، وأرسنٌ للخيل والإبل، والبخور والسجاد، والخزف الصيني والتوابل. أمّا التجار فمتنوّعون من جنسيات مختلفة. التجار اليهود مثله متخصصون في المعادن الثمينة، وهناك الدكاكين ومحلات البقالة الإيطالية التي تجاور العربية، وهناك حتى من تعرِضُ بضائع من الشرق الأقصى. ويوجد أيضا تجار من شرق البحر المتوسط، مثل الأرمن وهم خبراء في النحاس، وهناك منتجات يونانية ومالطية من المرجان والقواقع والإسفنج البحري. يوجد أيضا دكان عطور (بن

جمعة) الذي يقع في نهاية الشارع، ليس بعيدا عن سينما الهمبرا التي تعرض الأفلام، وتُقدّم فيها عروض الأوبرا أحيانا. وهناك أيضا محلٌ يمكنك أن تتذوق فيه الحلويات والفطائر، ومثلجات منكّهة باللوز وجوز الهند.

ياكوف، لا يملّ أبدا من الإشارة إلى أن هذا هو المكان الأفضل للسياح الباحثين عن هدايا يعودون بها إلى أوروبا وأميركا. في الحقيقة لا يحتاج السيّاح إلى الذهاب إلى غير متجره، لأن ما ليس بهِ من بضائع، يمكنه توفيرها لهم بسرعة وبأفضل الأسعار، أثناء جلوسهم وتناولهم الشاي المنعنع، مع قرمشةِ لوزٍ مملحٍ يقدمه لهم، أو تفقّدِ مجموعته المثيرة من الحرير، ومن الأطباق المزخرفة.

هذا المكان هو الأكثر برودة والأوفر ظلا في كل الشارع، عَرضه ثلاثة أمتار، ومسقوف بعوارض خشبية تمتدّ فوقها عريشة معمّرة. كان جذعها الملتوي وأغصانها التحتية قد تداخلت مع الجدار المحاذي لها، فتصعُب معرفة إن كانت العريشة هي من تسند جدار المبنى، أم العكس هو الصحيح. ومن بين التعريشة والأغصان يتسلل ضوء له بريق لؤلؤي يسقط فوق الأرضية.

يصفّق ياكوف بيديه، فيثبُ على قدميه أحد الفتية الجالسين عند الباب، ويهرع نحوه. يسلّمه قطعة نقودٍ، وبينما ينتظر قدوم قهوته. فهذا الصباح شعر بأنه يفضل القهوة وليس الشاي. يجلسُ في مكانه المفضل مقابل الأغصان الكثيفة، فتتشكلُ أمامه لوحةٌ طبيعية مكوّنة من إنسان، وعريشة، وجدار. يُشعل سيغارته، فمصنع التبغ كان قد أنتج نوعا جديدا من السجائر أطلق عليها اسم (لبدة) ورأى أنها جيدة، وإن كانت خفيفة بعض الشيء.

يأتي البشر ويرحلون. فأسلافُ ياكوف كانوا هنا أيضا، قبل الفينيقيين وقبل الأتراك والعرب، أو هكذا أخبره أبوه. لكن بالطبع ليسوا قبل الرومان الذين يدّعي هؤلاء الإيطاليون أنهم الموجة الثانية منهم. أيْ من أسلافِهم النبلاء الذين كانوا أوّل من قدموا إلى المنطقة، لكن لم يمض الوقت حتى جاء قومُه أيضا، والفارق طبعا أنهم لم يتراجعوا ويتركوا هذه البلاد، بل بقوا فيها. قد لا يكونوا أتوا كمحتلين، لكنهم أصبحوا مَعلماً ضروريا فيها، كما أنهم لا يزالون هنا.

يأتي الصبي له بقهوته، فيتناول رشفة منها، ويضع الفنجان في فجوة بالجدار. من موقعه المغطى بظل العريشة، يراقب شابة أوروبية ترتدي قبعة قش ونظارات شمسية تتمشى في الشارع، وتتفحص البضائع المعلقة خارج الدكاكين. يمكنه القول إنها تبحث عن شيء ما، وإنها ليست هنا لمجرد التسكّع في السوق، أما هي فلم تلحظ وجوده وهو يكاد يكون مخفيّا هنا. تتوقف عند دكان مصطفى، وبدا له أنها تسأل عن سعر الجلابيب المعلقة هناك، ويخمّن أنها لا بد وأن مرّت بألفِ جلباب منها حتى الآن، لكنّ ما رأته ليست الأفضل في السوق. يراقب ياكوفُ، التاجر مصطفى وهو ينهض من مجلسه، فيحسده على الطريقة التي يقفز بها من وضعية الجلوس، وعلى حركةِ يديه الرشيقة لشخص لم يعد صغيرا في العمر. مع ذلك لياكوف في مكانه مقعدٌ للجلوس، ووسائد، وأرائك مُعدّة لمن سيجلسون على الأرض بدلا من المقاعد. يرى مصطفى يُنزل جلبابا ويطرحه أمام الفتاة. يمكنه سماعُ حديثهما، لكن لا يستطيع تبيّن الكلمات، فيرى أن بإمكانه مساعدة الفتاة في الحصول

على سعر جيّد، لكنه يعدِلُ عن ذلك، فلماذا يشعر بالولاء والانتماء للإيطاليين أكثر مما يشعر به تجاه العرب؟ هذا تساؤلٌ مهمّ شغل تفكيره الآن، وهو ما جعله يترك مكانه، ليقدّم لها نفسه.

حينذاك فقط يكتشف أنه قد التقى الفتاة من قبل، فهي أخت الشاب الذي يستأجر بيته القريب من الكنيس اليهودي.

يتساءل لماذا قد ترغب فتاةٌ إيطالية في شراء جلباب واسع. يقدّم نفسه لها، ويذكّرها بأنهما التقيا من قبل، وأنه مالك البيت الذي تقطنه مع أخيها، ثم يقترح عليها أن يقوم بالمفاصلة نيابة عنها، فيرمقه مصطفى بنظرة ريبة.

«كنتُ أنظر فقط، كنت أتجول في المكان وأنظر إلى المعروضات،» تخبره.

يدعوها إلى أخذ استراحة في متجره، كي تخبرُه عمّا تبحث عنه بالتحديد، فربما باستطاعته مساعدتها، وتوافق.

«هناك رائحة غريبة هنا،» تقول بمجرد دخولهما المكان.

يشمّ حوله، ولا يكتشفُ شيئا مختلفا، فيهز رأسه نافيا استنتاجها.

«بإمكاني التقاط وتمييز روائح معينة، مثل زيت قرنفل، وعنبر، وجاوي،» ثم تومئ له كأنّ عليه أن يبدي إعجابه بحدّة حاسة شمّها، فيرد على إيماءتها. وتضيف «لكن هناك شيء آخر يمكنني تبيّنه.»

ينظر حوله نحو البضائع العديدة التي قد تنبعث منها الروائح، لكن حتى أنفه المتمرّس يعجز عن اكتشافها.

«ربما هي فقط روائح أشياء عتيقة.. عتيقة وغامضة.»

«أعتقدُ أنكِ محقّة.»

«لم أتوقع العثور على أشياء مسيحية في هذا السوق، لكنني رأيت في الجانب المقابل لمحل المجوهرات هناك، مجسّما لمقام صغير للعذراء مريم، معلقا على الحائط.»

تبتسم له ويردّ عليها بابتسامة، فهو لا يرغب في أن يخيّب ظنها، ويخبرها أنه ليس مقاما للمادونا، وإنما هو مجسّمٌ يشير إلى مدخل بيت دعارة.

أرادت أن تعرف مكان خيّاط جيّد بإمكانه إجراء تعديلات على ثياب تحملها في حقيبة فوق ذراعها، أعطتها إياها الكونتيسا. ثم تُخرج الثياب لتريه إياها. حرير، ودانتيل، وتافتا، وساتان.

«وأين سترتدين هذه الثياب الرائعة؟» فتغطِّي حمرة الخجل وجهها، وترى أنّ لديها معجبٌ الآن.

تخبره أن رجل أعمالٍ صديقا لأخيها سيأتي لزيارتهم خلال الشهر القادم، وسيخرجون معه لتناول الغداء في مطعم يشتهر بتقديم وجبات الأسماك.

يشير عليها بخيّاط معيّن، ويعطيها عنوانه، كما يدسّ في يدها بطاقة تعريفه هو. يشرح لها كيف تصل إلى الخياط، ويقول إنه كان سيصطحبها بنفسه لولا أنه لا يستطيع ترك متجره.

فيّا أوفيديو

مادة: بطاقة بريدية يظهر فيها قصر الحاكم بطرابلس.

تغيّر مكانُ لقائهما إلى بيت أوغو، وهي شقة حديثة في فيّا أوفيديو، ليست بعيدة عن قصر الحاكم، وفيها يقيمُ عندما يكون لديه عملٌ في المدينة. دائما يخبرها أنهما سيعودان إلى الغراند هوتيل ذات يوم، ويتناولان العشاء هناك. لكن هذا لم يحدث بعد، ويقول إنه من المناسب أكثر أن يلتقيا الآن في الشقة، فهذا يبدو أكثر منطقية، ويمكنهما الشعور بالراحة فيها بعيدا عن الأعين المتلصصة، كما أنهما غير مضطرين هنا إلى الإدّعاء، بل يمكنهما التصرف بعفوية كما يرغبان.

وجدت أن هذا الترتيب يلائمُها لأنّ كلّ ما يريده أوغو يناسبها أيضا. نعم، هذا مناسب كثيرا، وتوافقه لإعطاء الانطباع بأنّ لها رأيا في ذلك.

عادة ما تتم الأمور بهذا الشكل. تتسلّمُ رسالة يحملها عليّ، وهو فتى رث الثياب يعمل عند أوغو، ووجدت أن عليّا لديه شبكة معلومات غامضة، حيث يمكنه العثور عليها حتى لو كانت تتسوق، أو في الكنيسة، أو تتمشى على شاطئ البحر. أحيانا تغادر الكنيسة في سانتا ماريا ديلي أنجلو، فتجده مقرفصا في الميدان بالخارج، يحمل الرسالة في يده. وعندما تعجّبت من مقدرة الفتى الغريبة، ردّ أوغو بأنّ ذلك يرجع إلى أن عليّا كان يعمل حمّالا في المدينة قبل ذلك، فقدّرت أنه واحدٌ من أولئك الصبية الحفاة في ثياب مهلهلة الذين رأتهم يحمّلون العربات في سوق الثلاثاء، ويسوقونها في الشوارع، أو ينقلون لفائف وطرودا في أنحاء المدينة القديمة، ثم يركضون بها في تلك الأزقة الضيقة التي لا يستطيع حتى حمارٌ أن يمرُق خلالها. إذن، هكذا يعرفُ عليّ كيف يصل إلى أيّ مكان، كما يخبرها أوغو أنه وظّفه معه لهذا السبب. لكن هذا لا يفسّر كيف يمكن لعليّ العثور عليها، حتى عندما لا تُخبر أحدا عن وجهتها. الرسالة التي تتلقاها، تُحدد لها الوقت والمكان ـ قرب النافورة في ميدان إيطاليا، أو خارج مبنى البلدية في شارع فيتوريو إيمانويل، أو أمام مبنى البريد في شارع إيميليو دي بونو ـ في أمكنة عامة دائما، في الجانب الجديد من المدينة حيث يتجمّع الإيطاليون، وحيث يكون وجودها مشروعا. تأتي ليليانا إلى مكان اللقاء قبل الموعد بوقت كاف، وتتسكّع هناك حتى يحين الوقت، وعندها تقترب منها السيارة ذات الستائر التي تحجب المقعد الخلفي، تدخلُ فيها، وتجلس دون تبادل أي حديث مع السائق. في المرة الأولى ارتكبت خطأ بالوقوف على الرصيف منتظرة أن يخرج السائق ويفتح لها الباب، لكنها تعلمت ألاّ تفعل ذلك مرة أخرى.

لا يكلف السائقُ نفسه الالتفات نحوها. يقود السيارة في صمت، ويجتاز عدة أبنية حتى يصل إلى الشقة. وترى أنّ صمته لا يوحي بأنه يتجنّب لفت الأنظار إليه، بل على العكس من ذلك، فحضورُه داخل السيارة وتحفّظه المريب يهيمنُ على المكان. فلا تطيق صبرا كي تغادر السيارة، لكنها في أغلب الأحيان تضطر إلى البقاء لمدة أطول مما ترغب.

عادة يوقف السيارة في نهاية شارع جانبيّ مقابل الشقة، ثم يرفع يده كما في تلك المرّة عندما منعها من مغادرة الغراند هوتيل، مشيرا إلى أنّ وقت نزولها لم يحن بعد. فأوغو يستقبل ضيوفا غيرها في الشقة وعليها الانتظار. في مثل هكذا حالةٍ يميل منتاز إلى الأمام فوق عجلة القيادة، ويُدير رأسه إلى اليسار كي يتمكن من رؤية نافذة البيت بشكل أوضح. وكأنما الأمرُ مبعث فخر له، فهو يحافظُ على يده مرتفعة في ثباتٍ محذرا إيّاها من الحركة، إلى حين تسلّمِ إشارةِ السماح لها بالتحرك. تحاولُ ألاّ تتزحزح من مكانها وهي تحدّق في الخيوط المتدلية من طربوشه التي تلمس نهاياتها أثر جرحٍ عريض في عنقه الأسود الطويل. في أغلب الأحيان تجدُ نفسها محدّقة في ظاهر يده، منتظرة طرقعة إبهامه ووسطاه في إشارة لها بالنزول، ولاحظت أنه يحافظ دائما على نظافة أظافره، ويقصها على شكل أقواس لها لمعانٌ ورديّ. جانبٌ منها كان يحتجّ ضد خادمٍ يعاملها بأسلوب متعجرف، لكن الجانب الآخر، وهو الغالب، كان يخشاه لأنه يبثّ الرعب في كيانها، ورأت أن سكون هيئته السوداء أشبه بتمساحٍ على وشك الانقضاض على فريسته. إنها دائما في خِشية من أنه عِوضا عن فرقعة أصابعه المعتادة، قد يلتفت فجأة إلى الوراء بسرعة هائلة، ويكشّر عن أسنانه الحادة المرعبة.

أوغو يسمّيه «منتاز» في إشارة إلى رتبة ضابط الصف التي يحملها، فالقوات الأفريقية المنتمي إليها تؤدي الخدمة في الجيش الإيطالي، وغالبية منتسبيها من إريتريا، مثل منتاز، ويعرفون بالتسمية العربية «العسكرية». لديهم كتائبهم الخاصة، وقوات الهجن، ويصفهم أوغو بالشرسين في القتال، الذين لا يبدون رحمة تجاه أعدائهم.

عندما أخبرها أوغو بأنهما سيكونان لوحدهما في شقته، كان يقصد بعيدا عن غيرهما من الإيطاليين. لكن بالإضافة إلى منتاز، وعليّ، هناك الفتى الطرابلسي إبراهيم، الذي ورثه عن المستأجر السابق، وهو الذي يحافظ على ترتيب المكان ونظافته، إلى جانب إعداد الطعام والشاي، ويهتم بغسل الثياب. كان ينام في ما يشبه الخزانة بجانب غرفة المعيشة، ورأت ليليانا أنه شابٌ محترم كثيرا، يرتدي جلابية بيضاء نظيفة، وطاقية قماشية بيضاء تسمى كبّوس. وعندما يخرج يضع عباءة داكنة يربطها إلى كتفه الأيمن، كما يخلع صبّاطه الجلدي عند المدخل ولا يدخل المكان إلاّ حافيا، ولاحظت أنه يتحدث الإيطالية جيدا. رأتْ آخرين يأتون ويذهبون، لكن الثلاثة علي، وإبراهيم، ومنتاز ثابتون في المكان. منتاز لا يكاد يتكلم أبدا، وأحيانا يتبادل مع أوغو حديثا باللغة التغرينية.

الرجال الذين يأتون إلى الشقة ويغادرونها هم من يُبقِي ليليانا منتظرة مع منتاز في السيارة، ووضعُهم غامضٌ بالنسبة لها، وإن لم تكن في الحقيقة مهتمة بأمرهم، وإنما تنتظر بفارغ الصبر وبصمتٍ تلك الإشارة بأن معاناتها قد انتهت. أحيانا تراهم أثناء مغادرتهم للمبنى، وعرفت أنهم من السكان المحليين، ومن مختلف الأعمار والطبقات الاجتماعية، وأكثر من مرّة رأت رجلا بعينه، وهو زعيمٌ محلّي ملتحٍ له شعر رأسٍ أسود. في إحدى المرات رافق أوغو أحدهم حتى نهاية الشارع،

فاغتنمت الفرصة وصعدت إلى الشقة قبل عودته. لتجد إبراهيم لا يزال يرفع الصحون من الطاولة، ويرتب الوسائد، ويفتح النوافذ لتهوية المكان وطرد أثر الدخان، فلاحظت أن عددا من الأشخاص كانوا في المكان.. على الرغم من أنهم يأتون فرادى. وفي مرة أخرى نادى أوغو من النافذة، بدلا من إرسال الإشارة المعتادة، فهرع إليه منتاز بعد أن أومأ لها بأن تظلّ في مكانها. بعد ذلك بخمس دقائق رأت إبراهيم ومنتاز يسندان رجلا يترنح بينهما، فاعتقدت أنه ربما كان مريضا. وبعد قليل عاد إبراهيم ودخل إلى البناية، لكن منتاز لم يعد، فاعتقدت أنها قد نُسيت، لكن أوغو أتى لاحقا لأخذها، وعلى غير العادة ذهبا لشرب القهوة المثلجة قبل العودة إلى الشقة معا.

لم يذكر أوغو إطلاقا أي شيء عن أولئك الزوار، أو يقدّم تفسيرا لسبب وجودهم عنده، وكذلك لم تسأل هي عنهم، لكن ممّا يحدث معها لاحقا تعرف ليليانا أن تلك اللقاءات كانت مرهقة له، وأنه يحتاج بعدها إلى التنفيس عن طاقة حبيسة بداخله، وحينذاك يأتي دورها في التنفيس عن طاقته.

عندما تصلها إشارةٌ متبوعة بطرقعةٍ خاطفة من إبهامِ وسبابةِ منتاز، تغادر السيارة، وتعبر الطريق، ثم تصعد الدرج إلى الطابق الأول بسرعة البرق. يفتح لها أوغو الباب، وقبل أي شيء آخر، قبل تناول المرطبات أو تبادل أي حديث، يندفع نحوها، يشدُّ ملابسها، وبسرعة يبدأ في فك الأزرار والحزام، ثم يرفع تنورتها ويُنزل لباسها التحتي. يرفعها بين ذراعيه، ويستدير بها نحو غرفة النوم فيدفعها فوق السرير، أو يزنقها على الحائط. يبدو الأمر وكأنهما قد خططا لهذا المشهد من قبل. هذه الرقصة الغريبة الخالية من الذوق والأناقة. على الرغم من أنّ الأمر في البداية تعلّق بارتباك أحسّت به وهي تستجيبُ لحركاته لأنها سلّمت له نفسها بالكامل، ولا مجال لإبداءِ أي اعتراض الآن، فأن تعترضَ لا يعني سوى تقويض المعادلة المعقدة التي وضعتها لتبرير علاقتهما.

تلك المعادلةُ تدورُ في رأسها الآن، وذلك الإحساسُ بالخواء الرهيب الذي يعقب هذه اللقاءات الخاطفة، فتتوصلُ إلى المنطق التالي: أوغو رجلٌ مهمّ ومحترم، وبالتالي يعرف ماذا يفعل. إنه خادمٌ مخلص للنظام الفاشستي الذي هو الذراع العلماني للكنيسة، وعليه مهما تكن هواجسها، ومهما كانت فداحة خطاياها، وما تبدو عليه أفعالها من انحراف، فإنها في النهاية تخدمُ قضيّة نبيلة، وإن كانت غيرَ معلنة، وأنها تقوم بالشيء الصحيح. وعلى كل حال، فهي لا حول لها في إبداء أي مقاومة، فهي طوعُ رغباته بالمطلق.

ثم تقنع نفسها: لقد اختارني، وأنا مغرمةٌ به.

الشقةُ التي تقع في بناية حديثة تتكون من صالة معيشة واسعة، في ركن منها مطبخ صغير، بينما تقع خزانة نوم إبراهيم في الركن المقابل، وبها أيضا حمّام وغرفة نوم بها سرير واسع، ومرآة بيضاوية تستند إلى نفسها، ثم خزانة أدراج طويلة من خشب جوز الهند المصقول الداكن، بينما الجدران مطلية بالأبيض. وهي واحدة من أولى البنايات التي تصلها الكهرباء، وبالتالي المياه الساخنة. تحت الأرض في البناية المقابلة هناك مرآب سيارات مخصوص تابع للشقة.

كم تكره مغادرته لها، على الرغم من معرفتها أنّ مسألة ذهابهِ آتية، ومحتومة، لكنها على الدوام تمثّلُ صدمةً لها. وحينها تغمرها الكآبة وتتسلل إلى روحها البرودة والظلمة. تهاجمها الهواجس لرغبتها في التمسك ببقائه إلى جوارها، وأن تقول له: خذني معك، ضعني في جيبك، لكن أرجوك لا تتركني. لكنها تعرف أن عليها ألاّ تقول ذلك، فهو رجلٌ مهمّ وعلى كاهله مسؤوليات جسام، إلى جانب أنه يكره الإلحاح. عوضا عن ذلك تحاول أن تبدو بمظهر مشرق، وتمطره بكلمات التحبّب والتشجيع وهو يرتدي ثيابه، أو تقوُم بالتبرج أمام المرآة الأخرى آملة في لفت انتباهه لمعرفتها كم يحبّ أن يراها وهي تنظر إلى نفسها في المرآة. أحبّت لو أنها لمعت له حذاءه، وأعدت قهوته، لكن إبراهيم يقوم بهذه الأعمال، ومع ذلك يسمح لها أوغو أحيانا بلفّ ربطة عنقه.

عندما تكون بعيدة عنه تتخيّل أحيانا أنها ستعكسُ الأوضاع، وتختلقُ قصة حول ارتباطها بموعد مهم، وأنها هي التي تغادر وتتركه، لكن عندما تكون معه لا تفكر في ذلك مطلقا.

بعد مغادرته، وإن كان لا يتوقعُ مجيء أحد، يَسمح لها بالبقاء في الشقة لبعض الوقت لتستحمّ قبل العودة إلى بيت أخيها. في تلك اللحظات تراودها مشاعر الوحدة لأنها تجد نفسها هناك مع أشياء تخصّه، وبإمكانها رفعها وتقليبها بين يديها، وشمّها. فهناك قنينة المرهم اللزج برائحة الورد والصنوبر، الذي يدعك به فروة رأسه، وفرشاة الشعر ذات الظهر البيضاوي من العاج، وأخرى مماثلة لها أصغر حجما يمشط بها شنبه. وهناك البِدل ذات اللون الحليبي، وبدلة التشريفات الرسمية مع صفٍّ من القمصان المكوية المعلقة تحت رفّ يحتوي على ياقات العنق اليابسة. إنها وحيدةٌ في الشقة بينما إبراهيم منشغل في أداء واجباته العديدة. تملأ حوض استحمام البورسلين الأبيض الموجود في وسط الحمام، بمسانِدِهِ التي على شكلِ مخالب مقبوضة، وتضيف إليه زيت الورد لتعطيره، ثم تغطس في الماء الساخن وتزيل عن جسدها رائحة أوغو، وبعد أن تُتم اغتسالها ترتدي ثيابها لتغادر. كان منتاز دائما من يأتي بها إلى الشقة، لكنها الآن تشقّ طريق عودتها بنفسها.

كم تحبّ عندما لا تكون في عجلة من أمرها لمغادرة المكان. فعند فراغهما من ممارسة الحبّ يلبسان رداء البيت لكل منهما، وكان قد اشترى لها واحدا من الحرير الأصفر الداكن، تحتفظ به معلقا وراء باب غرفة النوم، ثم يجلسان في غرفة المعيشة، ويأتيهما إبراهيم بالشاي. بعد ذلك تقرأ له بصوت عال، أو تجلس في حضنه على كرسي الخيزران عند النافذة.

يحبُّ دائما الحديث عن الطائرات، فله تجاهها الشغف نفسه الذي لستيفانو نحو السيارات. لكن بينما يحبّ أخوها شرح عمل المحركات نفسها، وأجزائها المختلفة، والتعديلات التي تُجرى عليها لتكون أكثر كفاءة وسرعة، وأكثر أمنا، وكذلك ما يجعلها أقلّ احتكاكا لزيادة السرعة. فبالنسبة لأوغو كل هذه الأعمال من مسؤوليات الآخرين، ومهمته تقتصر على قيادة الطائرة على ارتفاعات عالية ومنخفضة، وأن ينقضّ بها على أهداف أرضيّة مثل تنّينٍ ينفث حمم النيران.

يخبرها عن نوع الطائرات المختلفة من طراز كابروني، وروميو، وميشيللي، وكيف تستطيع الأكبر حجما منها نقل حمولات أكثر، وعن استغلالها لنقل الإمدادات إلى المتمركزين في مواقع عديدة بأقصى الجنوب، ويتطلبُ بعضها طاقم قيادة

من أربعة أشخاص، وأخرى من اثنين فقط هما الطيار والمهندس أو المدفعجي. كما أكد لها معرفته بقيادة جميع أنواع هذه الطائرات.

لكنه قال أيضا إنه يحب الطيران منفردا، ويفضل ألا يكون معه من يحصي عليه حركاته عندما يكون مع ما يسمّيه جواده الناريّ الجبّار.

وتشعر ليليانا بالغيرة من طائراته.

حُجيْرات

مادة: علبة في حقيبة سفر قديمة تحتوي على بطاقات بريدية، وصور فوتوغرافية، ورسائل، وتذاكر، وأزهار مضغوطة، وسبحة، وخصلة من شعر طفل، وديوان شعر، ومقالات من بعض الصحف والمجلات، وخيط أزرق اللون، وتذكارات أخرى.

استيقظت ليليانا، اغتسلت، وارتدت ثيابها، والآن هي جاهزة في انتظار الذهاب إلى المستشفى. لكنها تشعر أنها بالكاد نامت، ومع ذلك تفترضُ أنها لا بدّ وأن نالت قسطا من النوم. فتجلسُ الآن إلى طاولة الأكل تتناول كوب الشاي الأخير قبل الانطلاق في مهمتها.

بشكل متقطع أثناء الليل استمر عقلها في رحلة توهانٍ معقدة، لم تتوقف حتى مع بزوغ ضوء النهار، حيث استمرت في مواجهة شيءٍ من التردد ظل يراودها، مثل لطخةٍ مظلمة متداخلة ظلّت تؤرقها، ثم بعد لحظات فراغٍ تعاودها من جديد. إن كان الرجلُ نزيل المستشفى هو صهرُ أبرامو، فهل يعني ذلك أن سعيدة هي ابنة نادية؟ أم أنها ليست ابنتها؟ الفكرةُ غائمة بالنسبة لها الآن، لكنها لا تتوقف عن مراودتها.

تصفّحت ديوان أزهار الشر عشر مرات، وفي مرتين كانت ستضعه في حقيبة سفرها، ثم تغيّر رأيها بعد ذلك.

لمراتٍ لا متناهية، حاولت إعمال المنطق في الحكاية، فإذا كان أبرامو هو خال الفتاة، وهي عمة أبرامو، فهذا يعني أنها أخت جدها لأمها. لكن شيئا ما يمنعها من الاحتفاء بهذا الاستنتاج. لأن هناك خطأ ما في هذا المنطق. ظلت أفكارٌ غير مريحة تمرّ بذهنها حول ما تعرف، وما لا تعرف، وإحداها هي إمكانيةُ ألاّ يكون أبرامو ابن أخيها. لكن حتى التفكير في هذه الإمكانية يبدو لها بمثابة خيانة. هناك جانبٌ مظلمٌ ما يقع على حدود إدراكها. إنه مثل النظر مباشرة إلى ضوء مبهر، مثل الشمس، حيث تظلّ بقعٌ غائمة تتراقص حول حواشي العين، تمنعها من الرؤية بوضوح. ما الذي كانت تقوله فريدة؟ شيءٌ ما حول محاولة تغطيةِ عين الشمس بغربال. ثم تهزّ رأسها متخلّية عن هذا النمط من التفكير.

تبدأ من جديد. إن كان أبرامو هو خال الفتاة، وإن كان هو أخُ نادية أيضا، فلا بد أن معنى ذلك أن نادية هي أمّ الفتاة.

استحال على ليليانا الجلوس ساكنة وهي تقلّب في رأسها هذه الأفكار التي تدفعها إلى النهوض والخروج إلى الشرفة عبر بابها الزجاجي، حيث تضع يديها فوق السياج، وتسحب نفسا عميقا من هواء الصباح. لا بد أنّ سعيدة هي ابنة

نادية، لكنها لم ترث عيني أبيها الزرقاوين، فقد تخطت الزرقة جيلاً، ولم ترثها هي أو أخيها ستيفانو، ولا أبرامو كذلك. لكن نادية ورثت الزرقة، بينما تخطت ابنتها.

وماذا عن الطفلة الأخرى ذات العينين الياقوتيتين، التي رأتها ليليانا مرة وحيدة فقط، ومع ذلك أحبتها أكثر من نفسها، وظلّت تخطر لها دائما. كل هذه الأفكار جعلتها تلفّ في دائرةٍ لا قرار لها، منعتها من التركيز.

تبتعدُ خطوة عن سياج الشرفة، وتتذكر أنها كانت تقفُ في شرفة عالية حين شاهدت أوغو للمرة الأولى، وحين راودها شعورٌ غريب بأنه سيتلقفها بين ذراعيه في حال سقوطها، وتفكّر في كمْ يكون المرء مخطئا في تصوراته أحيانا.

ليس بإمكانها معرفة المزيد دون أن تتحدث إلى سعيدة، لكنها تشعر بالرهبة من الحديث إلى الفتاة.

تعود إلى غرفة المعيشة، وتنظر إلى الساعة المعلقة فوق الجدار، فتلفتُ نظرها الصورُ المؤطرة بجانبها. تضغط جسمها وراء الأريكة لتمعن النظر فيها عن كثب. الأولى لواحةٍ بها نخلات مائلة فوق شخصين يرتديان قبعات بحواشٍ واسعة. النصف الفوقي من وجهيهما مخفيّ فلا يظهر سوى فميهما المفتوحين في ضحكةٍ عريضة. يقفان متشابكي الأيدي عند قاعدة تبّةٍ رمليةٍ شديدة الانحدار، وتبدو المرأة مماثلة له في الطول. في الصورة الثانية تظهر امرأة بمفردها واقفة وسط الآثار الرومانية. فتلحظ ُفي طرف الصورة زوجا مميزا لعمودين بالغي الطول، وعندها تعرف أنها التُقطت في المسرح الروماني الأثري بمدينة لبدة الواقعة على الساحل الليبي. مع أنّ الصورة بدون ألوان، إلاّ أنها تعرفُ أن العمودين مشيدان بحجر الغرانيت الوردي. أما الصورة الأخيرة فهي لرجلٍ واقفٍ عند منعطف حلبة سباق، فتعرفُ على الفور أنها التُقطت في حلبة سباق الملاّحة. الرجل يرتدي بدلة فاتحة اللون، ويحاول حجب ضوء الشمس عن عينيه بيده، لكن وجهه أكثر وضوحا هنا. رجلٌ في منتصف العمر، ومتوسط البدانة. فتعتقدُ أنها تعرف من يكون، لكنها بحاجة إلى دليل.

ترفع ملابسها من حقيبة السفر وتلقيها فوق السرير، ومن تحتها تظهر لها العلبة ذات الحجيرات، فترفع غطاءها.

بداخل العلبة هناك أشياءٌ عديدة ومتنوعة كانت تحتفظ بها: رسائل، وصور، وبطاقات بريدية، وبروشات زينة، ومقالات من مجلات، وأزهار مضغوطة من كتيّب ملاحظاتها، وقصاصات صغيرة، وأعقاب تذاكر. على مرّ السنين كانت تُخرج هذه الأشياء لتتفحّصها. لكنها لم تُضف إليها أي جديد منذ 1988. تفتّشُ في المحتويات باحثة عن صورةٍ بعينها.

تجدها في النهاية. وكانت لستيفانو مرتديا عفريتة الميكانيك خاصته، وواقفا إلى جوار الرجل نفسه المرتدي لتلك البقعة نفسها. خلف الصورة تدوينة بخط ستيفانو تقول، «أنا وألفونسو في الحلبة، 6 مايو 1934»

الرسائل مرتّبة حسب تواريخها، فرسائل كل سنة مربوطة معا بمشبكٍ. وسرعان ما تعثر على مجموعة 1934، فحينذاك كانت قد مرّت ثلاثة أعوام على عودتها إلى روما. الرسالة المصاحبة للصورة تدور في أغلبها حول السباق الذي كسبه أكيلي مازوري، في سيارة ألفا روميو، حين عَلِقت الدواليب الأمامية لسيارة بييرو تاروفي، فطارت العربة خارج الحلبة، ورُمي به خارجها، فكُسرت ذراعه وانسلخ جلد ساقه. ولم تتوقف السيارة إلا بعد اصطدامها بلافتة إعلان عن (بيرة بوروني)

وأضاف ستيفانو بين قوسين، «هل أخبرتك أن لدينا في طرابلس الآن مصنعا للبيرة؟» كان ألفونسو قد التقط الصورة، وقدّمها له كهدية وداع، لكنه رأى من الأفضل أن يعطيها لليليانا لتضمّها إلى مجموعتها. كانت سيمون مع ألفونسو في جولة لزيارة آثار صبراتة، ولبدة، لكنهما عادا إلى المدينة في وقت مناسب ليشهدا السباق. ثم تفتّشُ في بقية رسائل ذلك العام إلى أن تجد التي تبحث عنها. هي ذي. حيثُ ذيَّلت الرسالة بملحوظة تقول: ألفونسو اشترى شقة جديدة في روما للعيش فيها مع سيمون، والعنوان في حال احتجتِه هو: 10 ميدان أرمينيا، مدخل الدّرج أ. وجدتهُ. عنوانٌ مدون في رسالة من ذاك العام، وهو عنوان الشقة التي تجلس فيها الآن.

لهذا السببُ بدا لها مألوفا عندما أخبرت سائق التاكسي به. وكانت قد بَعثت برسالة إلى هذا العنوان بعد نحو عام من مغادرتها إلى إنكلترا، لتسأل ألفونسو إن كان يعرف أخبار ستيفانو، فجاءها ردٌّ من سيمون بأنّ ألفونسو تُوفّي منذ عام بسكتة قلبية، وأنها كتبت لستيفانو تُخبره بذلك، لكن لم تتلقّ ردّا منه، وليس لديها عنوان آخر لأخيها، وهي تعتذرُ لعدم تمكنها من مساعدتها. أخبرتها أيضا أنّ ألفونسو تُوفي بين ذراعيها.

الذي تفكّر فيه ليليانا الآن وهي تربط الرسائل مجدّدا وتعيدها إلى مكانها، هو أنه لا يمكن أنّ سيمون فقدت الاتصال بستيفانو، وإن كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن تسكن سعيدة وأبيها في الشقة. لا بد أن سيمون كانت تخدعها، وأنهم أخبروها عن ذلك بقولهم: إن اتصلت بكِ فأنت لا تعرفين عنهم شيئا. لا بد أنّ فريدة أخبرت ستيفانو عمّا فعلته ليليانا، فاتخذوا قرارهم أنهم لم يعودوا يريدونها في حياتهم بعد الآن. ليس هذا بخوفٍ جديد ينتابها. لقد راودها من قبل، لكنه عاودها عديد المرات على مرّ السنين، مثل جرحٍ قديم يتأثر بحالة الطقس. أحيانا يؤلِمُ أكثر من مرّاتٍ أخرى، لكن ليس بقدْر ما يؤلمها الآن، لأنها لم تمتلك إثباتا ملموسا قبل الآن.

لا يمكنها البقاء في مكانٍ ليست مرغوبة فيه، فتدسُّ في حقيبة سفرها نسخة أبيها القديمة من ديوان أزهار الشّر، ومن حقيبتها اليدوية تُخرج خيط الصوف الأزرق الذي تربط به سعيدة شعرها، وبطاقة الصعود، ورقيقة خضراء كانت تغلّف الشيكولاتة، وخريطة المستشفى المطوية، وقصاصة ورق مدوّنٌ فيها هذا العنوان بقلم رصاص، وحتى المقالة الأصلية للصحيفة التي أوردت خبر المنشقّ الليبي الذي أطلِق عليه الرصاص في روما، والتي وجدتها مغضّنة في قاع الحقيبة. تُودعُ كل هذه الأشياء في علبة الحُجيرات، تغلقُ غطاءها، ثم تكدّس فرقها الثياب. بالرغم من العجَلة التي حزمت بها حقيبتها في لندن، إلاّ أنها تمكنت بطريقةٍ ما من إحضار الشالات الخمس الأكثر تفضيلا لديها. اليوم سترتدي شال الساتان الحريري الأحمر المرسوم عليه زهور صفراء متوهجة، والذي اشترته العام الماضي من محل لبيع التحف القديمة. لكنها غيّرت رأيها ووجدته غير مناسبا، بدلا منه تختار الشال الذي حاكته لها فريدة، واحتفظت به كل هذه السنين.

تربطُ الحقيبة وتضعها جانبا عند الباب الأمامي، تطوي الفراش من جديد وتحوّله إلى أريكة جلوس، ثم تضع الملاءات التي استخدمتها في السلة داخل الحمّام. تسحب ملاءات أبرامو من غسالة الثياب وتحملها إلى الشرفة لتعليقها على حبل الغسيل، وأثناء ذلك تحافظ على البقاء لأبعدِ مسافة ممكنة من الحافة التي يصيبها الوقوف عندها بالدوار. تشعرُ بتصلّبٍ في

حركتها وكأنّ مفاصلها تعمل بصعوبة. تذكّرت مثلا يقول إن الجوّ أكثر برودة مما يسمح بنزول الثلج، وكذلك الأمرُ مع مشاعر الحزن التي تلفها، فهي أكثر مما تسمح بالبكاء. إنها متجمّدة بفعل الحزن.

تعاود التأكيد على أن كل شيء في الشقة مرتّب، وأنها أخذت كل أشياءها. تنظرُ للمرة الأخيرة إلى الخزانة ذات المرايا، التي بها ثياب سيمون، فتتذكّر أنها لم تلتقها سوى مرتين، وتتذكر أنها امرأة ترتدي ثيابا أنيقة، وأنها ذات قلب عطوف. حينذاك ظنّت أنها مسنّة، لكن الحقيقة غير ذلك، وربما تكبر ليليانا بعشر سنين، فعندما التقيا في طرابلس كانت تقارب الثلاثين من عمرها، وفي كل الأحوال كانت تصغر ألفونسو بكثير، وهو الذي توفي بين ذراعيها، إثر سكتة قلبية في 1938.

تستقل التاكسي إلى المستشفى، حيث ستعيدُ المفاتيح إلى الفتاة، وتخبرها أن عليها المغادرة، ثم تودّعها. تشكرُ الله أنها لم تفصح لها عن صلة قرابتها بإبرامو، ما يعني أن بإمكانها أن تختفي من جديد. ستشعرُ بالراحة بعد أن تترك وراءها كل هذه الأحداث المزعجة، وأن تعود إلى حياتها الطبيعية.

في المستشفى، تقرر أنّ الأمر لا يستحق ترك حقيبة سفرها في حجرة الإيداع، فهي لن تطيل البقاء. تأخذ الحقيبة معها في المصعد، وتجرّها في الممر، نحو الحارس الذي يسمح لها بالدخول.

في البداية تعتقد أن الرجل وحده في الغرفة، لأن الكرسي المجاور له خالٍ. لكن عندما تأخذ خطوة نحو السرير ترى الفتاة في جانبه الآخر تغطّ في نوم عميق على السرير السفريّ. فتضعُ حقيبتها أرضا وتقف محدّقة فيها، في شعرها الأسود المنتشر فوق الوسادة، ويدها الممسكة بالملاءة، وفي طلاء أظافرها المشذبة، وتلك الاستدارة الآسرة لخدها.

كيف يمكنها ترك هذه الطفلة؟ وما الذي كان يدور حقًا في ذهنها، عندما قررت ذلك؟

لا جدال في الأمر بعد الآن، ولا مزيد من الأفكار المتضاربة. لا مزيد من البحث المضني عن فهمٍ مُقنعٍ لما جرى، ولا يمكنها الوصول إليه. لن تغادر ليليانا إلى أيّ مكان. وبهذا الرأي تدفع حقيبتها جانبا نحو زاوية الغرفة.

تجلسُ في الجهة الأخرى للسرير في انتظار استيقاظ سعيدة. لا يهم ما حدث في الماضي، ولا يهمّ إن كانت قد رُفضت. ستبقى هنا إلى أن تنتهي حاجة هذه الطفلة إليها.

ويهدأ عقلها المضطرب بعد اتخاذها هذا القرار.

فرّاشِيّتان

مادة: وصفة مكتوبة لطبق الحرايمي

مرتديتان فرّاشيتاهما فوق ثياب البيت، انسلّت المرأتان إلى الميدان الصغير الذي لا يفضي طرفه إلى أيّ مكان، حيث شجرة الأبنوس بجذعها المطليّ بالجير البيض، وحيث البنايات التي لا نوافذ لها، وكان الميدان خاليا من الناس كعادته دائما في هذه الساعة المبكرة. فالأطفال الذين يلعبون الكرة فيه، لا يتجمّعون إلاّ في وقت متأخر من النهار. ولأنه ليس طريق مرور رئيس، فلا توجد به دكاكين، وبالتالي ليس هناك مارّةٌ في المكان.

بقدر ما تسمح به ملابسهما الثقيلة، تتحرك الشابتان بسرعة خارج الميدان، فمرّتا بالحمّام البلدي، ودارتا حول المنعطف، حيث يقف السنيور ياكوف أمام مدخل المدرسة اليهودية، يتحدث إلى رجلٍ ملتحٍ مرتديا ثيابا سوداء، ويضع طاقية صغيرة سوداء تلتصق بفروة رأسه. يرفع السنيور نظره في اتجاههما، لكن لا يبدو أن يراهما، فتجتازانه مسرعتين.

روائحُ روث الحمير، وبشرٍ لم يغتسلوا، وعبق أشجار الأوكالبتوس، وروائح أخرى تعمل كلها كنوع من البخور الحادّ، أو تشبه رائحة حيوان ما، فتملأ الهواء الذي تتنفسانه، وإن كان قماش الصوف الذي ترتديانه يعمل على تصفيتها إلى حدّ ما، وكذلك التخفيف منها بالزفير والهواء الذي تنفثانه.

فريدةٌ تقود، وليليانا في أثرها. تعبران إلى شارع آخر ضيق ومتعرّج، حيث تلتصق البيوت ببعضها عند مستوى الطابق الأول فتشكّل نوعا من الظُّلّة تحتها. في هذا المكان نساءٌ مثلهما، صامتاتٌ، ومخلوقات تمشي بتثاقل، ترتدين اللباس المعروف بالفراشية التي تغطي المرأة من الرأس حتى أصابع القدمين.

كانت ليليانا قد تدرّبت على ارتداء الفراشية في البيت، فظلّت تحدثُ حفيفا عند مرورها على أرضية الفناء تحت أنظار فريدة التي تهز رأسها نفيا في إشارة إلى عدم موافقتها، وتجعلها تعيد الكرّة، وتقوم ببعض القفزات أثناء مشيها. أوضحت لها فريدة هذه النواحي غير المعروفة لها من قبل، بتقليدها لحركاتها.. فلا بد أن تحدّ من سرعتها الطبيعية، وأن تُبقي رأسها ثابتا ومستويا كأنها تحمل وعاءً فوقه. لا يجب أن تشدّ الرداء كثيرا فوق جسدها حتى لا تظهر مفاتنها، وكذلك لا تتركه متهدلا، فتجدهُ وقد انحلّ منها. لكن التدريب في فناء الحوش مختلفٌ تماما عن السير في الشوارع، وتركّزُ انتباهها على اللحاق بفريدة، فهي تخشى أن تُترك وحيدة في مكان ما من المدينة، ومن محاولة العثور بمفردها على طريق العودة إلى

البيت، بعينٍ واحدة، وملفوفة من الرأس إلى القدمين، وغير قادرة على السؤال عن الاتجاهات، لأنها إن تحدثت مع أحد ستكشِفُ نفسها.

تُمسك بالفراشية في مكانها بيدٍ واحدة. لقد تعلّمت أن الفنّ يكمنُ في لفّها بشكل صحيح، وفي وضعِ الطيّات حول الرأس والكتفين، لترتيب وضع الزاوية وتراكُبِ الطيّات فوق بعضها، وأيضا في الطريقة التي تقبضُ يدها اليمنى بها من الداخل، مؤكّدة أنها تغطّي الجهة الأمامية بشكل مناسب، وأنّ الوجه في كافة الأوقات مُغطّى بأكمله عدا العين اليسرى. يتعيّن ألاّ تكون الفراشية طويلة فتتعثّرُ فيها، أو قصيرة فتكشف المرأة جزءا خطرا من كاحلها. أخيراً إنْ رغبت المرأة في تحرير كلتا يديها لسبب ما، فعندها تقبض على القماش في مكانه بأسنانها.

تنتقلان إلى زقاقٍ غير مسقوفٍ يُسمى شارع الخياطين الذي زارته مرة من قبل حين حملت فساتين الكونتيسا لتعديلها. توجهت إلى ثالث خيّاط على اليمين حسب توصية السنيور ياكوف. إنه «خياط الشريف» كما تقول اللافتة المعلقة فوق واجهة المحل، وتعلنُ أيضا «نتحدثُ الإنكليزية والإيطالية» مُدوّنة باللغتين. هذان التأكيدان، لا علاقة لهما بالحقيقة، لكنهما مؤشرٌ على ما يتمتع به الرجل من روح الاستيعاب، والابتكار، فكذلك أخبرها السنيور ياكوف. وهي مزايا يندر وجودها عند السكان المحليين. لكن تبيّنَ لها أن كل ما يعرفه «الشريف» من الإيطالية هو «سي سنيورا، أو نو سنيورا» وكذلك يعرف أيام الأسبوع، لكنه على الأقل يفهم لغة الإشارة، قلّدت له عملية إجراء تعديلات على ثيابها، فردّ بلهفة، «سي سنيورا» وعند مغادرتها، انحنى فكاد يلامس الأرض. عرفت منه أنها ستستلمُ الملابس المعدّلة في مساء الغد.

بعض الخيّاطين يستخدمون آلات حياكة يدوية، يضعونها فوق طاولات صغيرة أمامهم، ويعملون جالسين على الأرض وقد شبكوا أرجلهم أمام دكاكينهم الصغيرة، بينما آخرون، مثل الشريف، لديهم آلات حياكة أكبر حجما، يجلسون على مقاعد في مداخل دكاكينهم ليحرّكوا الدوّاسة بأقدامهم. الآن تنسابُ ليليانا بين صفوف الخياطين، وعبر ضجيج آلاتهم. تصل إلى محل الشريف، فتراه جالسا يلف رأسه بعمامة بيضاء، وتتوقف عندما تراه يعمل على فستان الكونتيسا الفيروزي من التافتا، بحاشيته ذات الخرز. لا بد أنه قصّ القماش إلى حجمه الجديد لأنها ترى الخرز الأسود الزائد يلمع داخل وعاء صغير. هذا جيّد. وتشعر بالسرور لأنه لم يضيّعها، حيث ستستعملها لصنع قلادةِ عنقٍ تخطط ُلارتدائها خلال عشاءٍ عندما يأتي ألفونسو وصديقته سيمون إلى طرابلس. يقوم الخيّاط الآن بحياكة الحاشية الجديدة، ولأنه من نوعية القماش الذي يتجعد بسهولة، فهو يتعامل معه ببطءٍ وثبات، فيلقمه إلى الآلة، ويبسطه براحة يده أثناء ذلك. تراقبُ عمله بفضول. وعندما يرفع رأسه ويراها هناك، ترتسم سُخريةٌ ما على ملامح وجهه، ويتمتم بشيءٍ ما لا يمكنها فهمه. لكن قد تكون تلك طريقته لإبلاغها بالتنحي من وقفتها فهي تسدّ عليه الضوء، لأنه وقف حينها مشيرا لها بيده بالابتعاد، وعندما لم تتحرك على الفور، كشّر في وجهها.

للحظةٍ تتسمّر مشدوهة. منذ يومين فقط انحنى أمامها متزلفا، «سي سنيورا سي، ميركولودي، سنيورا، سي» تتخيّل نفسها ترمي عنها الفراشية وتواجهه. تنتزع منه الثياب الغالية التي يبسط فوقها يده، وتخبره أنها ستأخذها إلى خياط غيره،

وأنها ستُخبر السنيور ياكوف عن وقاحته.

لكن وفقا للاتفاق مع فريدة، يأتي في مقدمة الأشياء الثلاثة في طلعتِهما هذه ألاّ تكشِف عن هويتها. هكذا، ومع فورة غضبها، لديها إحساسٌ بالرضا لأنها خدعته، وأنها بهذا الرداء الذي تلف به نفسها، وقليلٌ من الكحل حول عينيها، صار من الصعوبة التعرّف عليها.

تبتلع غضبها، ثم تستدير، وتواصل سيرها.

المهمّتان الأخريان هما أن تتحدث بالعربية لشخصٍ ما، وأن تستثير منه ردّا على حديثها. المهمة الأخيرة هي أن تلاحظ شيئا جديدا حول المدينة لم تلحظه من قبل. لكن فوق ذلك كله، يجب ألا يكشِف أمرها أحد.

«الأمر مختلفٌ» قالت فريدة عندما طرحت عليها ليليانا عرضها للمرة الأولى: أن تخرجَ إلى الشارع متنكرة في زيّ امرأة عربية، وأن تخرج فريدة بزيّ أوروبي. قدّمت عرضها كنوع من اللعبة، وقالت إنّ الأمر ليس خطيرا، ولا يغيّر شيئا من هويتهما الأصلية. هو مثل أداء دورٍ تمثيلي ما، ليس إلاّ. لا تعرف أيّ جانبٍ من العرض راقَ لفريدة، أم أنّ الفتاة تتوق مثلها لأن تبيّن لستيفانو أنها حققت بعض التقدم. مع ذلك لم تقتنع على الفور. رفعت يديها أمامها، راحتاها إلى فوق، وأصابعها مثنية نحوها، ثم حرّكتهما فوق وتحت، كأنها تحمل بطيختين في يديها، وهي تحاول المقارنة بين وزنيهما. أخيرا قالت، «الأمر ليس متساويا، وغير عادل،»

تلك حقيقةٌ بالطبع. فأسهل كثيرا أن تضعِي رداءً وتغطِّي نفسك، من نزع ذلك الرداء وتعريةِ نفسك. «لا شيء عادل بالمطلق،» قالت ليليانا رافعة يديها، ثم مدتهما أمامها وأمالت رأسها إلى الوراء، كأنها تبحث عن العدل والمساواة في ركنٍ ما من السماء. بعد ذلك فردت يديها كأنما تضمّ كل المجتمع المحيط بها، ونظرت إلى فريدة تهزّ رأسها نفيا.

أخذت فريدة خطوة إلى الأمام، رفعت يدها، ووضعت إبهامها على جبين ليليانا قائلة، «لكن هذا الأمر بيننا.»

ارتعدت ليليانا لِلمستها قائلة، «فليكن الأمر متساويا إذنْ، وصعّبي الأمر علي.»

أثناء سيرها استوعبت تصرّف الشريف تجاهها، وما كان يعنيه حول مكانتها الآن في تراتبية المجتمع. هي الآن تشعر بذلك في جسدها، وتدرك أن هناك تبدّلاً طرأ على مشيتها، فيكتنفها نوع من الهدوء لكنه متحرك، نوع من طمسٍ ذاتي لكيانها، تمثّلُ فيه الفراشية مجرّد شكل خارجي. كانت فريدة قد منحتها اسما عربيا تستخدمه أثناء طلعاتها بالفراشية. فهي لم تعد ليليانا بعد الآن، وإنما «سلوى».

الشارع التالي أكثرُ اتساعا وحركةً تمثلت في باعة متجوّلين يدفعون أمامهم عرباتهم، معلنين عن بضاعتهم، وهناك حميرٌ تجرّ عربات محمّلة ببراميل وصناديق مختلفة، وبدويٌّ حافٍ يقود جملا محمّلاً بسلال من عشب الصفصفة التي تتدلى من

جنبيه، وعربةٌ تمرّ أمامها يجرها حمار بالغ الهزال. كان الحيوان مغطىً بالقروح، وهناك جرحٌ غائر خلف أذنه، بينما الصبي الذي يركب العربة يصيح فيه أثناء استخدام سوطه. فيراودها شعور بأنها، على الأقل، أعلى مرتبة بقليل من الحمار.

تستديران مرة أخرى نحو أحد المسالك المظلّلة الذي يبدو أكثر كمكان به بيوتٌ وتقل فيه الحركة. لقد بدأت الآن تعتاد على النظر بعين واحدة، وكذلك أسلوب استيعابها المختلف للفضاء المحيط بها، ومحدوديّة ما يتيحه لها.

تفكّر في أبيها، وفي الطريقة الطريفة التي يُميل بها رأسه منذ الحادث الذي تعرض له. وتفكر كذلك في الفلسفة التي مكّنته من تحمّل فقدِ البصر في إحدى عينيه، وما عناه ذلك من تدنٍ في قدراته. أمِلت ألاّ تكون قد قصّرت في حقه، وأنّ أبيها وأمها يدبّران شؤونهما في غيابها. أثناء اختلاطها مع أخريات يرتدين الفراشية ورأسها منحنٍ قليلا إلى الأمام، كأنها في صلاةٍ ما، تتذكرُ فجأة حين كانت طفلة، وعندما أرادت أن تصبح راهبة عندما تكبر. سترتدي ثوب أمها الطويل الذي يجرّ في الأرض، وتضع محرمة أمها فوق رأسها لتكون بمثابة خمارٍ أيضا، ثم تتمتم بالأدعية بين الأروقة وهي تذرع الخطى بينها. لكن ها هي الآن تستعيد، كما يبدو، هوىً بعيدا، وترتدي ملابس أشبه بالدينية. وهي واحدةٌ بين كثيرات من هذه الأخوّية الصامتة، تتبعُ قوانين غير مكتوبة لا يمكن عصيانها.

تحاولُ الاعتقاد بأنها تكيّفُ نفسها لهذا الرداء الذي يلفّ جسمها، وأنه ليس خانقا كما كانت تخشى لأن القماش المنسوج بخيوط الصوف الدقيقة، ينساب ويتموج بحيث يكوّن تيّارات صغيرة خاصة به، لكنها مع ذلك ودّت لو تخلصت منه ورمته بعيدا.

الآن تقودها فريدة إلى مكانٍ جديد لم تزره من قبل، وهو شارع النسّاجين حيث توجد معدات النول الكبيرة التي تعمل عليها مجموعاتٌ من الرجال. أرادت الوقوف لتراقب طريقة عملهم، لكنها تعرفُ أنّ من الأفضل ألاّ تفعل، فتتابعُ طريقها في هذه المسيرة الصامتة التي لا نهاية لها.

في لحظةٍ ما تعتقد أنها لا تستطيع التنفس بحرّية، وبعدها ترى أنها تتنفس بسهولة أكثر من المعتاد. هاتان الحالتان المتضاربتان تتبدّلان عليها مثل عمل مكبس المحرك، عندما يتم ضغطُه ثم إفلاته. يبدو لها أن هذه هي طريقة عمل الأشياء. كل شيء عبارة عن رقص الأضداد والمتناقضات.

بعينها الوحيدة تكتشف فجأة أين هما: إنهما تقتربان من سانتا ماريا ديلي أنجلي، حيث تتّسع الطريق وتقود إلى ميدان. أمامهما ترى الأب فرانسيسكو واقفا عند باب الكنيسة، يتحدثُ إلى أحد روّاد الأبرشية. تلحق مسرعة بفريدة وتجرها من ذراعها، لتختفيان وراء أحد الأبواب الجانبية. هما الآن بالقرب من الأب فرانسيسكو، وبإمكانها حتى رؤية الشعرات البيضاء البارزة من أذنيه، والشعرةِ السوداء الوحيدة النابتة من شامة فوق صلعته. يمكنها سماع هسيس أنفاسه في نهاية سحبه الهواء، وكأنه يشفط الهواء من خلال ورقة مجعّدة، وكذلك سماع الصفارة عند نهاية الشهيق. يتركه الأبرشي، ويظل القسّ لوحده. يبدأ قرع أجراس الكنيسة، فيرفع بصره إليها، ثم ينظر إلى الساعة، يفحص الوقت، يدقّقه مع ساعة

يده، وبعدها يحول نظره صوب الميدان. تتجاوز نظراته ليليانا دون أن تتوقف عندها، ليس لأنه لا يتعرّف إليها، أو أنه يتجاهلها. ببساطة لم يرها، فقد صارت جزءا من نسيج هذا المكان.

مرة أخرى تسيران تحت أقواسٍ في شارع متعرج، به ظلالُ وتسقط فوقه حزمٌ من ضوء شديد السطوع. تمشيان في صف طوليّ حيث لا مجال للسير متجاورتين، لكنها تحافظ على أن تكون فريدة دائما في مجال رؤيتها، وحتى إن خرجت امرأة من أحد الأزقة وانضمّت إلى المسيرة، يمكنها معرفة فريدة من تكوينِ كتفيها.

قد لا تملك إلاّ عينا واحدة تنظر بها، لكنها تملك الإحساس برؤية أشياء معروفة من زاوية جديدة. فمثلا، من يقابلنها من النساء، تلاحظ أنّ لبعضهن بقعة رطوبة داكنة في منطقة الفم. وأثناء مرورها بهن، تلك النسوة اللاتي يشبهنها، وذلك الحشد الصامت، تبدأ في ملاحظة فروقات دقيقة بينهن. كل معالم الأنوثة مخفيّة عدا العين، لكن من خلال هذه العين يمكن معرفة الكثير، مثل مدى العناية بالعين، وهل هي طبيعية أم مكحولة، هل تحيط بها التجاعيد أم أنّ الجِلد المحيط بها أملس، هل الحاجب فوقها مقوّس أم مستقيم، طبيعي أم منتوف الشعر؟ تكتشف أن النسوة اللاتي يقابلنها يدققن في وجهها أيضا، وأنها غير خافية عنهن.

تلاحظ أيضا أن شيئا ما يحدثُ معها أثناء مشيها بمعيّة بقية النسوة المحجبات، وأن هناك حالة استرخاء ما بداخلها.

تتوقف فريدة عند نضدٍ يبيع فواكه وخضراوات، وهما في الطريق إلى «سوق الحوت» لشراء عشاء الليلة، فليليانا تريد أن تجرّب ثانية طهي طبق الحرايمي وفقا لإرشادات زوجة ياكوف التي دوّنتها، وهي بحاجة إلى الليمون. تتنحى فريدة جانبا، وتتقدم ليليانا إلى الدكان.

هذه مهمتها الثانية اليوم. لِيمون تقول للبائع كما ينطقها الأهالي وأثناء ذلك تشير إلى الليمون. لكن مع يدها المدسوسة داخل الفراشية لم يكن واضحا ما الذي تشير نحوه. تحتاج إلى إبراز يدها الممسكة بالسلة إلى خارج الفراشية لكي تشير بها، وليضع الثمار في سلتها، لكنها ليست متأكدة من كيفية التغلب على هذه المعضلة. يقول البائع شيئا يمكن أن يعني «ماذا؟» أو «كم حبّة؟»... «تلاتا» تقول له، فيهز رأسه في أسف، ويلتفت إلى زبونه التالي. حيث لا يمكنه إضاعة وقته على زبونةٍ غبية لا يمكنها الإفصاح عمّا تريد. المرأة التي بجانبها التي لا ترى منها ليليانا شيئا، حتى العين، تقولُ لها شيئا بصوت خافت، تريدُ مساعدتها. لكن ليليانا واعية لحضور فريدة التي تقف مراقبة بهدوء تحت أحد الأقواس. عليها إتمام مَهمة الشراء دون التخلّي عن هويتها الجديدة. عليها أن تكون مقنِعة، فتهمس للمرأة «تلاتا ليمون» التي بدورها تنقل طلبها إلى البائع، وعندها تُخرج يدها مع السلة حريصة على إظهار أقل ما يمكن من ملابسها التحتية. «شكرا» تقول بالعربية، تسلّمه النقود، وتلحق بفريدة يراودُها إحساس ضئيل بالانتصار.

في «سوق الحوت» تلاحظ أنّ بعض النساء مصحوبات بخادمات سوداوات البشرة، يغطين شعورهن بمنديل أو شالٍ ملوّن، لكنهن سافرات الوجوه. تحمل كل منهن سلّة من سعف النخيل، وتتبع سيدتها المحجبة. إذن، ليست الحمير فقط،

هي الأدنى منزلة في تراتبية هذا المكان.

عندما تصلان البيت، تخلع فريدة فراشيتها كما تفعل دائما، وعلى الفور تبدأ في إخراج المشتريات. بينما ليليانا وراءها تقلّد أفعالها، تخلع الفراشية أيضا، لكنها تستمر في السير بها في يدها عبر الفناء إلى غرفتها الصغيرة، حيث تجلس فوق فراشها وتنهمر في نوبة بكاء. الفراشية في حجرها، وسلة الليمون بجوارها فوق الفراش.

تأتي فريدة وتجلس عند قدميها. تمسك بيدها، وتنظر في وجهها، ثم تهمس لها بكلمات مهدّئة، «ما الأمر؟» لكن ليليانا لا يمكنها قول شيء. كيف ستشرح لها أنها لبعض الوقت عندما كانت ملفوفة بالرداء، بدا لها أن كلّ هواجسها ومخاوفها قد ذهبت عنها؟ لكنها الآن عاودتها من جديد وتُثقلُ كاهلها، وأنها تسكن من جديد خلف صدغها، في الموضع حيث تلتصق مؤخرة الجمجمة برقبتها، وأنها تحسّ بوطأة هذا الشعور. قلقها المتكرر حول أوغو، ومكانتها في قلبه، إنْ كانت لها مكانةٌ فيه أصلا. حول مستقبلهما معا، وأحاسيسها بالخطيئة والذنب؛ شوقها إليه مع نفورها منه أيضا؛ وكيف تتساءلُ دائما في كل أوقات فراقهما عمّا يفعله، ومع من، ومدى شعورها بالخواء والانحطاط بعد نهاية كل لقاء بينهما، وشعورها بالراحة عند سفره في مهمة ما، لمعرفتها أنها لن تُستدعى، وكذلك خشيتها من أن يُرسلها ستيفانو عائدة إلى مونزا، وألاّ ترى حبيبتها فريدة مرة أخرى.

كل هذه المواجع ذهبت عنها خلال الفترة التي كانت فيها مغطّاة في الشارع، بل حتى شعرت بأنها مساحةٌ مارست فيها الحرية.

بعد قليل تمسح وجهها في المنديل الذي قدمته لها فريدة، وتتوجهان إلى المطبخ. تراجع ليليانا الوصفة، وتجمع المكوّنات التي تحتاجها لإعداد خليط كمّون الحوت.

تُوقدُ فريدة الكانون، وتضع فوقه الماء من أجل الشاي، كما تبدأ في تجهيز السمك، وأثناء ذلك تقول لليليانا، «قبل أن نخرج في المرة القادمة، سأنقشُ قدميك بالحنّاء، أهذا ممكن؟»

تجلس ليليانا فوق وسادة وتضع المسحان بين قدميها، كما شاهدت فريدة تفعل، وتشرع في إعداد التتبيلة. تطحن الفلفل وبذور الكروية، والكزبرة، والكمّون، والثوم، والنعناع المجفف. «سيشاهدُ الناسُ ذلك.» تردّ عليها.

«لن أضع الحناء إلاّ على باطن قدميك، حيث لا ينظر أحد،»

«لكن ما الفائدة إن لم ينظر إليها أحد؟»

«هذه هي الفكرة، ألاّ يراها أحد، فالمخفيُّ أكثر جمالا، لأنه ليس للعرض!»

لكن هي، أي ليليانا، ستعرف، وسيساعدها ذلك على التحوّل إلى شخصية سلوى.

«حسنا إذن، لنفعل ذلك،» تنقلُ البهارات المطحونة إلى صحن فخّار تضعه بين قدميها، وتضيف إليه عصير الليمون والماء، ثمّ تحرّك الخليط أثناء ضغطها بباطن قدميها على جانبي الصحن.

«ما الجديد الذي رأيتِه اليوم؟» تسألها فريدة. فتذكر لها الفتيات السوداوات اللاتي قابلتهن.

«هنّ من العبيد،»

«لكن لم يعد هناك رقّ؟» تردُّ محتجّة.

تطقّ فريدة لسانها مرتين وتدفع رأسها إلى الخلف مع رفع الذقن.

«لا !» تصيح ليليانا.

«هنّ في مقام العبيد،» وأثناء ذلك تحمل قطع السمك وتُسقطها في الطنجرة.

عندما يجهزُ الشاي تضع السفرة على الأرض بينهما، وتغطس بجسمها في الوسادة المقابلة. تصبُّ الكوب المرغوي الأول، ثم وهما ترشفانه، تبدآن التخطيط لطلعات مستقبلية، في الوقت الذي ستتحول فيه فريدة إلى روزيتا.

قذارة

مادة: أزهار مضغوطة، عبارة عن براعم صفراء لشجرة لوسنيا أنيرميس المعروفة أيضا بالحنّاء. كُتب النوع تحتها بخط اليد بحبرٍ أسود. وتحت اسم الزهرة ملحوظة بحبر مختلف تقول: الرائحة المفضلة للنبي محمد.

«اغسلي هذا الذي يبدو مثل القذارة.» يأمرها أوغو.

لم تخبره أنّ وشم الحنّاء لا يختفي بسهولة، وأنه مهما تعرضت للغسل، فلن تُمحى الأشكال المرسومة على باطن قدميها بسهولة، وأنّ الزمن وحده كفيلٌ بجعلها تبهت تدريجيا إلى أن تختفي. الجلدُ في باطن قدميها سميكٌ يتشرّبُ صبغة الحنّاء بعمق، ما يمنحها لونا داكنا، ويؤكّد أنها ستبقى لمدة طويلة. وإن كانت ترغب في التخلص منها بسرعة، سيتعيّن عليها كشطُ الطبقة الفوقية من الجلد. تجلسُ الآن في حوض استحمامه المملوء بالماء المصوبن، وتقوم بخرط كل قدم على حدة إلى أن يحمرّ لونها، لكن لا يزال بإمكانها رؤية الزخارف التي رسمتها فريدة. لقد بالغت في دعكهما حتى أنها لا تعرف إن كانت تستطيع المشي على قدميها.

يمكنها سماع أوغو خارج الحمّام يتحدث إلى إبراهيم، فسرعان ما يتوجّه إلى القاعدة الجوية، أما هي فستبقى منقوعة في الماء حتى ذلك الحين، ولاحظت تغضّن الجلد في أصابع يديها. بعد أن يغادرُ ستخرج من الحوض وتطلب من إبراهيم استدعاء عربة أجرة، فلن يمكنها السير على قدميها، ولا حتى إلى فيّا أورازيو، حيث ملتقى عربات الكاليس. ستذهب إلى البيت بأسرع ما يمكنها، ولو كانت فراشيتها معها لارتدتها واختفت. لكن لا، هذا لا ينفع. فأيّ امرأة ترتدي الفراشية ستُلاحظ على الفور في هذه الشوارع الإيطالية. سيصرخون في وجهها، ويطردونها.

تفكّرُ في فريدة وتتسارعُ دقّات قلبها السريعة أصلا. يا لقلبها المثقل بالهموم هذا. ثم تضع يدا فوق صدرها وتبقيها هناك.

كانت فريدة قد اشترت الحنّاء من سوق البهارات وطحنتها في مسحانٍ كبير، ثم نخلت الخليط خلال قماش دقيق المسام، وخلطت المسحوق الأخضر بماءٍ، وشايٍ بارد، وليمون. ثم تركته يستقر في صحن على الأرض، في ركن الفناء.

تنبعث من معجون الحنّاء رائحةٌ قوية مثل رائحة التراب، ومثل القشّ المبلول. إنها مختلفةٌ كثيرا عن الرائحة التي تطلقها الأزاهير الصغيرة لشجرة الحنّاء التي قطفتها ليليانا أثناء زيارتها للواحة، ودسّتها بين دفتي كتاب. أخبرتها فريدة أن رائحة زهور

الحنّاء هي المفضلة عند النبي محمد. فتساءلت ليليانا في نفسها من أين لها معرفة هذه المعلومة، وكذلك تساءلت ماذا كانت روائح الزهور المفضلة عند يسوع المسيح، وكيف أن هذا الأمر لم يخطر ببالها من قبل.

استلقت على بطنها فوق وسادة في الفناء، ووضعت قدميها في حِجْر فريدة التي بدأت تزخرفهما بالحنّاء. في البدء تلوّت ليليانا وضحكت بسبب الفُرشِ وعيدان الرسم التي تدغدغها. كان إصبعُ قدمها الكبير ينتفض خارج السيطرة، فوضعت فريدة يداً فوق ربلة ساقها لتثبيتها، وأخبرتها ألاّ تتحرك وإلا أفسدت النقوش. واستقرت ليليانا على عملية اختلاج ثابتة لم تستطع مقاومتها بسبب الدغدغة، واللمس، والخدر التي تشعر به ويسيطر على وعيها، كأنّ جوهر كيانها قد استقرّ هناك في بطن قدميها وفي أصابعها. قدماها تعملان كمستقبلات تشعران بأقل اللمسات، بينما تعمل أصابع قدميها كموصّلات تُرسل الأحاسيس عبر جسمها، ولهذا السبب ترتعش بلا توقف، ومع ذلك لم تردع الاختلاجات فريدة عن مواصلة عملها، وحين انتهت من مهمتها تحركت لتستلقي بجوارها فوق الوسائد إلى أن تجف الحنّاء. ثم أخبرتها عن الليلة التي تسبق ليلة الدخلة في موطنها، عندما تأتي امرأةٌ وتبدأ في تزيين العروس، وعن كيف يدمجون اسم العريس في الزخارف، بالإضافة إلى علامات تدلّ على القبيلة.

«هل كان لكِ ليلة حنّاء؟» تسألها ليليانا على الرغم من معرفتها المسبقة بأنها قد رُتّبت لها ليلةٌ بالفعل، لأن ستيفانو حكى لها كيف أن فريدة كانت مكسوّة بالثياب والزخارف على جسمها حين أتوا بها إليه.

«نعم، كان لي.» أرادت ليليانا أن تتخيّل مثل ذلك الاحتفال، «وهل زخرفت لكِ أمك يديك؟»

«كلاّ بل سيّدة من القرية.»

«سيّدة من القرية؟»

«نعم.»

في الغالب بعد مثلِ هذه التبادلات بينهما، لا تشعر ليليانا أنها أكثر معرفة مما كانت عليه من قبل لأنّ فريدة تقدم لها نُتفاً من معلومات تبدو عشوائية، لكنها قد تكون محكومة بمنطق خفيّ ما. تولّدَ لديها إحساسٌ بأنها كلما عرفت أكثر عن أصول فريدة، وأسلوب تفكيرها، كلما في الواقع عرفت أقلّ. الحقائق الوحيدة التي تعرفها عنها الآن هي أنه في موطن فريدة في الصحراء تتجوّل النساء في الغالب دون نقاب، وأنّ الخيام (البيوت) التي يقطنونها مصنوعة من وبر الإبل، وأنّ من بين إخوتها، لم يتبق على قيد الحياة سواها مع أخٍ لها. كما أنها لا تعرف أين يكون أخوها صادق الآن، وإن كان لا يزال على قيد الحياة، وأنه ليس من مهام فريدة جلب الماء من البئر لأنّ العبيد هم من يقومون بذلك، وكذلك هناك امرأة متخصصة في نقوش الحنّاء. لم تكن هذه رؤى لحياة المرأة الأخرى، بل ظلت الصّورُ تطفو في ذهن ليليانا، واضحة، وغير مترابطة.

بعد ذلك أخذت ليليانا تُبدي الإعجاب بقدميها أمام المرآة. جلست مستندة إلى المقعد، تمدّ ساقيها مستقيمتين أمامها، كي تتمكن من رؤيتهما معا، بما فيهما من تعرجات وخربشات والنقاط المحدّدِةِ للخطوط التي تملأ وسطَ باطنِ

قدميها. رأت أن الزخرفة جميلة وغامضة، لقد رسمت باطن قدميها المهملتين في السابق والبديعتين في نظرها، ولا تتذكر أبدا أنها خضّبتهما من قبل. لاحقا جهّزت ليليانا فريدة لخروجها الأول في ثياب أوروبية، واستخدمت عليها أدوات زينةٍ كانت قد اشترتها من مصطبة في سوق البهار، غطّت بها الوشم في وجهها، واحتاجت في ذلك إلى وضع ثلاث طبقات متعاقبة، ثم أضافت مسحوقا للتثبيت. كان طولهما متماثلا تقريبا، وربما تزيد فريدة عنها بسنتيمتر واحد، وبالتالي يمكنهما ارتداء ثياب الكونتيسا المعدّلة. لكن بالنسبة لخروجهما الأول هذا ستمشيان لمسافة قصيرة حول حيّهما، وقد ارتدت فريدة الفستان القطنيّ الواسع ذا الياقة العالية واللون الأخضر الزبرجدي الذي اختارته لها من البداية للخروج إلى العالم الواسع متقمصة شخصية روزيتا. لوّنت شفتي فريدة بأحمر شفاه قرمزي فاتح، ولفّت شعرها الطويل في عقصة قصيرة، ثم خرجتا إلى سوق الصنايعية لمعاينة السِّلال المجدولة. لا يوجد أيّ ضرر في ذلك.

بعد قليل سيغادر أوغو، وتبقى هي مع جسدها الموجوع والمسحوج بفعل الماء الذي بدأ يتحوّل إلى البرودة، وستهرع عائدة إلى فريدة، وتفكر في خطة ما لحمايتها وحماية ستيفانو.

لا تدري لماذا لم تفكر في الكذب، بالقول إنها حنّت قدميها في محل تجميل، وإن هذا الوشم يُعتبر موضة جديدة بين الفتيات الإيطاليات هنا. لكن أوغو بدا لها مُفتتنا بها أكثر من كونه غاضبا منها، ولم تملك في الحقيقة وقتا للتفكير.

لكن من الأساس ما كان يُفترض أن يرى قدميها أيّ شخص آخر.

ومع ذلك فأوغو ينظر إلى كل جزء من جسدها. وفي الواقع يحب النظر إلى جسدها أكثر مما ينظر إلى وجهها. وفي أوقات مختلفة يركّز نظره على مؤخرتها، أو إبطيها، أو الجانب الداخلي من فخديها، أو الجزء الخلفي من ركبتيها.

لكن ما كان يجب أن ترفعهُما فوق ذلك المقعد الواطئ.

اليوم كان لقاؤهما سريعا، مشوبا بالعنف، فحافظت على غلق عينيها طوال الوقت، جاعلة نفسها خاضعة له قدر إمكانها. ولما قضى وطره منها استلقيا لبعض الوقت، هي برأسها مستندا إلى صدره، أما هو فغلبه النعاس قليلا. كان الوهن والرضا باديين عليه وهو مستلقٍ على ظهره.

تسمع طقّة الباب الخارجي، فتنتصب جالسة في الماء. هل غادر؟

قبل ذلك وحينما كان يستحمّ، ذهبت للجلوس في غرفة المعيشة. إبراهيم لا يزال يرتّب المكان، فظلت تراقبه وهو يفرغ منافض السجائر ويعيد وضعها فوق طاولة القهوة، وفوق مسند الأريكة، ويكنس الأرضية، ويُعدّل وضعية لوحة موسيليني على الجدار التي مالت بشكل ما إلى الجانب. «إبراهيم،» قالت بعد برهة، فانتصب جسمه، وأحنى لها رأسه، «لم أر عليّا لبعض الوقت. هل تعرف أين هو؟»

هزّ الفتى رأسه، وتحركت عيناه إلى جانب، كأنّ أوغو قادرٌ على رؤيته عبر جدار الحمام.

«صبيٌّ مختلف جاءني بالرسالة أمس، وفي المرة الأخيرة التي كنتُ فيها هنا..... آمل ألاّ يكون مريضا.»

«ليس مريضا،»

«ما الأمر إذنْ؟»

وتحوّلت عيناه إلى الجانب مرة أخرى.

«أنا قلقة عليه فقط، فهو ليس إلاّ فتىً صغيرا.» على الرغم من أنها لم تذهب لأسابيع الآن، لكن في مرتين أثناء تجوّلها في الشارع مرتدية الفراشية، رأت عليّا، وتساءلت إن كان يبحث عنها. لكنها رأته ولم يرها. ومع أنها لم تكن تختبئ من أحد، إلاّ أنها شعرت بالرضا لمعرفة أن ذلك بإمكانها.

«لقد طرده السيد.» قال إبراهيم.

«أوه لا، لماذا؟»

«لا يؤدي عمله جيّدا، ويستغرق وقتا طويلا لأداء المهام، وأحيانا يكون الأوان قد فات، ولهذا طرده،» وقام بحركة بيده كأنه يخبط ذبابة، ثمّ رفع سفرة الأكواب والصحون داخلا بها إلى المطبخ.

كانت تشعر بغياب عليّ، وبفقده، على الرغم من أنها لم تكن تراه إلاّ للحظات.

نهضت متوجهة إلى باب المطبخ. كان إبراهيم منهمكا في غسل الصحون، فرفع عينيه نحوها. أرادت أن تعرف إن كان طردُ عليّ بسببها، وهل لأنه فشل في العثور عليها لتوصيل رسالةٍ ما؟ لكنها لم تعرف كيف تطرح السؤال، فقالت بدلا من ذلك: «هل يعاملك السيد بالحسنى؟» طأطأ الفتى رأسه وأخذ ينظر مباشرة إلى حوض الغسيل، فعادت مسرعة إلى مقعدها بجوار النافذة.

دخل أوغو إلى الغرفة بعد أن اغتسل ووضع المرهم. كان مرتديا بدلته العسكرية، في إعلان عن أنه رجلٌ جديد الآن، ثم قبّلها، «أنتِ تعيدين بث الحياة في عروقي» وجلس قبالتها في كرسي الخيزران الكبير عند النافذة، بينهما مسند القدمين وطاولة القهوة. جلب إبراهيم كأس ويسكي مع صودا لكلّ منهما، وكانت قطع الثلج في الكاسين تُصدرا أصواتا. فتجرّع أوغو كأسه مرة واحدة، وأُعيد ملؤها على الفور، وهو يحرّك الشراب في كأسه.

حين تذكرت ما حدث لاحقا ضمّت ركبتيها إلى صدرها، وأصاخت السمع، ليس بأذنيها فقط، وإنما بكيانها كله - جلدها المنقوع تحت الماء، الذي طاله التغضن، والجزء المكشوف من جلدها الذي وقفت فيه شعراتها الدقيقة، وأعلى كتفيها.

تذكرت حين شعرت بالاسترخاء وبالثقة، فوضعت قدميها فوق المقعد وهي ترتشف شايها. «ما هذا الذي في قدميك؟» نهض من مقعدة متوجّها نحوها، وجثا فوق ركبتيه ليتفحّصها عن كثب. «إنه رسمُ حنّاء،» قال بصوت هادئ. وبدا لها مُفتتَنا بالأمر، «كيف حدث هذا؟» ثم ابتسم ومسّد قدميها، «يا قطتي الصغيرة!»

لم يكن من المفترض أن يراهما. فهذا سرّها الخاص، سرّها هي وفريدة. ولم يسعفها تفكيرها بشيء تقوله.

«وهذه؟» قال ممرّراً أصابعه على خطوط الحنّاء، هذه التي في الوسط، أليس كذلك؟ ماذا تقول؟»

«إنها مجرد أشكال،»

«لا،» صحّح لها، «إنما هي كلمات، وثمة كتابة هنا.»

«أوه، ظننتُ أنها مجرّد أشكال،».

«إبراهيم، تعال هنا، ماذا تقول هذه الكلمات؟»

سلوى

قرأ إبراهيم الاسم، «إنه اسم لطائر صغير نأكله، ولا أعرف معناه بالإيطالية.»

«وهذا؟» سأل أيضا.

فريدة

«فريدة، وهو اسم امرأة،» أضاف إبراهيم.

حينذاك فقط عرفت أن فريدة كتبت اسمها، الذي يعني جوهرة بديعةً وفريدةً من نوعها في أسفل قدمها اليمنى، مع اسم سلوى في اليسرى، والذي يعني المواساة والتسلية، لكن يبدو أيضا أنه اسمٌ لطائر يأكله الناس في هذه الأنحاء.

«يمكنكَ المغادرة الآن،» قال أوغو لإبراهيم، وأضاف، «أشكال بديعة ورُسمت بعناية،» ثم جثا هناك يُمسك بقدميها، وقال بنبرة محادثة هادئة، «ومن تكون فريدة هذه؟»

أحيانا كانت تتخيّل كما لو أنه طلبَ منها البقاء في الشقة معه، كي تكون بمثابة زوجة له، كما فريدة بالنسبة لستيفانو. أن تكون محظية له. فبإمكان الرجل هنا أن تكون له محظية، حتى مع وجود زوجة له في الوطن. «إنها زوجة أخي، أو شيء من هذا القبيل،» قالت، فلم تر ضررا في إخباره بالأمر.

«حقّا؟» كانت عيناه تشعّان بالاهتمام مقرونا بالعجب، «أخبريني المزيد عنها،» وأخذ يمسّدُ قدميها.

كان يجثو هناك متأنقا في بدلته يُمسّد قدميها، ويُمطرها بأسئلته. من أين هذه الفتاة؟ وكيف عثر عليها أخوها؟ واكتشفت أنها لم يسبق لها أن قالت شيئا حظي باهتمامه بهذا الشكل.

«هل هي جميلة؟»

«نعم،»

«في مثل جمالكِ؟» وانتقلت يداه إلى ركبتيها.

«أكثر مني جمالا.»

«أشكّ في ذلك، فليس بالضرورة أن يكون حكمُ النساء أفضل في مثل هذه الأمور، وهل يريد أخوك الإبقاء عليها؟»

إنها ترتعدُ الآن في حوض الاستحمام. ليست متأكدة بعد أنّ أوغو غادر البيت، وهل يمكنها الخروج بأمان. كان عليها أن تكذب في تلك اللحظة، فحين قال: «وهل يريد أخوك الإبقاء عليها؟» كان بإمكانها أن تجيبه، «كلا، بل سيعيدها إلى ذويها في الشهر القادم،» أو شيئا من هذا القبيل. إنها تعرف خطأها الآن، لكنها كانت تتحدث إلى عشيقها في خصوصية تامة، وكان مبهورا بكل كلمة تخرج من فمها، وأيضا لم تر هي ضيرا في ذلك.

«نعم، يريد أن يبقيها، وأن يعلّمها أسلوب حياة الإيطاليين.»

«لكي تُصبح كالإيطاليات؟»

«ليس تماما. فقط أن ترتدي الثياب الأوروبية، وأن تطبخ طعاما مألوفا له، وأن تخرج معه، أي مثل هذه الأمور.»

«لكن حتى إن تعلموا لغتنا، وارتدوا مثل ثيابنا، فلن يجعل ذلك منهم إيطاليين»

«طبعا لا،»

ابتسم وهز لها رأسه، «لا يمكنها أن تُصبح إيطالية أو أوروبية، فهذا ليس من طباعها المتأصلة فيها. لا يمكن أن تُصبح جزءا من تاريخنا، فهي ليست من جنسنا»

«طبعا لا،» صادقت على حديثه.

«في أفضل الأحوال يمكنها فقط أن تصبح تقليداً. لكن في قرارة نفسها ستكون دائما أقل منزلة.»

لكن بإمكان فريدة الحديث بثلاث لغات، وتستطيع إطعام بيت بأقل ميزانية متاحة، وبإمكانها أداء مقطوعات كاملة من الأغاني الإيطالية، كما يمكنها أن تنسحب داخل نفسها وأن تجد الراحة والملجأ هناك. نعم يمكنها المقاومة والبقاء

بالفعل. كما أنها لم تتلقّ تعليما لكنها مُطّلعة، وبإمكانها مناقشة أفكار متضاربة عديدة. وفي الوقت نفسه هي امرأة ذات ولاءات معقدة. ذكية، ولطيفة، ومخلصة، وحيوية.

«هل هي مخلصة؟»

«تقصد لستيفانو؟»

«بل لقومها؟»

«لا أعتقد أن لها اتصالا بهم.»

«ربما نبذوها لأنها عاهرة، وهذا مؤسف، مع ذلك عليكِ معرفة هذا الأمر، فربما تتواصل معهم في السّر. أعرفي من هو أبوها، وإن كان يقود مجموعة من الرجال.»

«لماذا؟» كان صوتها يرتعد قليلا.

جلس أوغو إلى الخلف مستندا فوق كعبيه، ونظر إليها مباشرة.

«هل يعرف ربّ عمل أخيك أنه يحتفظ بعدوّة لنا في بيته، وفي فراشه؟»

«فريدة ليست عدوة لنا.»

«كلهم أعداؤنا.» قال وهو ينهض، ويقف فوق رأسها.

«إنهم خونة يقولون شيئا، ويعنون غيره.»

أشاح عنها ببصره ونظر إلى جانبٍ، إلى خارج النافذة. بدا أنه يفكّر، ثم أومأ لنفسه، والتفت ينظر إليها من علٍ. «سأخبرك شيئا يوضّح ما هم عليه، وعندها ستفهمين. فمن التحقوا بنا للقتال في صفّنا، من يُطلقُ عليهم اسم المهدّئين، اكتشفنا خلال المعارك أنهم لا يستخدمون ذخائرهم، بل يُسقطونها على الأرض لكي يجدها رفاقهم لاحقا، ويستخدمونها ضدنا.» ثم رمش عينيه نحوها. رمشةٌ بطيئةٌ فوق عينيه الواسعتين، منتظرا ردّ فعلها.

«وماذا يحدث لمثل هؤلاء؟» سألته.

يضع يديه حول عُنقه، ويلفهما مثل أحبولة، ضاغطا بإبهاميه فوق تفاحة آدم، ثم ترك رأسه يسقط إلى جانب، بينما عيناه جاحظتان يحرّكهما أعلى وأسفل. كان ذلك للحظةٍ خاطفةٍ حين اتخذ وضعية تلقائية لثوانٍ، قبل أن يرفع يده عن عنقه وينحني فوقها مبتسما.

كلُّ ما بوسعها في هذا الموقف هو أن تحاول ألاّ تجفل. ثم يضعُ يديه. يدا الجلاّد. فوق كتفيها، ويُميل رأسه إلى جانب لتقبيل عنقها. بعد ذلك رفعها وحملها إلى غرفة النوم.

«أخبريني المزيد عن زوجة أخيك البدوية العاهرة،» فكّ بنطاله واستلقى فوق السرير. «تعالي هنا،» وأجلسها فوقه. لم تكن تضع عليها سوى ردائها الحريري، «استديري،» ورفعها لكي تكون في مواجهته. «لا تتوقفي عن إخباري عن الفتاة، ما طولها؟ وهل رأيتها عارية؟ ما شكل جسمها؟ وما لون بشرتها؟ ثم رفع قدميها بحيث صارت ساقاها مثبتتان، ووضع يده بينهما رافعا إليتيها ومباعدا بينهما، ومثبتا إياهما في الهواء، بعد ذلك حرّك يديه بحيث صارت جالسة فوقه، يكاد دفئُها يسقط منها، إلى أن تركها تنزل فوقه. «استمري في الحديث،» ورفع قماش ردائها فوق رأسها بحيث صار الجزء العلوي من جسمها ملفوفا فيه، والتحتي نصف عارٍ.

حينذاك فقط، بدأت تصف له فتاة مختلفة تماما، حيث اخترعت تفاصيل معيّنة ليست في فريدة، شامةٌ فوق ثديها الأيسر، ومؤخرةٌ عريضة، وشعرٌ مجعد، تضع خاتما في سرّتها، وفي أنفها تعلّق جوهرة.

لاحقا أخبرها، «ينبغي أن يتعامل أخوك معها بحذر، فهو ليس عضوا في الحزب وبالتالي لا يتمتع بحمايتنا.»

بلعت ريقها وأحسّت بطعم المرارة في حلقها، ثم قالت، «كان يتحدثُ حول الانضمام إلى الحزب.»

«لقد تأخّر الوقت على ذلك،» ثم أنزل ساقيه عن السرير، زرّر بنطاله، ووقف أمام المرآة يسوّي شعره، «كان ينبغي أن ينضم قبل مغادرته إيطاليا، فلن نقبل به الآن.»

وحينذاك أمرها بإزالة الحنّاء.

تسمعُ صوت أحدهم يتحرك في المطبخ، يفتح درجا ويغلق آخر. ثم صوت خشخشة أدوات الأكل، فلا بد أن هذا إبراهيم. لا بد أن أوغو قد غادر.

تُطلق زفرة مكتومة ثم تمدّ يدها خلف رأسها، وترفع شعرها المسدول عن عنقها. تضعه فوق حافة الحوض كي لا يبتلّ، وتنزلق بجسدها لمرة أخيرة في الماء الفاتر.

ثم ينفتح باب الحمام ويدخل أوغو الذي يقف عند طرف الحوض مبتسما لها من علٍ، فتسري ارتعاشة في جسمها. إنه لا يزال هنا ولا بد أن المغادر كان إبراهيم. يخلع سترته ويعلقها وراء الباب، يطوي أكمام قميصه، يغطس يده في الماء، وينتشل إحدى قدميها. «هذا الماء بارد،» يُخبرها. يتفحّص باطن قدمها ويهز رأسه، ثم يضع تلك الساق على حافة الحوض. «أريني الأخرى،» فترفع ساقها طائعة. «لا تزالان قذرتان،» يُخبرها، بينما هي تستند بمرفقيها إلى الجانبين حتى لا تنزلق تحت الماء. يضع الساق على الجانب الثاني من الحوض، ويقترب بحيث يقف بين ركبتيها عند نهاية الحوض، ثم يشبك يديه تحت فخديها. «تنفّسي بعمق،» ثم بسرعة ودون مقدمات يرفع النصف التحتيّ من جسمها العاري إلى فوق، فينزلق

رأسُها تلقائيا إلى قاع الحوض. صار ثُقل جسمها يتركّز خلف رقبتها، فرفعت يداها لتتشبث بحافة الحوض، كما فتحت عينيها لترى صعود فقاعات الهواء وهي تخرج منها. من تحت الماء تقتنص نظرة إلى وجهه المحدق فيها، لكنها تشعر بفراغ، فلا يوجد هواءٌ بداخلها.

لكن الأمر ينتهي في لحظة. بعد أن يُخرجها من الماء، يلفّها في منشفة، فتنطلق منها شهقة، أما هو فيجلس على حافة الحوض وهي في حجرِه، ثم يقول، «لا تخافي يا طائري الصغير، أنا ممسكٌ بك. فهل ظننتِ أنني سأتركك تغرقين؟»

على نحوٍ مشوّش ما، ترى من المضحك أنّ فريدة أطلقت عليها اسم طائر، بينما الوضع الآن عكس ذلك. فمنذ وقت طويل وعند بداية معرفتها بها، راقبت فريدة وهي تثِبُ في فناء الحوش، وتساءلت في نفسها، هل يمكنني أن أجعل هذا الطائر يغني؟ وتفكّر في طائرٍ داخل قفصٍ يتشبث بمخالبه فوق عصا الارتكاز المتأرجحة، ويصدح بالغناء كأن قضبان القفص غير موجودة. «لا تخافي، لا تخافي، أنا ممسكٌ بك،» يهدهدها فوق ركبتيه، «آسف لقد كنتُ غاضبا.»

تدسّ نفسها مرتعدة بين ذراعيه. إنه يحبّها حقّا، وهي تعرف ذلك.

ضريحٌ مطليّ بالأبيض

مادة: مقال في مجلة بتاريخ مايو 1980 يتحدث عن اكتشافٍ بالصدفة لغرفةٍ تحت الأرض، في مقبرة بريسيليا، شمال روما.

تصفحت ليليانا المجلة المرفقة بالصحيفة بحثا عن خبرٍ مثير تقرؤه للرجل في غيبوبته. المقال الذي اختارته بعنوان «ضريحٌ مطليّ بالأبيض» يتحدث عن اكتشاف جديد حدث بالصدفة لغرفةٍ مخفيّة، في مقبرة بريسيليا شمال روما.

تبدأ في القراءة بصوت عال، ويصف المقال كيف أن مجموعةً من السيّاح كانوا في زيارة إلى المقبرة برفقةِ دليلٍ،حين سقط طفلٌ من المجموعة من فتحة منهارة في الجدار، ليقع في الغرفة. ولحسن الحظ لم يُصب الطفل إلاّ بخدوش بسيطة بالإضافة إلى الصدمة. تبعا لهذه الحادثة جرى توسيع الفتحة بحذر شديد لمزيدٍ من فحص المكان. وبدا للباحثين أنّ جدران الغرفة كانت قد طُليت باللون الأبيض قبل قرونٍ عديدة، ولا يزال هناك أثرٌ للطلاء على أحد الجدران. تلك الغرفةُ المكتشفة حديثا تقع بالقرب من المعبد اليوناني الذي يحتوي على نماذج جصّية من القرن الثالث تمثّل مشاهد توراتية، ويُعتقد أيضا أن المكان يُخفي المزيد من هذه الآثار.

وصف المقالُ سقوط الطفل، بأنه: «سقوطٌ فعليّ عبر مراحل الزمن.» وانصبّ تركيز ليليانا على الجملة التي هزّتها، كأنها تسقط هي أيضا. تنظر إلى الفتاة سعيدة وهي تتكوّر حول نفسها في السرير السفريّ الصغير، تغطّ في النوم على الرغم من تجاوز الوقت التاسعة صباحا، وأن المستشفى قد استيقظَ ويعجّ بالحركة منذ ساعات، لكن حين حضر الطاقم الطبي للمرور على المريض، مشوا على أطراف أقدامهم من حولها، وتحدثوا همساً. يقولون إنّ الفتاة كانت مستيقظة أغلب الليل، ولم تنم إلاّ في ساعات الصباح الأولى، وبالتالي لم تعرف ليليانا إذا ما توجّب إيقاظها، وإرسالها إلى البيت لتستريح إن وافقت على ذلك، أم تتركها تواصل نومها. بإمكانها ملاحظة عدم ارتياح طاقم التمريض لوجود شخص ثانٍ مضطجع في الغرفة الصغيرة.

يقول المقال إن تلك الغرفة التي تحت الأرض، لا بد أنها استُغلت أيضا كديماسٍ كنسيّ لأنها احتوت عدة هياكل عظمية، كما يشير إلى أنّ مقبرة بريسيليا تُعرفُ أيضا بأنها (أمّ الأضرحة) لاحتوائها على بقايا العديد من الشهداء، وأكثر من واحدٍ من الباباوات.

في منتصف الجدار يُمكن رؤيةُ صورةٍ باهتة لأمّ وطفلها تظهر من تحت الطبقة الفوقية، ويرى المقال أنها ربما صُنعت من مجسّم جصّيّ، لكن من نزعها، ولماذا؟ وما الأسرار التي ستُفصح عنها حين يتم كشف خباياها بالكامل. لكن وكما يدّعي المقال أن هناك آراء بأن صورة المرأة والطفل قد لا يرمزان إلى المادونا والطفل يسوع، وإنما إلى ديانة بدائية تمارس التضحية بالبشر وتجعل منهم قرابين.

تتوقف ليليانا من جديد بينما تسري رعشة في بدنها، تتسبب في انحناء كتفيها، فتقول لنفسها، يا إلهي، ويا لقوة أعصابهم. ثم تطرد عنها هذا الشعور، وتستأنف القراءة. حين تنتهي تمزق المقال من المجلة، تطويه إلى مربعات، وتضعه في حقيبة يدها.

لا تزال الفتاة نائمة، بينما يستلقي الرجل غائبا عن الوعي، وبلا حراك.

على الرغم من دفء جوّ الغرفة، إلاّ أن ليليانا بدأت ترتجف، فتقول لنفسها إن شيئا لن يؤثر عليها، مثلما ينزلق الماء عن ظهر البطة دون أن يترك أثرا، وتحاول استحضار مثلِ ريش أجنحة البط الشمعية الذي أرشدها في سلوكها طوال كل تلك السنين العديدة. بدلا من ذلك تتذكرُ طائرا مختلفا، وهو طائر ليبيّ يُسمّى صرد الصحراء الرمادي، ويعرف أيضا بالطائر الجزّار. بإمكانها تصوّره هناك رابضا فوق سارية عَلمٍ ما، يُهوّي جناحيه. تتذكر ما قاله أخوها عن أسلوب قتله لطرائده عن طريق خوزقتها على عودٍ ما، وتركها تنزف حتى الموت. يبدو لها أن من المهمّ تذكّر التفاصيل، فبينما تفكّر في صرد الصحراء، يخطر ببالها الآن رجلٌ يُلقب بالجزار. والليبيون هم من أطلقوا عليه هذا اللقب الذي استحقه في فزان، قبل حتى أن يأتي إلى برقة. وأن تفكّر في الطائر بالتزامن مع ذلك الرجل معناه عدم الحطّ من قيمة الضحايا، واعتبارهم مخلوقات ضئيلة لا قيمة لها، وإنما هم بشرٌ أسوياء. رجال عالقون فوق خوازيق يحاولون جهدهم تخليص أنفسهم، إنما ليتورطوا أكثر في حبائل الأسلاك الشائكة، التي وضعها الجزار على طول الحدود مع مصر. تعرف أنها لم تر ذلك بعينيها، لكن بإمكانها تصوّر الرجال أثناء محاولاتهم اليائسة إيجاد طريقة للمرور خلال تلك الحواجز، ووقوعهم في شراكها التي تنغرز في أجسادهم، فيموتون هناك ببطء. لكن من أخبرها بذلك؟ أم أنه أحد كوابيسها؟

للمرة الأولى تدير رأسها لتلقي نظرة فاحصة على وجه والد سعيدة، فتشتدُّ حدّة رعشتها. بإمكانها الآن تأكيد ما فاجأها عند دخولها أوّل مرة. فعلى الرغم من أن هذا الرجل، خالد المحمودي، غريبٌ عنها إلاّ أن شيئا ما معروفا لديها من خلال وجهه الممزق، وعينيه المحاطتين بهالة من السواد، وجمجمته المدماة.

لو أنها رأت شيئا مثل ذلك، ألن تتذكره؟ هل يمكن دفن ذكرى شيء ما، فلا يعود ممكنا استعادتها؟

أم أنه مجرّد حلم؟

لقد راودتها من قبل أحلامٌ مزعجة مثل هذا.

لبدة

مادة: صورة من مقال في مطوّية سيّاح في عام 1931، تاريخ الصورة هو يناير 1930، وفيها مجموعة من الناس أغلبهم رجالٌ مرتدين بدلا رسمية، واثنان منهما في قيافة عسكرية، وفي الصورة نساء يرتدين قبعات قشّية، والجميع يقفون وسط آثار لبدة، شمال ليبيا.

أخيرا، سترافقُ أوغو إلى آثار لبدة، وها قد حلّ يومهما الخاص المنتظر، لتلك النزهة معه التي طلبتها، ووعد بتحقيقها. تصلُ عند الفجر إلى عنوانٍ في وسط المدينة، كُتِب لها في ورقة من قِبل حميد، الذي أخذ مكان عليّ في خدمة أوغو، وتنتظر الآن قدوم منتاز الذي سيقلها إلى مكان التجمّع. منتاز الذي لا يخلف موعدا أبدا، هو شرّ لا بد منه، وعليها تحمّله مقابل ما ستحظى به من مُتع. لكنه لم يأت هذه المرة. «منتازي» يدعوه أوغو ويثق به كثيرا، ويعود ذلك إلى حقيقة كونه إريتريّاً وليس ليبيّا، وأنهما كانا في «الجانب نفسه» ويقصدُ بذلك أنهما حاربا معا، وأن الرجل الآخر أثبت جدارته في المعارك، بالإضافة إلى كونه كاثوليكيا. يقول أوغو إن كل الأفارقة لئام، وبالأخص الذين من شمال إفريقيا. لكن الفرق بينهم أن منتاز لئيمٌ مخلص. وتفكر ليليانا أثناء انتظارها، في حرصها على عدم قيام أوغو بأي عملٍ لإيذاء ستيفانو، لكنها تشعر بالسعادة لأنها أبعدته عن أثره حين كذبت عليه بسلاسة تامة حتى كادت تعتقد أنّ ما أخبرته به هو الحقيقة بعينها. «لقد رحلت العاهرة البدوية،» قالت له، ولم تنتظر أن يسألها، بل تطوّعت هي بالمعلومة، وهمست له في لحظة حميمية: «لا أعرف إن رحلت من تلقاء نفسها، أو أنّ ستيفانو طردها، لكنها ذهبت على كل حال.»

وقفت الآن على رصيف فيّا بيومونتي لعشرين دقيقة، بينما بدأت الحياة تدبّ في الشارع.

لقد وصلت إلى المكان قبل حتى بدء ملمّعي الأحذية في ترتيب معدات عملهم، وأخذت تراقب وصولهم إلى المكان. فتيةٌ حفاة ومهلهلو الثياب، يأتون من جهة الميناء، تشاهدهم يضعون صناديقهم مع الخِرق والورنيش على امتداد جدار مبنى بنك روما.

ربما لن يأتي أحد إليها. وتندفع الأفكار في رأسها، مثل فقاقيع متصاعدة.

تندفع الفقاعة الأولى إلى الأعلى وتنفجر داخل جمجمتها، وكأنما نهضت من وضع الجلوس واقفةً بسرعةٍ كبيرة، وللحظة تعتم عيناها، فترى نجوما تتراقص أمامها.

هذا ما ستكون عليه حياتها. ويوما ما لن يأتي أحدٌ إليها، ولن يعيرها أحدٌ اهتماما. أو أنها ستصبح محض كومة ترابٍ على الرصيف ليأتي عامل النظافة ويكنسها أمامه. سيقول الناس عندها أين ذهبت تلك الصبيّة التي وقفت منتظرة طويلا هناك؟ لكن أيّ ناسٍ؟ ومن سيقول ذلك؟ ربما سيقولها ستيفانو. لكن إن عرف ستيفانو بأمرها، ألنْ يطردها من بيته؟ تفكّر في فريدة التي ستقول مثل هذا الكلام. وفجأة يمرقُ أمامها مشهد فريدة قادمة نحوها، تغرفُ الغبار الذي هو ليليانا، وتصبّه في صرّةٍ صغيرة تربطها بإحكام بحيث لا تضيع منه ذرّة واحدة، وبعناية شديدة تحملها معها إلى البيت. تفكرّ في ضرورة إبلاغ فريدة عن أوغو، وتقول لنفسها إنها لن تحكم عليها بسبب ذلك. ووصولها إلى هذا الرأي يملؤها بالعجب والامتنان، وكأنما تحصّلت على هديّة لم تتوقعها.

«سنيورا كاتانيو؟» يناديها صوتُ رجلٍ، فتجفل من المفاجأة. تلتفت لترى رجلا مرتديا عدسات مكبرة وبدلة مع قبعة فيدورا، يُخرج رأسه من بابٍ خلفها. «نعم،» تقول مترددة.

يخلع قبعته، «كنّا في انتظارِكِ،»

«أعتذر، فلم أعرف،» وتتبعه خلال الباب. على الأقل لم يحن ذلك الوقت، واليوم ليس هو الذي لا يأتيها فيه أحد.

لن يكون مفيداً أن تخبر فريدة بأمر أوغو. فهذا الجانب من حياتها، أي المتعلق بأوغو، منفصلٌ، وسرّيّ، ويجب أن يظل كذلك. هناك لوحةٌ فوق نضد الاستقبال تُعلن أن هذا مكتبٌ سياحيّ. يخرجان عبر باب آخر يقود إلى شارع خلفيّ، وهي منطقة توصيل البضائع، حيث تنتظر ثلاث سيارات صحراوية بلا أسقف. اثنتان منها مملوءتان بالركاب. «ربما لم يخبرك أحد أن تأتي إلى الشارع الخلفي،» خاطبها الرجل بنبرة توقير، وعرفت أنه السنيور باريو من وزارة المستعمرات، وهو من سيقود الرحلة. ثم يرفع مكبّر صوتٍ إلى فمه، «لقد وجدتُها عضوة الفريق المفقودة،» يُعلن لهم بصوت عالٍ لا نبرة فيه أخذ يتردد صداه حول جوانب الأبنية المحيطة. فتنطلق من باقي المجموعة المنتظرة صيحات الابتهاج.

وهكذا تكتشف أن التذكرة المخصصة لها كانت بغرض الانضمام إلى جماعةٍ محددة لزيارة الآثار، تتكون من زِراعيين إيطاليين، ومستثمرين مُزمعين في المنطقة، وعائلة أميركية . زوجان في منتصف العمر مع ابنتهما الشابة، وابنهما المراهق . بالإضافة إلى مصوّر فوتوغرافيّ.

«توقّفُنا الأول سيكون في الملاّحة،» يقول الرجل من الوزارة، وتبتسمُ لنفسها أثناء جلوسها في السيارة الأمامية حسب التعليمات، فالملاّحة هي حيث توجد القاعدة الجوية. لا بد أنّ أوغو سيلتحق بهم هناك. لقد كانت على حقّ عندما ارتدت جواربها الحريرية.

ترتّبُ وضع تنورتها جيدا حتى لا تتغضّن، فهي ترتدي الآن إحدى ثياب الكونتيسا التي أعطتها إياها. فستان من الكريب، بلون أزرق باهت، وسطُه منخفض قليلا، وبتنّورة كاملة. تقول لنفسها إن هذا ثوب مختلف لأنها واثقة الآن أنها لن ترى أوغو هذا اليوم بالذات، لكنها لا تولي الأمر اهتماما، وتتذكّر دروسها المشتركة مع فريدة، واستكشافها للمدينة،

تسوّقها وطهيها للطعام، والأفضل من كل ذلك هي ثيابهما التنكرية، وشخصيتاهما البديلتان كما دأبت على وصفهما. لكن دائما، ومهما يكن الذي تقوم به، فهي تحمل داخل جسدها ذكرى من أوغو، وعلامة خاصة به، وارتعاشة شهوته في آخر لقاء بينهما، ومعرفتها أنها مُشتهاة، بالإضافة إلى أنها تَشتهِي هي الأخرى. لكنها لا تنال ما يكفيها، وهي ترغب في المزيد، مع معرفتها أنه يشعر بذلك أيضا، ولهذا بإمكانها أن تعيش حياة المدينة الطرابلسية. لكنها ستشعر بالسوء لو أنها فكّرت أنها ستراه اليوم ثم تتبدّد آمالها. لكن لا بأس في ذلك، ولا تعرف حتى لماذا خطر ببالها هذا الأمر. تتحرك إلى جنبٍ لإفساح المجال لجلوس المصوّر الذي أراد تخزين الحامل ومعدات أخرى في الصندوق، لكنه أُبلغ بأن الحيّز لا يسمح بذلك، لوجود أغراض النزهة. تقرّر في نفسها أنّ أوغو سيلتحق بهم في قاعدة الملاّحة التي لا يمكن أن تبعد كثيرا عن هنا، فهي أيضا حيث يذهب ستيفانو إلى العمل، لأن حلبة السباق تقع في مكان محاذٍ للقاعدة الجوية ويقعان على أطراف سبخةٍ مالحة. هذا الترتيب ليس ما كانت تأمله، ولا تعرف كيف ستحافظ على خصوصيتها، لكن سيظل هذا يوماً مميزا لكليهما، بعد أن رتّب له أوغو، وهذا على الأقل إشارة لأنه يهتمّ لأمرها، ولو قليلا. وهي أيضا طريقةٌ ما ليكونا في الخارج معا، بدلا من حبسهما في شقته طوال الوقت. أيضا هذه الرحلة تدلّل على أمرٍ مهم، وهو حدوث نوع من التقدم والتطوّر في علاقتهما، وأنها ليست فقط عشيقته المؤقتة والمخفيّة في مكان ما، بل سيكونان معا في العلن، وهكذا ترتّب أفكارها للاستمتاع بكل ذلك.

يتسلّق المصوّرُ السيارة ويجلس بجوارها مع كل معدّاته، الحامل الثلاثي المطويّ، وحقيبته، وعلبة العدسات ومجسّات الإضاءة. بدا لها منفعلا ومرتبكا، فقررت أن تكون لطيفة تجاهه لأنه سرعان ما يجد نفسه مضطرا لترك مقعده لأوغو، وربما سيجد مكانا آخر يحشر فيه نفسه مع الأميركيين. وعرفت أنه جاء من إيطاليا لالتقاط صورٍ لمطويّةٍ سياحية. بعد تحرّكِ الموكب يُسرّ لها بأنه ما أن تنتشر المطوية التي ستظهرُ روعة المستعمرات، ستكونُ هناك رحلات سياحية متكررة إلى هذا المكان، وطلب منها أن توافق على التقاط صورة لها بعد وصولهم إلى وجهتهم. «لم أتوقع السفر مع مثل هذه الرفقة البهيّة،» يقول لها. كان له شعرٌ بنّيّ لماع، وشنبٌ بنّي ذهبيّ مشذّب، واسمه ألدو. في زمنٍ ماض ما، كان لشاب مثله أن يلفت انتباهها، لكنّ أوغو قد أفسدها لأيّ شخص غيره. لقد أفسدها بحق.

الجزء الأول من الرحلة إلى الشرق مرورا بواحة المدينة، كان فوق طريق إسفلتية ممهدة ولماعة، فيخبرها ألدو أنها تبدو له جيدة مثل أيّ طريق تجدينها في إيطاليا. وأثناء سيرهم ينهض موظف الوزارة على قدميه، ويلتفت بحيث يواجه الخلف ممسكا بإطار الباب لحفظ توازنه، وشرع في تقديم معلومات عن المنطقة التي يمرون بها: أنواع المحاصيل الزراعية، وكيف زُرعت تلال الرمال بالعشب لمنع زحفها على الأراضي المزروعة، ثم جلس في مقعده مجددا، وهو يمسح جبينه بطرف كمّه. كانوا يمرّون بميدان شاسع وخال فوقف من جديد، وصاح: «هذا هو المركز التجاري للمنطقة، يُسمّى سوق الجمعة، ويقصده أصحاب الحيوانات من كل مكان للبيع والشراء، وفيه يلتقي التجار لتبادل البضائع، ويضيف: عندما تكونون في مقهى أورينتال، مساء السبت، وتوضع أمامكم كرات اللحم المبهّرة بالكمّون داخل طبق الشوربة العربية، فاعرفوا أنها جاءت من هذا المكان.»

بعد قليل يصلون إلى قاعدة الملاّحة الجوية. تقف السيارات عند قوس المدخل حيث يرتفعُ علمٌ إيطاليا فوق سارية معدنية، ويقف عسكريان بستراتهما القرمزية، وطربوشٍ تتدلى منه شنوارة بخيوط زرق وحمر. بندقيتاهما على الأكتاف ومن وسط كل منهما يتدلّى خنجر قصير. يُخبر المسؤول المجموعة بأن الطائرات موجودة في مخازن ضخمة في الجانب المقابل للمباني التي يمكن رؤيتها من البوابة. تنظر ليليانا على امتداد الطريق حيث توجد مبانٍ بيض منخفضة وذات شكل مستطيل بين أشجار الأوكالبتوس، وتقّرر أن هذا هو المكان الذي يعيش فيه أوغو عندما لا يزور المدينة. كما تتوقع أن يتقدم الآن نحوهم من هذه الطريق.

«هناك مكتبة، ودار سينما، وصالة تمرينات لاستخدام الجنود والضباط، والطيّارين الذين يعيشون هنا مثل عائلة موسّعة،» يشرح لهم موظف الوزارة، ثم يهز رأسه نحو السائق، ونحو بقية السائقين، فتبدأ المحركات في الدوران. «التوقفُ القادم سيكون في الخمس،» يصيح فيهم ويبقى واقفا ليتمكن من الإشارة إلى كدسٍ من الحجارة إلى شمالهم يضمّ قبر أحد الأولياء يعود إلى القرن الرابع عشر. تلتفت ليليانا خلفها لتنظر وراء سحب الغبار التي أثارتها السيارات، وإلى القاعدة الجوية التي تبتعد عنهم. عندما يجلسُ السنيور باريو في مقعده من جديد، تنقر على كتفه، «عذرا لماذا توقّفنا في الملاّحة؟»

لا تعرف ماذا كانت تتوقع منه. كأنْ يخبط كفّه فوق جبينه في رعبٍ، ويأمر السيارات بالعودة قائلا، «يا إلهي، لقد نسيتُ الكولونيل!»

لكنه يجيبها، «كنا نبيّن لضيوفنا الأجانب، مدى تأمين مستعمراتنا، وكيف أنها محميّة جيدا.»

كان المصوّر الأخرق، عديم النفع، يميل نحوها أكثر ممّا يجب، ويُمطرها بمعلومات مختصرة عن جداول رحلات مستقبلية للسياح، بينما موظف الوزارة يجلسُ ليقف من جديد، مثل كرةٍ تنطّ، للتأكد من ألاّ يفوتهم مكان أثري واحد، أو مزرعة توت، أو تشكيل صخور ما، أو قافلة إبلٍ محمّلة ببضائع، أو مُزارعٍ ما يشق أرضه الجرداء بمحراث يدويّ عتيق، وكان وجهها يلتفت بين المصور والموظف، ثم تقول لألدو، «عذرا، لكن لديّ صداع الآن.»

تُغلق عينيها وتتبيّنُ لها الحقيقة، فلن يأتي. لن يكون أوغو بصحبتها، واليوم الذي تمنّته يمتدّ أمامها فارغا، ومُضجرا، أفرِغت منه كل مظاهر الفرح والحياة، يومٌ تريده أن ينتهي بسرعة، بدل أن تعيشه بالفعل.

* * *

لا يمكن أن يكون أوغو فكّر في أنها قد تذهب في نزهة بمشاركة مجموعة من الغرباء. إنه غير مهتمّ بأمرها. بعد قليل تفتح عينيها من جديد وترى أن الطريق تحوّلت إلى نوع من ممرّ ضيق. أحيانا تلتفُّ إلى اليسار على امتداد الساحل، وفي مرات أخرى تلتف إلى الداخل عبر مساحات جرداء، حيث ترى أحيانا أحد الرعاة يتحرك وحيدا مع قطيعه عن بُعد.

تواصلُ السيارات تقدمها، والرحلة متقطعة مليئة بمطبات الطريق، فتشعرُ بالطَّرْق المتكرر داخل رأسها.

عندما كانت الشمس في عنان السماء وفي أوج سطوتها، يتوقفون إلى جانب الطريق في ظل شجرة سنط. يتناولون القهوة من حافظة المشروبات، بينما السنيور باريو يحاضرهم عن الخمس التي كانت مسرحا لمعركتين في المرحلة الاستعمارية الأولى؛ عام 1911 و 1912 وتُعرفُ بمعركة المرقب، على اسم القلعة هناك. يصفها الموظف أنها كانت انتصارات كبيرة آنذاك لقواتنا الإيطالية الباسلة، ومثّلت حدثا مهمّا لإخضاع هذه المنطقة الساحلية. «هل كانت لديهم بنادق؟» يسأل الأميركي من السيارة الثانية، فيلتفت الجميع نحوه، «أم أنهم يحاربون بـ «وأخذ يقلد عملية الرماية بقوسٍ وسهم.

ينظر السنيور باريو إلى الرجل ببرود، ربما في تعبير عن عدم سروره بمقاطعة حديثه، «كانت لديهم بنادق زودهم بها الأتراك الذين استعمروهم قبلنا، وما زلنا نحتفظ بها هنا، لكن القتال توقف منذ زمن، والسكان المحليون في حالة سلمٍ الآن مع السلطات.» وبينما يستمر السنيور باريو في تعداد مناقب التمدّن التي جُلبت إلى هؤلاء الناس، تتذكر ليليانا صورا أراها إياها أوغو في كتاب ما. إحداها كانت مثارا للحديث عنها، وهي حول المرّة الأولى تاريخيا التي يُستخدم فيها الطيران في الحرب، في عام 1911 عندما كانوا يحاولون إخراج الأتراك من البلاد، وذلك حينما حلّق الطيار فوق منطقة الجفرة، وقذف قنابل يدوية فوق العدو. وأعني بهم الأفارقة الشماليون والأتراك. كان اسم الطيار غويليو غافوني، وقد علق الحدثُ بذاكرتها لأنّ أوغو كان فخورا باستخدام الطائرة كآلة قتل. لكن الصورة في الصفحة المقابلة كانت أكثر وضوحا في ذهنها، وهي تبيّن حلقة من الجنود الإيطاليين من صفين أو ثلاثة، بعضهم يقفون بأيديهم في جيوبهم، والبعض مواجها لمركز التجمع، وآخرون ينظرون إلى الخارج، أو يتركون محيط الدائرة ويتحركون مبتعدين. كانوا يبدون مثل تجمّع لجنود أثناء فترة راحة، وفي مركز الدائرة يظهر كدسٌ ما من خِرقٍ وثياب مهلهلة، لكن ليس قبل أن تمعن النظر في الصورة جيدا، وتعرف أن تلك الكومة ليست إلاّ ثيابا مهلهلة يرتديها قتلى الثائرين، وأن الأرضية ملأى بهم، أي بتلك الجثث المهزولة البائسة. وتفكر الآن كيف لم يبدُ على أوغو أنه لاحظها. «لكن هل هم سعداء؟» صاح الأميركي.

عقد السنيور باريو حاجبيه، وربما لم يستعدّ لهذا السؤال، فبدا أنه يفكر في الإجابة. حملقت عيناه يمينا ويسارا كأنه يبحث عن الإجابة في هذه الأراضي القفر من حولهم، وفي النهاية يقول،» لديهم مرافق صحية الآن، بعد أن كانوا يعيشون في القذارة من قبل،» ويهز رأسه نحو الرجل، كأنه يخبره أن هذه المسالة قد حُسمت، ثم يقول للجميع إن الخمس هي بوابة لبدة الأثرية، أو لبتس ماغنا، وهي أكثر الرموز قوّة لوجود روما وسيادتها على هذه الأراضي من قبل. يشير للسائقين بأن وقت المغادرة قد حان، ثم يلتفت ليواجه المقدمة، مشيرا بيد الطليقة نحو اتجاه المسير، فبدا كأنه يقود هجوماً ما. وبعد قليل يجلس في مقعده ماسحا العرق عن جبينه.

في النهاية يصلون إلى الموقع الأخير عندما تظهر المدينة الأثرية أمامهم بأعمدتها ومعابدها المتلألئة تحت حرارة الشمس. لم يستطع السنيور باريو مقاومة النهوض ثانية من مقعده وأن يوازن وقفته الأخيرة، ويخبرهم أنّ ما يرونه إلى شمالهم هو المكان الذي وُلد فيه الإمبراطور سبتيموس سيفروس، أي أنّ هذا المكان كان مستعمرة إيطالية منذ آلاف السنين، وأنهم عادوا إليه الآن. كما أخبرهم عن العمل الذي يقومون به الآن، وهو على جانبٍ من الأهمية لتعلقه بحفريات لاستعادة

الآثار من رمال الصحراء والحفاظ عليها، أي أنه عملٌ للحفاظ على ميراث روما. كان الرجل يصيح بأعلى صوته لوجود صوتٍ هادر يهدّد بالتغطية على حديثه عن الحمامات البازلتية والحرارية، والفسيفساء التي لم يقربها إنسان طوال عقود. لكن أحدا لم يعد ينصت إليه، ليس في السيارة على الأقل، لأن الصوت الهادر يكاد يكون فوق رؤوسهم، وهم يركزون أنظارهم عليه، ويحمون أعينهم بأيديهم لينظروا إلى السماء. بانت لهم لهم بقعة سوداء من لا مكان على خلفية سماءٍ زرقاء صافية، أخذت تقترب أكثر فأكثر حتى صارت فوق رؤوسهم مباشرة، وتبيّن أنها طائرة حربية صغيرة. كانوا في ظلها، ينظرون إلى طرفها السفليّ وإلى دولابيها المتدليين، وهي من الانخفاض حتى أنهم أحنوا رؤوسهم لا شعوريا. ثم طارت أمامهم وشاهدوها تهبط في وسط سحابة من الغبار، وعندما وصلوا إليها، وجدوه يقف هناك أمامهم. كم يحبّ أوغو أن يستعرض!

كان مرتديا بدلة صحراوية، يدسّ بنطاله الكاكي في حذاء من الجلد البنّي، يمسك قبعته في يده، ويشير لهم.

رغبت أن تنظر إلى هذا الظهور المسرحي كمفاجأة سارّة، لكنها أتت متأخرة، فالصداع الذي ألمّ بها حقيقيّ، ولا يمكنها أن تكون على طبيعتها. لا أحدَ منهم يعرف أنه جاء من أجلها، ومن الطريقة التي يتحدث بها همسا إلى السنيور باريو، تعرف أنّ هذه كانت خطة معدّة سلفا لإبهار المستثمرين والزوار الأغنياء.

يسيرون حول الحمامات الرومانية، والمسرح الأثري، ويشاهدون لوحات فسيفساء مرممة حديثة تُظهر صورا لآلهة مع العبيد. ثم يتناولون غداءهم في ظلال المحراب الشمالي لـ(سِيفيران بازيلكا)، حيث توجد أعمدة البازلت الوردية. كان أوغو يهتم بكل من عداها، وفي مرة كان يسير ملاصقا للفتاة الأميركية، ولا يلقي بالا لليليانا. لو أمكنها تركهم، والسير بمفردها لفعلت. هناك متحفٌ يضمّ تماثيل اكتُشفت حديثا، وعنده سحبها خلف الأعمدة والتصق بها للحظات. كانت أنفاسه تفوح برائحة السردين الذي تناوله أخيرا.

في النهاية يجمعهم ليخبرهم أنّ محظوظا واحدا من بينهم سيرافقه في رحلة العودة إلى طرابلس. مرّت بها لحظة رهيبة اعتقدت فيها أن سيختار الفتاة الأميركية التي سلّط عليها نظره لوهلة، لكنه يتخطاها، ثم تمر نظرته بها، «هل يوجد أحدٌ هنا يسافر من دون رفقة؟» يرفع المصوّرُ وليليانا يديهما، ويقول المصور، «سيدي يجب أن تختارني لأنني سألتقط بعض الصور الجوية لمطويتي الترويجية،» ينظرُ أوغو نحو الشاب، ويهز رأسه، «فكرة ممتازة يا رجل،» وعندها يبدأ ألدو في تجميع معداته، «لكنني سأطلب إلى أحد رجالي في القاعدة أن يطير بك لتنجز مهمتك، وهذا اليوم لا يتعلق بالرسميات، بل بالمتعة،» ثم للمرة الأولى ينظر إلى ليليانا مباشرة. «هل تسافرين وحدك أيتها الشابة؟» لو أن المصوّر لم يتسرّع ويقدم نفسه عليها بتلك الطريقة لقالت، «كلاّ، أنا معه،» لكنها بالطبع تهز رأسها موافقة، «إذن، هل تحبين الركوب معي في آلتي الطائرة هذه.»

في الجوّ أخذ يطلق الضحكات، فانضمت إليه، ولا فكرة لديها أنها لم تكن ضحكات من القلب. لديه طريقةٌ في رمي رأسه إلى الوراء حينما يضحك، فتظهر أسنانه المتناسقة البيضاء، ولسانه القرمزي الضخم. «أنت ماهر في الخروج بالمفاجآت.» تقول له.

يحلّقان فوق البحر المتلألأ من تحتهما، بإمكانها تمييز المناطق العميقة من الضحلة لاختلاف لونهما، وكذلك رؤية الصخور تحت سطح الماء بألوان متعددة، فيروزية، وكوبالتية، وزبرجدية، فانبهرت لرؤيتها من هذا الارتفاع. فقط لو أن هذا الصداع يغادرَها، ولو أنها لم تفكّر في أنه لن يأتي إليها، ولو أنها لم تر الطريقة التي نظر بها إلى الفتاة الأميركية. لا يمكنها التفكير الآن في أي شيء تقوله له، لكنها تتمكن في النهاية من إخراج جملة، «ماري نوستروم.»

«نعم، كله بحرنا، وما ليس كذلك الآن، سيكون قريبا بحرنا.»

يستديران نحو اليابسة، فترى أن بداية المنطقة المتصحّرة، من جنوب الساحل مباشرة، وتلاحظ ضيق مساحة الشريط المستغل للزراعة.

ترى ما يشبه عصاً بارزة بجانب لوحة العدادات، كان أوغو يحركها أحيانا، وتستريح عليها يده طوال الوقت، لها رأسٌ مدوّر يداعبه براحته فتسكن أصابعه ثم تتحرك من جديد لتمسيد سطح الكرة الأملس، يداعبها بأصابعه الضخمة، ويربت عليها بإبهامه من جديد.

يمرّان فوق تجمّع خيام لسكانٍ محليين بالقرب من تاجوراء، بيوت متفرقة تظهر لهما في تلك الأرض الترابية، فيدورُ ويطير فوقها للمرة الثانية لتراها بوضوح أكثر. كانت على شكل دائرة من بيوتِ الشَّعْر التي تبدو مثل أقماع في الوسط، وهناك أخرى بأشكال مستطيلة في محيط المكان فبدت مثل ضواحي بلدةٍ فقيرة. كان الناس يتنقلون في مسارب بين البيوت، وهناك صفّ من الإبل عند الطرف، وقطيع أغنام مع راعٍ بالقرب منها. بدوا لها جميعا غاية في ضآلة الحجم وفي الضعف، فكانوا مثل نمال صغيرة بإمكان قدمٍ كبيرة أن تسحقهم دون أن تلاحظ. «يبدون لي غاية في الضآلة،» تخبره.

«عادة ننخفض إلى ارتفاع أقل من هذا عندما نقصفُ، لرؤية الأهداف بوضوح أكثر.»

تطوف بذهنها صورة مثيرة للغثيان لحذاء ضخم يسحق بشرا وحيوانات فيسوّيهم بالأرض. لكن من المؤكد أنّ أوغو لا يقصد قصف قرى يقطنها بشر أبرياء مع حيواناتهم. بالتأكيد ليس هذا ما يقصده.

ينخفض أكثر فترى امرأة تحمل دلو ماءٍ تُنزله إلى البئر. لم تنظر المرأة إلى فوق، وإنما جذبت شالها ليغطي رأسها، ويغطي الطفل الذي تحمله فوق ظهرها.

«تلك الصرّة فوق ظهرها يمكن أن تكون حزمة من البنادق، وقد تكون تحملها إلى المتمردين الذي يختبئون في الصحراء.»

«أعتقد أنها تحمل طفلا.» تقول وقد ملأها الخوف فجأة.

يضحك قائلا، «أعرفُ ذلك،» ثم يرفع يده عن عصاه المفضلة، وللحظة يضغط على ركبتها.

تُجاري ضحكته أيضا رغبةً في طمأنة نفسها. ففي هذا الارتفاع، وفي وسط نقاء ونعومة الهواء الجوي، بدأ صداعها يفارقها. وتفكر كيف أنها بهذا المنظور المختلف للأشياء، بإمكانها النظر تحتها إلى الناس، وإلى حيث يعيشون، وأن ترى مقدار الضآلة والعبث في كل شيء، وكم تافهة شواغلهم وغيرتهم. تحاول جاهدة أن تعبّر عن مقدار العجب والمهابة اللتين تشعر بهما بقوّة، فتقول: «كل شيء تَحتَك هنا، وأنتَ هنا أشبه بإلآه.»

«نعم، وبالشكل الذي أحبّ،» يردّ، ثم يرتفع بطائرته، ويحلقان فوق الصحراء، فيظهر أمامها مشهد صحراوي مصفرّ ورتيب، لا يعكّر انتظامه سوى صخور بنّية هنا وهناك، يقول لها إنه طار بها هنا لتعرف مدى اتساع الصحراء. ثم تشير إلى مبنىً بعيد، فيخبرها أن تلك قلعةٌ بناها الإيطاليون، ولا يريد أن يرى من فيها الطائرة، فيعتقدون أنها تجلب لهم مؤنا، فهو لا يرغب في أن يخيّب آمالهم. «عليكِ أن ترىْ التعبير على وجوههم عندما نأتيهم بالفواكه الطازجة، فتلك أسرع الطرق إلى قلب الرجال.» تستدير في مقعدها، فتغيب القلعة عن نظرها وسط ذلك المشهد الرتيب، والأرض شديدة الوعورة. «لم أعرف أن لدينا قلاعا هنا،» قالت.

«ليس من شأنك أن تعرفي،»

جلسا في صمتٍ مطبق، لا بد أن هذا أطول وقت يمضيانه معا ولا يمارسان الحب. وكأن الفكرة نفسها تطوف بذهن أوغو، الذي يمدّ يده في اللحظة ذاتها، وبشراهة يهصرُ ما بين ساقيها، يبقي يده هناك يتلمّسها كما فعل مع عصا الطائرة أو مهما كانت تسميتها، يفعل ذلك في الوقت الذي استمر يخبرها عن القلاع المنتشرة في الصحراء. فتلك القلاع تمثّل معالم ومراكز رصدٍ ومراقبة لطرق المواصلات، ومحطات لدعم وإعادة إمداد القوى المتحركة، أحيانا يقضي فيها الرجال شهورا متواصلة ويصيرون «انْسابّاتي» أي كالمغلّفين بالطمي، فيجدون صعوبة في التأقلم مجددا مع الحضارة.

تنظر إليه، ولوهلة لم تعدْ ترى فيه حبيبها الوسيم، القوي، المندفع، أو ترى فيه بطلها. فهو ليس إلاّ رجلا عاديا فحسب، وإنما كريه الرائحة أيضا، فبإمكانها التقاط رائحة السمك في أنفاسه، ورائحة المرهم الزيتي الذي يضعه في شعره. تتخيّله واقفا أمام المرآة، يصفف شعره إلى الخلف بفرشاته ذات الظهر العاجي بينما يبدو منتشيا بصورته وعابدًا لنفسه. ترفع نظرها عنه وتنظر من النافذة، فتتساءل عن ماذا تفعل فريدة هذا اليوم.

تلتفت نحوه عندما يخبرها أن تتمسك جيدا بمقعدها. كان يطلق ضحكته المعتادة ويبدو في كامل زهوه، فتتساءل في نفسها كيف أمكنها أن تشكّ فيه. ثم يقوم بشقلبة كاملة في الفضاء، فتطلق صيحات الخوف المقرونة بالإثارة.

يهبطان في القاعدة الجوية حيث ينتظرهما منتاز. وكما عندما التقيا في طرابلس للمرة الأولى، يجلسان في المقعد الخلفي، بينما هو يداعبها بفتور وهو يميل إلى الأمام للحديث مع السائق. وعندما يمرّون بواحة طرابلس يأمر منتاز بالتوقف كي يريها شيئا ما، ثم يقودها صاعدا مسرْباً يقود إلى بستان أشجار التوت التي نضجت ثمارها وصارت تتساقط، وتسيل منها العصائر على الأرض. لقد كانت هنا برفقة أخيها عندما سارا في هذا الممر يتضاحكان.

يقودها نحو كوخ صغير، ويصرخ في وجه رجلٍ ليبيّ موجود هناك أن يبتعد عن المكان، يسحبها إلى الداخل ويُدير وجهها إلى الحائط، ثم يرفع ثوبها ويقضي منها وطره في عجل، مطلقا تأوهات كما يفعل الناس عندما يقضون حاجتهم.

بعد ذلك يعودان إلى السيارة حيث ينتظرهما منتاز، ثم ينزلانها عند الكاتدرائية.

مَهمّة

مادة: بطاقة عمل باللغتين الإيطالية والعربية باسم السنيور ياكوف جبالي، تعلن عن مؤسسته ومعرض للتحف الِليبية للتصدير إلى الخارج.

كان واحدا من تلك الأيام عندما اضطُرت ليليانا للجلوس في السيارة على جانب الطريق، تحدّق في الندبة التي فوق عنق منتاز. على غير العادة وبعد مدة طويلة، ربما عشر دقائق أو أكثر، رفع منتاز يده في أمرٍ لها بألاّ تتحرك من مكانها، بينما قفز خارجا لتقديم مساعدةٍ ما مطلوبة منه.

جلست في المقعد الخلفي لما اعتبرته دهرا، واعية فقط أنها بحاجة للذهاب إلى الحمّام. وعندما لم يعد بإمكانها التحمّل أكثر، غادرت السيارة ومشت عدة خطوات حينما ألهمها إحساسٌ ما بالتوقف، وأن تتفقد الوضع أوّلا. كعادته، غالبا ما يكون فيّا أوفيديو، هادئا كثيرا في وقت العشية، وفيما عدا المقاهي في الجهة المقابلة، عادة ما تغلق المتاجر القليلة أبوابها خلال فترة الغداء، ولا تفتح إلاّ في الساعة الرابعة. وبينما وقفت في المنعطف، تفكّر إن كان ملائما أن تتقدم وتقرع جرس البيت، حينما انفتح باب بناية أوغو، وخرج منه منتاز سائرا إلى الخلف، حاملا أحد طرفي شيء ثقيل كان ملفوفا في قماش. كان يأخذ خطىً قصيرة إلى الخلف لمحاولة المروق من الباب. حينذاك تراجعت إلى الوراء لتختبئ خلف الزاوية، فهي لا تعرف متى سيرفع عينيه ويراها في الشارع. وحينما تجرّأت واختلست نظرة نحوه وجدته يتحرك في الشارع، ولما دفعت رأسها أكثر إلى الأمام وجدت أنه اختفى. منتاز وحمولته، والشخص الذي يحمل الطرف الآخر لا أثر لهم، فرأت أن المكان الوحيد الذي قد يكونا ذهبا إليه هو المرآب المقابل.

هرولت عابرة الطريق، ودلفت عبر الباب الرئيس الذي تُرك مفتوحا قليلا، فصعدت الدّرج ودقت الجرس. لكن إبراهيم هو من فتح الباب وليس أوغو. هزّ الفتى رأسه يمنة ويسرة وقال لا، ليس الآن يا سنيورا، لسنا مستعدين. لكنها تخطّته فهي بحاجة ماسة إلى دخول المرحاض الذي توجهت إليه مباشرة. لكن ما أن وجدت نفسها هناك حتى تفطّنت إلى هيئة إبراهيم المضطربة، وثيابه غير المرتبة، شعره منكوش، عيناه حمراوان، وهناك أثرٌ بنّي في جلابيته التي عادة ما تكون نظيفة، ثم تلك الفوضى التي لمحتها عبر باب غرفة المعيشة المفتوح، الطاولة المقلوبة، وأثر تلويث ينتشر فوق السجادة. خمّنت كذلك، بما أن إبراهيم هو من فتح الباب، فلا بد أنّ أوغو هو الشخص الآخر الذي كان يرفع تلك الحمولة. وأنّ الحمولة لم تكن شيئا وإنما شخصا ما. لكن قبل حتى أن تبدأ التفكير في النتيجة التي توصلت إليها أتاها صوت اصطفاق الباب، وصراخ أوغو، وطرقعة صفعة ما، يدٌ منبسطة تلامس لحما وعظما. حدقت في نفسها في المرآة فقابلتها عيناها الهائجتان

المفتوحتان على اتساعهما. لقد نظرت، وبدأت ترى الأمور، لكنها قمَعت ما رأت، وطردته من ذهنها، فليس هناك ما يمكن أن تفعله في هذه اللحظة. بسرعة نكشت شعرها وخرجت من الحمّام إلى الردهة حيث رأت إبراهيم منكمشا على نفسه، يداه فوق رأسه، بينما يقف أوغو فوقه رافعا قبضته.

«عزيزي،» قالت له.

في تلك اللحظة، وقبل أن يستقيم أوغو ويرخي قبضته، التقت عيناها بإبراهيم، فاتضحت لها الكثير من الأمور.

حاولت ألاّ تُبدي أيّا من مشاعرها. «عزيزي،» ردّدت بصوت مرتعش، «ما الذي يجري؟» ثم مدّت يده ولمست ذراعه، لكنه أبعدها عنه. كان يمسك جلباب إبراهيم من الخلف، ولا تزال قبضته مكوّرة، ثم استدار وإبراهيم معه. نظر إليها بريبة، وأمكنها رؤية عضلات كتفه متصلّبة. كان مثل الثور الهائج الذي على وشك الانقضاض عليها.

لم يعرف ماذا رأت، لكن لديه شكوكه. «لم يكن خطأ إبراهيم أنه سمح لي بالدخول مبكرا. لقد شققتُ طريقي عنوة، وأنا أعتذر.»

«انظري إلى هذا الرجل. يبدو مثلنا، أليس كذلك؟ بشرته ليست داكنة كثيرا، وذراعاه غير مركبتين بشكل مخالف، ويتغوّط مثلما نفعل.» ثم ضرب مؤخرة إبراهيم بقوة جعلت الشاب يندفع إلى الأمام ويتعثر محاولا المحافظة على توازنه، لكن أوغو لا يزال ممسكا بتلابيبه، وسحبه ليقف منتصبا من جديد. «مؤخرة هذا الصبيّ تبدو مشابهة لمؤخراتنا، لكن الفرق يكمن فيما بداخلها، فإن فتحنا سنرى ما بداخله، هلاّ فعلنا؟» ثم سحب سكينا من حزامه. «هل نفتح جوفه لنرى أن الغائط ليس في مؤخرته فقط، وإنما ينتشر في كامل جسمه؟»

«ما الذي فعله يا أوغو؟ ولماذا تعامله هكذا؟»

«لأنه ممتلئ بالقذارة ويستحق ما يجري له. لاعتقاده أنه يعرف كل شيء.»

«يا عزيزي،» قالت مجددا.

«وأنتِ، لماذا لستِ في السيارة؟» وجهه مشحون بالغضب، وكان وريدٌ ينتفض تحت عينه اليسرى، «يُفترض بك أن تنتظري في السيارة.»

«آسفة، لم أستطع الانتظار،» وتحوّلت عيناها إلى باب الحمام، «آسفة،» أمعن النظر فيها من رأسها إلى قدميها، وكانت نظرته شديدة البرود. «اعتقدتُ أنكِ هربتِ،»

«وهل أفعل ذلك؟» خطت إلى الأمام، ومدّت له ذراعيها.

«نظّفْ هذه الفوضى،» أمرَ إبراهيم، ثم رفعها في حضنه وتوجه بها إلى غرفة النوم.

ما إن أغلق الباب حتى انقض عليها مثل ثور هائج.

بعد ذلك لبسا رداءيهما، وجلس هو في كرسي الخيزران عند النافذة، بينهما طاولة صغيرة لإراحة الأقدام وأخرى للقهوة، ثم أحضر لهما إبراهيم الشراب، وكان مرتديا جلبابا أبيض نظيفا، وشعره مصفف بعناية. لكنها حرصت ألا تلتقي عيونهما، وكانت الصالة مرتبة ونظيفة، أما السجادة الملوثة فاختفت.

أمسكت الكأس بكلتا يديها للتغطية على ارتعاشتهما، ووضعت قدميها العاريتين فوق المقعد، لتعطي الانطباع بأنها مسترخية.

نظر إلى قدميها العاريتين وقال، «أخبريني ماذا حدث للعاهرة البدوية.»

«لقد رحلت.»

«كيف حدث ذلك؟»

«لا أعرف، لقد اختفت.» وتمكنت من هز كتفيها بلا مبالاة.

«وما قال أخوك عن ذلك؟»

«لا شيء، فهو لا يذكرُها مطلقا. لكنه الآن يضع عينيه على فتاة إيطالية نظيفة تعمل معه في المكتب، واسمها تيريزا،» كانت على يقين أنها أتقنت دورها.

«أمرٌ مؤسف. وددتُ لو قابلتها.»

كان ينظر إليها من جديد. على الأقل يريد أن يعرف ماذا رأت، وهو في انتظار أن تقول شيئا، أن تعبّر عن نفسها، أو توجّهُ له سؤالا ما. «ماذا فعل المسكين إبراهيم ليستحق غضبك؟» نطقت السؤال بشكل عادي، كأنه من الطبيعي أن يطلق أوغو تهديدا بفتح بطنِ الرجل.

جلس إلى الوراء في كرسيه، وكتفاه متهدلتان. «إبراهيم لم يقم بما أُمِر به. فهو خادم هنا، ومن المفترض أن ينفذ الأوامر.»

قالت في نفسها إنّ سؤالها في محله لأنه جعل أوغو يعتقد أن هذا كل ما لاحظته، وليس الجثة، إن كانت جثة بالفعل. وليس الدم إن كان دماً بالفعل. لكن ما الشيء الرهيب الذي أمر إبراهيم أن ينفذه؟

«أنت مُحق، فذلك عمله.»

إنها تحاول جاهدة تحاشي التأثير الكامل لما كانت شاهدة عليه. يمكنها الآن أن تشعر بـ «الحقيقة» على حافة وعيها بوعيها. الحقيقة التي كانت مثل وحش مسخٍ وبدأت تبرز لها الآن من مكان اختفائها، حيث كانت هناك مُتجاهَلةً لزمن

طويل، لكن لا يمكن أن تسمح لها بالخروج الآن، وفي هذا الوقت. يتعيّن عليها الآن أن تنجو بنفسها خلال هذه الدقائق القليلة. لا تزال جالسة بساقيها متصالبتين عند مستوى ركبتيها، تلبس رداءها الحريري الأصفر، وجهُها متوردٌ وشعرها منكوش بعد ممارسة الحب. مرّرت أصابعها خلال شعرها، وأجبرت نفسها على الابتسام في وجهه، وحاولت أن تكون نبرتها لعوبةً، «عندما أجلس هناك منتظرة في السيارة، لديّ وقت لمراقبة عنق منتاز.» فنظر إليها في تساؤل، فهو لا يعرف أين يقود هذا الحديث.

«يبدو أنّ شخصا ما حاول ضرب عنقه،» فأطلق أوغو ضحكة، «ها، ها، أنت محقة، لقد حاولوا بالفعل وأنا من أنقذه، ها ها،» ألقى رأسه إلى الخلف، وضحكت معه.

عندما ذهب ليستحم، تسللت إلى المطبخ للحديث مع إبراهيم، لكن قبل أن تصل سمعته يناديها من الحمام.

«تعالي واغسلي شعري للمرة الأخيرة،» أمرها حين فتحت الباب.

كانت بطنه تبرز مثل كرة من الماء المرغويّ. والشعر الداكن في رأسه وصدره يرتمي فوق جسمه مبللا.

أخذت الشامبو من الرف وصبّت منه في يديها، وبدأت تصوبنُ فروته. بإمكانها أن تدفعه تحت الماء، لكنها لا تملك القوة للإبقاء عليه هناك. «هل ستتركني؟» سألته.

«ألم أخبرك أنهم سيرسلونني إلى برقة. سأغادر غداً.» ملأت إبريقا بماء نظيف من الصنبور، وتأكدت من اعتدال درجة حرارته. بإمكانها أن تركض الآن وتأتي بسكين حادّ، وتطعنه به. وهكذا ستسدي للعالم معروفا. «ادفع رأسك إلى الوراء حتى لا يدخل الصابون في عينيك.» سكبت الماء فوق رأسه ومسحته حتى لا يسيل فوق وجهه، ثم أعادت الإبريق إلى الرف. لكن صوتها خرج حادّا عندما قالت: «وهل ستغادر بصورة دائمة؟» خرج من الحوض وبدأ ينشّف جسمه بقوة وهي تراقبه. ثم ترك المنشفة المبتلة تسقط على الأرض، ولفّ أخرى فوق رأسه. لبس رداءه ثم غادر الحمام.

بالكاد كانت واعية لدخول إبراهيم، ربما لتفريغ الحوض وتنظيف المكان، لكنه انسحب عندما لاحظ وجودها على الأرض. ثم سمعت أوغو يصفّر وهذا يعني أنه يصفف شعره. لم تعرف كم من الوقت جلست هناك، لكنها اعتقدت أنها سمعت طقة الباب الخارجي، وفي النهاية نهضت من مكانها، ومثل امرأة مسنّة، أمسكت بحافة الحوض لتتمكن من الوقوف. ثم أفرغت الحوض من الماء، وشطفته نظيفا، وبدأت تملؤه من جديد. أثناء ذلك خرجت إلى الصالة منادية، «أوغو،» لكنها تعرف أنه قد غادر.

بعد امتلاء الحوض أضافت إليه زيتا عطريا، وأحسّت بسَكينةٍ لم تعهدها من قبل. سرعان ما يحقق الوحش مراده، لكن ليس بعد، فقد أبعدته حتى حين.

بعد ارتداء ثيابها توجهت إلى المطبخ، ولم يكن إبراهيم موجودا، فذهبت إلى صالة المعيشة وطرقت باب الخزانة التي يعيش فيها. «إبراهيم،» لكن لا جواب، ثم فتحت الباب فرأت أنّ مساحة المكان بالكاد تمكّنه من الاستلقاء. كانت فرشته ملفوفة عند الطرف، بينما هو جاثٍ ورأسه يلامس الأرض، يصلّي. «إبراهيم،» نظر إليها ورأت الخوف في عينيه، وعدم إدراكٍ لما يحدث. «أعتقدُ أن عليك المغادرة قبل أن يعود السيّد.»

«سنيورا؟»

«اهرب، واتركْ المكان،»

«لا يمكنني، فمنتاز ينتظر في الخارج.»

«لا بد أن منتاز ينقل السيدّ إلى القاعدة.» وهز الفتى رأسه نافيا واستند على عقبيه، ثم نهض واقفا. تحرّك عبر الصالة متوجها إلى النافذة، لكنه أشار إليها بالابتعاد حتى لا تُرى من الخارج. ثم وقف إلى جانبٍ خلف الستارة، وأشار بيده. كان منتاز يجلس داخل السيارة في المكان الذي ركنها فيه باكرا، كما كان يُميل رأسه بحيث يمكنه رؤية الباب الأمامي وجانبي الطريق. لا بد أن أوغو استقل سيارة أجرة، وترك منتاز خلفه ليسوّي بعض الأمور.

«إنه ينتظر مغادرتكِ،» ثم فجأة ارتمى على مقعد أوغو ودسّ وجهه بين يديه.

صدمتها رؤيته على هذا الحال، «أحزم ْأغراضك ولكن أسرع، سننزل معاً،»

قفز واقفا، وأنزل كيس حاجيات صغير من خلف باب الخزانة، ورماه فوق ظهره، «أنا جاهز.»

أسفل الدرج طلبت منه الانتظار وأخبرته أنها ستتوجه إلى منتاز، وأثناء وقوفها معه، وحجبِ رؤيته عن الباب، يخرجُ هو ويغلق الباب وراءه، ثم يبتعد. أخرجت صرّة نقودها وأفرغتها في راحتيه فيجب أن يستقل عربة بعد أن يبتعد قدر الإمكان، وقبل أن يكتشف منتاز غيابه. بعد ذلك عليه أن يختفي تماما. قالت له، «انتظر حتى أعبر الشارع،»

أمسكت مشبك شعرها وأبقته في قبضتها، ثم نظرت إلى إبراهيم للمرة الأخيرة، وأرادت سؤاله عن الجثة، إن كانت جثةً بالفعل، كما ودّت لو عرفت ما الذي رفض أن يقوم به. لكنها تعرف أن لا وقت لهذه المواضيع، فإن تأخرت سيأتي منتاز إلى البناية. رأت أن لا نصيحة لديها تقدمها للفتى، فما الذي تعرفه على أيّ حال؟

«شكرا،» قال بالعربية. الردّ على هذه جملة علمتها إياها فريدة، لكن خوفها أنساها المعنى. عوضا عن ذلك ضغطت على يده، «خذ حذرك واذهب بسرعة،»

خرجت إلى الشارع وأغلقت الباب خلفها، ثم عبرت الطريق نحو السيارة، وكان منتاز يراقب تحركها نحوه دون أن يحرك رأسه، أو يتغيّر التعبير البليد على وجهه التمساحي. وضعت جسمها بحيث تحجب نظره ونقرت على زجاج النافذة، فركّز بصره كأنه يجد صعوبة في التعرف عليها على الرغم من أنها لا تبعد عنه سوى متر واحد، ويفصلهما زجاج النافذة.

كان يجد صعوبة في التركيز عليها، فنقرت من جديد على النافذة وبدأت تتحدث معه. وحينذاك شعرت بجفاف في حلقها، وجاهدت للعثور على الكلمات المناسبة. لكن لا يهم، فلا يمكنه سماعها. «عذرا منتاز، أعتقد أنني أضعت مشبك شعري في السيارة، وأظن أنه سيكون على أرضية المقعد الخلفي. هل تمانع لو بحثت عنه؟»

أنزل زجاج النافذة واضطرت إلى ترديد ما قالت، مثرثرة بكلام غير مفهوم عن أنّ المشبك له أهمية خاصة وعزيز لديها، وأن سيّده هو من أهداها إياه، كأنّ أوغو سبق وأن أعطاها أي شيء.

«الباب مفتوح،» زمجر نحوها. من النادر أن سمعته يتحدث من قبل، فبدا لها صوته مثقلا بالاحتمالات، لكنها لم ترغب في الوقوف جانبا بعد، لعدم معرفتها إن كانت قد منحت إبراهيم وقتا كافيا للمغادرة. لا يمكنها التفكير في شيء آخر تقوله، لذا وقفت هناك دون عذر، وقد رسمت على وجهها ابتسامة ملتوية في محاولة لكسب الوقت. أخيرا قالت، «منتاز، أريد شُكرك على كل الأوقات التي نقلتني فيها بكل راحة، في الموعد تماما.» واكتشفت أنها لا يمكنها الاستمرار أكثر من ذلك، فلم تسمع أيّ صوت من مكانها ذاك، وكل ما لديها الآن هو الأمل. «شكرا،» قالت، ثم تنحّت جانبا وفتحت الباب الخلفي. أثناء انحنائها، لفتت وجهها إلى الشارع ورأت أن باب البناية مغلق، وليس من أثرٍ لأحد. لا بد أنه قد غادر. «وجدتُهُ،» صاحت بحبور، ثم استقامت واقفة، وهي تضع المشبك في شعرها، «إلى اللقاء منتاز،» وشعرت بأنظاره مسلطة فوق ظهرها وهي تبتعد عنه.

كانت قد أعطت كلّ نقودها لإبراهيم، وستضطر إلى العودة مشياً. سارت خلف قصر الحاكم، وانعطفت يمينا إلى كورسو فيتّوريو إيمانويل، حيث مشت على امتداد الشارع متجاوزة الكاتدرائية وقصر العدل، ومبنى البلدية، والدكاكين والمقاهي، ولافتات على الجدران تعلن عن عرضٍ في سينما الميرامار، وعن نوع جديد من السجائر، وآخر عن سباق قوارب في الميناء، وعن فيلمٍ جديد سيعرض في سينما الهمبرا. طوال الطريق كانت تشعر بوحش الإدراك يقتفي أثرها، لكن خُطاها تسبقه دائما. ثم عبرت ميدان إيطاليا، ووقفت لبعض الوقت عند النافورة، حيث الخيول البحرية الحجرية في المنتصف تحمل طبقا ضخما تسيل منه المياه. توقفت هناك للحظات لالتقاط أنفاسها، ومستمعة لتقاطر الماء أملا في الترويح عن نفسها، لكن لم يحدث ما تمنّت. فتحركت من جديد بخطى أسرع على الرغم من إرهاقها الشديد. تشعر الآن بوهن قدميها، وبحاجتها الماسة إلى البكاء.

تجاوزت مسجد سيدي حمودة، ثم مسجد القرمانلي حيث جلس بعض الرجال يقتلون الوقت فوق مقاعد حجرية، ثم انحدرت في الطريق المحاذية للقلعة المشعة بلونورديّ تحت الشمس الآفلة. كان مكبر الصوت المتدلي من جانب برج الساعة يذيع أخبارا بالعربية. استمرت في سيرها ودخلت المدينة القديمة عبر سوق التّرك، حيث لحق بها الوحش الذي كان يتعقبها، دون أن يلقي بالا لوجودها في مكان عام.

أمسك بها الوحش من خلف ربلتي ساقيها وركبتيها، فظنّت أنها ستقع أرضا، ويدها التي مدتها لموازنة نفسها، قبضت على أحد أغصان عريشة تتسلق الحائط، فتشبثت به وسحبت جسمها نحوه لتحتمي به أيضا. فتلك الحقيقة المتوحشة

كانت تتسكع طوال الوقت على حافة وعيها وضميرها، والآن أظهرت لها نفسها بالكامل. هذا الشيء الذي يظهرُ جزئيّا، هذا الوحش المظلم القبيح، برأسِ المشوّه المكلل بالسواد، والمطموس العينين، بدا كأنه يقف أمامها، مواجِها لها في كامل عريه، مكشوفا بكل قبحه. كان مألوفا لها ولا يمكنها التظاهر بغير ذلك. إنه معروف لها تماما.

محتمية بأغصان العريشة، وضاغطة نفسها إلى الداخل بالكامل، حينها راودتها كل الأشياء الحزينة في حياتها.

* * *

السنيور ياكوف كان قد ركّب جهاز هاتف في متجره، هو الأول من نوعه في سوق الترك. كان جالسا هناك، أمامه مقترحٌ لبطاقة عملٍ تجاري تعلن عن مؤسسته التجارية، وجاهز لإرساله إلى المطبعة.

كان يرغب في زيادة صادراته إلى إيطاليا، إذ بدا له أن هؤلاء الإيطاليين ينوون البقاء أكثر في البلاد، حيث أزيلت العديد من العشوائيات وتُركت مكانها لأبنيةٍ وقصور جديدة. في كل مكان شُيّدت مبان سكنية ومكاتب ومستشفيات، وامتدّ خط سكة الحديد إلى الشرق من تاجوراء بالإضافة إلى الغرب والجنوب، وتداولت الأخبار أنّ الطريق الساحلي سيمتدّ أيضا بحيث يمكن السفر كل المسافة من طرابلس إلى بنغازي، وربما حتى أبعد من ذلك، أي حتى مصر التي تمثّل سوقا ضخمة أخرى. هناك الآن عدد أكبر من السفن تسلك خطوط النقل المختلفة بين موانئ شمال أفريقيا الإيطالي، وإلى البر الإيطالي نفسه. الآن هو الوقت الأمثل لياكوف وعليه استغلال الفرصة. كانت بطاقة العمل بالعربية على أحد وجهيها، وبالإيطالية على الثاني، ورغم أنه عاود قراءتها أكثر من عشر مرات، إلاّ أنه ليس متأكدا من خلوّها من الأخطاء، ربما عليه أن يسأل شخصا إيطاليّا لمراجعتها، قبل إرسالها للطباعة هذا اليوم.

ينهض ويغادر المتجر، يشعل سيغارة أثناء وقوفه على عتبة الباب ناظرا إلى يسار الشارع. يعرف أن أقرب محلّ إيطاليّ يقع بعد أربعة دكاكين منه، لكنه متأكدٌ تماما أنّ ساندرو لا يمكنه القراءة، والأسوأ أنه سيتظاهر بالمعرفة. ثم ينظر إلى اليمن فيرى أن ركنه المفضل للتدخين تحت أغصان العريشة مشغول، حيث تقف شابةٌ هناك تنكفئ على نفسها، كأنها تحتمي من عاصفة ممطرة.

يأخذ خطوات نحوها ليتبيّن الأمر، فيكتشف أنها السنيورينا كاتانيو التي كانت تبكي. «سنيورينا،» يقول بصوت ناعم ولطيف، مع ذلك جفلت منه، ونظرت إليه كأنها لم تره من قبل. «سنيورينا، هذا أنا، ياكوف، تعالي إلى الداخل في متجري.» ثم يمدّ لها ذراعه فتمسكها وتسمح لنفسها بأن تُقاد إلى الداخل. يُجلسها فوق المقعد الطويل ويقول، «ابكِ ملء صدرك يا سنيورينا، ولا تلق لي بالا. سأطلب لك الشاي.» عند وصوله إلى الباب، يلتفت فيرى أنها لم تُضع وقتا في الأخذ بنصيحته. كانت قد أسندت رأسها فوق ركبتيها، وتمسك بمقدمة ساقيها، بينما تخضّ كتفيها من البكاء «سأغلقُ الباب وأعلّق اللوحة، ثم أعود بعد خمس دقائق.» قال بصوت عال على الرغم من شكّه في إنصاتها إليه.

يرسلُ صبيّا للعثور على أحد باعة الشاي، ويشعل سيغارة أخرى تحت أغصان العريشة. وعند حضور بائع الشاي يدخل المتجر مجدّدا ليجدها في الوضعية التي تركها عليها. «حان الوقت لتجففي عينيك،» ويمدّ لها منديلا من جيبه. تجلس منتصبة وتمسح عينيها، «آسفة سنيور ياكوف،»

بنبرة شهامة يجيبها، «على الإطلاق، أنا من يأسف لأنك حزينة، أخبريني عمّن جعلك تبكين، وسأمزقه بهذا السيف،» ويشير إلى مكان على الحائط حيث يُعلَّق سيفٌ إلى جوار أسلحة أثرية، لكنه يلاحظ المكان الخالي، ويتذكر أن سائحا أميركيا ابتاعه في الأسبوع الماضي، «أو هذا السيف،» ويشير إلى الذي بجواره. فتطلق نحوه ابتسامة.

هذا جيد، يقول لنفسه. قد يكون مسنّا لكنه لم يفقد روح الدعابة بعد.

يصب بائع الشاي الكأس المرغويّ الأول، ويُحضره ياكوف إليها.

«الشاي مناسب لكل شيء، وليس عليك قول أيّ شيء. إن أردتِ التخفيف عنك فكليّ آذان صاغية، وتذكّري أنني أبٌ، وجدّ، وزوج، وبالتالي يمكن الوثوق بي.» يمكنه رؤية أنها لن تفصح له عن سبب كربها، لكن لا يهمّ، فهذا ليس من شأنه. في الغالب السبب هو قصة حبّ حمقاء ما.

ترشف شايها وتعود الحمرة إلى خدّيها.

«هل يمكنك مساعدتي، سنيورينا؟» يُطلعها على الكلمات التي خطّها على بطاقة العمل، «هل هذه إيطالية صحيحة؟»

تقرأها وتكتشف خطأ طفيفا، فقد أسقط حرفا من بداية كلمة تصدير، وتقول «لو سمحتَ لي، يمكنني التفكير في طريقة مختلفة لكتابة البطاقة،»

«لا بأس. اجعليها تبدو إيطالية صحيحة.» الآن وقد توقفت عن النحيب، كم رائعٌ أن تكون جالسة هنا إلى جواره، تعمل على تحسين تجارته، وتبدو مستعدة للعطاء، وإن كان هذا الفستان الوردي الذي ترتديه الآن هو ذاته الذي عدّلته عند الخياط الشريف، فيبدو أن التلف قد طاله.

تقرأ له صياغتها الجديدة، فيرى أن لها أسلوبا محببا في الكلام.

فجأة سمع نفسه يقول، «هل ترغبين في عملٍ بدوام جزئي، تُجرِين اتصالات بزبائن وموردين إيطاليين، وتهتمين بالمراسلات مع التجار الطليان؟»

تنظر إليه وقد تفاجأت. لقد فاجأ حتى نفسه، لكنها فكرة جيدة، وستعمل على تعزيز مكانة تجارته، وهي الطريق إلى النجاح. «ثلاث عشيات في الأسبوع، وسأدفع لك نقدا أولا بأول.»

«موافقة،»

هكذا كان، واتفقا أن تبدأ من الثلاثاء القادم.

«شكرا جزيلا لأنك أنقذتني،» تقول وهي تغادره.

«لا شكر على واجب،» يردّ بالعربية.

* * *

أثناء سيرها مبتعدة عن المتجر، في طريق عودتها عبر سوق الترك، ظلّت جملته الأخيرة تدور في ذهنها. إنها نفسها التي علمتها إياها فريدة، ورغبت في قولها لإبراهيم؛ أنه لا يجب أن يشكرها لأنها إنما تؤدي واجبها. لقد رأت آنذاك، وبكل وضوح بأن تبذل قدر استطاعتها لتساعد أخا لها في الإنسانية يمرّ بمحنة. وأنها مع إبراهيم كانا بأشكال مختلفة ضحيتين، وأنّ أوغو مع تابعه المخلص منتاز هما العدوّ.

توقفت فجأة في مسيرها، حتى أن امرأة مرتدية فراشية تسير خلفها مباشرة، اضطرت أن تقفز جانبا بسرعة حتى لا تصطدم بها. «آسفة،» قالت للمرأة التي استمرت في سيرها صامتة. لكن كيف أمكن أن تكون هي وإبراهيم في جانب، وأوغو في الآخر؟ مع ذلك فتفكيرها بهذه الطريقة يقلب الأمور رأسا على عقب. إنها تقف الآن في منتصف طريق ضيّق يُجبر الناس على حشر أنفسهم على الجانبين. بتردّد تقدمت بضع خطوات إضافية، واستدارت عن المنعطف بعد مسجد عثمان باشا. صوت الأناشيد الدينية جاءها من الجانب الآخر للأبواب المطلية بالأزرق الفيروزي. قبل الآن لم تتساءل أبدا ماذا ينشدون، لكن الآن توقفت قليلا على جانب الطريق لتنصت إليهم، لكن ما سمعته لم يعن شيئا، سوى كلمات أجنبية غير معروفة لها وغريبة عنها بالكامل. مجرّد طنين متواصل، لكنها افترضت أنها تحتوي على تضرع إلى الله وأنها تتعلق بالمقدّس الغامض، فتابعت سيرها.

إن كانت هناك جثةٌ في مرآب فيّا أوفيديو، ألا يتعيّن عليها إبلاغ شخص ما في السلطة. لكنها تذكرت أنّ أوغو هو السلطة ذاتها.

وصلت إلى المكان حيث توجد كنيسة سانتا ماريا ديلي أنجلي، وتوقفت من جديد. تساءلت إن كانت ستطلب رؤية الأب فرانسيسكو، لكنها تعرف مسبقا أنها لا تتوقع شيئا من القسيس. فالأب يمثل الذراع الأخرى للسلطة ذاتها، وقد أعلن عن ذلك بنفسه أمام المصلين.

وجدت نفسها تنظر إلى الكنيسة فتتمعن فيها، وتستوعب الأشكال المرسومة على الباب الرئيس، ولوحة إعلانات إلى اليسار تحدد مواعيد القداس والاعترافات، ترى الجدران البيض، والأروقة بلونها الأصفر الذهبي، والصليب فوق قمة برج الساعة كأنّه مخلوق بشع حقير، وكأنّ المبنى ذاته هو المِلوم. رأت أن هذه أفكارٌ شريرة وإثم لا يجب أن تنساق وراءه. ثم

شعرت بسقمٍ شديد اقترن بحالة ضعف وإحساسٍ باليتم، حينذاك خرجت من قاعة الصلاة امرأتان، وفتحتا بابا في الوسط لتختفيا في أروقة الكنيسة المعتمة، فتبعتهما وغطست أصابعها في الماء المقدس، ثم باركت نفسها وتوجهت إلى الأمام لتركع أمام لوحة العذراء والملاك.

لا شيء يمكنها القيام به الآن، ولا يوجد أحدٌ باستطاعتها أن تخبره بما رأت. أو ما ظنت أنها رأت. لا توجد ثمة سلطة فاعلة يمكنها التدخّل هنا. يمكنها أن تُبقي فمها مغلقا وتتظاهر بعدم معرفة ما تعرف، وعقابها سيكون معرفتها بكم هي متواطئة في هذا الأمر، وكم هي مُحَطّمة لإبقائها على هذه الأسرار البشعة بداخلها. أن تعرف ما عرفت، وأن تتحمل ثقله في صمت.

غادرت الكنيسة واستمرت في طريقها على طول زقاق محمود. واجبها ينحصر الآن في رعاية ستيفانو وفريدة وجعل حياتهما أكثر سهولة، والآن يمكنها المشاركة بقليل من المال. ماذا يمكن أن تفعل أكثر من ذلك؟ لا شيء.

أملت أن تكون قد ساعدت إبراهيم، وأنه وجد ملاذا آمنا في مكان ما. كذلك لم تظن أن أي شخص قد يربطها باختفائه، كما أملت أن كذبها كان مقنعا لأوغو، كي يفقد اهتمامه بستيفانو وبفريدة. لقد شعرت بأنها كانت مُقنِعة في حكايتها، وعلى كل حال سيغادر أوغو قريبا وينسى فريدة، فلا تعود تشغل باله. وهذا يعني أن فكره انشغل بأمر ثان غيرها.

لا مزيد من أوغو أو منتاز.

بالفعل حتى قبل وصولها إلى البيت، وحتى مع الأسى والإحساس بالعار اللذين جعلا قدميها تجرّان فوق الأرض، وجعلا جسمها أكثر ثقلا. هناك جانبٌ

متناهي الصغر لم تؤمن بوجوده من قبل، وقد بدأ هذا الجانب يشعر بنوع من الانفراج.

بيت شاغر

مادة: بطاقة بريدية يظهر فيها مهرج محلي (بوسعديّة) يتدلى من فوق رأسه ذيل ثعلب، ويحمل طبلا يدقّ فوقه بعظم.

بينما الفتاة نائمة، تستغرق ليليانا في التفكير: عندما تفيق ستتناول معها الإفطار، وأثناء ذلك ستسعى بحذر إلى معرفة العلاقة بسيمون، ومعرفة المزيد عن عائلة سعيدة. لكن قرارها بالبقاء والعناية بهذه الطفلة يظل قائما، مهما تكن نتيجة الحديث بينهما.

لا يوجد خط رجعة لليليانا، ولن تترك هذه الطفلة، وبالتالي فدسّ الماضي مجدّدا في حجيرته لم يعد قائما. لقد رفعت الغطاء الآن، وهي تستغلّ اللحظة لتوجّه أفكارها إلى الوراء، نحو مكان مظلم، حيث يوجدُ السرّ المخفيّ، لترى إن كانت ستعثر على أي آثار منه. إنها تحاول الآن عزل ذلك الجانب الذي لا تتذكره من ماضيها، وأن تُجمّع كل ما تعرفه بالفعل، لترى ما ستكون المحصّلة.

تشدّ شالها أكثر حول كتفيها، وتغلق عينيها لتركّز أكثر، فعندما ينزلق الذهن بعيدا ويتوهُ في الغابة، تنوي آنذاك أن تسحبَه وتقوده مجددا نحو المسار الصحيح، لكي يستمر في التقدّم إلى حيث ترغب.

هناك الذكريات الفعلية، وهناك صورٌ غير مترابطة تبدو أقرب للأحلام منها للذكريات، تهاجمها بضراوة وليست لها سيطرة عليها، كما أنها لا تضيف أبداً أي شيء ذي معنى. لكنها ترغب أن تفعل ما بوسعها لتجميعها، وستحتاج إلى كل الشجاعة الممكنة من أجل ذلك.

تتذكرُ أنها كانت مريضة في طرابلس، لكنها لا تذكر كيف سقطت صريعة للمرض. فهي مثلا لم تكن معافاة في يوم ما، ثم فجأة ارتفعت حرارتها في اليوم التالي. لكنها تعرف أنها وجدت نفسها تبكي طوال الوقت، مع ذهنٍ مشوّش، وأن ذلك استمر لفترة طويلة، إلى جانب ما تشعر به من سقمٍ في بدنها. ساورتها ظنونٌ بتعرضها للتسميم، لكن من الواضح أن هذا محض هراء. أيضا كان ينتابها إحساسٌ بأنها تقف ساكنة تماما خارج ذاتها، وتظلّ تراقب نفسها وهي تقوم بالنشاطات المختلفة؛ تأكل، تغسل وجهها، تمشط شعرها، وتفكّ أزرار ثوبها. وأثناء مرضها عندما تراقبُ نفسها، تنزعج لرؤية ذاتها المبرمَجة، ورؤية القوقعة التي تعيش فيها، كما ترى تحركها بتلك الطريقة غير المعتادة. لقد رأت نفسها مثل قريةٍ هجرها ساكنوها. أو مثل بيتٍ شاغر يبدو متين البنيان، لكن يضطرُّ ساكنوه إلى مغادرته لوجود خللٍ ما في البناء، مثل زحف

الرطوبة، أو وجود عفونة بكتيرية ما تؤدي إلى هبوط أساساتِه. في أحيان أخرى، وحتى بلا مبالاة أكثر، تجد أن الجانب المراقِب قد ذهب إلى مكان آخر: كان المراقِبُ يغادر بسهولة هكذا، أو يتوقف تماما، وبالتالي يبقى البيت الشاغر دون مراقبة، وعندها قد يحدث أيّ شيء. في الغالب يحدث هذا الشيء بالفعل لعدم وجودِ شاهدٍ ما. بعد ذلك تعود وتشغل البيت من جديد، وليس لديها فكرةٌ عمّا حدث، وماذا فعلت، لكن هناك دائما تلك الرائحة الغريبة بعد عودتها، مثل رائحة الفطر. الساعات تمضي هكذا، ومن الألم الذي تحسّه في قدميها، فتعرف حينها أنها مشت كيلومترات، لكنها لا تذكر أبدا أين كانت. بدا لها أن بإمكانها أن تكون فاعلةً في مستوىً ما، لكنّ العقدة في الحبلِ الرابط بين التجربة والتذكّر قد انحلّت تماما.

أحيانا يعيدها الإحساسُ الجسمانيّ إلى الواقع. حاسة الشمّ لديها بالغة الحدّة، وكانت الروائح تهاجمها على حين غرة وتجعلها تحس بالغثيان. غالباً ما أحبّت الشاي بالنعناع لكن رائحته الآن تثير قرفها، وهي لا تستسيغ النعناع إلى هذه الساعة.

بفضل التبصّر، يمكنها أن ترى الآن أنّ إحساسها الهشّ بذاتها قد تحطّم بعد أوغو، فمعرفتها أنها فشلت في حماية فريدة منه لم تكن شيئا يمكنها استيعابه والبقاء متماسكة. في مرحلة ما توقفت عن العمل في متجر ياكوف لأنها لم تعد تشعر بخير. فالناس يتحدثون إليها وعنها، لكنها لا تسمعهم بوضوح، كما لو أنها تحت سطح الماء. يمكنها رؤية حركة شفاههم لكن كلماتهم تفشل في الوصول إليها. تتذكر مشهدا في فناء البيت عندما أعلنت فريدة أنها حامل، وكان يجب أن يكون ذلك مصدر بهجة. لكن لم يكن كذلك، بل كان فظيعا، وأسوأ شيء حدث.

لقد مثّل ذلك نهاية ليليانا، وانتفاء أي ادّعاء حول مقدرتها على أن تبقى متماسكة.

هذا أحد المواضيع حيث تخطئ الذاكرة، ويأتي المنطق ليحل مكانها، لكن المنطق غير مؤهّل أحيانا. فالمنطق أحمقٌ لطرحه عشرات الأسئلة التي لا أجوبة لها.

غادرت طرابلس بصحبة فريدة، وركبت باخرة إلى بنغازي، لزيارة عائلتها في برقة، لكي يولد الطفل عندهم. هذا ما تعرفه، وتعرفُ أيضا أنها ستُعالجُ من مرضها. آنذاك اعتقدت أنهم ذهبوا بها إلى أحد المشعوذين الذي ارتدى قناعا، ويحمل طبلا وتمائم، وعقودا من العظام حول عنقه.

تَفتح عينيها وتنظر حولها نحو حقيبتها القابعة في ركن الغرفة، وإلى الصليب المعلق على الحائط، والرجل الغائب عن الوعي وجهاز الإنذار المربوط به، والفتاة التي لا تزال ناعسة في الجانب المقابل. كان الجو دافئا في الغرفة الصغيرة، وهي تلتحف بشالها الأزرق القديم والجميل، مع ذلك لديها إحساسٌ بأنها مكشوفة بشكل سيّئ وترغب في أن تتمكن من إقناع نفسها بأن لا ضرر في طرح الأسئلة التي تخشى أجوبتها بعد قليل. فتقول لنفسها، سنصل إلى مرحلة الأسئلة بعد قليل، ثم تغلق عينيها من جديد.

خلال رحلة الباخرة التي استغرقت أربعة أيام، تتذكر أن السجادة الصغيرة المثبتة إلى ألواح الأرضية والواصلة بين سريريهما تفوح منها رائحة صوف قديم، مثل رائحة شاة قذرة. وفي يوم آخر ارتفع سرب من الأسماك الطائرة على شكل قوس، ثم غطس في البحر دون أن يُحدِث طرطشة.

في بنغازي تركتها فريدة لوحدها في غرفة الهوتيل وذهبت للقيام ببعض الترتيبات. تذكرُ أنها نظرت من النافذة إلى الميدان الرئيس أمامها، بياصّا دل ري، فشاهدت إيطاليين في كامل أناقتهم يجلسون في مقاهٍ على الرصيف، يشربون، ويدخنون، ويثرثرون، شاهدتهم كأنهم ينتمون إلى جنس آخر من البشر هي مستثناة منه. رأت ضباطا إيطاليين بأحذيتهم العالية اللمّاعة، وقبعاتهم البارقة، كما رأت جنود «العسكرية» مثل منتاز بطرابيشهم القرمزية التي تتأرجح شناويرها المتدلية من جهة إلى أخرى، ورأت صلبانا فضية تتدلى من أعناقهم. راقبتهم جميعا من النافذة، ثم نزلت إلى الشارع فسارت بينهم، ولم يلق أحدٌ بالاً لوجودها. خلال العشية عزفت فرقةٌ موسيقية في الحديقة المزروعة بالنخيل. ورأت الرجال ينقرون على الأرض بأمشاط أقدامهم في تناغم مع الموسيقى، أو الذين برفقة إيطاليات متأنقات، ويحتسون النبيذ من كؤوس زجاجية طويلة. رأت مجسّما لموسيليني ملتصقا بالجدار الأبيض لمبنى البلدية.. ثم تذكرت أنها عادت إلى غرفتها، وانتظرت عودة فريدة التي غابت لمدة طويلة، ولم تعرف كيف ستتصرف من دونها.

تفتح ليليانا عينيها وتسحب نفسا، فتسري رعشةٌ في بدنها، وتظهر بثور القشعريرة فوق ذراعيها. تتذكر الحكاية التي تقول بأن هذا دلالة على أنّ «أحدهم يمشي فوق قبرها،» وفي انتظار أن يغادرها هذا الشعور، تنهض من مكانها، تلتقط شالها وتفرده على طوله، ثم تضعه فوقها بشكل مختلف، بحيث يغطي رأسها، ويلتفّ بإحكام حول كتفيها وصدرها وردفيها. وبعد أن انتهت من هذه المهمة، جلست في مكانها من جديد.

تتذكر أن فريدة عادت وأخبرتها أن تحصل على قسط راحة لأنهما ستغادران قبل فجر الغد، ستنطلقان إلى الصحراء، حيث بلدة فريدة، وهناك ستكونان بأمان «لا تشغلي بالك حبيبتي، سأقوم برعايتك.» أخبرتها فريدة.

لا تعرف تماما ما حدث بعد ذلك، كل ما أمكنها هو تجميع جزيئات من المشهد. لكن مهما كان الذي حدث، فقد جرى في مكان خاصّ بالتفكير، وبالتالي لا يمكن استعادته بطرق التفكير المعتادة.

أرواحٌ ضائعة

مادة: بطاقة بريدية تبيّن المنعطف الواسع لشارع الكورنيش الذي تحدّه أشجار نخيل.

ليليانا وروزيتا مرتديتان أبهى الثياب، وتجلسان على مقاعد عالية حول طاولة كروم مستديرة، تتناولان الآيس كريم بنكهة جوز الهند في طبقيْن من خزف صيني أزرق. كانت ليليانا مرتديةً سترة بلون أزرق بحريّ بوسطٍ نازل، مع تنورة بثنيات. أما روزيتا فبدت أنيقة مرتّبة الهندام في ثوبها القطنيّ الأصفر، ترفع شعرها إلى فوق، وتضع قدميها في أفضل أحذية ليليانا، له كعب عال، ورباط متصالب.

أول خروج لهما بالملابس الأوروبية، كان جولة حول الحارة التي يقع فيها البيت، استمرّت أقل من خمس دقائق، وعادتا منها إلى البيت على الفور لأن فريدة كانت مرتبكة لاهثة الأنفاس. كلتاهما شعرت بدوار إثر هذه الجولة، لكن ما إن تمالكت فريدة نفسها حتى طلبت القيام بجولة أخرى، ومذّاك الوقت خرجت المرأتان في جولات عديدة. ذهبتا إلى سوق الحرفييّن، ثم في جولة على المتحف الذي بداخل السراي الحمراء، وتسلقتا برج الكنيسة لإلقاء نظرة على المدينة من علٍ. وعند عودة ألفونسو من رحلة عمل في إيطاليا، زارتا صديقته سيمون ذات عشية في فندق فيتّوريا لتناول الشاي والكيك. تلك كانت المرة الأولى التي تلتقي فيها سيمون بروزيتا/فريدة، وأبدت إعجابها بها. أما ألفونسو فوجد صعوبة في تصديق أنها الفتاة ذاتها التي التقاها في الصحراء.

في الخروج التالي خطّطتا لزيارة معرض طرابلس الدولي الواقع في كورسو سيشيليا، حيث ينوي ياكوف أن تكون له منصة عرضٍ هناك، ستشرف عليها ليليانا. وعند عودة سيمون مع ألفونسو إلى طرابلس، سيذهبون معا إلى الميرامار لمشاهدة أحد العروض.

عبّر ستيفانو عن سعادته بما أحرزتاه من تقدّم، وذات مساء خرج ثلاثتهم إلى الهمبرا لمشاهدة فيلم رائع اسمه «سول» وشريط إخباري عن الوطن حولَ الدوتشي في روما، التي تظهرُ حركة فكّهِ القوية في الشريط، فتعرف أنه يلقي خطبة ما، بينما الحشود يحيّونه ويهتفون باسمه. كان وجه فريدة يبدو لها واضحا في انعكاس الضوء من الشاشة، فلاحظت أن فمها وعينيها مفتوحتان في انبهار شديد.

هذه المرة وصلتا بالمغامرة إلى الحيّ الإيطالي، وإلى محلٍّ فخم لبيع الآيس كريم في لونغمور بليفيدير. وكانتا قد توقفتا عن توخي الحذر في حركتهما، فغياب أوغو عن المدينة يسمح لهما بهذا البراح.

ليليانا تحمل بداخلها أسرارا مروّعة، ومع ذلك لا تزال حيّة وموجودة هنا، بالأخص بعد أن تناقصت حالة الذعر لديها. فهي تعيش الآن مع شخصيتين تحبهما، ويبادلانها الحب ولهذا فحياتُها في طرابلس متميزة، لها مذاقٌ كان من قبل غائبا عنها. إنها أكثر مللاً الآن، لكنها أكثر أمنا من ذي قبل، ولا يمكنها أن تطلب أكثر. أحيانا، وفي مثل اللحظة الآنية، تتفاجأ لأنها جذلانة.

كان شاب إيطالي دمث يجلس إلى الطاولة المحاذية لهما وأخذ يبادلهما الحديث. عرفتا أنه يعمل في مكتب التمويل الزراعي القريب، وهو الآن في وقت الاستراحة. أخبرته ليليانا عن عملها في متجر ياكوف، وكيف أن التجارة مزدهرة في التحف والمصنوعات الليبية إلى أوروبا.

«أختك قليلة الكلام،» قال لها.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يُظنّ فيها أنهما أختان.

«إنها خجولة،» تجيبه، وتنظر إلى فريدة التي تحدّق فيها وتحرك حاجبيها، ثم تنفجران في ضحكة.

«ما اسمك؟» يسأل، وللحظة تنكّس فريدة رأسها وتنظر تحتها، فلا تزال غير معتادة على تحديق الرجال في وجهها، وبسرعة تتذكر أن شخصيتها الجديدة لا تمانع كثيرا في هذا الأمر، فتجيبه، «روزيتا.»

«اسمٌ لطيف،»

فريدة مُقلّدةٌ رائعة، يمكنها محاكاة اللهجات والانطباعات المختلفة. يمكنها التقاط تصرفات شخص ما ثم إعادة تمثيلها، وليليانا فخورة بالجانب الإيطالي من فريدة التي ساعدت هي في إخراجه إلى حيّز الوجود. بالذات تحبّ مشاهدتها عندما تواجه موقفا ما يتجاوز خبرتها السابقة، كيف تتخطاه، وكيف تحتفظ بثباتها وتوازنها عن طريق إبطاء حديثها، لمعرفة كيفية استجابة الآخرين لها، ومن ثم تتصرّف كما ينبغي.

كان ستيفانو يستعد لاستئجار بيت لهم قريبا من البحر ما إن تتحسن ظروف عمله. فقد وقع حادثٌ قاتل أثّر سلبا على حلبة السباق، وتعلق من بين كلّ المتسابقين، بالسائق غاستون الأفريقي أثناء تجارب الأداء قبل السباق، عند منعطف سوق الجمعة. وألقت هذه المأساة بظلالها على كامل السباق. وستيفانو في هذه الأثناء عضوٌ في لجنة تسعى للحصول على رعاية جديدة للحلبة، وكل أنواع التمويل الأخرى للحفاظ على استمرارية السباق، فهو مشغول هذه الأيام، ويعمل لساعات أطول.

مرت خمسة شهور الآن على غياب أوغو، وليليانا اعتادت هذا الأمر، كما سمعت أنه يتمركز الآن بصورة دائمة في برقة. تعرف أيضا أنه عاد إلى طرابلس أكثر من مرة، لكن لم يصلها أيّ استدعاء منه، وحاليا تستمتع بعملها في متجر ياكوف. فبالإضافة إلى مرتبها الذي تساعد به في مصروف البيت، يمنحها ياكوف عمولةً عن كل صفقة كبيرة تُنجزها، حيث اشترت بعمولتها الأولى أساور فضية لها ولفريدة، نقشت عليها عصافير صغيرة، كما يمكنها الإنفاق على هذه الطلعات التي تقومان بها، وما يتبقى من العمولة تدّخره.

«هل يمكنني شراء مشروب لكما؟»

«نحن مرتبطتان،» ترد ليليانا.

«حتى الصغيرة روزيتا؟» يسألها الرجل وهو يُميل نصفه العلوي إلى المساحة الصغيرة بين طاولتيهما. «بالأخص الصغيرة روزيتا.» تردّ ليليانا.

«حسنا، لا يمكنكِ لومي على المحاولة.» ثم يسحب كرسيه إلى الخلف، يدفع حسابه، ويغادر المكان.

«علينا المغادرة الآن.» تقول ليليانا، وحينذاك تماما، وهي تلتقط حقيبتها، تنظر خارج النافذة وترى أوغو في بدلته العسكرية البيضاء. تلك التي يرتديها في الاحتفالات مع قبعته بمقدمتها البيضاء وزينتها المذهبة. كانت الكونتيسا تودينو تُشبك ذراعها في ذراعه. وعندها تسارعت دقات قلبها، وتكتشفُ أنها كانت تفكر فيه دائما وبكل الأوضاع كوحش، ومع ذلك، ها هو أمامها الآن، يبدو مهذبا، أنيقا، ووسيما.

لكنه لم يرها، ومضيا في طريقهما، فمدّت يدها تحت الطاولة لتمسك بيد صاحبتها. لكنها رأت الآن أنهما اختفيا عن نظرها، فأطلقت زفرة ارتياح كانت مكبوتة بداخلها. لقد ذهبا. لكن كلاّ لم يذهبا، فقد عادا مجددا، والكونتيسا تتمسّك بذراعه جذلانةً، وتنحني لتفحّص نكهات الآيس كريم المختلفة المعروضة في الأطباق المجمدة. ثم تلتفت إليه بغنج، لتبيّن أيّا منها تريد. لكنه يهز رأسه نفيا ويقول شيئا ما. ربما لديه موعدٌ ما، وأنه في عجلة من أمره. لا بأس حتى الآن، فأنظار الكونتيسا مسلطة على الآيس كريم، ولم تنظر من النافذة إلى داخل المحل.

تبدو الكونتيسا اليوم بهيّة الطلعة، ترتدي لآلئ وفستان ساتان بلون القهوة له ياقة عريضة. إنها الأناقة بعينها، فهذه المرأة دائما ما تحققُ مرادها. لكن ليس الآن، حيث يبدو أنه يرفض طلبها، يهز رأسه، ويشير إلى ساعة يده، ويركّز نظره. ثم يليّن رفضه بابتسامة، فيبرز في ذهنها سؤال: هل لانَ أبدا في رفضه المتكرر لطلباتها؟ هل فعل ذلك قط؟ مثلا عندما ألحّت عليه أن يرافقها إلى الميرامار. هل ألقى لها بالا؟ وماذا كان ردّه؟ مجرّد لا صريحة. وما عدا رحلة لبدة، التي بالكاد تُحسب، لم تخرج معه في العلن أبدا. هذا النمط من التفكير يخبرها أن هذه طريقةٌ نزقة لرؤية الأشياء. تلحظ مدى ما عليه من وسامةٍ، فتتساءل كم مضى على عودته إلى المدينة. تُخبر نفسها عديد المرات بأنه لا بد أن يكون هناك تفسيرٌ صادق لموضوع الجثة، إن كانت هناك جثة بالفعل، وللدم في السجادة، وملابس إبراهيم في ذلك اليوم، وكذلك أسلوب أوغو في معاملته. لكن

ربما استحق الفتى ذلك، ربما قام إبراهيم بتصرّف لا يُغتفر. لكنها أيضا لاحظت أنه كان متلهفا لجمع مقتنياته البسيطة والهرب بعيدا. إذن الأمر ليس على ما يرام، ومهما حاولت لم يعد بإمكانها أن تغيّر أفكارها بالقناعات المتضاربة التي سلّمت بها لزمن طويل.

هناك فكرة أخرى تسيطر عليها، وتحيط بعنقها فتمنعها من التنفس بحرية، تقول إن أوغو قاتل.

تنحني الكونتيسا لتفحص الآيس كريم عن قرب، ثم تلتقي نظرتها بليليانا فتلوّح لها بإثارة، وتنقر على النافذة. تردّ عليها ليليانا بتلويحة، لكن لا يوجد وقت كاف للاستعداد وتوحيد روايتها مع فريدة لأنهما قريبان منهما، بأحمر شفاهها البراق وعطرها الذي يسبقها. بدأت الكونتيسا تنزع قفازها، وتبدي تعجّبها للمصادفة. «يا بطتي الصغيرة، تبدين بحال جيّد، فلم أرك منذ دهر. كما المدة؟ سنة؟ أكثر؟ يبدو أن هواء البحر هنا يناسبك.»

ترفع ليليانا بصرها نحو أوغو مرة فقط، وكانت الابتسامة التي رسمها خارج المقهى لا تزال عالقة بملامحه. كلاّ لم تكن ابتسامة متكلفة، بل تعبيرا عن مشاعر صادقة. لقد بدا مستمتعا. فأوغو مونتيللو يجد أن شيئا ممتعا ما في هذا الموقف الأليم.

«تعرفُ ليليانا الصغيرة، أليس كذلك؟ هل تعرف ليليانا الصغيرة؟» تسأله الكونتيسا. ربما سيبقيان للحظات يبتاعان الآيس كريم ثم يخرجان. وربما حتى لن يلاحظا وجود فريدة، أو يظنان أنها مجرد فتاة تصادف وجودها إلى الطاولة نفسها.

«أوه، تعرفُها بالتأكيد فقد التقيتما في حفلة روما، أليس كذلك؟» تقول قبل حتى أن تنتظر منه جوابا. أثناء ذلك تنظر إليه بتكلّف وما يشبه نظرة تآمريّة تعمل على تدوير السكين المغروز في ليليانا، والذي كان ينفتل بشدّة، ويكثّف ألمها فتشعر أنها تفقد توازنها، وعلى وشك السقوط من مقعدها العالي. لكن هناك شيئا ما في ملامح أوغو. شيء ربما التقطته الكونتيسا وربما لم تفعل، شيء لا يعكس تماما ما كانت تتوقع. وهذا ما يجعلها تدير نظراتها بينهما. هل قالت له sotto voce (كلب قذر)؟ أم قالت شيئا آخر، لكن أوغو يطلق نصف ضحكة، ويقول في الوقت نفسه، «صحيح، لقد التقينا في روما،» ثم ينحني قليلا، «وكان لنا شرفُ اللقاء في آثار لبدة الرومانية، عندما كانت هذه الآنسة برفقة مجموعةٍ سياحية. كيف حالك يا سنيورينا كاتانيو؟»

«أنا بخير،» تتمكن من القول، بينما يلتقطُ أوغو يدها ويقبّل ظاهرها. هل حقا وصفته الكونتيسا بكلب قذر، أم أنها أخطأت السمع؟

«أوه، لقد فهمت،» تقول الكونتيسا وهي تنقل نظراتها بينهما، وتتكلفُ الابتسام مرة أخرى، ثم ببساطة شديدة تلتفت إلى فريدة، «ومن هذه الشابة التي ترافقك؟ لم تعرّفينا عليها.»

برعبٍ تكتشف ليليانا أن فريدة أيضا ترتدي أحد فساتين الكونتيسا القديمة، ومن المستحيل عدم ملاحظة ذلك.

أيضا لا بد أنّ فريدة قد حكّت ذقنها لمسح أثر الآيس كريم، فبان الوشم فيها. لكن ربما سيظنان أنه أثرُ جرحٍ قديم ما. تستقبل ليليانا نظرات أوغو والكونتيسا الفضولية، بينما جسمها يرتعد بالكامل. لفترة لا ينطق أحدٌ بأي شيء، ويتمدّد الصمت بينهم مثل شد قطعة مطاط إلى نقطة التمزق، لكن قبل الوصول إلى الحد الأقصى يقول أوغو، «هذه زوجة أخيك، سنيورينا كاتانيو؟»

«نعم،» ترد بوهنٍ، فلا يمكنها فعل شيء سوى الإقرار بما يقول، «نعم، هذه روزيتا زوجة أخي،»

«لم أعلم أن أخيك متزوج! كم هي مخلوق صغير ولطيف. ومن أين أنت؟» تسأل الكونتيسا.

«من صقلية، ألم تقولي من قبل؟» يجيب أوغو، متدخلا بتقدين المساعدة.

«من الجزيرة،» تردّ فريدة، بعد أن عثرت على صوتها أخيرا.

«أوه، من صقلية،» تتمتم الكونتيسا.

لكن فريدة تهز رأسها نفيا، «بل من أوستيكا،»

«أوستيكا، أليست هذه إحدى جزر السجون؟»

«آه، كنتُ أعرف أنه يوجد في طرابلس مجموعة من الأوستيكيين،» يقول أوغو، ويومئ في دلالة على المعرفة، «كم أحببتُ معرفة المزيد عن الجزيرة، لكن أخشى أن لديّ الآن ارتباطا مهما. هل تحبّين البقاء هنا وتناول الآيس كريم مع هاتين الشابتين؟» يقول للكونتيسا.

«كلاّ، كلا، زوجي في انتظاري.»

«إذن، هيّا واختاري النكهة التي تريدين،» وشدّها من ذراعها، «سعدتُ بلقائك مجددا سنيورينا كاتانيو، وأن تعرفتُ بك أيضا يا سنيورا روزيتا. كم أحب معرفة المزيد عن أوستيكا التي لم أزرها قط.» ينحني لهما مجددا ثم يسحب الكونتيسا نحو نضد البيع.

«يا للكنتها الغريبة،» يصل صوت الكونتيسا إلى أذني ليليانا.

«هي قرويّة، وربما لا تجيد إلاّ لهجتها.»

«بعد كل شيء، لا أعتقد أنني أريد الآيس كريم.» تخبره.

تمسك ليليانا بيد فريدة وتقودها نحو شارع ميركاتيللي الذي يقود إلى الكاتدرائية. كانت يد فريدة ساخنة، وتتعرق، وهناك أيضا حبّات عرق فوق جبينها ووجهها الذي نادرا ما يرى الشمس، فتلاحظ أنه شاحبٌ أكثر من المعتاد، ولا يمكنها السير أسرع من الآن بسبب الكعب العالي الذي لم تعتدْ السير به بعد.

عندما صارتا في مأمن داخل عربة الكاليس التي تقلهما في طريق الكورنيش إلى البيت، كانت فريدة تنظر إلى الخارج من جانبها المحاذي للبحر، فلا تريد أن تلتقي نظراتها برفيقتها ليليانا التي تسألها، «ما الذي جعلك تقولين من أوستيكا؟»

«إنها حيث نُفي جدّي في أيام الاحتلال الأولى.» ترددُ بصوت خافت، ولا تزال تشيح بنظرها بعيدا.

«ماذا جرى له؟»

«لا أعلم لقد هُجّر الكثيرون، ولم يعدْ منهم أحد.»

ليليانا تعرف أن المعارضين والمنتقِدين للنظام الفاشي، أبعدوا للمنفى، ووُضعوا في مستوطنات في أوستيكا وبعض الجزر الأخرى قرب صقلية، كما تعرف أن أنجيلا الفتاة التي كانت معها في العمل، أرسِلت إلى جزيرة ليباري، وربما لا تزال هناك. لكنها لم تسمع من قبل بهذا التهجير والنفي في ليبيا، وتساءلت في نفسها إن كانت فريدة صادقة في قولها. ثم التفتت فريدة إليها وقالت، «نسميهم الأرواح الضائعة على الأراضي الإيطالية».

من الصعب تحمّل الطريقة التي تنظر بها إلى ليليانا، وكأنها المسؤولة عن هذه الأرواح الضائعة. «آسفة، لم أكن أعرف.»

لا يمكنها التفكير في شيء آخر تقوله، فتعضّ شفتها وتحاولُ الجلوس ساكنة، لكن نظرات فريدة المسلّطة عليها تجعلها تتململ في مكانها. فهي لا تعرف، ولا يمكنها السيطرة على كل الأشياء الشائنة، والأسرار، والأشياء المظلمة والمخفيّة عن ليليانا نفسها، والتي تُفصح عنها نظرات فريدة المسلطة عليها الآن.

«من يكون ذلك الرجل؟» تسألها أخيرا.

«كولونيل في القوى الجوية،» وتشعر بلسانها يتضخم داخل فمها، ما يصعّب ُعليها تشكيل الكلمات. لكنها تقرّر أن إجابتها مناسبة ومحايدة، ولديها الوقت الكافي للإفصاح عن المزيد عندما تقرّر متى، وحجم المعلومات التي تحتاج إلى إخبارها بها.

«ماذا يعني لك؟»

تبدأ ليليانا في البكاء، ولم تجد إلى غير ذلك سبيلا.

تمدّ فريدة يدها وتضغط إبهامها على جبين ليليانا، ومتجاهلة دموعها، تحدّق مباشرة فيها. هذه معاينةٌ لها في أسوأ صورها. «لقد أخبرتِه عني.»

«لم أقصد ذلك قط، لم أقصده قط.»

«ومع ذلك أخبرتِه عني، ولم تخبريني عنه،» ثم تضغط إبهامها بقوة، كأنها تريد صنع حفرة في دماغها.

«أتيتِ بي إلى هنا في هذه الثياب،» تقوم بحركة بيدها الأخرى، تشير فيها إلى تحت نحو فستانها الأخضر، وجواربها، وحذائها المستعار، «ومع ذلك لم تخبريني بشيء.»

تفكّر ليليانا أنّ هذا الحكم على أفعالها غير عادل، ولا يلمّ بجوانب الموضوع. على أيّ حال من تكون فريدة لتحكم عليها؟ ثم تحاول أن تلفت رأسها بعيدا، لكن إبهام فريدة لا يترك لها مجالا.

«اعتقدتُ أننا صديقتان، وأننا متساويتان تحت الشمس،»

تغلق ليليانا عينيها، وتُفلتُ فريدة إصبعها فجأة، حتى أن رأس ليليانا يندفع إلى الأمام.

عندما تنظر إلى فريدة ترى أنها تُخرج فراشيتها من الحقيبة، وتنزع حذاءها، فتلحظ أثرا أعلى قدميها حيث مكان الرباط الجلدي، كما ترى أن الإصبع الثاني من كل قدم يشوبه احمرار بفعل الاحتكاك.

«قدماك المسكينتان!»

تقبعُ فريدة الآن داخل الفراشية، وتسمعها تطقّ أسنانها، فلن يلهيها أي حديث عن قدميها المقرّحتين، وتدسّهما داخل سبّاط عادة ما تحمله معها.

تجلسان في صمت بينما العربة تعبر الشوارع. فتقرر أنها ستشرح لها الأمر عند وصولهما إلى البيت، لكنها بحاجة لانتقاء الكلمات المناسبة. هذا كل ما في الأمر، وعندها ستتوقف فريدة عن الغضب منها. ستفكّران سوية في خطةٍ ما. وتسرحُ أفكارها هنا وهناك، لكن لا يمكنها الخروج بخطة بعد. تأخذها أفكارها إلى البريّة التي قد تُنبذُ إليها، فتراها أحيانا كصحراء قاحلة، وأحيانا كبحيرةٍ مالحة تنساق فيها على متن قارب مثقوب. في مرات أخرى، ولأنها سمعت حكايات عن مصير النساء المحليات اللواتي تم استغلالهن ونبذهنّ، يأخذها الخيال إلى بيت الدعارة الذي قد تجد نفسها فيه. من المؤكد الآن أنّ فريدة ستخبرُ ستيفانو بعد أن عرفت الحكاية كلها. لكن ألم تكنْ بمثابة الأداة التي يستخدمها أوغو لقضاء وطره؟ وتتذكر مرة أخرى أن مسألة التضحية من أجل قضيةٍ ما صحيحة، عندما ترى أن تلك القضية أعظم شأنا بالفعل. هذا إن فكّرت في ذلك أصلا، لكنها الآن لا تملك أدنى فكرة عن أي قضايا. وربما لن يُعدها أخوها لحاجتهم إليها للمساعدة في حمايتهم من أوغو الذي يعرف أنها كذبت، وأنها تحدّثهُ في مسألة «طلْيَنة» فريدة التي لا تزال تعيش مع ستيفانو. كلاّ، ستضطر إلى استخدام جسدها لتهدئته، وستقوم بذلك مرغمة كلما استدعت الضرورة. لكنه لم يعد يرغبها. ومع ذلك إن لم يعد يهتمُّ لأمرها، فربما لن يهتم لأمر ستيفانو أو فريدة لأنهما لم يتسببا بأيّ ضرر لأحد. أيضا ربما هو الآن في زيارة خاطفة إلى طرابلس، وربما يكون قد عاد إلى برقة بالفعل، لقد رأت أنه كان سعيدا بلقائهما، والآن ربما نسي أمرهما. ستقول لفريدة أقل قدرٍ ممكن من المعلومات، وكذلك ستيفانو ليس بحاجة أن يعرف شيئا، كل شيء سيعود كما كان من قبل.

تقف العربة أمام باب الجديد، وقبل نزولهما تقول فريدة، «هذا الرجل سينتقمُ منّا.»

في وقت مبكر من اليوم التالي، وبعد مغادرة ستيفانو إلى العمل مباشرة تصلها رسالة يحملها حميد. تفتح ليليانا الباب وتمدّ له يدها لاستلامها، لكن الصبيّ يهز رأسه نفيا، ويأخذ خطوة إلى الوراء. «ما الأمر، أعطني الرسالة،»

يقول شيئا بلغة غير مفهومة، وتخبره، «لا أفهم ما تقول،» فيردد العبارة نفسها.

لم يحدث من قبل قط أن تسلّمت رسالة شفاهية وأخرى مكتوبة. لم تجد بالأمس الفرصة لتخبر فريدة بأي شيء، فستيفانو كان قد عاد من عمله، والعشاءُ يحتاج إلى تجهيز، وبالتالي لم تتح لها فرصة للاختلاء بها.

تنادي على فريدة للحضور كي تفسّر لها كلام الصبي، وما إن حضرت بجوارها حتى دفع بالرسالة إلى فريدة، وذهب راكضا.

تعودان إلى الفناء، وتقول ليليانا، «لا بد أن الصبي مخطئ،» وبصمت تريها فريدة واجهة الورقة المطوية، معنونة إلى السنيورا روزيتا كاتانيو. تفتح الورقة وتنظر فيها، ثم تفردها لليليانا لقراءة ما فيها: موعد اللقاء اليوم، الساعة الرابعة بعد الظهر بالقرب من برج الساعة. وختمها بكتابة، «لا تتأخري روزيتا.»

تختطف ليليانا الرسالة منها، تقلّبها في يدها باحثة عن ملحوظة أخرى. شيء آخر أو مزيد من الشرح، أو شيء مختلف. «لا يمكن أن يعنيك أنت، فلماذا يرسل في طلبك؟» فتنظر فريدة إليها وكأنها هي التي يجب أن يكون لديها ردّ على هذا السؤال، وتنتظر الإجابة منها.

تفكّر في الجثة التي حُملت عبر الشارع إلى المرآب، وفي الضرب الذي تلقّاه إبراهيم، وفي اختفاء عليّ، وتفكّر في الرجل الآخر المدمّى الذي رأتهم يقودونه بعيدا. والرائحة التي تشمّها أحيانا في الشقة. رائحة قذارة ودمٍ وعرق. وكذلك في الطريقة التي طار بها منخفضا فوق بيوت تلك القرية، وحديثه عن قصفهم وعن خيانتهم المفترضة. ثم كيف كذبت عليه وأخبرته أن فريدة رحلت، وأنه اكتشف كذبها ولا يمكنها التظاهر بغير ذلك بعد الآن. أما الآن فهو يريد معاقبة فريدة لأنها تجرّأت على التشبّه بالإيطاليين، أو لشأنٍ آخر يُغضبه، ولا قدرة لديها على منعه. إنها غلطتها وحدها.

لو أن هناك كرسيّا مناسبا لتهاوت ليليانا فوقه، فتنظر حولها كأن الكرسيّ سيظهر لها فجأة. «ما معنى هذا؟» تسألُ فريدة.

تقف ليليانا مترنحة في وسط الحوش. هل يمكن أن تكون فريدة الآن هي التي اختارها؟ «ما معنى هذا؟» تسألُ فريدة من جديد.

«لم يعد يحبني.» لكنه لم يحبّها قط.

«لا. إنه يحبها.» تقول فريدة.

«من؟»

«السيدة الغنية.»

«الكونتيسا تودينو؟»

«نعم،»

«لا، لا، لأنه، لأنه...» ثم يخفتُ صوتها. تفكّر كيف أن الكونتيسا قدّمتها له كمضغة لمتعته، وليليانا الآن تقدّم له فريدة.

«آه هـ هـ،» تطلق آهة، لكن فريدة تمسك بذراعها قبل أن تتهاوى.

«ما معنى هذا؟» تسألها مرة أخرى.

«لا أعرف،» وتنخرط في بكاء.

تقودها فريدة نحو الغرفة، وتغلق الباب وراءها فيعمّ الظلام. تُضيء الفنار وتجلسان فوق السرير متشابكتي الأيدي، في مواجهة بعضهما. «لم أقصد أبدا أن تجري الأمور هكذا.» فترفع فريدة عينيها ببطء، وتطق لسانها ثم تخفضه من جديد. إنها تعرفُ، وتحملق في ليليانا بثبات.

تقول ليليانا أخيرا، «لقد تسببتُ في هذا لنا، وسأذهبُ بدلا عنك. سأخبره أنها كانت المرة الوحيدة، وأنك تراجعتِ وعدت إلى موطنكِ الأصلي، ولن تخرجي منه مجددا متخفّية كإيطالية. أليس هذا ما يريد؟»

«ليس هذا ما يريد.» تردّ فريدة.

«ماذا إذن؟»

«ليس هذا.»

تعرفُ أن فريدة تنتظر منها قول شيء ما، لكن عدا التفكير في حلولٍ غير منطقية مثل الهرب بعيدا، فعقلُها متوقف عن أي نشاط.

«إن لم أذهب له ماذا سيفعل؟ ماذا يمكنه أن يفعل؟ وما هي السلطة التي يملكها؟»

«هو رجل بالغ العنف،» لم تقل عنه هذا من قبل أبدا، ففي الواقع لم يخطر ببالها مطلقا. والآن كل الأمور التي تعرفها عنه، والتي لم تتحرّ تفاصيلها، ولم تسمح لنفسها بالتفكير فيها بالكامل، بدأت تتدافع وتظهر أمامها بوضوح. «إنه يعقد اجتماعات مع زعماء محليين يذهبون إلى بيته للحديث معه. لا أعرف من هم، لكنني أعتقد أنه يعقد معهم صفقات ما، يدفع لهم، ويشترى إخلاصهم له.»

«إذن؟»

«إن وقفوا ضده، أو رفضوا الانصياع له، وإن اعتقد أنهم يخونونه، أو لا يخبرونه بما يودّ معرفته، فإنه يعاقبهم.» تحتاج إلى الإفصاح أكثر، لكنها لا تستطيع، لأنها ليست على يقين أنه يقتلهم، أو ليس قصدا على الأقل. «كذلك يعتقدُ أن السكان المحليين ناكرون للجميل، وخونة، ومتآمرون، كما يؤمن أننا نأتيهم بالحضارة والتمدّن، وأن عليهم الخضوع لنا، وليس فقط التظاهر بالخضوع.» كيف يمكنها تبرير أفعاله، وبالأخص الآن؟

«كما ترين، الأمر بالنسبة إليه حالة حرب.»

«إنها حالة حرب فعلا،» تعقّب فريدة.

مقهى الشرق

مادة: بطاقة بريدية عليها صفّ من الرجال العرب يدخنون النرجيلة في مقهى الشرق الواقع عند ناصية سوق طرابلس

قررت ليليانا وفريدة الذهاب معا للقاء أوغو. وبهذا الشكل لن يمثّل ذلك تحدّيا له بِحِرْفية المعنى، وسترعى كل منهما الأخرى. «لن أدعه يؤذيك،» تقول ليليانا، فهي لا تزال ترى أن لها بعض التأثير عليه.

سترتديان أفضل ما لديهما من ملابس أوروبية، لكنهما ستأخذان معهما فراشيتيهما، وسبّاطا لكل منهما، استعدادا لأيّ طارئ.

كان منتاز ينتظر في السيارة، فتصعدان إلى المقعد الخلفي، وإن كان قد تفاجأ بالفعل لوجود امرأتين، فلم يبيّن ذلك. يقود بهما لمسافة قصيرة، ليس نحو بيتٍ ما، وإنما نحو أوغو الذي ينتظر في مقهى الشرق عند سوق المشير، في الطرف الجنوبي من المدينة القديمة.

كان أوغو يقف عند قاعدة الدرجات المرمرية، مرتديا ملابس مدنية؛ بدلة رمادية مع قميص أبيض، ورباط عنق بحريّ منقّط بالأبيض، وفوق رأسه قبعة فيدورا رمادية. كان يبتسم منتظرا مساعدة فريدة في النزول من السيارة، وبسبب ستائرها المسدلة لم يعرف أن ليليانا بصحبتها إلى أن نزلت هي الأخرى، فتلاشت ابتسامته ونظر نحوها ببرود، «أنتِ غير مدعوّة.»

لكن الحبّ يُلهمها الجرأة، «حسنا أنا هنا الآن،» وتُشبك ذراعها في ذراعه، ضاغطة بمرفقها عليه، كأنّ ما يحدث الآن مجرّد لعبةٍ مرحة. وفي الوقت ذاته تتسارع دقات قلبها، وتشعر بجفاف شفتيها.

تقول لنفسها، المقهى يرتاده عموم الناس، ولا يمكن أنه يخطّط لأيّ عنف ضدهما. يقفُ للحظات كأنه يفكر في أمرٍ ما، ثم يقول: «لا يهمّ، إنه خيارك،» وينحني على السيارة ليعطي منتاز تعليماتٍ ما.

كل منهما معلّقة بإحدى ذراعيه، يصعدون الدرج ويعبرون المدخل المقوّس، مارّين بين حرّاس يرتدون جلاليب سود مذهّبة الحواشي. بعد أن تركوا وراءهم ضوء العشيّة الساطع، يهبطون في ممرّ مضاء بالكهرباء إلى حيث يوجد رجلٌ أسود ضخم الجثة مرتديا ثوبا بلون الفيروز، كان يقف وراء نضدٍ، فيشير لهم بالمرور. فيستمرون نحو صالة المقهى عبر ستارة من المخمل الأحمر. في وقتٍ ما يُبعد أوغو ليليانا عن ذراعه، لكنها تظلّ تتبعهما، حيث يمكنها رؤيته يحيط خصر فريدة

بذراعه. في الجانب الثاني من الستارة هناك مساحة كبيرة مضاءة في الوسط بنور كاشف، وفي الظلال من حولها هناك أماكن استراحة. في وسط المكان تماما هناك امرأةٌ مرتدية ثوبا قصيرا، وتصدح بأغنية عربية يغلب عليها الشجن، وبصحبتها فرقة موسيقية محدودة العدد. رأت أنّ أطراف الغرفة غارقة في الظلام، فبالإضافة إلى الموسيقى بإمكانها سماع طنين أحاديث خافتة، لكن لا يمكنها رؤية المتحدثين. تصلها روائح العطور، والشمع المحترق، والسجائر، ورائحة الفواكه في تبغ الأراغيل.

تقترب منهم مضيفة ترتدي ثياب رقص مثيرة، فيحدّثها أوغو بصوت خافت. يسيرون خلف المرأة بخط متعرّج في مساحة بها خلْوات مغطاة بستائر، ويقع نظر ليليانا على غرفة شديدة الإضاءة يلتفّ فيها أشخاص حول طاولة قمار، بينما يقوم رجلٌ يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق فرَاشيّة حمراء، بخلط أوراق اللعب، مُمسكا برزمة الورق عاليا في إحدى يديه، وبمهارة يتركها تسقط بتتابعٍ في اليد الأخرى. ثم يصلون إلى فضاء خلف ساتر خشبي حيث توجد طاولة قصيرة فوقها شمعتان في دورقين زجاجيين بلون أصفر، وفي المكان مقعدٌ طويل في كل جانب مغطى بفراش. تقف ليليانا وهي تراه ينحني ويهمس في أذن فريدة، لكنها لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، تنظر حولها فتلحظ أن محيط المكان كله مقسّمٌ إلى مثل هذه القمرات شبه الخاصة، وكل منها بها فتحة تطلّ على مكان العرض.

تجلس على المقعد الطويل المقابل لفريدة وأوغو، وعندها تُجلبُ إلى القمرة قنينة نبيذ وثلاثة كؤوس، يقوم النادل بنزع الغطاء، يملأ الكؤوس ثم يختفي. كان أوغو قد أدنى فريدة منه، فتقول ليليانا: «هي لا تشرب الكحول،» وتجدُ صعوبة في إسماع صوتها له فوق ضوضاء الموسيقى، لكنه يسمعها وينظر نحوها، ثم يضع سبابته فوق شفتيه، «اسسسسس..» لا يمكنها الآن رؤية وجه فريدة بوضوح، لكن بإمكانها معرفة أنها سقطت في بحرٍ من السكون. هنا يرفع أوغو كأسا، ويمسك بذقن فريدة، ثم يدير وجهها نحوه، وممسكا بها بهذه الطريقة، يدني الكأس من فمها، ويبدو أنه ينقر حافتها فوق أسنانها. فتمسك فريدة بها وتبدأ في تجرّع النبيذ.

تتغيّر الموسيقى فيدير رأسه ليشاهد العرض، حيث تدخل مجموعة من الراقصات الشرقيات إلى بقعة الضوء، ويلوّحن في تناغم بمراوح من ريش النعام. بدا على أوغو أنه مأخوذ كلّيا بالاستعراض، لكن يبدو أيضا أن يده المحيطة بفريدة تضغط على نهدها، فمن الصعب التحقق من ذلك في ضوء الشموع.

يظهر النادل من جديد. ينحني ليقول شيئا في أذنِ أوغو، الذي ينهض ويسحب فريدة التي تنتصب واقفة. «معذرة،» يقول لليليانا، ثم يقود فريدة مبتعدا، ويختفيان وراء ستارة أخرى. للحظة تجلس ليليانا مشدوهة، ثم تنهض بسرعة مقتفية أثرهما خلال الدخان والعتمة، والزبائن نصف الواعين. لا ينبغي أن تسمح بحدوث هذا. تلحق بهما وهما على وشك المرور من أحد الأبواب، وتتشبث بسترته، «خذني أنا، أرجوك خذني أنا،»

يدفعها عنه، فتهز فريدة رأسها يمنة ويسرة، لكنها لم تر تضرّعا في عينيها. وتلتفت ليليانا إلى أوغو، «لا يا عزيزي، أرجوك لا تفعل هذا،»

مُمسكا بفريدة إلى جانبه بقوة، يميلُ رأسه الضخم نحو ليليانا ويقبّلها، دافعا لسانه الغليظ بين أسنانها، وبدأ يمصّ شفتيها. بإمكانها أن تشمّ رائحة كولونيا الصنوبر والخزامى، والمرهم في شعره، وأن تشمّ رائحة جسده المميّزة. كان قد اغتسل ووضع روائحه ودهونه المختلفة، لكن لا يزال بإمكانها التعرف على رائحته الخاصة، وإفرازات جسمه. أخيرا يسحب لسانه من فمها ويقول هامسا في أذنها، «لا تكوني غيورة يا طائري الصغير.»

يدور، يفتح الباب، ويسحب فريدة وراءه، بينما تمسك ليليانا بسترته مندفعة في أثرهما، «أرجوك أوغو، أتوسل إليك، خذني أنا.» يقفون الآن في الممر بأنواره المعتمة المثبتة فوق الجدار، وبأبوابه العديدة التي تقود إلى ما يُفترض أنها غرفٌ صغيرة، بينما هي ليست أكثر من قمرات. يقف ثلاثتهم هناك كأنهم في انتظار أمرٍ ما، ويبدأ جانبٌ منها في التفكير، ماذا يعني هذا، وما الذي ينتظرونه، لكن الجانب الآخر منها لا يزال يُحدث صخبا، ويستعطف، ويحاول خدشه في وجهه. كان صوتها الآن، وقد ابتعدوا عن ضجيج الموسيقى، يخرج حادّا وكئيبا. ثم من وراء أحد الأبواب يصرخ فيها شخص ما بأن تُغلق فمها، أما فريدة فتقف مستسلمة إلى جوار أوغو.

فجأة ينفتح الباب خلف ليليانا فتصيبها أكرتُه في وسط ظهرها، ثم بسرعة تمتدّ يدٌ وتطبِق على فمها. هذا إذنْ ما كانوا في انتظاره. هنا يُسرع أوغو بفريدة على طول الممر، ومبتعدا عن ليليانا، ثم يدخل إلى إحدى الغرف مغلقا الباب وراءهما. كانت اليدُ الممسكة بها بالغة القوة، ولا فكاك منها. إنه منتاز. ولا فائدة من المقاومة.

يتحرك معها متعثّرا في الممر حتى يصلان إلى الباب الذي دخل منه أوغو. بعد قليل يرخي قبضته حولها، لكنه لا يطلق سراحها، فتجد أن بإمكانها تحريك فكها. تغز أسنانها في إصبعه حتى تتذوق طعم الدم، فيفتكّ يده ويصفعها بقوّة على جانب وجهها إلى أن تسمع طنينا في أذنيها، وينغلق فكّاها من جديد. عندها يخرج رجلٌ من إحدى الغرف المجاورة، وكان يزرّر بنطاله، يقف لوهلة ينظر إليهما، فتتوسل مساعدته بصمت. لكنه ينظر إليها وإلى منتاز، كأنه يتدبر ماذا يجب أن يفعل، وعندها يُخرج أوغو رأسه من الباب، يُمسك بها، ويسحبها بقوة إلى الداخل.

رائحة الجنس والعرق المالح تكاد تجعل جوّ الغرفة الساخن لا يُطاق، وبينما كان يسحبها إلى الداخل نحو الزاوية تلاحظ الأثاث بداخلها: سرير خشبي يلتصق بالجدار تظهر فوقه خيوط أو حبال مربوطة إلى السقف، وتشاهد فريدة ترتمي هناك على بطنها دون حراك، وجهها ملتوٍ نحو الجدار، وفستانها مسحوب إلى الأعلى حتى وسطها، بينما يظهر جورباها حتى ركبتيها. «ماذا فعلت بها؟» تصرخ في وجهه.

لكنه يتجاهلها. كان شعره ملتصقا برأسه، ووجهه يقطر عرقا، كما كان لاهث الأنفاس وقد فكّ رباط عنقه وفتح الزّرين العلويين من قميصه. «هل يمكنني مساعدتك يا طائري الصغير؟» يثبتها هناك إلى الجدار بيدٍ واحدة، ويأخذ في نزع ثيابها بعنفٍ باليد الأخرى، «لا داعي لأن تشعري بالغيرة،»

لم تقاومه من قبل قط. ليس منذ تلك المرة الأولى التي لم تكن ذات جدوى، ولن تقاومه الآن. إلاّ أنها تريد التأكّد أن فريدة بخير، فتستمر في الحركة بعنف محاولة النظر وراء جسمه الضخم لترى إن كانت الفتاة تتحرك. هما قوتان غير متكافئتين، لكنها لا تتوقف على الرغم من أنه رفع قدميها عن الأرض، وظهرها محشور بطريقة مؤلمة إلى الجدار. بينما هو يدفع نحوها، لكنها لا تتبيّن تماما ما يحدث لأنها لا تزال تصرخ، والطنين يملأ أذنيها. يتراجع رأسها فجأة ويصطدم بنتوء في الجدار، فتصبح رؤيتها غائمة، كأنها على وشك فقد الوعي، وتتخلى عن المقاومة.

يُتم أوغو ما بدأه وينسحب منها بعد أن أطلق صيحة هائلة.

يتركها فتلمس قدماها الأرض، وتخونها ركبتاها، فما تدري إلاّ وقد انكفأت تحت، كأنّ عظامها قد ذابت. تضغط راحتاها على الجدار لتمنع نفسها من الوقوع فوق الأرضية ذات البلاط الأسود. حينما يبتعد عنها ترى فريدة جالسة على حافة السرير، فستانها لا يزال مرفوعا إلى وسطها، وساقاها العاريتان متدليتان، بينما كان رأسها منكّسا.

تنهض مستعينة بإسناد يديها إلى الحائط، ويندفع سائل دافئ بين فخذيها، لكنها تشعر بألم حامٍ في جوفها يمنعها من الوقوف بثبات. تميلُ متكئة على الجدار، فهي لا تثق بعد في قدرة ساقيها على عبور هذه الخطوات القليلة نحو فريدة. في النهاية لا يزال أوغو واقفا في وسط الغرفة. كان قد رفع سرواله، ودسّ قميصه، وربط حزامه، لكنه الآن يطلقُ شخرات غاضبة وهو يحاول تثبيت زرّ رقبة القميص. لا بد أن رقبة الثور خاصته قد انتفخت ولهذا لا يمكنه تزرير ياقته. ثم يتخلى عن المحاولة ويسحب ربطة العنق إلى الوسط. وتعرف هي أنه في الماضي لم يكن باستطاعته أبدا أن يلف ربطة العنق بنفسه، حتى بمساعدة مرآة. وهنا، في هذا الجحر الشبيه بزنزانة لا توجد أيّ مرآة. من فتحتي أنفه يسحب أنفاسا مسموعة، ويتوجه إلى الركن الذي توجد فيه ليليانا؛ يرفع رأسه ويقدّم لها عنقه، فتلاحظ حركة تفاحة آدم لديه. تسحب أنفاسا قصيرة من فمها، وتشعر بجفاف لسانها وتورّمه. هذا اللسان يرتمي مثل مخلوق بحري قُذف في تجويف فمها القذر، ثم ترفع يديها، وبأصابع مرتجفة تبدأ في لفّ ربطة عنقه.

من طرف عينها ترى أن فريدة رفعت رأسها، وترقبهما.

يرفع أوغو ذراعه اليسرى ليتفقد التوقيت دون أن يحني رأسه ويفسد عملية ربط العنق الجارية. «أسرعي،» يأمرها.

حينما تنتهي من مهمتها تنهار ليليانا إلى الخلف على الجدار، بينما يُنزل هو قبعته من فوق الرف، ويدفع شعره عن جبينه إلى الوراء، ويُحكم وضع القبعة فوق رأسه. أخيرا يلتقط سترته من مسمار التعليق ويرميها فوق كتفه. «لديكما خمس دقائق لمغادرة الغرفة،» قال وهو يصفق الباب وراءه بقوة.

تظلّ فريدة جالسة على حافة السرير بسكون تام، بينما يتجمّع جورباها حول ركبتيها، ويلتصق فخداها العاريان ببعضهما. لا تزال تحديقتها مسلّطة على الركن الذي توجد فيه ليليانا، لكن يبدو أنها تركّز نظرها على شيء أبعد منها، كأنّ هناك نافذة ما في الجدار، وهي تنظر عبرها. ولا ترى في ملامح وجهها البيضاوي المتناسق أي تعبير. في هذه الغرفة

المعتمة بدا لليليانا أن فريدة قد فقدت بريقها المعتاد، كأنها رُشّت بغبار ناعم، أو أنها تحوّلت إلى جماد فتجلس ساكنة مثل تمثال صغير الحجم لكن يلفّه البرود وهي تنظر الآن مباشرة خلال ليليانا إلى الجهة المقابلة، كأنها غير موجودة. وحين ذلك تبدأ أسنان ليليانا في الاصطكاك.

ثم تتحرك فريدة فجأة. تميل إلى الأمام، وتبدأ في نزع جوربيها. وممسكة بهما في يدٍ، تقف وتُسدل فستانها فوق ردفيها وساقيها إلى مستوى الركبتين. ثم تلتقط حذاءها من الأرض وتتحرك نحو ركن ليليانا. تفتّش في الحقيبة التي لا تزال معلقة فوق كتفها، وتُخرج الفراشيّتين والصبّاطين، وتضع حذاءها في الحقيبة. تدفع بفراشية في يدِ ليليانا، ثم تُسقط السبّاطين على الأرض، وتُقحم قدميها في أحدهما، وتأخذ خطوة إلى الوراء نحو وسط الغرفة، ثم تلفّ الرداء حولها وتستدير نحو الباب. بظهرها إلى ليليانا ويدها على الأكرة تقول: «هل ستأتين؟» وكأنّ ليليانا أفاقت من غيبوبة، فتنزع ثيابها، وتضعها مع حذائها في الحقيبة، ثم تلف نفسها بالفراشية، وتتبعها.

تسيران في ممر معتم، عند نهايته بابان، أحدهما يقود مجدّدا إلى المقهى، والآخر يفضي مباشرة إلى الشارع. تخرجان إلى شمس العشية المبهرة، وفريدة تتقدمها. ثم تعبران الميدان، وتنعطفان نحو شارع سوق النحاسين. تسيران ببطء وتتابعٍ خلال ممرّ ضيق بين معدّات ومصابيح نحاسية معلقة ومرايا وإطارات وشمعدانات، وأطباق الشاي، والجِرار المكوّمة أمام المحلات الصغيرة. تواصلان السير وسط بريق الضوء، وضوضاء طرْق المعادن، ثم تأخذان انعطافا إلى اليسار عبر متاهة الأزقة الضيقة للمدينة القديمة التي ستقودهما إلى البيت. عند وصولهما إلى حومة سيدي عمورة، حيث يتّسع المكان لمشيهما متجاورتين، تُمسك ليليانا الفراشية بفمها، ثم تُخرج يدها، لتمسك بيد فريدة التي دون أن تتمهّل، وبرأسها المنحني إلى الأمام، تفتكّ يدها منها وتمضي في سيرها.

«لنذهب لإطعام الثعالب،» يقول الطيار وقلبه يرقص فرحا.

إطعام الثعالب

مادة: طابع بريد طرابلسي عليه رسمٌ لغزال

إنها المرحلة الأخيرة من عملية التهدئة، فقد تمّ إخضاع فزّان، بعد أن دانت طرابلس للحكم الإيطالي بالكامل، حيث فرّ أو قُتل زعماء الثوار في الغرب، وترسيخُ التمدّن يتمّ هناك على قدم وساق. لكن في برقة، وهي الإقليم الثالث لهذه البلاد، لا يزال الثوار يقاتلون، ويحصلون على إمداداتهم من إخوانهم المهجّرين عبر الحدود في مصر، وكذلك يحصلون على دعم من بدوٍ جهلة وخونة، من المستعبَدين للحركة السنوسية، يقودهم رجل مسنّ اسمه عمر المختار، وقد أتِيحت لهم كافة الفرص للاستسلام ولم يستغلوها.

برقة هي حيث توجد أغلب الأراضي الخصبة، وبها أيضا هضبة الجبل الأخضر حيث التربة الغنية بمياه الأمطار، وحيث يمكن زراعة الحبوب والخضار والأشجار. هي أرضٌ رومانية قديمة، فأنْ تَقلبَ التربةَ هناك، يعني أن تعثر على عُملاتٍ، ومتعلقاتٍ رومانية أثرية. برقة هذه تُطلق نداءً عاليا لألوف الفلاحين الطليان المنتظرين على الضفة الأخرى، أبناء الأرض الشرفاء كي يعودوا ويعمّروها من جديد، ليحرثوا، ويزرعوا، ويُخرِجوا منها أحلى الثمار. لكن قبل أن يحدث ذلك، لا بد من محو هذا الوجود الأثريّ للبدو الأعداء من معيقي الزراعة والنموّ. في السابق وفّرت غابات الجبل الأخضر غطاءً ومخبأً لوقت أطول من اللازم لجيش المتمردين الذي يدفع هذه المنطقة الخصبة والغنية إلى الفقر. هؤلاء السكان المستسلمون يزوّدون العصاة بالأموال، والمؤن، والمعلومات، والأسلحة. يدفعون الضرائب لوكلاء السنوسي، ويقدّمون لهم الهدايا على شكل طعام وملابس وخيل. وهكذا جعل العصاة من الجبل قلعة طبيعية واسعة المساحة. الهضبة الكلسية في شمال الجبل تعجّ بالمقاومين، ومغطّاة بالغابات والكهوف والوديان التي يوجد بها ألف مقاتل يمنعون الجيش الفاشي الإيطالي من التقدم. لقد حان الوقت للقيام بتكتيكات مغايرة، ولتفريغ الغابات من محتليها، وفتح الطريق أمام الحضارة الرومانية الجديدة، ولهذا العصر الجديد.

اليوم يقوم أوغو بمهمة استطلاع بعد أن أبلغ أحد الطيارين عن حقولَ قمحٍ في هذه المنطقة، لكن لم تتبق لديه ذخيرة لإتلافها. لا بد من حرق محاصيلهم، وإلاّ سيجري حصادُها، ومن ثمّ تجد طريقها إلى المتمردين.

كان قد قَصف واحة تازربو قبل يومين فقط، وهناك رأى مزارع النخيل، وأشجار السنط، وحقول القصب، وبعض قطعان الإبل، كذلك رأى نحو عشر قرىً بها بيوت حجرية وأخرى من الشَّعر. لقد أخبرتهم معلومات الاستطلاع أن تازربو

أصبحت الآن القاعدة التي تنطلق منها مجموعات الإغارة من المتمردين.

لقد مثّلت الواحة هدفا رائعا بالفعل. فالمنطقة بطول خمسة وعشرين كيلومترا، وعرض عشرة كيلومترات، يتوسطها غورٌ به مستنقعات مالحة، وبِركٌ أخرى يسحبُ منها السكان مياههم، ويروون محاصيلهم. هناك بيوتٌ صغيرة تتجمع في الأماكن حيث يتكثّف وجود النخيل، وبالقرب منها العديد من الحدائق الصغيرة حيث ينبتون الخضراوات. أيضا ليس هناك الكثير من الأبقار، وإنما أعدادٌ قليلة من الماعز.

أثبتت أربع طائرات من طراز روميو تحملُ طنّا من المتفجّرات بالإضافة إلى غاز الخردل أنها مؤثرةٌ للغاية، حينما طارت تحت قيادته فوق واحتيْ الغويلات والوادي، ثمّ فوق بيوت الشَّعر. حلّقت الطائرات في تشكيل من صفّ واحد على ارتفاعٍ منخفض، وبعد أن أسقطت حمولاتها ارتفعت عاليا في السماء، واحترق الهواء بفعل الصدمات والارتجاجات الناتجة عن الانفجارات. بإمكان الطيارين الإحساس بذلك فوق أجنحة طائراتهم، واحتاجوا لكل قواهم وخبرتهم للحفاظ على توازن آلاتهم.

وراء أبعد موقع مأهول شاهدوا قافلة من نحو مائة بعيرٍ تركض مبتعدة بسرعة عالية، وكانت حمولاتها غير محكمة الربط تتأرجح فوقها وتنفكّ من سروجها. حلّق الطيارون فوقها على ارتفاع منخفض للغاية وأخذوا يقصفون القافلة من أولها إلى آخرها، مفرّغين مخازن بأكملها في الحيوانات، لينهار أغلبها فوق الأرض، وتظهر بطونها الممتلئة المشقوقة، وهي تضرب بقوائمها الرفيعة في الهواء. لكن الطائرة التي لحقتهم أجهزت على المتبقية منها.

اخترع الطيارون قواعد جديدة ليجعلوا من رياضتهم هذه أكثر تحديا. ما هي أقل مسافة يطيرون فيها فوق الأرض؟ وما أقل عددٍ من الرصاصات يمكنهم استخدامها أثناء المهمة؟ وما مقدار الذخيرة التي يمكنهم توفيرها للمهمّة القادمة؟ وكل هذا على الرغم أن لا أحد منهم يفضل توفير الذخيرة، بل يحبّون كثيرا رؤية زوابع الأتربة التي يثيرونها خلفهم بفعل ألعابهم النارية.

أمّا اليوم فأغو يطير منفردا.

أحيانا حينما ينضب بنكُ الأهدافِ المعادية، يحوّلون نشاطهم إلى قطعان الغزلان التي حينما تسمع صوت الطائرة القادمة نحوها تقف جامدة تماما فوق قوائمها الرقيقة، تنظر إلى فوق بعيونها المضيئة، فهي لا تعرف كيف تخاف بعد.

هذه المخلوقات تذكّره بليليانا الرهيفة التكوين، الطافحة بالحيوية، بعينيها المضيئتين كأنّ لهبا يحتدم خلفهما. فهي ليست مثل النساء المحليات اللاتي تردّد عليهن، أو أمر بإحضارهن إليه، فهنّ يُبدين نشاطا وهمّة عند عملهن في الحقول، أو عند جلب الماء من البئر، أو أي مهام أخرى يقمن بها، لكن تَغلبُ عليهن البلادة عندما يكنّ في غرفة النوم، حيث تنقصهن الجرأة والحيوية. نعم كنّ مطيعات دائما، وغير مصدومات، حيث خمّن أن ذلك بسبب تعرضهن لسوءٍ لا حدّ له،

وبالتالي هذا ما يتوقعنه منه. كنّ مثل الدواب المدجّنة في انتظار السوط، ورِعدتِه الصامتة حينما ينزل فوق ظهورهن، ثم يواصلن بتثاقل، ولكن دون تذمّر.

لكنّ ليليانا لا تشبههن في شيء، أولا لأنها إيطالية، ووفقا لهذا التعريف فهي من طينة مختلفة. كما أنها تعلّقت به لمعرفتها بأهمية مركزة، ولهذا السبب كانت على استعداد لإسعادِه. حسنا، كان ذلك في البداية على الأقل، وقبل أن تُظهر ميلها إلى السكان المحليين، وتبيّن أنها ليست أفضل منهم، وأنها خائنة لجنسها.

حينما حلقت الطائرة فوق الغزلان ووصلها ظلّها حاجبا الضوء عنها، سكنها الخوف فجأة، فبدأت تركض بضراوة في أنحاء المكان، تقفز مصطدمة ببعضها بعضا، وتنتشر في كل اتجاه. ثم حينما لا يحدث شيء، تتوقف من جديد ناظرة إلى أعلى.

ثمة شيء يكاد يكون بشريا حول نظراتها المتسائلة، كأنها تستعطف، أو هكذا علّق أحد زملائه الطيارين. لم تكن هذه الملاحظة لتخطر عادة ببال أوغو . فهي مغرقةٌ في الأوهام . لكنه أحبّها، ولهذا تذكّر النظرة البشرية في عيونها، والاستجداء الصامت.

لكن الطيّار يكره المستجْدِين، صامتين كانوا أم غير ذلك.

لقد استجدته ليليانا ألاّ يلمس العاهرة البدوية، وكانت تناديه عزيزي بصوتها المرتعش، وتتشبثُ بذراعه. أرجوك عزيزي لا تفعل هذا. كما عرضت عليه نفسها بالمقابل، كأنه لم ينلها مئة مرّة، وأنه لم يعد يشتهيها الآن. ومع ذلك عاشرها بعد ذلك لكي يُسكِتها. مرة واحدة كانت كافية مع البدوية التي بدت له مثيرة، لكنها من الداخل كانت باردة، متيبّسة، ولم تقبله. كانت مثل حبّة تمر يابسة.

هذه الغزلان تبدو مضحكة بعيونها المستجدية، لكنها ستفي بالغرض للتدريب على إصابة الأهداف.

مكتوب

مادة: شال منسوج من الحرير بلون أزرق غامق.

سحبت سعيدة كرسيّها بالقرب من رأس السرير، وتقوم الآن بتدليك وجه أبيها بظهر أصابعها، فقد تحوّلت الهالة المحيطة بعينيه إلى مثل صفار ثمار البرقوق. هناك تغيّرٌ في حالته إذن. كان الطبيب قد غادر لتوِّهِ، وترى أنّ الشفاء بدأ يتسلل إلى المريض، حيث أخذ الدم يجري في المناطق المصابة، وبدأ نسيج الجلد يتعافى. إنهم يتحدثون الآن عن جعلِهِ يستيقظ من غيبوبته يوم السبت، لأنّ التقدّم الذي حققه جيّد، وبدأت الفتاة تؤمن أن أبيها سينجو. تشعرُ الآن بضوء شعلة الأمل يغمرها، لكن كلّما تذكرت أنّ الخال أبرامو فارق الحياة، تشعر برفرفة لهبِ تلك الشعلة، الذي يهدّد بالانطفاء. وحتى لو استعاد أبوها كامل عافيته، فلن يعيد ذلك الخال أبرامو إلى الحياة.

حينما استفاقت هذا الصباح وتذكرت فجأة ما حدث لأبرامو، وكيف أنها لم تتمكن من إبلاغ أمها بعد، هاجمتها مشاعرُ الوحدة مثل ريح باردة. انتصبت جالسة ومذعورة في سريرها، وهناك في الجهة المقابلة للسرير رأت السنيورة جونز ملتحفة بشال أزرق، وتبدو ناعسة. كان الشال مصنوعا من نسيج ناعمٍ غامق الزرقة، وبدا لها أنه من ليبيا، أو من شمال أفريقيا على الأقل.

كانت مسرورة للغاية لرؤية السيدة العجوز، فانزلقت من سريرها السفري وجاءت إلى جانب سرير أبيها لتحتضنها، لكن السنيورة جونز، التي لا بد أنها كانت في نوم عميق، قفزت واجلة.

وجودُ السنيورة جونز لا يجعل الأمور بخير تماما، لكنه يجعلها أقلّ سوءا، فقد كانت تبقى إلى جوار أبيها حينما تنزل هي إلى الاستعلامات لمحاولة الاتصال بطرابلس. كانت تُنصت إليها وتزودها بكمية لا تنضب من المناديل الورقية أثناء بكائها لعدم تمكنها مجددا من الاتصال بأمها. أخبرتها ليليانا أنها فتاةٌ شجاعة، وأنّ أمها ستكون فخورة بها، لكن حينما سألتها سعيدة إن كانت تذكرُ كيف بدت أمها في طفولتها، تَغضّن جبين العجوز وقالت، «عفوا؟» وأتبعتها بـ«آسفة،» وبعدها غرقت في الصمت. منذ تلك اللحظة ظلت جالسة مطأطأة الرأس تلعبُ بخواتمها، فتبرُمُها حول إصبعها، مُطلِقة رجفة أحيانا، كأنما هاجمتها أشباح. في كل مرة تبدأ سعيدة في قول شيء ما، ترفع السنيورة يدها وليس رأسها في حركة فهمت منها الفتاة أنّ عليها الانتظار، وأنْ تمنحها دقيقة أو اثنتين. كانت العجوز ترتدي خاتمين في بنصر يدها اليسرى،

أحدهما تعلوه ماسة، والآخر من الذهب الخالص. هي متزوجة إذن، أو أنها كانت كذلك. والآن تبدو كأنها تفكر بعمق حول ما تريد أن تُخبرها به.

بدت لسعيدة بعض نُذر الشؤم حين لاحظت حقيبة السفر في ركن الغرفة، فلا بد أن السنيورة تنوي الرحيل، وهذه الفكرة جعلتها تشعر بالضآلة والذعر، لكنها لن تستسلم لهذه المشاعر. بدلا من ذلك تفكر فيما قد تقول لها لإقناعها بالبقاء. حينما تحين الفرصة، وحينما تقول السنيورة ما تُعدّ نفسها لقوله، ستطرح سعيدة قضيتها أمامها، وتعلن لها رأيها. ربما لم تعرف العجوزُ مدى سعادتها لوجودها برفقتها هنا، لكن سوف تخبرها بكل ذلك. تجلس الآن بهدوء، مدلّكة وجه أبيها ومطيعة التعليمات الصامتة التي تلقتها بالانتظار، وهي تراقب السيدةً التي ترتجف أحيانا بشعرها الأبيض المنكوش. يخطر ببال الفتاة أن السنيورة جونز هي آخر تجسّدٍ، كما تقول أسطورة العائلة، لعجوزٍ تظهر فجأة وتُصلح ما ساء من الأمور. في البداية، حينما كانت جدّاتها في صغرهن، كانت هناك زهرة، وفي وقت لاحق هناك مدام سيمون، والآن توجد السنيورة جونز. تقلّبُ الفكرة في رأسها. فالآن لديها إحساسٌ بأن هناك صلةً ما بها، وتثيرها هذه الفكرة، على الرغم من عدم مقدرتها على استيعابها. تستدعي قصة زهرة كما ترويها الجدة فريدة. كان ذلك في وقت تزمجر فيه الدبابات الإيطالية خلال الصحراء، وكان أهل برقة يساقون إلى معسكرات الاعتقال، حينما تُركت زهرة في الخلف بعد أن أتى العساكر. وبقيت ترتاح بين بعض الشجيرات بعد عودتها من البئر، فظلتّ مختفية هناك ليلتين وثلاثة أيام، وحينما عادت إلى البيت وهو خيمة من وبر الإبل على أطراف القرية المستباحة، لا تفكر إلاّ في البقاء وانتظار مصيرها، وجدت المرأتين، إحداهما جدتها فريدة. غريبتان عنها ومعهما طفلان حديثا الولادة، وكانتا بحاجة إلى المساعدة، فعملت على رعايتهما.

«هناك العديد من الكتب الفرنسية في بيتكم،» قالت السنيورة جونز فجأة.

«عفوا؟» تقول الفتاة وقد سرح بها الخيال بعيدا، نحو خيمة وبر الإبل في القرية المهجورة، والمرأتين المستلقيتيْن بداخلها، وإلى مصباح الكيروسين. لم تكن تعرف ماذا تتوقع، وإنما بالتأكيد ليس سؤالا عن الكتب.

«هل يتحدث أبوك الفرنسية؟»

«أبي؟» فوجئت سعيدة بالسؤال، فتنظر تحت إلى وجهه المرضوض كثيرا. «بالكاد يتحدث أبي الإيطالية، ونحن هنا منذ سنين، أليس كذلك يا بابا؟» ثم تنحني لتقبيل جبينه. «كلاّ. الكتب كانت هناك، والشقة كانت ملكا لسيدة فرنسية هي مدام سيمون.»

تجفل العجوز كأن أحدا ما تسلّل خلفها وربت فوق كتفها. هذه الأشباح تعاود مهاجمتها، وهي تنفضهم عنها.

«لقد توفيت منذ عامين،» تقول الفتاة والدموع تطفر من عينيها، ليس فقط لموت العزيزة سيمون، ولكن لأشياء عديدة أخرى تُثقل عليها.

«أعتذر، فلم أقصد تقليب مواجعك،» وتمد لها يدها بالمناديل الورقية.

تنفض سعيدة أنفها، وتمسح وجهها. «لم تقلّبي مواجعي، بل أجد راحة في إخبارك عنها.» وتفكر كيف أنه من الغريب أنها كانت تريد الحديث عن مدام سيمون، وأنّ الفرصة مواتية الآن بشكل طبيعيّ. لكن بينما هي تشرح كيف أن مدام سيمون صديقةٌ قديمة للعائلة وتعرف جدتها، ودائما تظهر في طرابلس محملة بالهدايا لأمها ولأبرامو حينما كانا طفلين، يظل جانبٌ من تفكيرها مع زهرة والشابتين اللتين أنقذتهما. ثم يراودها إحساس متعاظم الإثارة بأن شيئا ما على وشك أن يتكشّف. وتُخبر السنيورة بأن الصلة انقطعت بسيمون خلال الحرب لأنهم انتقلوا من طرابلس وكانت الفوضى تسود المكان، ولعدّة سنين لم يكن بينهم أيّ اتصال. ثم ذات يوم بعد انتهاء الحرب عثر أبرامو على عنوانٍ لها في روما وراسلها، فردّت عليه، وهكذا تجددت الصلة بها، وتقول وهي تراقب العجوز، «حينما فررتُ مع أبي من طرابلس، قصدنا بيتها مباشرة، فأين يمكن أن نذهب؟»

تهز السنيورة رأسها، وتزمّ شفتيها كأنها تقول: «وأين يمكن أن تذهبا بالفعل؟» وتتمتم لنفسها، «إذن فقد انقطع الاتصال بينهم بالفعل،» تتوقف سعيدة متسائلة إن كانت السنيورة ترغب في توضيح ما قالته الآن، لكن لا يبدو لها ذلك، أو ليس بعد على الأقل، فتضيف، «أفتقدُها كثيرا، وما زلنا نحتفظ بكل ثيابها وأغراضها في الشقة. لم نتخلص من أي شيء يخصها.»

«كلاّ، لا ينبغي أن تفعلوا ذلك بهذه السرعة،» تهز رأسها، وتنشغل من جديد ببرم خواتمها التي رأت الفتاة أنها واسعة على إصبعها، ولا تعرف إن بإمكانها خلعها لأن مفاصل إصبعها أضخم من المنطقة التي يستقر فيها الخاتم. «ومتى كان ذلك، أقصد متى جرى الاتصال بينكم من جديد؟»

سعيدة لا تعرف. فهذه حكاية قديمة بالنسبة لها، وبالتالي لا تحتاج لربطها بتواريخ محددة، فتتساءل إلى أين يقود هذا الحديث، وتفتّش في ذاكرتها، فأمها وخالها كانا في سنّ المراهقة. ربما في عام 1945.

تهز السنيورة جونز رأسها مبتسمة، كأنها تشعر بالراحة، وتردّ سعيدة عليها بالمثل وتشعر بفرحٍ لأنهما متفقتان على شيء ما، لكنها لا تعرف ما هو.

«أخبريني المزيد عن عائلتك. أحب سماع حديثك.» تقول العجوز.

وهكذا تُخبرها عن أمها نادية، وعن أنها معلمة مدرسة، وكذلك عن أختيها الأكبر منها، سلوى وعائشة، المتزوجتين والقاطنتين في طرابلس. ثم تأتي على ذكر أعمامها وعماتها، وجميعهم من بنغازي، وكذلك أخت جدتها التي تقطن قرية بالجبل الأخضر، وحدثتها عن صادق أخ جدتها فريدة الذي قُتل في المعركة التي أسِر فيها بطل المقاومة عمر المختار، وأخبرتها عن والد جدتها سيف الذي تُوفي مدافعا عن الكفرة، ثم تصف جدتها فاطمة، وهي بدينة وحبّوبة، كما هي طاهية ماهرة، أما الجدة فريدة فصغيرة الحجم رفيعة القوام، لكنها امرأة قوية، تتصف بالحكمة. طوال الوقت الذي كانت تروي فيه حكايتها، كانت السنيورة جونز تطلق شهقات قصيرة، أو تردد أسماءً ما بخفوت، أو تهز رأسها في عجب.

«سلوى، أختك الكبرى اسمها سلوى؟» تقول وقد اتسعت عيناها.

«نعم،» تردّ وقد راودها شعور لا يمكن وصفه، تردد صداه في كيانها، حيال هذه المرأة. لماذا تأثرت السنيورة جونز عند سماعها اسم سلوى؟

تضع السنيورة يدا على قلبها وتسألها «هل هي بخير؟»

«من تقصدين؟» تسأل بحذر.

«فريدة،» وتضع يدها الصغيرة ناتئة العروق فوق يدها الأخرى، فيتزحزح الخاتم الماسيّ إلى الجانب.

«هي بخير، وتعيش مع سلوى، تساعدُ في رعاية طفليها.»

«الحمد لله،» تقول السنيورة جونز بالعربية.

تنفتحُ عينا سعيدة في عجب، «أوه...» فقد فوجئت، لأنها لم تسمع من قبل شخصا إيطاليّا يحمد الله بالعربية.

بدا على العجوز السرور لردّ فعل الفتاة، ولأنه حوّل ذهنها عن الأمور الجادة التي كانت تشغلها، وأيضا لاكتشافها أنه لا يزال يمكنها النطق ببعض الكلمات والتعبيرات التي علقت بذهنها منذ أيام إقامتها في طرابلس. تبدأ في ترديد مخزونها من الجُمل وأغلبها يتعلق بالطعام، أو مقولات حول الحكمة كان ستيفانو وجدتها يحبّان سماعها.

هنا تزداد قناعة سعيدة بأن حقيقةً ما على وشك أن تتكشّف لها.

«هذا مقدّرٌ لنا، إنه مكتوب،» تقول السيدة جونز.

«مكتوب،» تردد الفتاة الكلمة وتهزّ رأسها. ينبغي عليها الجلوس والانتظار فقط، وأن توقظ فضولها وتوقّعاتها، فسيخرج هذا الشيء المخفي قريبا. «حيثما توجد أطلالٌ فثمة أمل في العثور على كنز،» تقول كذلك بلهجة عربية ثقيلة. وترى سعيدة أن أبرامو كان معجبا بهذا القول بالذات من أقوال (جلال الدين الرومي) ويردده دائما، وتتذكر فجأة الحوارات التي تبادلتها معه حول انعدام الوعي بتاريخ إيطاليا في ليبيا.

تشرح لها السنيورة، «أتذكّر هذا المثل بالذات لأنه مُفعمٌ بالتفاؤل، فالبشر يقترفون الأخطاء، والأشياء تنهار، لكن قد ينتُج عن ذلك شيء جيّد؛ فكل ما عليك هو البحث في الأطلال.»

تتفهّم الفتاة أن هذه السيدة تقوم بمثل ما قام به الخال أبرامو في ذلك الوقت، فهي تعمّمُ حول الناس وما يفعلون، لكنها في الواقع تتحدث عن نفسها، وتسألُ في سرّها. لكن ما هو سرّكِ يا سنيورة جونز؟ وما الذي أخفيتِه في أطلالك؟ تكتشفُ أن الأسى الذي يظهر في عينيها، مثل الأسى الذي كان في عيني خالها الذي سمعته ذات مرة يقول: «الأسرارُ تمنعك من رؤية نفسك على حقيقتها، وتحدّ من قدرتك على أن تكون على طبيعتك». أمِلت أن يكون أبرامو قد تمكّن

من العثور على نفسه في إيطاليا، ثم تقول بصوت عال، «الخال أبرامو كان يردّد هذا الكلام عن الأطلال والكنز، وكان ذلك يُشعِره بالراحة، بالنسبة للحال الذي فيه بلدنا.»

بدا أنّ كلماتها أعادت السنيورة إلى اللحظة الراهنة، فتنظر إلى الفتاة وتهز رأسها، ثم تلتفت إلى الصليب المعلق على الجدار، وتقوم بإشارة الصليب فوق صدرها. «من أجل راحة الإيمان،» تتمتمُ لنفسها، وتحتضن كتفيها، ثم تلتفت إلى الوراء. فتعتقد سعيدة أن السؤال الأهم الذي تريد طرحه سيخرج الآن، «وماذا عن ستيفانو؟» تقول السيدة بنبرة هادئة.

ستيفانو الطلياني زوج الجدة فريدة. لا تزال لا تعرف تماما الصلة بينهما، لكنها تعرف أن توضيح الأمر أصبح ضروريا بالنسبة لها، وأن أمرا على وشك أن ينكشف لها ليُفصح عمّا بداخله، فتركّز أفكارها للتأكيد على ترديد الحكاية التي سمعتها بالضبط، «لقد تُوفي قبل الحرب، ولا أعرف التاريخ بالضبط،» تتلمّس تميمة يد فاطمة (الخميْسة) المعلّقة بسلسلة في رقبتها، في محاولةٍ لتذكّر ماذا تعرف أيضا، «كانت ماما وأبرامو في سن السابعة، وربما السابعة ونصف،»

تهز العجوز رأسها، وتسرّح حنجرتها، «وكيف تُوفي؟»

«في حادث بحلبة السباق، حيث كان يعمل.»

كان الطفلان يلعبان في شرفة البناية، حينما وصلهم الخبر الرهيب، وسعيدة تعرفُ مكان المبنى: بالقرب من شاطئ البحر، ولا يبعد كثيرا عن بيتهم الذي يعطي ظهره للبحر حيث تقطن ماما الآن، والذي عاشت فيه حتى وقت فرارها مع أبيها إلى إيطاليا. قيل لها أنّ الجدة فريدة صعدت الدرج إلى الشرفة ونادت عليهما، «أبرامو، نادية، تعالا هنا.» بإمكانها تصوّرها بسيقانهما السمراء العارية، وجواربهما القصيرة، وشعرهما الأسود، حين ركضا نحو الجدة فريدة التي جثت فوق ركبتيها لتحتضنهما. بعد ذلك تغيّر كل شيء بالنسبة لهم، حيث اضطروا إلى ترك البيت لعدم قدرتهم على دفع الإيجار. كانت فريدة تعيش حياتها كما لو أنها إيطالية، ولم تستطع الحفاظ على ذلك المستوى من دون ستيفانو. أما أبرامو ونادية فترعرعا كطفلين إيطاليين، وارتادا مدرسة إيطالية، لكن كل ذلك وصل إلى نهايته.

ارتدت فريدة الفراشية من جديد، ورحلوا إلى بنغازي حيث تقيم عائلتها، وأخذوا معهم ما يمكنهم حمله. حقيبة سفر واحدة لكل منهم.

تمرّر السنيورة أصابعها خلال شعرها المجعد، كأنها تريد التخلص من شيء ما وترميه بعيدا. لكن إمّا أنّ ذلك لم يُجد نفعا، أو أنها غيّرت رأيها، فوقفت على قدميها، «هل تسمحين لي بدقيقة؟ أحتاج لبعض الهواء.» وأمسكت بحقيبة يدها مغادرة الغرفة.

لكنها تركت وراءها حقيبة سفرها. ستعود إذن، وعندها ستُخبرها سعيدة بحكاية زهرة.

أوراقٌ في الهواء

مادة: تصميمٌ بخط اليد لإعلان ترويجي عن صالة ياكوف في معرض طرابلس العالمي للعام 1931

ليليانا الآن في غرفتها الصغيرة ببيتهم، تستلقي على فراشها محدّقة في السقف. ثمّة لطخةٌ فيه تبدو لها مثل رأس رجلٍ له أنف ضخم، وأهداب قصيرة مثنيّة. إذا ما ضيّقت عينيها وأمعنت النظر يمكنها رؤيةُ شكلٍ ما بجوار الرأس يبدو مثل قبّعة طيّرتها ريحٌ قوية مفاجئة من فوق رأسه. لكن في هذه اللحظة ينصبّ تفكيرها على أرنبة أنفه، آملةً أن يذهب عنها الشعور بالغثيان في جوفها، وأن يغادرها التشنج الذي تشعر به في حنجرتها، كي تتمكن من النوم. لقد افتقدت حيويتها طوال أسبوع الآن، ولوهلةٍ اعتقدت أنّ آلام المعدة ناتجة عن أكل لحم جَملٍ بدأ يفسد. لكن أخيرا بدأت تتسلل إليها فكرة أنها قد سُمّمت، والتي خطرت ببالها للمرة الأولى حينما كانت جاثية فوق المرحاض، تتقيأ ما في جوفها، وعندها تذكرت ما حدث لستيفانو حينما كان يقوم بالأمر نفسه في مونزا، وحين أجبره أصحاب السترات السوداء على تجرّع زيت الخروع. لا يمكنها تذكّر متى أو كيف، أو من وضع لها السّم. وتشكّ في منتاز، فهل حدث ذلك حينما عضت يده في مقهى الشرق؟ وهل تسرّب السمّ إلى فمها عن طريق شرايينه المصابة؟ أم أنه دسّ شيئا في شرابها؟ أم أنّ أوغو من فعل ذلك؟

لم تبدأ حالة الغثيان لديها إلاّ منذ عشرة أيام، وتقريبا مضى شهران على تلك العشيّة في مقهى الشرق. كان أوغو قد غادر منذ مدّة، وهناك حديثٌ عن تعيينه في منصب كبير في برقة، ولن يعود إلى طرابلس. مع ذلك لا تزال الفكرة تراودها. لقد تسلل السمّ إلى جسمها. ربما هو ليس من النوع القويّ، مثل الجذور المطحونة، ولحاء أشجار بعينها، أو السوائل كريهة الرائحة، وأنواع الدهون التي تباع في الأسواق الشعبية، والتي يُدّعى أن لها قوى كبيرة في السحر، أو إلحاق الضرر، أو شفاء الأورام، أو حتى تفادي العين الحاسدة. كلاّ ليس أيّا من أعمال الشعوذة هذه، وإنما شيءٌ أقل خطورة. شيء ما أشبه بالبخار. لقد تنفّست روحا شريرة ما ودخلت إلى جوفها، بينما يحاول جسدها مقاومتها وأن يطردها بعزيمة ما، وإن كان بغير فائدة.

الإيقاع العام لحياتها ظلّ على حاله. لا تزال تقطنُ حارة اليهود في المدينة القديمة، بالقرب من المنعطف حيث يوجد الكنيس اليهودي، وفي البيت الذي تتقاسمه مع ستيفانو وفريدة. وتعمل ثلاثة أيام في الأسبوع في متجر السنيور ياكوف بسوق الترك، لكن التفاصيل والملامح التي تميز هذه الخطوط العريضة قد بهتت، ففريدة لم تعد تتحدث معها، وتتجنبها تماما.

فمُها مملوء بالخطيئة الآن، ولها طعم المرارة.

أفضل أوقاتها حينما تكون في العمل، حيث تندمج بالكامل في اتصالاتها الهاتفية، بالإضافة إلى الإشراف على تغليف الطلبيات، وتستضيف أحيانا زبائن إيطاليين لأوقاتٍ قد تستغرق نصف ساعة أو يزيد، وحينها تكاد تنسى وضعها المزري. تكاد تنسى أنّ أوغو مزّقها إلى نُتف صغيرة ورماها بعيدا كأنها جريدة قديمة، وتنسى أنّ فريدة قد غرقت في حالة صمتٍ قاس. بكت ليليانا أمامها مرارا، وحاولت مائة مرّة أن تشرح لها بكافة الطرق الممكنة أنها لم تقصد أبدا أن تصل الأمور إلى ما آلت إليه، وبيّنت لها أنها لم تتركها في مواجهة أوغو بمفردها. لكن فريدة لا تلقي لها بالا، وأكثر ما تردّ به عليها، «أعرفُ كل هذا،» أو «توقفي عن هذا،» وفي مرتين حينما كانت ليليانا في منتصف حديثها، ترفع فريدة يدها اليمنى، وراحتها في مواجهتها كأنها تقول «اسسس،». كأنها على وشك قولِ شيء ما، لكن بدلا من ذلك تدور على عقبيها وتذهب إلى غرفتها، وتغلق الباب وراءها. بدا لليليانا كأنها شيّدت سورا حول نفسها، أو أنها سمحت لصفّ كثيف وصعب الاختراق من الشجيرات أن ينمو بينهما، ولا تجد سبيلا لاختراقه. كذلك توقفت طلعاتهما معا مرتديات الثياب الأوروبية.

اعتادت ليليانا شراء أشياء صغيرة في طريق عودتها من العمل. حيث تعرف أن فريدة تحب الكاكاوية المحمّصة، والبسكويت الحلو، والتمر، واللبن الرائب، وحلويات العسل المنكّهة بماء الورد. كانت تتركها لها فوق المقعد الطويل في الفناء لتكتشفها. لكنها لا تقربها، أو أنها تصيرُ لاحقا جزءا من وجبة العشاء إن تكوّنت من مواد بقالة عامة، وليست هدايا مختارة لتستمتع بها فريدة. مع ستيفانو بدت لها فريدة أكثر ودّا وحميمية مما كانت عليه من قبل، حيث تتلمّس جلده، وتمسك بيده بعد تناول العشاء، وغالبا ما يدخلان إلى غرفتهما في وقت مبكّر. ورأت أن حميميّتها تلك تزيد من حدة الألم الذي تشعر به، بسبب تجاهلها وإحساسها بالوحدة.

لكن حينما تكون في متجر السنيور ياكوف هناك دائما أمرٌ ما يبقيها منشغلة حتى مع عدم وجود طلبياتٍ لتجهيزها. فهي بحاجة إلى معلومات لتتمكن من الرد على فضول الزبائن الإيطاليين الذين يقصدونها، حتى لا تضطر إلى إحالتهم دائما على السنيور ياكوف الذي اقترح عليها أن تبدأ في التركيز على تعلّم مادة معينة، فاختارت الأقمشة لأنها تحب الأنواع والألوان المختلفة منها، ووافق ياكوف على خيارها لأن نعومة الأقمشة تليق بالمرأة. هكذا مضت في تعلّم المزيد عنها، عن الأصواف والحرير، والأغطية المنسوجة من وبر الإبل، والمنسوجات المشغولة بالنول اليدوي، وعن الفكرة وراء الرسومات والأشكال المختلفة. بالإضافة إلى ذلك فهي تعرف الآن أكثر من عامة الناس عن الأسلحة المعلّقة على الحائط من سيوف وبنادق أغلبها من فترة الحكم العثماني قبل أن يطردهم الطليان عام 1912. بإمكانها أيضا الحديث بسلاسة عن المشغولات الفضية والنحاسية، وعن الزخرفة بالنقش، ومصبوبات المينا، وأنواع الفضّيات المزركشة. لكن ثقتها بمعلوماتها أكثر ما تكون حين تفردُ غطاء سرير، أو شالا، أو سجادة منسوجة في الإقليم الجنوبي فزّان، وأن تشرح لمشترٍ معيّنٍ أهميتها ودقة صنعها. كم تحبّ كابات النساء التي يصنعها الأمازيغ بصبغاتها الزرقاء الداكنة، فالأشكال الهندسية فيها

من القطنِ المفتولِ في الصوف لا تتأثرُ بالصبغة فتبقى ألوانها على الخلفية الزرقاء. وفي المتجر كذلك عدة أنواعها من الفراشيّات المصنوعة من قماش صوفيّ ناعم بلون أبيض زبديّ وحواشٍ حريرية فضية، إلى الأنواع الأخرى من قماش أكثر خشونة للاستعمال اليومي.

كلّفها ياكوف أيضا بكتابة نَصّ المادة الدعائية لأجْل صالة العرض الصغيرة التي سيشغلونها في معرض طرابلس. ستكون هناك لافتة إعلانية، ومطوية تُقدم للزوار، وإعلانٌ يُنشر في الجريدة اليومية حينما يقترب الموعد. وهي تكتب الآن رسائل إلى زبائنهم في إيطاليا تسألهم عن تجربتهم مع بازار السنيور ياكوف، وأبلغتهم أنها ستُضمّن ملاحظاتهم في المطوية. «مثل مغارة (علي بابا) مملوءة بكل ما هو مثير،» كذلك ردّ السنيور براغولي، من مدينة برغامو. بينما كتب السنيور موديستو من روما: «تشكيلة واسعة ومبهِرة من التحف الأصليّة،» وعلى هذا المنوال. لن يبدأ المعرض إلاّ في مارس من العام القادم، لكن الاستعدادات الأولية تجري من الآن.

إذا حدث في لحظة هدوءٍ ما أن غلبت عليها المرارة ولفها الحزن والأسى، فلا يمكنها منع نوبةِ بكاء، عندها يصطحبها السنيور ياكوف إلى غرفة التخزين حتى تستعيد هدوءها ورباطة جأشها، ويقول لها، «لا أريد إلاّ أنْ أساعدك يا سنيورينا كاتانيو، ولا يزال عرضي لك قائما بأن أنتقم لك من الشرير الذي آذاك. لكن لا يمكننا أن نستقبل الزبائن بمثل هذا الوجه البائس، هذه الكآبة لا تعبّر عن بازار السنيور ياكوف الجبالي.»

أثناء مروره بها جالسة أمام دفتر الحسابات، اعتاد ياكوف أن ينبّهها، «أريد العيونَ مشعّة يا سنيورينا،» أو «أريد ابتساماتٍ وأسناناً برّاقة.» أحيانا تشعر فعلا أنّ رفع زاويتي فمها يرفعُ أيضا من معنوياتها، وكأنّ الأمور ليست بالسوء الذي ظنّت.

لكنها حينما تعود إلى البيت تصطدم بالصمت الذي تفرضه فريدة حولها.

لا تعرفُ ماذا تفعل أكثر مما فعلت، فهداياها لا تلقى قبولا، واستجداؤها يقع على آذان صمّاء، وانخراطها في فترات صمتٍ لتبيّن لفريدة كيفية الشعور بقساوة تصرّفها، كل هذا لم يجدِ نفعا. إنها تتلمّس طريقها في الظلمة وحدها، كأن شعلة حياتها قد خبت. حدودُ الأشياء تراها مشوّشة، وخارج محدّدات التركيز، فمن الصعب عليها قياس أين يبدأ شيءٌ ما وأين ينتهي آخر، ما جعلها تصطدم أحيانا بإطار الباب، أو بقطعة أثاث ما، وحينما يحدث ذلك تنوحُ مثل طفلٍ صغير في محنة.

عدة مرات خلال الأيام التي لا تعمل فيها تلفّ نفسها بالفراشية، وتتجوّل في شوارع المدينة القديمة التي تذهب إليها المحجّبات فلا يلحظُهنّ أحد، وحتى يمكنها الحركة على مهل، لا يعرفها أحد ولا يتحرش بها مخلوق. لسبب ما لا تعرفه فهي لا تقوم بارتداء الفراشية داخل البيت على مرأىً من فريدة، بل تحملها في حقيبتها نحو الممر المعتم الذي يقود إلى الباب الأمامي، وما إن تتجاوز الزاوية حتى تغطي نفسها بها. تفعل ذلك فيذهب التشويش عن ذهنها، وتخطو نحو الميدان الخالي،

بشجرته المنتصبة في الوسط والمطليّ جذعها بالأبيض، ثم تستمرّ في طريقها. هنا تتركُ القلق والانزعاج وراءها، وتتخلى عن ليليانا كاتانيو، وبصورة مؤقتة تصبح سلوى. فلا هويّة لها الآن.

حقيبتها المحتوية للفراشية مطوية بداخلها، اعتادت الاحتفاظ بها معلّقة وراء باب حجرتها، فربما احتاجتها في وقت ما.

لكن في أغلب الأحيان، كما الآن، تستلقي في حرارة غرفتها الضيقة، وتُبقي الباب معرجا لتستطيع التنفس، متمنية أن يأخذها النوم، وحتى ذلك الوقت تظل محدّقة في السقف، وتحاول ألاّ تفكر في شيء.

لكن هذا لا ينفع مطلقا، فتركيزها على الرجل في السقف الذي طارت منه القبعة يتشتّت، ولا يمكنها وقفُ الشعور بالغثيان. فتنزل عن السرير، وتضع حقيبة الفراشية فوق كتفها، وتخطو نحو الفناء حافية.

حينها تشاهدُ فريدة منتصبة مثل نبتة، تحت شعاع من الضوء.

في هذه الأيام غالبا ما تجدُ فريدة بهذه الوضعية تحديدا، واقفة دون حراك في أماكن غريبة من البيت. عند مدخل بابٍ في مواجهة الجدار، أو خلف أحد الأعمدة الرخامية الوردية، أو في وسط أشكال الظلال التي تسقط في ساعات معيّنة من النهار خلال شبكة الشرفة العلوية. عادة تكون عيناها مسلّطة على شيء لا تراه ليليانا. «ماذا تفعلين؟» تسألها أكثر من مرة، وحين تصلها إجابة منها، عادة ما تكون، «لا شيء،» من الواضح أن عقل وتفكير فريدة في مكانٍ آخر، كأنما تُنصت إلى أصواتٍ بعيدة. لدي ليليانا قناعةٌ بأن تلك الأصوات تبعث فيها الراحة وتبقيها متماسكة، وأنها لو تمكنت هي أيضا من سماعها، وأن تنظر إلى حيث تحدّقُ فريدة، فربما ستتمكن من الانضمام إليها، وربما سيتّصل الحديث بينهما من جديد، وتعودان كما كانتا من قبل، ومن ثم ستعثران معا على ترياق للسمّ في جسمها.

لكن في هذا الوضع، الوحدةُ تعذب ليليانا كثيرا.

ظلت حريصة على عدم المرور أمام خط بصر فريدة، لأنها حينما تنظر خلالها وكأنها غير موجودة، يرتجف جانبٌ مهمّ منها، ربما تكون روحها. لا يمكنها نسيان المرة الأولى التي حدث فيها ذلك، أي عندما كانتا في تلك الغرفة المنتنة مع أوغو، وحين نظرت فريدة إلى الركن الذي تنكفئ فيه ليليانا على نفسها، لكن بدا أنها لا تراها. من بين كل تلك المشاهد في مقهى الشرق التي ظلت تتردّد في رأسها مرارا، كان ذلك المشهد الذي يسببُ لها أكبر قدْرٍ من الألم.

مع ذلك وبينما تمرّ ليليانا الآن لتجاوزها وعيناها تنظران إلى الأرض، تقول فريدة فجأة، «لديّ شيء سأخبرك به.»

«سأعود خلال دقيقة،» تردّ عليها، وبدا صوتها طفوليّا وجذلا. أخيرا تحدثت معها، وهذه المتعة النادرة من الاهتمام المفاجئ بها تبعث فيها شعورا باهتا بالأمل، ورفرفة خفيفة في صدرها.

في المرحاض تقبض على معدتها، وتنحني فوق الحفرة، لكن لا شيء يخرج منها. تنتصبُ واقفة وتنتظر فتلاحظ ذرّات الغبار وهي تحوم في شعاع الضوء القادم عبر شبّاك النافذة العالية، وتلاحظ أيضا الحواشي الداكنة لبلاط الجدار الأبيض، وبقع صدأ على دلوِ المعدن المملوء بالماء فوق الإفريز. هناك أطفال يلعبون في الخارج. بإمكانها سماع ارتطام أحذيتهم بالأرض أثناء ركضهم، وصيحاتهم، وضحكاتهم الحادة. يبدو أنّ أحدهم سقط أرضا فتأذّى، لأنه انخرط في نوبة بكاء، بينما آخر يواسيه، معليش، معليش، يقول له بصوت حنون، معليش.

لم تتقيأ بعد كل شيء، فتخرج إلى الفناء حيث أوقدت فريدة الكانون وبدأت تعدّ الشاي. تُشير لها نحو الفرشات الأرضية فتجلس، ولبعض الوقت تراقب حركات يديْ فريدة، وحركة رسغيها النحيلين، ورنين أساورها. كان من بينها الذي اشترته لها بصورة الطير المنقوشة عليه. الجلوس فوق الوسائد ممتع، ويلفها أيضا شعور بالدفء يقترن مع حركة الشمس هبوطا نحو الفناء، وتصل إليها الرائحة اللطيفة الطازجة لأوراق النعناع التي تضيفها إلى الشاي، وتسمع أزيز الجمر في الكانون. تبدأ أطراف ليليانا في اللين والاسترخاء، فتسند رأسها خلفا إلى المقعد الطويل، وتغلق عينيها، ثم تنزلق وتستلقي متكوّرة فوق الوسائد.

«استيقظي، الشاي جاهز.» تقول وهي تقف فوق رأس ليليانا.

تسحب نفسها إلى وضع الجلوس، فتجد أن السفرة التي وُضعت بجوارها تحتوي على إبريق الشاي البرتقالي، وكأسين، وطبق به لوز مقشور. لكن فريدة تظلّ واقفة، فتفرك ليليانا عينيها لتوضيح الرؤية، وتنهض واقفة أيضا. نعم؟ ما الأمر؟ كادت تقول، «عزيزتي فريدة،» لكنها أحجمت، ورأت أن الوقت لم يحن بعد لذلك. «أنا حُبلى،» قالت فريدة.

تسمعُ نفسها تُطلق شهقة، «كم هذا رائع، سترزقين أخيرا بطفل،» لا بد أن هذا يفسّر ابتعاد فريدة عنها، وكثرة تفكيرها، وازدياد محبتها لستيفانو. طبعا، هذا كل ما في الأمر، لكن بينما تعبّر عن فرحتها بوضع يديها فوق خديها، تشعر فجأة بأن شيئا ما غير سويّا.

ففريدة لم تتحرك، ولم يتبدّل التعبير البارد فوق وجهها.

«حبلى بطفل!» تردّد ليليانا مجددا، وتتساءلُ إن كان يجب أن تخطو إلى الأمام لتُمسك بيدها، لكن الشيء نفسه الذي منعها من قول «عزيزتي» يمنعها الآن أيضا. كل هذا بينما ظلت فريدة تنظر إليها كأنها تتوقع منها قول شيء مختلف.

فجأة يصدمها إدراكها لما يحدث. وتشعر برعشة تسري في بدنها، «أوه...» تقول وهي تضع يدها فوق استدارة بطنها. «هذا طفل ستيفانو؟» تصيح في عيني فريدة المسلطتين عليها. «هو طفلهُ، أليس كذلك؟» تردّد في إصرار. فتجيبها، «كيف لي أن أعرف؟» وتضيّق فريدة عينيها بطريقة لم ترها تفعلها من قبل إلاّ في مواجهة من لا تثق بهم. ربما تعتقد أن ليليانا ستُخبر أخاها بأنه ليس طفله.

«لن أخبر ستيفانو،» تهز رأسها نفيا، «ليس بحاجة أبدا لأن يعرف، وفي الغالب هذا طفله، أليس كذلك؟ فقد كانت علاقتكما حميمية في الفترة الأخيرة.» تطقّ فريدة لسانها مرّتين على سقف حلقها، وتقلب عينيها. «وكيف لي إقناعه بأي طريقة أخرى أن هذا طفله؟»

«أوه...»

«لا أعرف أيّ منهما الأب. ستيفانو زوجي وأحبه، والآن سيتعيّن أن أكذب عليه إلى الأبد.» تميل ليليانا إلى الخلف مستندة على عقبيها كأن موجة عارمة باردة ضربتها وتهدّد برميها بعيدا. تنظر إلى تحت، وتبلع ريقها، ثم تبدأ بالكلام، لكنها بالكاد تعرف ما يخرج من فمها. تخبرها أنها تحبها، وتذكّرها بالرباط الذي يجمعهما، وأنهما صديقتان، ثم ترفع رأسها إلى فوق في الوقت المناسب لتراها تقلب عينيها بمصاحبة طقّة واحدة من لسانها. وهذا يعني لا. كانت تردّ عليها. لا، وإنما بدون كلام. لكن أيّ جانب من كلام ليليانا الذي تعترض عليه؟ أم أن رفضها ينطبق على شيء آخر غير الذي قالته ليليانا، أم أنها لم تُحسن قراءة حركتها؟ «صديقتان؟» تردّد وهي تُنزل عينيها من جديد، وتحاول جاهدة تلبيس كلماتها قناعة لا تشعر بها. ثم تقول، «لا».

«عفواً؟» لا بد أنها لم تسمعها جيّدا.

ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟ ثم تفاجؤها صورة المشرف على طاولة القمار داخل صالة مقهى الشرق. بدا لها أنها تشاهد الأوراق السوداء والحمراء تسقط في تتابع، بشكل مكثّف وسريع، وكل ورقة منها بها صورة مختلفة. فريدة هذه التي زوّجها أبوها لستيفانو وقبض مهرها خمسين قطعة فضة. ونُفي جدّها إلى جزيرة إيطالية لن يعود منها. المنفصلة عن موطنها، وعائلتها، وقبيلتها. والتي ترتدي ثياب روزيتا، وتعتقد أن ليليانا صديقتها. والتي أُجبِرت على تناول الكحول، واغتُصبت فوق فراشٍ قذر.

تضع ليليانا يدها على عينيها، لكن المشاهد لا تزال تظهر لها فتحاول طردها لأنّ لا قدرة لها على تحمّلها، والصورُ تلفّ وتنقلب أثناء سقوطها فتراها بزوايا مختلفة. وعندها تتحسس طريقها نحو المقعد الطويل وتجلس فوقه، ثم تضع رأسها بين يديها، مُمرّرة أصابعها فوق جفونها. إنها تشعر بتعب شديد الآن، وأنها مُرهقة ومريضة.

بعد قليل يغادرها الشعور بالدوّار، فتُنزل يديها وتفتح عينيها. كان البخار يندفع من فوّهة سخّان الشاي: «هل نشرب الشاي، سيبردُ قريبا،» تقول ليليانا، لكنها تتساءل عن ماذا كان حديثهما منذ قليل؟ نعم عن الطفل. وتضيف، «طبعا لا بد أن يكون طفل ستيفانو.» لكن فريدة لم تستجب لتعليقها.

لم تكن ليليانا تصبّ الشاي من قبل، لأن لفريدة طريقة خاصة في القيام بذلك، حيث ترفع السخّان، وتصبّ من علٍ حتى تتشكّل الرغوة. لكنها الآن جاثية على ركبتيها عند السفرة ترفع السخان بيد، وتمسك كأس الشاي بأخرى. «هي إذنْ أخبار جيدة.» تضيف ليليانا ناظرة إليها وهي تحرّك رأسها بطريقة يصعب تفسير معناها، فقد تعني نعم، أو لا، أو أي

شيء مختلف تماما. لكنها الآن ترفع زاويتي فمها فيما يشبه ابتسامة معلّقة. هذه الفتاة ستنجب مولودا وسيكون ابن أخٍ أو ابنة أخ لها. «أنت حبلى يا فريدة!» تردّد ثانية في عجب. صوت المؤذن الذي انطلق فجأة يدعو الناس إلى صلاة الظهر، يكاد يطغى على كلمات فريدة الهادئة، «وأنتِ كذلك.»

«عفوا؟» تردّ بصوت أعلى من الضوضاء المحيطة بهما. هي الآن في وضع الجلوس كأنها تستجدي، والسخّان مرفوع كأنها على وشك صبّ ماء مقدّس، ثم تشعر فجأة بتقلّص في بطنها فتسري رعدة في بدنها. بينما أخذ الشاي يسيل من السخان.

تكرّر فريدة ما قالت، فتعاودها الرعدة من جديد، كأنها رُكلت في بطنها. يهتز السخان وكأس الشاي، ويسقطان منها، فتنتشر شظايا الزجاج فوق الأرض، وعندها تتمايل وتشهق طلبا للنفَس، ثم تضع يديها فوق أذنيها لمنع طنين المؤذّن، فلا يمكن التفكير في وسط هذا الصخب المحيط بها. «لا، غير صحيح،» وتهز رأسها من جانب لآخر. لكن فريدة تكرّر لها جملتها الأخيرة.

يختفي صوت المؤذن، والصوت الوحيد في الفناء الآن هي الآهات والزفرات التي تطلقها ليليانا. «أوه، لا، لا، لا،» فهي ليست فتاة سيئة، ولا يمكن أن تكون حبلى. «لا يمكن، أنا لستُ حبلى،» لن يحبّها أحدّ بعد الآن، وسيتبرأ منها ستيفانو. لن يمكنها أن تعيش حياة طبيعية بعد الآن. «لا يمكن، لا أستطيع،» سيعلم أخوها الحبيب بما كانت تفعل. لكن هذا ليس عدلا. ألم تُعاقَب بما يكفي؟ «لقد عوقبتُ بما يكفي،» تقول بصوت عال، ولن تستطيع أبدا العودة إلى إيطاليا.

تهزّ رأسها في أسف، وهي تقعي بين الشظايا والبلل من الشاي المنسكب، وتئنّ مثل عرّافٍ أصابه مسّ. ثم تمسك ببطنها عندما عاودها تشنجٌ آخر. وضعت يدا فوق فمها، لكن لا يمكنها منع ذلك، فتدور إلى جانبٍ، بينما يسيلُ من فمها خيطٌ رفيع من سائل أبيض، يبدو مثل حليبٍ ملوّث، أخذ يتسلل بين أصابعها، وينضاف إلى الشاي المسكوب ووريقات النعناع الرطبة، وشظايا الزجاج. «لا،» تصيح وهي تمسح فمها بظاهر كفّها، «لا يمكن، هذا غير ممكن،» لكنها لا تعني أن هذا مستحيل، هي تتذكّر بوضوح كيف نالها أوغو مثل حيوان هائج في تلك الزاوية الرطبة في المقهى، وأنه لم يضع الواقي المصنوع من جلد الحيوان الذي يستخدمه دائما. إنها تعرفُ يقينا أن أحدا لن يقبل بها الآن، بعد أن لحقها التلوّث، وأنّ مجيء طفلٍ سيقضي عليها بالكامل. ستُصبح منبوذة، وفي ذلك نهايتها. لكن هذا لا يمكن أن يحدث لها، فقد كفّرت عن سيّئاتها. ثم تهمس لفريدة، «لا مشكلة لديك، فلديك ستيفانو، لكن لا يمكنني إنجاب طفل، لا أستطيع.» ثم تبدأ في الزحف فوق ركبتيها، تسحب جسمها في ثوبها المبلل وتحيط ساقي فريدة بذراعيها، «ساعديني.» تنحني فريدة لتمسك بذراعيها، وترفعها كي تقف.

ينطلق من فم ليليانا أنينٌ ونشيج لا قدرة لها على منعه، بينما تصبح أنفاسها قصيرة وسريعة، وتقف هناك مترنحة. لكن عيني فريدة تطلقان شررا وهي تنتصب مثل ملاكٍ منتقم، فليليانا تقف أمامها مكشوفة، تُظهر لها كل عيوبها وخطاياها، كل شائبة فيها وكل عوار، وكل سفالةٍ أيضا. إنها تذوي أمامها تحت هذا الضوء الساطع.

«ولماذا يجب أن أساعدك؟»

تحاول تذكّر الكلمات التي قالتها لها فريدة ذات مرة حول تحالفهما معا، بأن تكونا صديقتين في هذا العالم القاسي، لكن هذا يتطلب منها مجهودا عظيما. فجانبٌ منها لا يريد إلاّ أنْ يختفي، أن يُبتلعَ فلا يعود له أثر. ثم بمجهود شاق ترفع ذراعها الثقيلة وتمدها لتضغط سبابتها على جبين فريدة، «من أجلك ومن أجلي...» تبدأ في القول، لكن قبل أن يلمس إصبعها جبينها، تدفع فريدة يدها بعيدا عنها، فتترنّح ليليانا.

«الأصدقاء يحبّون، والأعداء يخونون،» تقول فريدة.

تشعر ليليانا بأن الصّدع الذي بداخلها يأخذ في الاتساع، فتنهار مجدّدا فوق ركبتيها. كل شيء من حولها يتحطم، والبلل يغمرها، كأن الموجة العارمة التي كادت تطيح بها قد نقعتها بالكامل. من مكان ما فوقها، وبعيدا من داخل حصنِها المنيع، تبدأ فريدة في حديث ما، إنها الآن تشرحُ شيئا ما. لكن كلماتها كانت مجرّد طنين بلا معنى في ذهن ليليانا التي تسند رأسها إلى ساقي فريدة لتوازن نفسها، بينما تبدأ في إخراج الفراشية من الحقيبة المعلقة فوق كتفها. تواجه صعوبة في إخراجها من هذه الزاوية، لكن عندما تتمكن من ذلك، تبعد نفسها عن ساقيها وكأنهما شاطئ رمتها الأمواج فوقه، وأخذت تلف رداءها حولها، وهي تنهار أرضا.

أختكَ مريضة

مادة: تذكرة بتاريخ ديسمبر 1930 لرحلة الباخرة من طرابلس إلى بنغازي.

وقف ستيفانو فوق الرصيف البحري آملا أن تُخفي الابتسامةُ المرسومة على وجهه ذلك الخليط من مشاعر الانزعاج والراحة وتوقّعِ السوء، وتخفي كذلك كل الهواجس التي تسكن قلبه. لقد مضى عام ونصف منذ أن كان هنا في ميناء طرابلس للترحيب بأخته الصغيرة في ليبيا، وتذكّر حلاوتها، ومرحها الطفولي في ذلك اليوم الأول. لكن الآن، منظر وجهها الصغير المنتفخ من أثر البكاء، مثّل له تضادّا محزنا.

لم تكن ليليانا على طبيعتها منذ أسابيع، فقد أصبحت قلقة، تداوم على البقاء في غرفتها، وغلقِ الباب على نفسها. لكن في البداية لم يُعر الأمر اهتماما، لأنّ لديه ما يكفيه من المشاكل في العمل. فقد بدأ يظهر له أنّ السباق لن يُجرى في العام القادم، بل هناك تخوّفٌ على مستقبل الحلبة نفسها، وبالتالي مقدرته على كسب معيشته. كذلك فقد جعل حَملُ فريدة هذه المشاغل تضغط عليه أكثر من المعتاد. لقد ظنّ في البداية أن ما يُزعج ليليانا ليس إلاّ شيئا عابرا، لكن تطلبت جدية الأمر من السنيور ياكوف أن يغلق متجره ذات يوم ويرافقها حتى باب البيت، وهذا أمرٌ لم يحدث من قبل، ما جعله يعرف جدّية الموضوع، قال ياكوف، «أختك مريضة؛ عليك العناية بها.»

فريدة هي من خرجت بهذا الحل الغريب. ستسافر مع ليليانا إلى برقة، وتسكنان بيت ضيافةٍ صغير تعرفه يقع على الساحل، حيث سيعمل الهدوء وهواء البحر على إعادة ليليانا إلى سابق عهدها. أخبرته ألاّ ينشغل بالتكاليف لأنهما ستستخدمان مدّخرات ليليانا، ثم عند استقرارهما في بنغازي ستطلب من أحد أقاربها الذي يُدير مخبزا هناك، أن يرافقها إلى موطن ذويها لتضع طفلها عندهم، قائلة إنه من الضروري زيارة عائلتها التي لم ترها طوال عامين. ويجب أن تكون في موطنها لوضع الطفل، وبهذا تسير على هديْ التقاليد المتّبعة، حيث سترحّب العائلة بالمولود الجديد، وبعدها ستعود إلى حياتهم المعتادة في طرابلس بصحبة ليليانا المعافاة. عمل حديث فريدة على تسكين كافة هواجسه واعتراضاته حول سفر الأطفال، والشمس الحارقة، والأراضي الوعرة، وقضايا النظافة، وانعدام سُبل الحضارة في تلك المنطقة. «إنها حيث عشتُ، وهي الحضارة التي تربّيت في كنفها.»

سأل ليليانا، «أهذا ما تريدين؟» فردّت «نعم،» بنبرتها الواهنة الجديدة.

«أنتِ واثقة أنك لا تفضّلين العودة إلى إيطاليا؟» وعندها شرعت في البكاء دون سيطرة.

هذا يعني أنهما ستغيبان لعدة أشهر، وهو ما يتيحُ له الفرصة للعمل كل الساعات الممكنة، وسينغمس بالكامل في عمله، أملا في إنقاذ وظيفته.

أطلق ياكوف على حالة ليليانا، مرض البكاء، وكانت زوجته قد عانت منه في وقت مبكر من العام، وعندما سأله ستيفانو عن سبب هذا المرض، كان ردّه، «إنه الغمّ والكآبة،» لكن ستيفانو لم يعرف السبب الذي جعل أخته تغتمّ هكذا، وكره أن يراها شاردة الذهن ومنعزلة هكذا. فسأل ياكوف، «وما هو علاجها؟» وردّ عليه: «الراحة، والمعاملة الحسنة، والزمن.»

حديقة فوق الربوة

مادة: زهرة جاكرندة مكتملة النموّ

أثناء سيرها مبتعدة عن المستشفى تعاودها، وتدور في رأسها ذكريات عن طرابلس، وهذا الخليط المتناقض من التعب والحيوية اللتين تشعر بهما معا. إنها متعبةٌ ومع ذلك تنبض بالحيوية، ينتابها ضعفٌ يجعلها على وشك الانهيار، ومع ذلك تطغى عليها عواطف جيّاشة، ومخاوف متجددة طالما راودتها من زمن ماضٍ. فهناك صدىً لكل تلك الأحداث يتسلل إلى جسمها، ويرسل صدمات كهربائية إلى قلبها، ويتسرّب إلى شراييتها، فيضغط على جرحها الذي يؤلمها.

إذن، فقد توفي ستيفانو، وحدث ذلك منذ وقت طويل. نعم لقد توفي أخوها الحبيب. خطواتها تعمل مثل نقرٍ على طبل، وتَبدّل الكلماتِ والصور في ذهنها بمثابة توقّف لحظيّ للنقر، بينما ينساب إليها الوعي فيهزها هزّا، ويُحدِث انهيارات بداخلها. بالطبع توفّي أخوها، فقط موته هو ما يبرّر الربط بين الأحداث المختلفة. كانت تعرف أن ذلك حدث، وأنها تيقّنت منه منذ وقت طويل. لقد عرفت ذلك حتى قبل أن تبلغها سعيدة به، ومع ذلك كانت بحاجة إلى تأكيدٍ ما. الآن تشقّ طريقها صاعدة الطريق المائلة، متوقفة بين فينة وأخرى لالتقاط الأنفاس، بينما تتهاوى وتتفكك كل تلك القصص التي كانت تُخبر نفسها بها. أو التي اخترعتها لإخفاء ما تعرفُ أنها حقيقة، وكذلك يغادرها اليقين أو شبه اليقين، وكل ما حملته بداخلها من مسلّمات متناقضة.

تصل إلى بوّابة مفتوحة في الجدار الأبيض العالي الذي يحدّ الرصيف، فتعرف أنها المدخل إلى الحديقة، وتمرّ خلالها. ثم تتجوّل في ممرات مغطاة بالحصا إلى أن ترى مقعدا خاليا تجلس فيه.

أجرت كل حساباتها في رأسها أثناء حديث الفتاة إليها، كم هي رائعةٌ ابتسامتها، ولاحظت مقدرتها على إظهار رقّتها وعطفها، على الرغم من كل الحزن الذي يلفّها. لقد أخبرتها حساباتها أن ستيفانو لا بد وأن توفّي في نهاية عام 1938 أي بعد وقت قليل من انتقالها إلى إنكلترا، ومباشرة بعد وصول الطرد الذي أرسلته له من مونزا. أي أنه توفّي قبل استلام الرسالة التي كتبت فيها عنوانها في لندن. كذلك، قد تكون فريدة غادرت طرابلس قبل وصول الرسالة، لأنها لا يمكن أن تبقى هناك من دونه. ليس لأنّ فريدة لا يمكنها قراءة الرسالة، فالأولاد يمكن أن يقوموا بذلك. ويبدو أنهم اضطرّوا لمغادرة البيت فلم يعد بإمكانهم دفع الإيجار.

عندما قرأت عن موت أوغو، فوجئت بأنه ظلّ على قيد الحياة كل تلك السنين، أكثر من تفاجؤها بموته الآن. لكن وفاة ستيفانو لم تكن مفاجأة لها، بل كانت صدمة.

في كل تصوراتها عن مصير العائلة في ليبيا، ظلت تنظر إليهم كمجموعة واحدة، فإمّا أنهم أحياء، لكن على نحوٍ ما انقطعت الصلة بهم، أو أنهم ماتوا جميعا. ولم تسمح لتصوراتها بأيّ حالة وسطية. لم تسمح بالتفكير في موتِ شخصٍ واحد منهم، وبالأخص من يعولهم، رجل البيت الإيطالي، ومحور الدولاب. ظلت تتصوّر الأسوأ فقط، ولم تشأ التفكير في احتمال وسطيّ. فقد هيمنت على تفكيرها محاضرات ستيفانو المتقطعة لها عن شرور الفاشية، وتمسّكت بتلك الأفكار طوال السنين، لأنها وجدتها أسهل من مواجهة حقيقة ما حدث.

ظنّت أنها غادرت المستشفى بحثا عن الوحدة، لتُواجه بقضايا شائكة. لكن ما يخطر ببالها هذه اللحظة هو قولُ فريدة لها إنها حبلى. وللمرة الأولى تقتنع أنها بتخلّيها عن نفسها، فقد تخلّت عن فريدة أيضا. لقد غاب ذلك عنها بالكامل، فلم تشكرها قط على لملمة حطامها عندما كانت في قمة بؤسها، ولأنها عملت على رعايتها على الرغم من أنها لا تستحق ذلك. وكذلك لم تعتذر لها بشكل ملائم قط.

سواء بقصدٍ أو بدونه، فقد خانت ليليانا أفضل صديقةٍ لها، ثم فرّت مبتعدة. وكان يجب أن تكون مواجهة تلك الحقيقة البائسة أمرا لا يطاق، لكن ذلك لم يحدث، وإنما شعرت بالراحة لقرارها ذاك.

لكن هل أنجبت هي طفلا؟ أم أنها لم تنجب؟ إنها لا تعرف. وإن رُزقت بطفل بالفعل، فهل قتلته؟ بالطبع لا. فما كانت فريدة لتسمح لها بذلك. هل مات الطفل؟ لكن عندما تسمح لنفسها بالاسترسال في هذا التفكير، وأن تربط بوعيٍ هذه الفكرة بالحزن المريع الذي رافقها مثل جرحٍ لم يندمل طوال تلك الأعوام، فلا تشعر بأن الطفل قد مات في الواقع، تلك الفتاة صاحبة العينين الزرقاوين، بل هي التي ماتت. ليليانا التي ماتت.

لكنها في الواقع لم تمت. نعم آلان مات، وأوغو مات، وستيفانو مات، وأبرامو الذي لم تعرفه مات أيضا. لكن هي، ليليانا جونز كاتانيو، لا تزال حيّة وجالسة الآن في وسط حديقة مشمسة في روما. فريدة حيّة أيضا، وكذلك نادية، والأهم من ذلك كله في هذه اللحظة، هي سعيدة.

حان الوقت لأن تقرّر بصدق وأمانة ما الذي يمكنها تقديمه. إنها في التاسعة والستين من عمرها، لكنها تعاني من أمراض قليلة وبسيطة . طنين الأذن، ووخزات الروماتزم في وركها الأيسر، ونوبات الصداع أحيانا. وهي تملك أيضا بيتا صغيرا في لندن، ولها معاشٌ ضمانيّ. هي أرملةٌ وليس لها من تنفق عليهم، كما أنها حرّة بشكل لا يصدّق.

لا يزال بإمكانها العودة، أن تأخذ حقيبة سفرها، وتقول أعذارها، وتعود إلى حياتها السابقة البسيطة في لندن.

لكنها لن تفعل ذلك.

فقد توفي ابن فريدة للتوّ، ولن تتخلى عنها للمرة الثانية مهما كلف الأمر. وتفكر أن هذا القرار قد يتطلب بقاءها في روما ورعاية سعيدة، وكذلك الرجل الملقى في السرير.

تنهض واقفة، وتنزل أسفل الربوة نحو المستشفى حيث تنتظرُ سعيدة. ليليانا بحاجة لأن تقول آسفة، وأن تقول شكرا، هذا هو الأمر بكل بساطة.

سلوى

مادة: خصلتان سوداوان من شعر طفل حديث الولاة، ملفوفتان في قطعة قماش.

تغادران بنغازي في ظلمة ما قبل الفجر، وقريبُ فريدة هو من يقودهم إلى مكانٍ على أطراف المدينة حيث تنتظرهم قافلة من الجمال. كان قد أحضر معه خبز التنّور الساخن من مخبزه. وتسير المرأتان خلفه، ملفوفتين في فراشيتهما، وهو يحمل حقائبهما.

ستسافران داخل خيمة صغيرة تسمى الكرمود، مثبتة فوق الظهر، وخلف سنام البعير الذي يجثو في التراب، فتصعدان إليه. كل واحدة على جانب، وهناك خشبة مسطّحة للجلوس تعلوها وسادة. الآن تنزعان الغطاء من فوق رأسيهما، وتتنفسان بحرّية أكثر داخل الكرمود بلون قماشه البني والأصفر، ومن شقٍّ فيه يتسلل إلى الداخل شعاعٌ ذهبي فيسقط فوق وجه فريدة. وأثناء ذلك تشبكان أيديهما.

يمرّون بمنطقة سلوق وفيها تجمّعٌ كبير من البيوت القماشية، والمكان محاط بأسلاك شائكة، حيث يرون أطفالا مهلهلي الثياب، بعيونٍ مصابة يغطيها القذى، كانوا يلوحون لهم بأيديهم.

ثم يصلون إلى مدينة اجدابيا، التي توجد بها قلعة، ويرون المزيد من الأسلاك الشائكة، وهناك قطعة أرض خالية وهي مكان لسوق عام ينعقد في أيام معينة، لكنها اليوم ساحة لتنفيذ إعدامات، حيث يوجد فيها رجلان يتدليان من حبل المشنقة. يتمّ إخبارهم أن القافلة لن تتمكن من أخذهما أبعد من هذا المكان، فتستقران عدة أسابيع في كوخ حجري صغير ملحقٍ بأحد البيوت على أطراف المدينة، ولم تغادر سلوى المكان فلا يوجد أحدٌ يمكنه أن يرافقهم لمسافة أخرى بينما يستمر الجنود الإيطاليون بالمرور أمامهم في دباباتهم وعرباتهم المدرعة.

الناس هنا لا يتحدثون إلاّ نادرا، وإذا ما فعلوا لا تفهم سلوى من حديثهم شيئا، فعلى الرغم من أنها تعتبر نفسها الآن مخلوقة صحراوية، إلاّ أنها لا تتحدث لغة أهل الصحراء، لأن الكلام هو سطح التفاهم البشري، بينما تتنقّلُ هي تحت السطح حيثما يجرفها التيّار، وربما تعلمت أن تتنفس تحت السطح، أو ربما تعلمت أن تحبس أنفاسها. لكنها تعلّمت أيضا أن تطفو أحيانا إلى السطح، وعندها تجد فريدة هناك تتحدث إليها همسا حتى لا يسمعهما مخلوق، فلا يفضح الحديث وضعهما الراهن.

يلتحق بهم رجلٌ إيطالي يُدعى «رِث» في طريقه إلى الكفرة جنوب الصحراء، سيرافقهما إلى الموقع حيث يقيمُ أهل فريدة، فيبدؤون رحلتهم على إيقاع سرعة الإبل عبر المساحات الجرداء.

عند وصولهم إلى هضبةٍ مرتفعة، تمرّ فوقهم طائرة فَيشاهدونها على خلفية سماء زرقاء، ويرون أنها تُسقط شيئا ما، ثم ترتفع، لكنهم كانوا موجودين في ذَرى ظلّ تلّ رمالٍ ضخم، وتمكنوا من المرور دون أن تكتشفهم الطائرة التي كانت قد أسقطت حمولة يبدو أنها لم تنفجر. لكن سرعان ما يمرّون برجلٍ ملقى على ظهره في الرمال، يداه وقدماه مقيّدة، وبالقرب منه يقبع ضبع وراء صخرة منتظرا الانقضاض على فريسته.

أغلب الأوقات تسافرُ سلوى في فضاءٍ خالٍ من الكلمات، ترى الأشياء لكنها لا تعلّق بشيء، فقد أُبلِغت بالتزام الصمت حتى لا يعرف الجمّال وبقية الرجال في القافلة أنها غريبة عنهم. فلو عرفوا بأمرها لرفضوا اصطحابها معهم. ومع ذلك يناسب هذا الترتيب سلوى، فليس لديها ما تقوله.

كانت حياتها قبل رحلة الصحراء ضبابية، مجزّأة، ومتشظية. كان لها اسمٌ مختلف، وترى أحيانا ومضاتٍ من سيرها عبر ممرات، وأعمدة من ضوء الشمس تسقط من فوق، ومشاهد لكفل حمارٍ ما، وتسمع صوت مؤذنٍ ينادي للصلاة، وأصوات هسيس أمواج البحر وتكسّرها على شاطئ طرابلس. لكن كل ذلك تركته وراءها.

يومُهم الآن يبدأ مبكرا في صقيع الليل وظلمته حيث لا يزال القمر في السماء، والأصابع المصابة بالخدر تتحرك في عجلةٍ لإحكام اللباس داخل خيمة النوم. فهما لا تخلعان ثيابهما بالكامل أبدا، بل تبقيانها لتمنحهما الدفء في برودة ليل الصحراء، لكن قد يُرخين ثيابهما الداخلية قليلا لتمنحهما بعض الراحة وتخفّف الضغط عن بطنيهما المنتفختين. تستلقي ليليانا على ظهرها تحت عدد من الأغطية، وآخر ما تراه قبل أن يغلبها النعاس هي النجوم المعلقة في السماء المظلمة الشاسعة.

في ضوء النجوم، وفي وسط الرمال المغطاة بالصقيع تنهض المرأتان فترتديان الفراشيات والأغطية وتجلسان قرب النار التي يكون الجمّال قد أوقدها. رِث رجلٌ ضخم مفتول العضلات، له عينان صافيتان، يحيط بشخصيته جوّ من الهدوء، وهو ما تفرضه حياة الصحراء. إنه الآن في مهمة من قبل السلطات الإيطالية لنقل إمدادات لأفرادٍ بالقرب من الكفرة. كان يقوم بتحلية القهوة بقطعة سكّر من لوحٍ يحمله دائما في حقيبته الظهريّة. يجلسون قرب بهرة النار الصغيرة، يحتسون القهوة المحلاّة، ويتناولون التمر المعجون، وهو طعامهم الوحيد خلال الرحلة. بعد الانتهاء من الإفطار، يدوس رث فوق النار، ويهيل فوقها الرمال، وعندما تأتي الرياح وتذهب ستمحي آثارهم، كأنهم لم يكونوا هناك أبدا.

يمتطون الإبل من جديد، والمرأتان ملفوفتان بالفراشيات والأغطية، ثم تبدأ الحركة المثابرة إلى الأمام، على شكلٍ اهتزاز وتمايل. الفجر يأتي معه بقليل من الضوء، لكن ليس الدفء، ليس في البداية على الأقل. ثمة شقّ في قماش الكرمود، فتنظر من خلاله، لكن ليس هناك ما يمكن رؤيته، لا شيء يتغيّر في المشهد الصحراوي مع شكل الأرض الشاسع الممتد حتى

خط الأفق، ولولا حركة البعير سيبدو الأمر كما لو أنهم لا يتحركون. مع ارتفاع الشمس في السماء، يختفي الجميدُ الذي يغطي الرمال الرمادية المائلة إلى الخضرة. وهي الآن تنام كثيرا خلال ساعات النهار بالرغم من عدم شعورها بالراحة.

خلال الرحلة هناك امرأتان. الأخرى هي من تقود، بينما سلوى تتبعها، والأخرى هي من تتحدث بينما سلوى صامتة. وأحيانا تنطلق عقيرة رث بالغناء.

عندما تكون الشمس في صعودٍ تشعران بدفئها الشديد، وعندما تبلغ عنان السماء، يصل تركيزها إلى درجة الحرق، فتغطى عليهما الحرارة وهما محبوستان في كرمودهما المغلق، عندها تنزعان ثيابهما الخارجية وتشعران بالهواء الجاف يحرق رئتيهما، فهما تحت رحمة هواء خانق يغمّ الأنفاس.

تمرّ بهم ثلة فرسانٍ سنوسيين يمسكون بمسابحهم في يدٍ، وفي اليد الأخرى يحملون بنادق عتيقة، وأثناء ذلك يحرصُ رث على النظر في الجهة الأخرى، فإن سُئل عنهما، فهو لا يعرفهما.

أثناء المسير هاجمهم القبلي مرتين. وكانت الإبل أوّل ما تشعر بقدومه، فتبدأ في الشّم ونفخ خياشيمها، وعندما يصلهم القبلي يستلقي الجميع أرضا مع إبلهم، ينكمشون داخل ثيابهم، وينتظرون حتى مروره بسلام.

يبدأ الطّلق عند فريدة، فيتركهما رِث في إحدى القرى، مع وعدٍ بالمرور عليهما في طريق عودته للرجوع بهما إن بقيتا على قيد الحياة. ويخبرهما أنه سيعود إليهما بعد شهر أو ستة أسابع.

هما وحيدتان الآن، تمشيان فوق ممرات ترابية منثورة بالمخلفات، وبين أكواخ عتيقة من الحجارة، وبيوتٍ مغبرةٍ مرقعة. تنادي فريدة لكن لا يجيبها أحد، فكل أهل القرية غادروها مع حيواناتهم. عندما يأتيها المخاضُ تقف فريدة وتستدير نحو سلوى واضعة يديها فوق كتفيها تقبض عليهما بقوة، وتتسارع أنفاسها فتحتملُ فريدة بعضا من ثقلها. عندما تغادرها الانقباضات تواصلان السير، وأثناء ذلك تُمسك سلوى بيدها. تصرخ فريدة بكلمات، لكنها لا تلقى جوابا.

لديهما قربةٌ واحدةٌ من الماء، وتعثران في طريقهما على بئر، لكن يتبيّن أنه قد ملئ بالأحجار.

تدخلان إلى إحدى البيوت السود، في وسطه قطعة قماش مرميّة، ونطع من جلد خروف، وفراش من القش. وقفت فريدة في المنتصف تسند رأسها إلى عمود البيت، وأطلقت صرخة، بينما وقفت سلوى خلفها بالقدْر الذي تسمح بطنها المنتفخة بالاقتراب منها. تضع يديها فوق ردفي فريدة التي تصرخ وتئِن متفوّهة بعباراتٍ في لغتها. وعندما تأتيها نوبة طلقٍ جديدة، تستدير وتتكئ على سلوى.

تتناقصُ الفترة بين نوبات الطلق، فتقعى فريدة قرب مدخل البيت حيث يدخل الضوء، أما سلوى فتجثو قبالتها ممسكة بذراعيها، فهي لا تستطيع أن تجلس القرفصاء، لأن جسمها لم يتعوّد ذلك أبداً. ثم تطلق فريدة زفرة قوية وتنقلب عيناها إلى الخلف في رأسها، ثم زفرة أخرى وتدفع الجنين إلى الخارج. كان زلقاً لكن سلوى تتمكن من الإمساك به، وعندها

تترك فريدة نفسها تسقط إلى الخلف فوق قطعة القماش، بينما تضع سلوى الطفل فوق بطنها، لكنها تستمر في الصراخ كأنها على شفير الموت، وهي تدير رأسها من جانب لآخر، وتنهمر الدموع من زوايا عينيها المغلقتين، فتسيل على خدّيها، لتسقط في أذنيها.

تتوجه سلوى إلى باب البيت طالبة النجدة، لكن لا أحد يجيب صراخها. خُذْني. تصيح بأعلى صوتها. خُذْني بدلا منها، لكنها لا تسمع صياحها، فهي لا تعرف إن كانت لا تزال تتحدث نفس لغة ربّها. خذْني، تصيح من جديد، وترفع يديها في دعاءٍ إلى السماء، بينما أشعة الشمس الحارقة تسقط فوق رأسها.

فجأة تشعر كأنها منقوعةٌ في سائل، وأنّ نهراً بداخلها كسر الحواجز وانطلق هادرا. إنها منقوعة الآن من وسطها فما تحت، وماؤها يغمر الرمال.

لقد سمع الربّ دعاءها وسيأخذها بدلا من فريدة. وحينما تزحف عائدة إلى داخل البيت ترى فريدة قد نهضت من مكانها، وتلقم الطفل ثديها.

تفيقُ سلوى على ألمٍ حاد، وكل ضوء الصحراء المبهِر يهاجمها الآن. تشعر بأن كيانها والنواة التي يجب أن تكون متماسكة قد بدأت تتكسّر، فتسحب نفسها فوق ركبتيها وتسند رأسها إلى عمود البيت وتظل متكئة عليه، وعندها تضع فريدة رضيعها على الأرض وتأتي لمساعدتها، ثم تستند سلوى فوق الأرض بأطرافها الأربعة. حينذاك يقبض عليها الألم الذي بلون الدم بين أسنانه، ويبدأ في هزها كأنها دمية من قماش. يهزّها حتى ترتج عظامها، وتشعر ببدنها يتفكّك. «ادفعي،» تقول فريدة، وعندما تبدأ في الدفع تنهارُ آخر قطعة حجر في السدّ، وتستلقي على ظهرها.

تمسك فريدة بالطفلة بين ذراعيها، ملطّخة، ومغطاة بالدم، وجميلة، ثم تعطيها لسلوى التي تتلقفها بين ذراعيها، تضمها إليها، وتشمّ رائحتها الخوخيّة، وملمس الجلد الناعم في مؤخرة عنقها. تقبّلُ قمة رأسها، والدائرة المكتملة ليافوخها. فتفتح الطفلة عينيها الزرقاوين الداكنتين، وتنظران إلى بعضهما. تقبّل خدّها فتُصدرُ الطفلة صوتا خافتا. يا فتاتي الصغيرة، تقول وهي ترفعها، فتستلمها فريدة منها. كانت الدماء تندفع منها، وتتسرب من قطعة القماش تحتها إلى الأرضية الرملية من تحتها. حينذاك تخلع فريدة الإسوارة من معصم سلوى وتراقبها وهي تدسّها حول قدم الطفلة حتى تصل إلى ساقها. حافظي عليها، تقول سلوى، لكن ليس بصوت عالٍ لأنها لا ترى ضرورة لذلك.

تذرف فريدة الدموع وتقول لها، «ابقيْ حيّةً معي،» لكن سلوى عقدت اتفاقا مع الله، وترى أنها لا يمكنها البقاء.

تفيقُ على ألمٍ شديد جديد. وحيث كانت تجلس فريدة، هناك الآن عجوزٌ مسنّة للغاية جاثية أمامها، وكانت قدما سلوى تضغطان على قدمي العجوز التي تمدّ يدها داخل جسد سلوى الممزّق باحثة عن شيء ما. تشدّ وتسحب كأنّها تريد أن تُخرج أحشاءها منها. أثناء شدّها وعندما تتمهّل قليلا، تنبثق المزيد من الدماء، ثم تضع شيئا دمويّا مما أخرجته منها على أرضية البيت، لتعود وتحشر يدها فيها من جديد، بينما تظلّ يدها الأخرى تسندها فوق بطن سلوى.

الألم بالنسبة لسلوى أسودٌ وأرجواني وأكبر مما تطيق، ينبض بداخلها، ويندفع خارجا، بعد أن يفيض من جسمها فيملأ الخيمة بظلمته. أخيرا يسقط رأسها إلى الوراء، ويغشاها نوم بحلاوة الموت.

جاهزة ليوم الغد

مادة: إسوارة فضية، نقش عليها صورة طائر يرفع جناحيه.

جلست سعيدة تطغى عليها حالة ترقّب وهي تنتظر عودة السنيورة جونز. عندما تأتي ستوجه لها سؤالا، وإن عرفت إجابته ستخبرها عن زهرة، وعن الشابتين اللتين ساعدتهما. وستبدأ حكايتها هكذا: منذ زمن بعيد، عندما كانت الدبابات تزمجر في أنحاء برقة...

سعيدة أحبّت سماع هذه الحكاية، وكل الحكايا الأخرى التي كانت فريدة ترويها لهم، وربما لا تزال ترويها عندما تضع أطفال سلوى في فراشهم ليلا.

بعد وفاة ستيفانو قالت فريدة لنادية وأبرامو، إن أمّ نادية الحقيقية هي أخت ستيفانو، وإنها تربّت في كنفها. وهكذا عرفت سعيدة وإخوتها أن فريدة لم تكن جدتهم الحقيقية، لكنهم أحبّوها، ولم تؤثر هذه المعرفة على علاقتهم بها. الشيء الوحيد الذي تملكه نادية من أمها الحقيقية هي إسوارة فضية، أعطتها بدورها لابنتها الكبرى سلوى، التي أعطتها هي أيضا لكبرى بناتها ليلى. وتمنت سعيدة لو كانت الإسوارة معها الآن لتريها للسنيورة جونز.

اعتادت سعيدة وأخواتها القيام بشغبٍ لكي تروي لهم الجدة فريدة الحكاية مرة أخرى، ويطلبن منها إخبارهن عن ذلك الجزء حيث تقوم عجوز الصحراء بالكشف عن الماء الذي كانت تخزّنه. ويسألنها مجددا، أخبرينا عن أشجار النخيل وعن النسور التي تحلق في السماء. أما الجزءُ المفضّل لديهن فهو دائما النهاية. عندما تقول فريدة، «هاتان الفتاتان هما أنا وصديقتي التي أعطتني طفلتها لأرعاها بعد أن وعدتُها بذلك.» ثم تقول، «هل حميتُها ورعيتها؟» وعندها يصيح الأطفال بصوت موحّد، «نعم إنها آمنة، ومطمئنة، وجاهزة ليوم الغد.»

ينفتحُ الباب فترفع سعيدة عينيها قائلة: «سنيورة جونز، هل اسمك ليليانا؟»